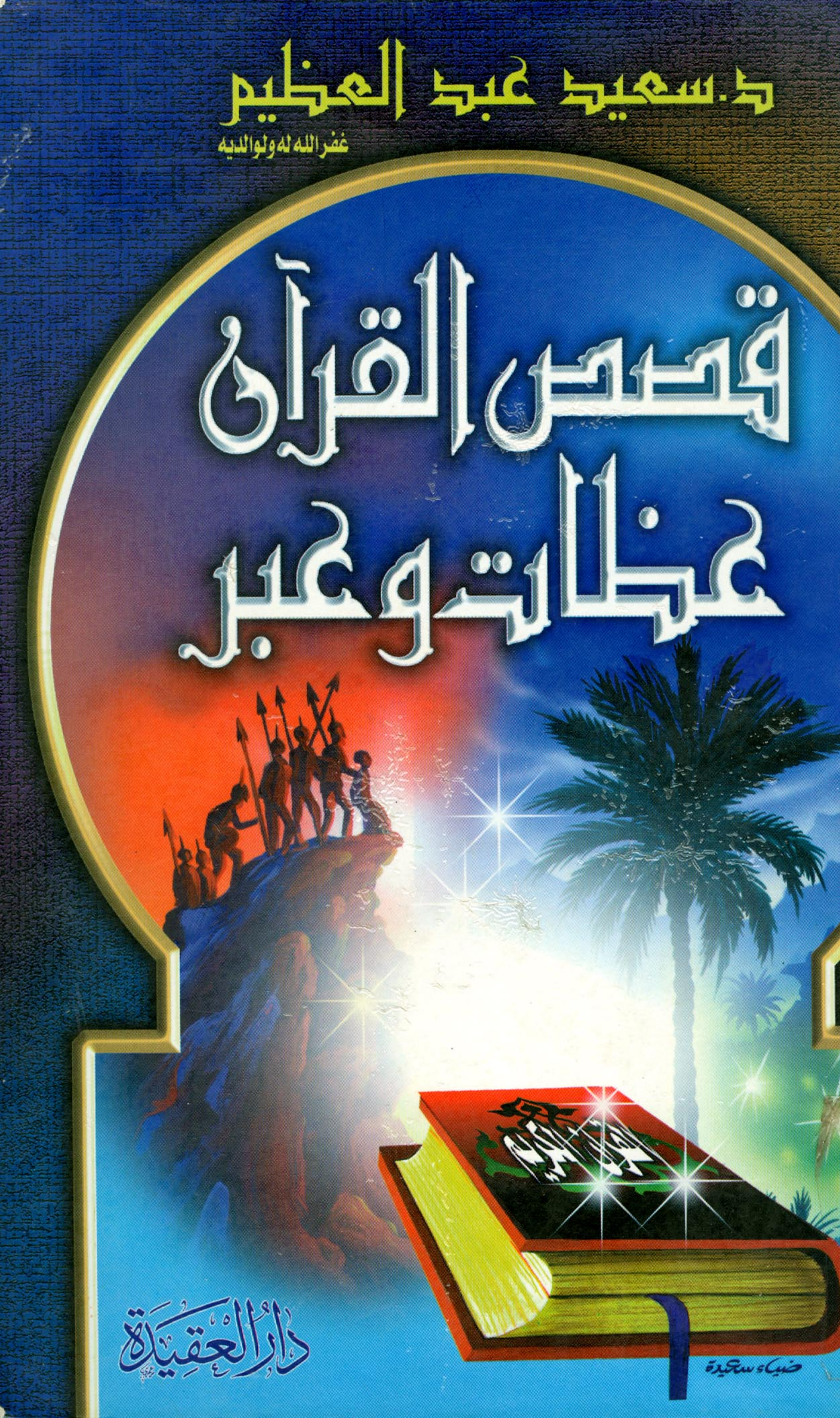


د. سعيد عبد العظيم
غفر الله له ولوالديه
قصص القرآن
عظات وعبر
دار العقيدة
ضياء سعيدة

رقم الإيداع : بدار هيئة الكتاب

٩٨/٧٤١٩

٥ الطبعة الأولى ٥

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

الناشر

دار العقيدة للتراث

الأسكندرية: ١٠١ ش الفتـــح باكـــوس ت: ٥٧٤٧٣٢١

القاهـــرة: ٥ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر ت: ٠١٠٥٠٦٧٦٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار.

ما أعظم أن يحيا الإنسان بإسلامه ولإسلامه ، ويؤثر دينه على الدنيا بمباهجها وزخارفها، سواء كان كبيراً أو صغيراً، رجلاً كان أم امرأة ، وجد فى هذا العصر أو فى غيره من العصور، بحيث تصبح حياته جهاداً فى سبيل الله، وسعياً من أجل إعلاء كلمة الله، ولايشترط فى ذلك أن يُمسك سيفاً يقاتل به، فصبره وثباته، وأقواله وأفعاله، بل حياته ومماته، كلها دالة على الإيمان ويقين وتصديق بوعد الله، وفى ذلك تثبيت للآخرين، ودعوة لهم لإقامة واجب العبودية، وإيثار ماعند الله كما فى قصة أصحاب الكهف، أو هى بمعنى آخر دعوة لإحسان التأسى فى إقامة الحق والسعى طلباً لمرضات الله جل وعلا .

والمجاهد المسلم ـ صغر سنه أو كبر ـ يعلم أنه ليس وحده، وأنه لايواجه عدوه بكثرة عدد أو عتاد، وإنما يواجههم بالإيمان الصادق الذى يحمله، وبما يعلمه من تأييد الله للمجاهدين الصادقين، بما ينزله عليهم من السكينة ورباطة الجأش والطمأنينة وبما يمدهم به من الصبر وقوة التحمل وغير ذلك من الوسائل التى قد لاتتخيلها عقول البشر فأحياناً ينزل الملائكة تقاتل إلى جانبهم كما حدث فى معركة بدر وغيرها، وأحياناً ينصرهم بالريح كما حدث فى يوم الأحزاب، قال

تعالي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[الأحزاب: ٩] .

وقال ﷺ : «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور» متفق عليه.

وأحياناً بما يجريه الله على أيدى بعض المؤمنين من الكرامات كما جرى لأصحاب الكهف وقد وردت قصتهم العجيبة الغريبة فى سورة «سميت سورة الكهف» لما فيها من المعجزة الربانية .

وهذه السورة من السور المكية، وقد اشتملت سورة الكهف على عدة قصص وأمثال بقصد العظة، والاعتبار، وكانت قصة أصحاب الكهف والرقيم هى القصة الأولى فى هذه السورة الكريمة، وهى قصة التضحية بالنفس فى سبيل العقيدة ، وهم الفتية المؤمنون الذين خرجوا من بلادهم فراراً بدينهم ولجئوا إلى غار فى الجبل ثم مكثوا فيه نياماً ثلاثمائة وتسع سنين ثم بعثهم الله بعد تلك المدة الطويلة وهى تبدأ بالآى التاسعة من السورة: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾[الكهف: ٩] ثم تنتهى عند الآية السادسة والعشرين: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾[الكهف: ٢٦].

وهذا أوان الشروع فى المقصود، والله المستعان وعليه التكلان ولاحول ولاقوة إلا بالله .

كتبه

سعيد عبد العظيم

مناسبة القصة

بدأ القرآن هذه القصة باستفهام وبإجمال : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾[الكهف: ٩].

أى أحسبت يامحمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً، أى ليسوا بعجب من آياتنا، بل فى آياتنا ماهو أعجب من خبرهم، فإن سائر آيات الله أعظم من قصتهم، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن إسحاق، فخلق السموات والأرض أعجب من خبرهم ، ومـاأطلع الله عليه نبيه من الغيب أعجب من خبرهم، وشأنه فى الإسراء أعجب .

وقد ذكر ابن إسحاق عن ابن عباس ماخلاصته أن كفار قريش بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود بالمدينة ليسألوهم عن محمد ﷺ ويصفوا له صفته، ومايدعوا إليه فإنهم أهل الكتاب وعندهم نبأ الأنبياء، فلما كلموا اليهود فى ذلك أشاروا على كفار قريش بأن يسألوا النبي ﷺ عن أشياء، قالوا لهم : سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ماكان من أمرهم، فإنهم قد كان لهم حديث عجيب، يعنون أهل الكهف، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ماكان من نبؤه ـ يعنون ذا القرنين ـ، وسلوه عن الروح، فإن أخبركم بذلك فهو نبى مرسل، فاتبعوه وإلا فهو رجل يقول، فاصنعوا مابدا لكم.

وسأل كفار قريش الرسول ﷺ عن الأمور الثلاثة، فقال لهم ﷺ : «**أخبركم غداً**» ولم يستثن ـ لم يقل إن شاء الله ـ فاستلبث الوحى وشق عليه، ثم جاء جبريل عليه السلام بسورة الكهف وفيها معاتبة فى قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾[الكهف: ٢٤].

وقد رجح ابن جرير والكثيرون أن الفتية كانوا على دين عيسي، ومال ابن كثير إلى غير ذلك فقال: «وقد ذُكر أنهم كانوا على دين المسيح عيسى بن مريم فالله أعلم إلى أن قال: والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية، فإنهم إن كانوا على دين النصرانية ما اعتنى أحبار اليهود بخبرهم وأمرهم لمباينتهم لهم».

قصة أصحاب الكهف والرقيم

يقول ابن اسحاق : طغى أهل الإنجيل وكثرت فيهم الخطايا حتى عبدوا الأصنام وذبحوا لها وبقى فيهم من هو على دين المسيح متمسكاً بدينه وبعبادة الله وحده وكان بالروم ملك يقال له دقيانوس، عبد الأصنام وذبح للطواغيت ، وكان يحمل الناس على ذلك، ويقتل من خالفه، فمر بمدينة أصحاب الكهف، وهى مدينة من الروم يقال لها أفسوس، ولما مر دقيانوس بالمدينة اختفى منه أهل الإيمان فكان يبعث أعوانه ليحضروهم، فيخيرهم بين الشرك والقتل إلى أن استدعى الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم هدي، وطلب منهم أن يشركوا، وأن يذبحوا للطواغيت، فامتنعوا، فهددهم بالقتل، فربط الله على قلوبهم، وثبتهم على التوحيد ثم بدا له فأمهلهم ليراجعوا أنفسهم فى مصيرهم .

ثم إن الإمبراطور رحل إلى مدينة أخرى لبعض شأنه، ثم عاد ليطلبهم فلم يجدهم فقد فروا بدينهم من فتنة الشرك واعتزلوا المشركين ، وأووا إلى كهفهم، ومعهم بعض النقود وبعض الطعام، ومعهم رقيمهم (كتابهم المرقوم الذى فيه معتقدهم) وتذكر كتب التفاسير، أنهم دخلوا الكهف ومعهم كلب لهم .

فلما طلبهم الإمبراطور دعوا الله : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾[الكهف: ١٠]. وناموا فكانت النومة التاريخية التى صارت مضرب المثل : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [الكهف: ١١]. وكان باب كهفهم إلى جهة الشمال وذلك من رحمة الله تعالى بهم حتى لايؤذيهم شروق الشمس ولاغروبها، وقلبهم الله على جنوبهم ذات اليمين وذات الشمال لئلا تبلى أجسامهم: ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾[الكهف : ١٨].

وفى ذات الوقت تأكيداً لحياتهم، ثم بعث الله الفتية ليتساءلوا بينهم: كم لبثوا؟ وفى حيرة من أمرهم، قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم .

وفى تسليم لله، قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ

أَحدًا ﴾[الكهف: ١٩]. وحذروه: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾[الكهف: ٢٠]. وخرج المتلطف الحذر، فرأى كل شئ قد تغير فى المدينة، ودفع مامعه من النقود إلى رجل يبيع الطعام فتعجب التاجر لأن هذه العملة كانت على عهد دقيانوس وقد هلك هذا الطاغية المشرك، وبقيت تحمل اسمه، وشاع الخبر فى المدينة وماحولها، واجتمع الناس من هنا وهناك ليروا هذه الآية :

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾[الكهف: ٢١] .

وهكذا تظهر حكمة الله التى خفيت ، وينكشف سر الغيب الذى ادخره الله ليظهر فى حينه، لقد بُعث أهل الكهف، ليعلم الناس أن وعد الله حق وأن الساعة لاريب فيها، وكانوا من قبل بين منكر ومصدق، فجاء العثور على أهل الكهف حجة قاطعة وبرهاناً ساطعاً على البعث والحياة الآخرة .

علاقة القصة ببداية السورة ونهايتها

ابتدأت سورة الكهف بتمجيد الله جل وعلاوتقديسه، والإعتراف له بالعظمة والكبرياء والجلال والكمال فهو سبحانه الذى أنزل على رسوله محمدﷺ القرآن نعمة عليه وعلى سائر الخلق : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴾[الكهف: ١].

ثم وردت الآيات بالنذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين، وبين سبحانه أن الكافرين ـ ومنهم الذين نسبوا لله الولد ـ مالهم بذلك الإفتراء الشنيع شئ من العلم أصلاً: ﴿ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ ﴾[الكهف: ٥]. أى ولا لأسلافهم الذين قلدوهم فتاهوا جميعاً فى بيداء الجهالة والضلالة واستعظمت الآيات تلك المقالة الشنيعة : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾[الكهف: ٥].

ثم توجه الخطاب إلى رسول اللهﷺ الذى كاد يهلك غماً وحزناً على فراق المشركين وتوليهم وإعراضهم عن الإيمان:

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[الكهف: ٦].

وختمت المقدمة بتسلية النبى ﷺ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾[الكهف: ٧-٨] .

أى لاتهتم يامحمد للدنيا وأهلها فإنا إنما جعلنا ذلك امتحاناً واختباراً لأهلها، فمنهم من يتدبر ويؤمن ومنهم من يكفر ثم إن يوم القيامة بين أيديهم، فلا يعظمن عليك كفرهم فإنا سنجازيهم، وقد تقدمنا أقوام، منهم من آمن كأصحاب الكهف الذين وحدوا الله ، وأثروا ماعنده سبحانه واستعلوا على حكام الدنيا الفانية فكانت عاقبة الإحسان جزاؤهم ، وكانت قصتهم دليلاً على البعث والنشور، فارتبطت بذلك قصة أصحاب الكهف ارتباطاً وثيقاً ببداية السورة ولذلك لاعجب أن كانت أول قصة بعد هذه الإفتتاحية والمقدمة ففيها نوع من التسلية والتثبيت لرسول الله ﷺ وصحابته الكرام .

وختمت السورة بقصة يأجوج ومأجوج والنفخ فى الصور، وافتراق الخلائق يوم القيامة، فمن كفر بآيات ربه ولقائه حبط عمله وجزاؤه جهنم، ومن آمن بالله وعمل بما يرضيه كانت لهم جنات الفردوس نزلاً وختمت السورة بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾[الكهف: ١١٠] .

أى قل لهم يامحمد إنما أنا إنسان مثلكم أكرمنى الله بالوحى ـ وقصة أصحاب الكهف التى سألتم عنها من جملة ماأوحاه الله إليّ وقد أُمرت أن أخبركم أن الله واحد أحد لاشريك له، فمن كان يرجو ثواب الله ويخاف عقابه فليخلص له بالعبادة، صغيراً كان أم كبيراً، رجلاً كان أم امرأة، فهذا هو سبيل النجاة .

وها أنت ترى الإرتباط الواضح بين قصة أصحاب الكهف ونهاية هذه السورة الكريمة .

أسئلة كثيرة طُويت إجابتها

متى وُجد هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم ؟ وأين عاشوا؟ وما أسماؤهم؟ وما أسم كلبهم؟ ومالونه؟ وماهى هيئة الكهف وصفة الرقيم ؟ وكم كان سن أصحاب الكهف؟

أسئلة كثيرة طوى عنا القرآن الإجابة عليها عن عمد، لأن معرفة إجابتها لافائدة فيه والسؤال ينبغى أن يترتب عليه عمل للقلب أو الجوارح وإلا كان الإشتغال به اشتغال بما لم يدل عليه دليل شرعي، وقد أغنانا الله عنه، ولم يطلبه منا، لأنه لا هدف من ورائه، ولافائدة ترجى من البحث فيه، وأسماء الأشخاص وتحديد الزمان وتعيين المكان ليست هى الهدف من قصص القرآن، وإنما الهدف إظهار الصراع بين الإيمان والكفر والخير والشر ، وعاقبة كل منهما، الأمر الذى يدعوا العباد إلى الإيمان وفعل الخيرات ويخوفهم من الكفر وفعل المنكرات، ويدعوهم إلى الإستقامة على منهج الله واتباع طريق الأنبياء والمرسلين وتلمح ذلك من قوله تعالي: ﴿ **إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا** ﴾[الكهف: ١٤-١٥].

ثم كان الفرار بدينهم واللجوء إلى الكهف :﴿ **إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا** ﴾[الكهف : ٢٠].

والقرآن الكريم لم يسم الذى حاج إبراهيم فى ربه، والذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها، ولم يسم ابنى آدم ـ القاتل والمقتول ـ ولم يسم ابن نوح ولاأبناء يعقوب، ولاملك مصر ولا امرأة نوح ولوط ولا امرأة فرعون .

وهكذا نجد هذه السمة مطردة فى قصص القرآن، إن أصحاب القصص القرآنى ناس من خلق الله كسبوا خيراً وطاعة وبراً أو اجترحوا إثماً وفسوقاً وعصياناً، وتفصيل ذلك وبيان عواقبه عبرة لأولى الألباب، ماذا كان جزاء الموحدين المؤمنين الصابرين وكيف كان عاقبة الظالمين والكافرين ؟ هذا أهم مايعنى به القصص القرآنى.

هل القصة بطولة يهودية
أم بطولة نصرانية؟

الحق حق مهما كان فاعله، والباطل باطل مهما كان قائله، والميزان هو شرع الله وهذا من أعظم غايات دراسة التاريخ وثمراته، وهؤلاء الفتية سواء كانوا هوداً أو نصاري، وُجدوا قبل ذلك أو بعد ذلك، هنا أو هناك، فكل هذا لايقدم ولايؤخر شيئاً طالما أن الدرس مستفاد .

والمسلمون من أتباع موسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وغيرهم من الأنبياء والمرسلين صورهم متكررة عبر العصور وكر الدهور:

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾[آل عمران : ١٩]، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[آل عمران: ٨٥]

وقال تعالي: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[البقرة: ١٣٢] .

ونحن نؤمن بجميع الأنبياء والمرسلين وبالكتب المنزلة عليهم قبل التحريف والتغيير ونرد على اليهود والنصارى تغييرهم وتبديلهم وعدم إيمانهم :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[التوبة: ٣٠-٣١] .

فهل انتفع اليهود والنصارى بقصة أصحاب الكهف حين قالوا: ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾[الكهف: ١٤-١٥] .

وكان أصحاب الكهف كما وصفهم ربنا جل وعلا: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[الكهف: ١٣]. فلا يصح لهم بعد ذلك أن يصنعوا من القصة بطولة يهودية أو نصرانية، والنبيﷺ يقول: «**والذى نفس محمد بيده لايسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم لايؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»(١).

الفرار بالدين سنة ماضية

قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾[الكهف: ١٠] الآية، وهى صريحة فى الفرار بالدين وهجرة الأهل والبنين والقرابات والأصدقاء والأوطان والأموال خوف الفتنة ومايلقاه الإنسان من المحنة، حتى وإن اضطر الإنسان إلى سكن الجبال ودخول الغيران والعزلة عن الخلق، إنفراداً بالخالق وفراراً من الظالم فهذه سنة الأنبياء صلوات الله عليهم والأولياء، وقد فضل رسول اللهﷺ العزلة، وفضلها جماعة العلماء لاسيما عند ظهور الفتن وفساد الناس، وقد نص الله تعالى عليها فى كتابه فقال: ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾[الكهف :١٦] .

والإعتزال عن الناس قد يكون فى الجبال والشِّعاب أو فى السواحل والرباط أو فى البيوت، وقد جعلت طائفة من العلماء العزلة اعتزال الشر وأهله بقلبك وعملك إن كنت بين أظهرهم.

وقال ابن المبارك فى تفسير العزلة : أن تكون مع القوم فإذا خاضوا فى ذكر الله فخض معهم، وإن خاضوا فى غير ذلك فاسكت .

وروى البغوى عن ابن عمر عن النبىﷺ قال : «**المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذى لايخالطهم ولايصبر على أذاهم**».

وقال عقبة بن عامر لرسول اللهﷺ : «**ما النجاة يارسول الله**»؟ فقال: «**ياعقبة أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابْك على خطيئتك**» .

(١) رواه مسلم.

وقال ﷺ : **«يأتى على الناس زمان خير مال الرجل المسلم الغنم يتبع بها شغف الجبال ومواقع القطر (المطر) يفر بدينه من الفتن»**[(١)] .

وذكر على بن سعد عن عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال : **«يأتى على الناس زمان لايسلم لذى دين دينه إلا من فر بدينه من شاهق إلى شاهق أو حجْر إلى حجْر فإذا كان ذلك لم تنل المعيشة إلا بمعصية الله فإذا كان ذلك حلتَ الغُرْبة»** قالوا يارسول الله: كيف تحل الغربة وأنت تأمرنا بالتزوج ؟ قال : **«إذا كان ذلك كان فساد الرجل على يدى أبويه فإن لم يكن له أبوان كان هلاكه على يدى زوجته، فإن لم تكن له زوجة كان هلاكه على يدى ولده، فإن لم يكن له ولد كان هلاكه على يدى القرابات والجيران، قالوا : وكيف ذلك يارسول الله ؟ قال يعيرونه بضيق المعيشة ويكلفونه مالا يُطيق فعند ذلك يورد نفسه الموارد التى يهلك فيها»** .

هجرة وهجرة

لقد خرج أصحاب الكهف من الدنيا على رحابتها إلى كهف مظلم فراراً بدينهم واعتزالاً للشر وأهله وطلباً للسلامة فكانت هجرتهم محمودة ومشروعة وكذلك فعل الصحابة رضوان الله عليهم فقد هاجروا من مكة إلى الحبشة مرتين ثم هاجروا إلى المدنية تاركين أوطانهم وأرضهم وديارهم وأهاليهم وأولادهم وقراباتهم وإخوانهم رجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين.

وأحوال الناس فى هذا الباب تختلف، فرب رجل تكون له قوة على سكنى الكهوف والغيران فى الجبال، وهذ أرفع الأحوال لأنها الحالة التى اختارها الله لنبيه ﷺ فى بداية أمره، ونص عليها فى كتابه مخبراً عن الفتية فقال : ﴿ **وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ** ﴾[الكهف: ١٦] .

---

(١) رواه البخاري.

ورب رجل تكون العزلة له فى بيته أخف عليه وأسهل، وقد اعتزل رجال من أهل بدر فلزموا بيوتهم بعد قتل عثمان فلم يخرجوا إلا على قبورهم، ورب رجل متوسط بينهما فيكون له من القوة مايصبر بها على مخالطة الناس وأذاهم، فهو معهم فى الظاهر ومخالف لهم فى الباطن، كما بيَّن القرطبى ـ رحمه الله ـ .

وروى عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**يَعْجَبُ ربُك من راعى غنم فى رأس شظية الجبل يؤذن بالصلاة ويصلى فيقول الله عزوجل : انظروا إلى عبدى يؤذن ويقيم الصلاة يخاف مني، قد غفرت لعبدى وأدخلته الجنة**»[1]

والحاصل أن هجرة الموحدين المضطهدين بدينهم فى كل زمان ومكان ليس هروباً ولانكوص وهزيمة وإنما هو تربص بأمر الله حتى يأتى أمر الله . وقد خرج النبي ﷺ فاراً بدينه بعد أن تمالأ المشركون على قتله وجلس فى غار ثور ﷺ هو وأبو بكر قال تعالي: ﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾[التوبة: ٤٠] .

الخروج من الواقع السيئ

الأخذ بالأسباب للخروج من الواقع السيئ مطلوب مشروع ولايتنافى ذلك مع التوكل على الله، فإن النبي ﷺ فى هجرته من مكة إلى المدينة، أعد الراحلتين وترك علياً ـ رضى الله عنه ـ مكانه وسلك الطريق الجنوبى للتغرير بالمشركين واستأجر ماهراً خبيراً يدله على الطريق، وكانت أسماء ـ رضى الله عنها ـ تأتيهما بالطعام ودخل غار ثور . . . فعل ذلك وهو النبي ﷺ المؤيد من ربه فقد هاجر نبى الله إبراهيم عليه السلام وقال : ﴿ **إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي** ﴾[العنكبوت: ٢٦] .

وخرج نبى الله موسى من أرض مصر إلى مدين خائفاً يترقب وذلك بعد قتله للرجل الذى هو من شيعة فرعون وهاجر الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كما بينا ودخل منهم البعض فى جوار المشركين، وامتنع عمر ـ رضى الله عنه ـ من دخول الشام عام الطاعون، فاعترضه أبوعبيدة ـ رضى الله عنه ـ وقال له : ياعمر أفراراً

---

(١) أخرجه النسائي.

من قدر الله، فقال له : نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، وعموماً فعدم الأخذ بالأسباب قدح فى التشريع والإعتقاد فى الأسباب قدح فى التوحيد ، ولذلك قالوا: ليكن عملك هنا ونظرك فى السماء، وقد فسر البعض التوكل بأنه إغلاق الباب وإطفاء السراج .

وقد روى فى كتب التفسير أن أصحاب الكهف خرجوا من يوم عيد يلعبون بالصولجان والكرة، وهم يدحرجونها إلى نحو طريقهم لئلا يشعر الناس بهم، وركبوا فى جملة الناس حتى خلصوا بذلك ودخلوا الكهف .

بين غار وغار

لم يكن كهف أصحاب الرقيم إلا غار فى الجبل، وقدكان النبي ﷺ قبل بعثته يدخل غار حراء، يتحنث ويتعبد فيه الليالى ذوات العدد، ثم يعود إلى أم المؤمنين خديجة ـ رضى الله عنها ـ فتزوده لمثلها حتى فجاءه الوحى ـ وهو فى الغار ـ وأتاه جبريل فقال له إقرأ ـ كما ثبت فى الصحيح ـ ولكن لم يثبت أن النبي ﷺ صعد إلى هذا الغار بعد بعثته للتعبد فيه، بل شرع الاعتكاف فى المساجد.

وبالتالى فلا حجة للصوفية فى تعبدهم بالخرائب وترك المساجد، بزعم أن النبي ﷺ كان يتعبد فى غار حراء، فقد كان ذلك قبل البعثة، ولايشرع الصعود إلى غار حراء للتبرك به وليس هو من مناسك الحج أو العمرة ، اذ لو كان سنة لفعله صحابة النبي ﷺ فهم عن علم وقفوا وببصر نافذ كفوا ولوكان خيراً لسبقونا إليه.

وقد ذكر أن النبي ﷺ دخل هو وأبو بكر ـ رضى الله عنه ـ غار ثور للاختفاء عن أعين المشركين أثناء هجرته الشريفة ، ومنه واصل المسيرة إلى المدينة .

بين إفراط وتفريط

رأى بعض الملاحدة والماديين أن تعمير الدنيا لايتم إلا بالكفر بخالق الأرض والسموات وأنه لاسبيل للتطور والتقدم والتحضر ـ بزعمهم ـ إلا بفصل الدين عن الدولة وأطلق مقولتهم :«دع مالقيصر لقيصر ومالله لله» وتعلقت قلوب الغرب والشرق بالأسباب فى جلب النفع ودفع الضر مع الكفر بخالق الأسباب.

وعلى العكس والنقيض، فقد رأى بعض المنتسبين للإسلام، أن حياة الإيمان وإظهار الإسلام لايتم إلا بدخول الخرائب وترك الأخذ بالأسباب ، فكان الناس بذلك بين إفراط وتفريط وغلو وجفو وإسراف وتقصير، وإلا فما المانع من إقامة حضارة على منهاج النبوة، وتعمير الدنيا بطاعة الله، وقد اتفق العلماء على أن الخلافة موضوعة لإقامة الدين وسياسة الدنيا به.

قال تعالي: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة : ٣٠].

والصناعة والزراعة والهندسة والطب . . . كلها من فروض الكفايات التى يُتقرب لله بإقامتها وفى الحديث : «إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لاتقوم حتى يغرسها فليغرسها فإن له بذلك أجر . . .» فلا تعارض بين حياة الإيمان والتطور والتقدم والحضارة الحقيقية هى التى تقوم على أساس العبودية لله جل وعلا .

وفى قصة أصحاب الكهف دلالة واضحة على الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله، فهم فروا بدينهم ودخلوا الغار وأخذوا معهم بعض المال وأوفدوا أحدهم لشراء طعام وتضرعوا إلى الله عزوجل وأنابوا إليه .

أنتم مثل أصحاب الكهف !!!

قصة أصحاب الكهف أصبحت مثلاً سائراً يطلق أحياناً على محمل التنقص، حين يقولون أنتم مثل أصحاب الكهف !!! ويقصدون بذلك جمودنا وتأخرنا وطول نومنا فى عصر التقدم والتحضر والتمدين، وهذا المثل إن دل على شئ فإنما يدل على عدم فهم صاحبه لمعانى الخيرية الحقة، وماانطوت عليه هذه القصة من بذل وتضحية فى سبيل الإيمان والعقيدة، بل ومدى انبهار الناس بهذا الزيف والخداع الذى يطلق عليه اسم الحضارة، فلا بورك فى دنيا تأتى على حساب الدين، ولايليق بعاقل أن يبيع دينه بدنيا غيره أو بزخرف وزينة لابقاء لها ولا وفاء.

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولامانرقعه
فطوبى لعبد آثر الله ربه وجاد بدنياه لما يوقع

إن الدنيا لاتصلح عوضاً عن معنى من معانى الآخرة وقد قال مؤمن آل فرعون لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾[غافر: ٣٩] .

ونحن لانقبل التطور الذى يأتى على حساب التفريط فى الأخلاق الإيمانية والسنن النبوية : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء : ٩] .

أى للتى هى أسد وأعدل فى كل ناحية من نواحي الحياة، فإطلاق اللحية وتقصير ثوب الرجل وجلباب المرأة . . . . . مشروع ومطلوب فى القرن الأول وفى القرن العشرين، والصلاة والصيام وإظهار شعائر الإيمان والحديث بلغة القرآن . . . أمر لايقبل التغيير ولا التبديل وإن ركبنا الطائرة والصاروخ :

﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ ﴾[يونس : ١٥] .

فالعبادات تؤخذ دون زيادة أو نقصان ـ أى من الأصل فيها التوقيف ـ أما المعاملات فالأصل فيها الإباحة إذا ماروعيت ضوابطها الكلية، فلا حرج فى بناء المستشفى والمدرسة والملجأ، ولابأس بصنع السيارة والطائرة . . . . وغيرها من الوسائل العصرية ، وهى لما استخدمت له، فإن استخدمت فى أمر صالح فهى صالحة وإن استخدمت فى أمر فاسد فهى فاسدة، وكل ذلك مع استمساكنا بكتاب الله وبسنة رسوله ﷺ ، قال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾[الأنفال: ٦٠] .

وفى الحديث: «**المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**» وهذا هو معنى قولنا عن سمات الدعوة أنها تقبل التطور لا الرجوع للوراء، أى التطور فيما يقبل التطور، فلا جمود على الوسائل الأولي، أما معانى العقيدة والشريعة فلا تقبل الإختراع ولا الإبتداع.

وخلاصة القول : أن الدنيا والآخرة حسبة واحدة وطريق واحد، فليكن عملك هنا وحساباتك حسابات أخروية، وتذكر قول ربك : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الأنعام: ٤٤-٤٥] .

فتية ولكن

عرفوا الباب الذي منه يدخلون

لما فر أصحاب الكهف ممن يطلبهم اشتغلوا بالدعاء ولجئوا إلى الله تعالى فقالوا : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ أى مغفرة ورزقاً، ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾[الكهف: ١٠] . أى توفيقاً للرشاد .

وقال بن عباس ـ رضى الله عنه ـ : مخرجاً من الغار فى سلامة، وقيل: صواباً، ومن هذا المعنى أن النبى ﷺ كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، فالعبد لاينال ماعند الله من خير وعز وتمكين إلا بطاعته لله، وقد كان عمربن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يقول لسعد بن وهيب ـ خال النبى وصاحبه ـ ياسعد ليس بينكم وبين الله نسب، أنتم عباده وهو ربكم تنالون ماعنده بطاعته، وقد علم الفتية ـ على حداثة سنهم ـ كيف يستمطرون الرحمة ويستدفعون النقمة، فدعوا الله عندما خرجوا وقالوا : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾[الكهف: ١٠] .

والدعاء هو العبادة : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[غافر: ٦٠].

وكان عمر ـ رضى الله عنه ـ يقول: «إنى لاأحمل هم الإجابة ولكن أحمل هم الدعاء، وذلك لأن العبد إذا ألهم الدعاء فإن الإجابة معه».

فالله قريب ممن دعاه : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[البقرة: ١٨٦]

وهو سبحانه الذى يجيب المضطر ويكشف الضر .

﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾[النمل] .

فإذا كان سبحانه يجيب دعاء المضطرين، حتى ولو كانوا كافرين، فكيف يكون الأمر مع المسلمين .

وقد كان بعض العلماء يقول : لايمتنعن أحدكم من الدعاء لما يعلمه من نفسه، فإن الله أجاب دعاء شر الخلق ـ أى إبليس ـ حين قال : ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[ص: ٧٩] فقال سبحانه : ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾[ص: ٨٠] .

وقد استجاب سبحانه دعاء هؤلاء الفتية ـ الذين آمنوا به ـ فقال سبحانه : ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾[الكهف: ١١-١٢] .

فلا تبخلن على نفسك بدعوات صالحات، فى عسرك وفى يسرك، مع استجماعك لأسباب الإجابة، فهذا من أعظم أسباب قضاء الحاجات وتفريج الكربات، ونيل الطلبات .

واعلم «**أن الله حييٌ كريم يستحى إذا رفع الرجل يديه أن يردهما صفراً خائبتين**»[(١)] .

«**وأن من لم يسأل الله يغضب عليه**»[(٢)] .

وقد ورد فى الحديث : «**لاتعجزوا فى الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد**»[(٣)]

فوائد طبية تتعلق بالقصة

الأولى : تتعلق بقوله تعالى : ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾[الكهف: ١١] .

وهى عبارة عن إلقاء الله تعالى النوم عليهم، قال بن عباس : فضربنا على آذانهم بالنوم، أى سددنا آذانهم عن نفوذ الأصوات إليها، وقال الزجاج : أى منعناهم عن أن يسمعوا، لأن النائم إذا سمع انتبه. وأما تخصيص الأذان بالذكر فلأنها الجارحة التى منها عظم فساد النوم، وقلما ينقطع نوم نائم إلا من جهة أذنه، ولايُستحكم نوم إلامن تعطلُ السمع ولما ذُكر لرسول الله ﷺ رجل طويل النوم، لايقوم الليل وينام حتى الصباح قال: «ذلك رجل بال الشيطان فى أذنه».

---

(١) رواه الترمذي وأبو داود وابن حبان والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن حبان وصححه الألباني.

(٣) رواه ابن حبان والحاكم وصححه الذهبي.

الثانية : تتعلق بقـوله تعالي : ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾[الكهف] .

أى ترى أيها المخاطب الشمس عند طلوعها تميل عن كهفهم، وإذا غربت تقرضهم أى يصيبهم يسيـر منها، فكان فى مسهـا لهم بالعشى إصلاح لأجـسادهم، والمقصـود بيان حفظهم عن تطرق البلاء وتغير الأبدان والألوان إليهم والتأذى بحر أو برد .

قال ابن عباس : كانوا لاتصيبهـم الشمس البتة كرامة لهم، يعنى أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين، ـ أى يمين الكهف ـ، وإذا غربت تمر بهم ذات الشمال ـ أى شمـال الكهف ـ، فلاتصيـبهم فى ابتداء النهـار ولافى آخر النهار ، فـكانت الشمس تميل عنهم طالعة وغاربة وجارية لاتبلغهم لتؤذيهم بحرّها وتغير ألوانهم وتُبلى ثيابهم .

الثالثة : تتعلق بقوله تعالي: ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾[الكهف] . قال ابن عباس : لئلا تأكل الأرض لحومهم، ولذلك من طال رقاده لمرضه ونحوه، فلابد من تقليبه من ناحية لأخرى حتى لايتآكل الجسد .

الفارق كبير بين فتية آمنوا وشباب قُنع

ماأشبـه أصحاب الكهف بهؤلاء الفتـية الذين صاحبـوا رسول الله ﷺ كابن عمـر وابن عبـاس وأسامة بن زيد ورافع بـن خديج ومعـاذ بن جبل وسـمرة بن جندب وغيرهم كثير، فهم على حداثة سنهم ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا رجالاً : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾[الأحزاب: ٢٣] .

وكلهم حرص على الخيـر والبذل والفداء واجتناب المحارم واستـعمال المكارم، وهذه هى الفتوة الحقيقية، ورأسـها الإيمان بالله تعالى ، والناظر فى قصة أصحاب الكهف سيـجد أنهم كانوا شبـاباً وأحداثاً، ولـم يمنعهم ذلك من الإيمان والثـبات على الحق، إذ هذه المعانى لاتقتصر على الكبار دون الصغار ولا على الرجال دون النساء، ولذلك ذكر ربنا جل وعلا أصحـاب الكهف فى معرض الثناء والمدح فقال : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾[الكهف: ١٣] .

فما قيمة سن كبير لم يكن زاداً لصاحبه بل كان وبالاً عليه، وماقيمة عمر طويل مع الانحراف عن منهج الله، إن السبق هو سبق الفضل، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، ويؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا فى القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا فى السنة سواء فأقدمهم هجرة فإن كانوا فى الهجرة سواء فأكبرهم سناً، وكان عمر بن سلمة يؤم القوم وعمره سبع سنوات لكونه كان قارئاً، ومن السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله شاب نشأ فى طاعة الله . فالكل يجب عليه أن يُسلم وجهه لله ويجب علينا رعاية الأبناء وإعانتهم على طاعة الله والحذر كل الحذر من إضاعتهم ففى ذلك خيانة للأمانة وإضاعة للأمة .

إن الفارق كبير بين أصحاب الكهف، الذين عناهم سبحانه بقوله: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾[الكهف: ١٣]، وبين كثير من شباب اليوم .

شباب قُنع لاخير فيهم وبورك فى الشباب الطامحين

عيب كبير أن يربى شباب الأمة على الرقص والغناء والموسيقى وتعلم فنون الضياع ومتابعة الأدب الرخيص، الذى يطلق عليه اسم الأدب المكشوف ـ أدب الجنس ـ! وحفظ النظريات والمذاهب الهدامة ـ عن ظهرقلب ـ دون رصيد من معرفة الحق، وتقليد من لاخير فيه ولا طريقته من الزعماء والساسة والفنانين والمغنيين.

القصص الحق

لما اقتضى قوله تعالى : ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾[الكهف: ١٢]، اختلافا وقع فى أمد الفتية ومدة لبثهم ومكثهم فى الكهف، عقب بالخبر عن أنه عز وجل يعلم من أمرهم بالحق الذى وقع فقال سبحانه: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾[الكهف: ١٣].

وماذكر فى هذه الآية الكريمة ورد معناه فى مواضع كثيرة من كتاب الله ، فالله تعالى هو الحق : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾[الحج: ٦٢] وأرسل رسوله بالحق .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[فاطر: ٢٤].

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ ﴾[فاطر : ٣١] .
﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾[النساء ١٧٠] .
﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾[المائدة : ٤٨] .
﴿ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾[الرعد : ١] .
وماقصه الله تعالى فى القرآن هو الحق
قال تعالي: ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ﴾[القصص: ٣] .
وقال تعالى بشأن أصحاب الكهف: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾
[الكهف : ١٣].

فالمسلم الحق هو الذى يؤمن بأن القرآن كلام الله، وأنه منزه عن الخيال والتصوير الفنى الذى لايعنى فيه بالواقع التاريخي، فالقصص القرآنى لاخرافات فيه ولاأساطير ولاخزعبلات، بل أنزله الحق بالحق على المبعوث رحمة للعالمين ، ولذلك لايجد المسلم الحق إلاتصديقه والعمل بمقتضاه تسلية لنفسه وتثبيتاً للآخرين على طريق الإيمان وتربية لأبنائه حتى يحسنوا التأسى بمن تقدمهم فى الإستقامة على معانى الإسلام .

فتية على الدرب يسيرون

الحق إذا خالطت بشاشته القلوب وتمكن من النفوس، أبى على صاحبه إلا أن يصدع بما يعتقده ويدين به، حتى وإن كلفه ذلك نفسه وكل مايملك ، وقد ضرب الأنبياء والمرسلون أروع المثل فى إبلاغ الحق للخلق . وفى الحديث : «سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام فأمره ونهاه فى ذات الله فقتله» .

وهؤلاء الفتية قاموا مقاماً بين يدى الملك الكافر، احتاجوا فيه إلى الربط على القلب حيث خالفوا دينه، ورفضوا فى ذات الله هيبته كما تذكر كتب التفسير، قال تعالى : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾[الكهف: ١٤] .

وقيل إنهم أولاد عظماء تلك المدينة، فخرجوا واجتمعوا وراء تلك المدينة من غير ميعاد فقال أسنُّهم : إنى أجد فى نفسى أن ربى ربُّ السموات والأرض، فقالوا ونحن كذلك نجد فى أنفسنا، فقاموا جميعاً فقالوا : ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[الكهف: ١٤].

أو أنهم قالوا ذلك أثناء عزمهم على الهروب إلى الله تعالى ومنابذة الناس .

قال بن عطية : «تعلقت الصوفية فى القيام والقول بقوله تعالى : ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ، قلت:

وهذا تعلقٌ غير صحيح! هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته وشكروا لما أولاهم من نعمه ونعمته، ثم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ربهم خائفين من قومهم، وهذه سنة الله فى الرسل والأنبياء والفضلاء والأولياء . أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام والرقص بالأكمام وخاصة فى هذه الأزمان عند سماع الأصوات الحسان من المُرد والنسوان، هيهات بينهما والله مابين السماء والأرض ثم هذا حرام عند جماعة العلماء . . . . ونقل القرطبى قول الإمام أبى بكر الطرسوسى وسئل عن مذهب الصوفية فقال : وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامرى لما اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون، فهو دين الكفار وعُبّاد العجل أهـ .

لاحجة لأحد في الكفر بالله تعالى

الحق أبلج وعليه نور، والباطل لجلج يتصادم مع العقل والفطرة، ويخالف ماجاء به الأنبياء والمرسلون فمن رحمة الله بعباده أن أودع فيهم فطراً وركب فيهم عقولاً وأنزل لهم الكتب وأرسل لهم الرسل، ليحيي من حيَّ عن بينة ويهلك من هلك أيضاً عن بينة، قال تعالى : ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[النساء : ١٦٥] .

وقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[فاطر: ٢٤].

وتوحيد الله هو أعظم قضية فى الوجود، وأهم مسألة دعا إليها الأنبياء والمرسلون : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل: ٣٦] . ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء: ٢٥].

وما من نبى إلا وقال لقومه : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥] .

فلا حجة لأحد بعد ذلك فى الكفر بالله تعالي، ولايُقبل ممن قامت عليه الحجة الرسالية أن يتخذ آلهة مع الله، أو أن يصرف العبادة لغير الله وهذه حقيقة استقرت فى نفوس أصحاب الكهف على حداثة سنهم، ولذلك قالوا : ﴿هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾[الكهف: ١٥].

أى قال بعضهم لبعض : هؤلاء قومنا، أى أهل عصرنا وبلدنا عبدوا الأصنام تقليداً من غير حجة، فهلا أقاموا بينة على الأصنام فى كونها آلهة، وإذا لم يمكنهم ذلك لم يجب أن يُلتفت إلى دعواهم، وأنَّى لهؤلاء القوم أولغيرهم ، أن يكون عندهم أثارة من علم تدعم شركهم أو تثبت كفرهم، قال تعالى : ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة : ٢٢] .

أى لاتشركوا بالله شيئاً من الأنداد التى لاتنفع ولاتضر، وأنتم تعلمون أنه ربكم لارب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذى يدعوكم الرسول إليه من توحيده هو الحق الذى لاشك فيه، وقال قتادة ومجاهد : أنداداً : أكفاء من الرجال تطيعونهم فى معصية الله.

وقال ابن زيد : الأنداد، هى الآلهة التى جعلوا لها مثل ماجعلوا له . وعن ابن عباس : أشباهاً .

وقال مجاهد: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢٢] أى تعلمون أنه إله واحد فى التوراة والإنجيل، وفى الحديث: «**إن الله أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات: أن يعمل بهن ، وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن ، وأنه كاد أن يبطئ**

بها، فقال له عيسى عليه السلام : إن الله أمرك بخمس كلمات أن تعمل بهن، وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تبلغهن ، وإما أن أبلغهن ، فقال: يا أخى إنى أخشى إن سبقتنى أن أعذب أو يخسف بي، قال : فجمع يحيى بن زكريا بنى اسرائيل فى بيت المقدس، حتى امتلأ المسجد وقعد على الشرف، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن، أولاهن أن تعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً....»[1].

إن التوحيد أهم قضية فى الوجود، وأعظم مسألة ينبغى على العباد أن يستفرغوا الوسع فى تحقيقها، فحق الله على العباد أن يعبدوه ولايشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لايعذب من لايشرك به شيئاً .

ماخاب من أوقع حاجته بالله

على العبد أن يستشعر ضعفه وفقرة وعجزه بين يدى ربه سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[فاطر: ١٥] فلا حول ولاقوة إلا بالله، ولايخيب ولايضيع من أوقع حاجته بالله وتوكل عليه وأناب إليه، وأخلص العبودية له سبحانه ، وهذا المعنى تلمسه فى مواضع كثيرة من قصة أصحاب الكهف، كما فى قوله تعالى : ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾[الكهف: ١٤] .

وقوله سبحانه : ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾[الكهف: ١٦] .

أى قال بعضهم لبعض : إذا فارقنا الكفار وانفردنا بالله تعالى فلنجعل الكهف مأوى ونتكل على الله، فإنه سيبسط لنا رحمته وينشرها علينا، ويهيئ لنا من أمرنا مرفقاً . وهذا كله دعاء بحسب الدنيا وعلى ثقة كانوا من الله فى أمر آخرتهم .

---

(١) رواه أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم وصححه الألباني.

ماخاب ولاشقى من أوقع حاجته بـالله، وعلق قلبه به سبحانه، فإن نبى الله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ـ لما أضرموا له النيران سبع ليال ليقذفوه فيها ـ أتاه جبريل فقال: ألك حاجة، قـال: أمالك فلا وأما إلى الله فحسبى الله ونعم الوكـيل، فكانت النار برداً وسـلامـاً على إبراهيم، وكـان هو أمـة صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[النحل: ١٢٠-١٢١] .

وهذا هو فعل الله بأوليـاءه عندما تكون قلوبهم موصولة بالله، وإلا فـجبريل بمقدوره أن يطفئ النار بطرف جناحه، ولكـن أنى لأمثال نبى الله إبراهيم أن يعلق قلبه بالمخلوقات فى جلب النفع ودفع الضر .

وكذلك نبى الله موسى صلوات الله وسلامه عليـه لما أدركه فرعون بجنوده بغياً وعـدواً، قـالت له بنو إسـرائيل إنا لمدركـون، فـقـال: ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾[الشعراء: ٦٢] .

وهذه لغة الواثق فى معية الله له، وإطمئنانه إلى وعد الله الذى لايتخلف عن عبـاده المؤمنين ، لقد كانت هلكة محـققة بالحـسابات المادية فالعدو ورائه والبـحر أمامه، ولكن هذا لم يفت فى عضد نبى الله موسي، وماكاد يفرغ من قولته حتى أمر: ﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾[الشعراء: ٦٣].

وأنجى ربنا موسى ومن آمن معه، وأغرق فرعون ومن تبعه، فكانت آية بينة دالة على عظيم قـدرة الله، وأنه سـبـحـانه بمنه وكـرمـه مع الذين اتقـوا والذين هم محسنون.

وكذلك نبى الله أيوب ـ صلوات الله وسلامه عليـه ـ أصابه بلاء شديد وكرب عظيم، فرفع حاجتـه إلى الله وتضرع إليه : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾[الأنبياء: ٨٣-٨٤] .

ماأحـوجه الله تعالى لمخـلوق، بل قيل له : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾[ص: ٤٢]. فالفرج سيأتى من تحت قدمه، وشبيه بهذا ماحدث مع نبى

الله إسماعيل ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فإن نبى الله إبراهيم عندما تركه هو وأمه هاجر، وقفل راجعاً إلى فلسطين سألته هاجر: ألله أمرك بهذا، قال لها : نعم، قالت له: فإن الله لن يضيعنا، ونفد الماء، فسعت سعى المجهود بين الصفا والمروة، وفى السابعة، رأت جبريل يضرب بطرف جناحه عند قدم نبى الله إسماعيل، فنبعت زمزم، لتكون آية بينة على أن الله لايضيع أهله، الذين آمنوا به وتوكلوا عليه وأنابوا إليه : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾[الطلاق ٢ :٣]. ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾[الطلاق: ٤] .

كلب أحب قوماً فصار له شأن وذكر

لما خرج الفتية فارين بدينهم، تبعهم الكلب قال ابن عباس: هربوا ليلاً، وكانوا سبعة فمروا براع معه كلب فاتبعهم على دينهم.

وقال كعب: مروا بكلب فنبح لهم فطردوه فعاد فطردوه مراراً، فقام الكلب على رجليه ورفع يديه إلى السماء كهيئة الداعي، فنطق فقال: لاتخافوا مني! أنا أحب أحبّاء الله تعالي، فناموا حتى أحرسكم.

وهذا الذى قاله كعب، من جملة الإسرائيليات، وإن كان لايبعد، فالله قادر على كل شئ وقد وردت الأخبار الصحيحة تدل على نطق الجماد والحيوان .

وقد ورد ذكر الكلب فى هذه القصة ، وهذا أمر له دلالته، قال ابن عطية : وحدثنى أبى رضى الله عنه قال: سمعت أبا الفضل الجوهرى فى جامع مصر يقول على المنبر سنة تسع وستين وأربعمائة : إن من أحب أهل الخير نال من بركتهم، كلبٌ أحب أهل فضل وصحبهم فذكره الله فى محكم تنزيله .

قال القرطبى : قلت : إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله تعالى بذلك فى كتابه جل وعلا فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين ! بل فى هذا تسلية وأنس للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمال، المحبين للنبى ﷺ وآله خيراً.

روى فى الصحيح عن أنس بن مالك قال : «بينا أنا ورسول الله ﷺ خارجان من المسجد فلقينا رجل عند سُدّة المسجد فقال: يارسول الله، متى الساعة ؟ قال رسول الله ﷺ : «**ما أعددت لها**»، قال : فكأن الرجل استكان، ثم قال : يارسول الله، ما أعددتُ لها كثير صلاة ولا صيام ولاصدقة، ولكنى أحب الله ورسوله، قال : «**فأنت مع من أحببت**»، وفى رواية قال أنس بن مالك: فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشد من قول النبي ﷺ : «**فأنت مع من أحببت**» قال أنس : فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم.

قال القرطبي: قلت : وهذا الذى تمسك به أنس يشمل من المسلمين كل ذى نفس، فكذلك تعلقت أطماعنا بذلك وإن كنا مقصرين، ورجونا رحمة الرحمن وإن كنا غير مستأهلين، كلبٌ أحب قوماً فذكره الله معهم! فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام، وحب النبي ﷺ ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾[الإسراء: ٧٠].

قلت : إذا كان هذا قول أنس رضى الله عنه والقرطبى رحمه الله، فنحن نحب الصالحين ولسنا منهم، وقد وجدنا فى وقت رُفع فيه العلم وبُسط فيه الجهل، واستحكمت فيه الغربة، وصار القابض على دينه كالقابض على الجمر، وقد علمنا أن المحبة الحقيقية تكمن فى المتابعة الصادقة لدين الله، فإن كان تقصيرنا وتفريطنا واضحاً، فارحم اللهم ضعفنا واجبر كسرنا وارزقنا حبك وحب من أحبك وحب كل عمل يقربنا إلى حبك واجعل حبك أحب إلينا من المال والأهل والماء البارد .

مسائل تتعلق باقتناء الكلاب

(١) لعاب الكلب نجس لورود الأحاديث بذلك فقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «**إذا شرب الكلب فى إناء أحدكم فليغسله سبعاً**» وثبت أيضاً عندهما وغيرهما من حديث عبد الله بن مغفل مايقتضى التسبيع والتتريب فى تطهير الإناء .

(٢) شعر الكلب طاهر لادليل على نجاسته، بل هو متولد من طاهر كما وضح شيخ الإسلام ابن تيمية .

(٣) ورد فى الصحيح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**من اقتنى كلباً إلا كلب صيد أو ماشية نقص من أجره كل يوم قيراطان**» وروى فى الصحيح أيضاً عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «**من اتخذ كلباً إلا كلب ماشية أو صيد أو زرع انتقص من أجره كل يوم قيراط**» .

قال الزهرى : وذُكر لابن عمر قولُ أبى هريرة فقال: يرحم الله أبا هريرة كان صاحب زرع، فقد دلت السنة الثابتة على اقتناء الكلب للصيد أو الزرع والماشية وجعل النقص فى أجر من اقتناها على غير ذلك من المنفعة، أما لترويع الكلب المسلمين وتشويشه عليهم بنباحه، أو لمنع دخول الملائكة البيت أو لنجاسته، على مايراه الشافعى أو لإقتحام النهى عن اتخاذ مالامنفعة فيه والله أعلم .

(٤) قال النبي ﷺ فى إحدى الروايات « **قيراط** » وفى الأخرى « **قيراطان** » وذلك يحتمل أن يكون فى نوعين من الكلاب أحدهما أشد أذى من الآخر كالأسود الذى أمر عليه الصلاة والسلام بقتله، ولم يُدخله فى الإستثناء حين نهى عن قتلها كما هو منصوص فى حديث جابر أخرجه فى الصحيح . وقال : «عليكم بالأسود البهيم ذى النقطتين فإنه شيطان» ويحتمل أن يكون ذلك لاختلاف المواضع فيكون ممسكه بالمدينة مثلاً أو بمكة ينقص قيراطان وبغيرها قيراط . وأما المباح اتخاذه فلا ينقص كالفرس والهرة والله أعلم .

(٥) كلب الماشية المباح اتخاذه عند مالك هو الذى يسرح معها، لا الذى يحفظها فى الدار من السراق . وكلب الزرع هوالذى يحفظها من الوحوش بالليل أو بالنهار لامن السراق وقد أجاز غير مالك اتخاذها لسراق الماشية والزرع .

(٦) وروى فى الحديث: « أن الكلب الأسود يقطع الصلاة»، وقال ﷺ : «الكلب الأسود شيطان» وذهب على وعثمان وابن المسيب والشعبى ومالك والشافعى وسفيان الثورى والأحناف إلى أن الصلاة لايقطعها شئ لحديث أبى داود عن أبى الودّاك قال : مر شاب من قريش بين يدى أبى سعيد وهو يصلى فدفعه ثم عاد فدفعه ثم عاد فدفعه ثلاث مرات فلما انصرف قال : إن الصلاة لايقطعها شئ ولكن قال الرسول ﷺ : «ادرءوا ما استطعتم فإنه شيطان» .

(٧) ورد النهى عن ثمن الكلب، فإذا احتاج الإنسان كلب صيد أو ماشية ولم يجد إلا كلباً يباع فيبقى أن يقال : إن حل البيع يتبع حل الإنتفاع .

(٨) إذا صال الكلب على نفسه أو المال ولم يندفع عن ذلك إلا بالقتل جاز قتله وحكمه حينئذ حكم دفع الصائل .

(٩) إذا أراد الإنسان أن يتخلص من كلاب البيوت فلا داعى لقتله، ومن الممكن إرساله إلى مكان بعيد بحيث يصعب عليه الرجوع إلى البيت، وبحيث تحقق المصلحة وتندفع المضرة والمفسدة .

(١٠) دخلت امرأة النار فى هرة حبستها لاهى أطعمتها إذ حبستها ولاهى تركتها تأكل من خشاش الأرض، وعلى العكس دخلت بغى من بغايا بنى إسرائيل الجنة فى كلب سقته، فشكر الله لها صنيعها، والراحمون يرحمهم الرحمن .

القصة برهان على البعث

ماأكثر البراهين الدالة في النفس والكون على عظيم قدرة الله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[يس: ٨٢]، فهو القادر سبحانه على إحياء الخلق وإماتتهم ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[لقمان: ٢٨]، ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾[الروم : ١٩] يحى الأرض الميتة بوابل السماء، وجعل خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

قال تعالى عن أصحاب الكهف : ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾[الكهف: ١٩] أى كما ضربنا على آذانهم وزدناهم هدى وقلبناهم بعثناهم أيضاً، أى أيقظناهم من نومهم على ماكانوا عليه من هيئتهم فى ثيابهم وأحوالهم، فلما رأوا ذلك: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[الكهف :١٩] وذلك أنهم دخلوه غدوة وبعثهم الله فى آخر النهار، وكانوا قد مكثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً .

إن النوم هو الموتة الصغري، قال تعالي :﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

[الزمر : ٤٢] .

والقصة فى هذا الصدد ليست وحدها فى القرآن، فهناك براهين عملية تشاركها مع الفارق بين الموتة الكبرى والموتة الصغري، فعيسى عليه السلام أحيا الموتى بإذن الله ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[آل عمران: ٤٩].

وقتيل بنى إسرائيل ضُرب ببعض البقرة فأحياه الله:﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾[البقرة : ٧٣].

وصاحب القرية أماته الله مائة عام ثم بعثه :﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾

[البقرة : ٢٥٩] .

وإبراهيم عليه السلام، أراه الله كيفية إحياء الموتى فقطع الطير وفرقهن ودعاهن فأتينه سعياً : ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾

[البقرة : ٢٦٠]

فالله على كل شئ قدير، وكل شئ عليه هين يسير فأنيبوا إلى ربكم وأسلموا وجوهكم له واحرصوا على طاعته والإستقامة على أمره من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله، يومئذ يصدعون، من كفر فعليه كفره، ومن آمن وعمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون.

مسائل تتعلق بالوكالة

(١) الوكالة معناها التفويض، فتقول «وكلت أمرى إلى الله» أى فوضته إليه، وتطلق على الحفظ ومنه قول الله سبحانه: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾

[آل عمران : ١٧٣].

(٢) شرع الإسلام الوكالة للحاجة إليها، فليس كل إنسان قادراً على مباشرة أموره بنفسه فيحتاج إلى توكيل غيره ليقوم بها بالنيابة عنه، قال تعالى عن أصحاب الكهف : ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾[الكهف: ١٩] . وذكر سبحانه عن يوسف أنه قال للملك : ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٥٥].

وقال تعالى فى الزكاة: ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾[التوبة: ٦٠] وقوله: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾[يوسف: ٩٣].

وقد جاءت أحاديث كثيرة تفيد جواز الوكالة، منها أنه ﷺ وكل أبا رافع ورجلاً من الأنصار فزوجاه ميمونة رضى الله عنها. وثبت عنه ﷺ التوكيل فى

قضاء الدين والتوكيل فى إثبات الحدود واستيفائها، والتوكيل فى القيام على بُدْنه وتقسيم جلالها وجلودها.

روى جابر بن عبد الله قال: أردت الخروج إلى خيبر فأتيت رسول الله ﷺ فقلت له: إنى أردت الخروج إلى خيبر، فقال: «إذا أتيت وكيلى فخذ منه خمسة عشر وَسْقاً فإن ابتغى منك آية فضع يدك على ترقوته»[١].

(٣) الوكالة معروفة فى الجاهلية والإسلام، فقد وكل عبد الرحمن بن عوف أمية بن خلف بأهله وحاشيته بمكة، أى يحفظهم، وأمية مشرك والتزم عبد الرحمن لأمية من حفظ حاشيته بالمدينة، مثل ذلك مجازاة لصنعه، روى البخارى عن عبد الرحمن بن عوف قال: كاتبت أمية بن خلف كتاباً بأن يحفظنى فى صاغيتي[٢] بمكة وأحفظه فى صاغيته بالمدينة . . . الحديث.

(٤) أجمع المسلمون على جواز الوكالة، بل على استحبابها لأنها نوع من التعاون على البر والتقوي، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[المائدة: ٢].

وقال ﷺ: «والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه» وقد حكى القرطبى وصاحب البحر وغيرهما الإجماع على كونها مشروعة، فلا خلاف فيها من الجملة.

(٥) الوكالة جائزة فى كل حق تجوز النيابة فيه، فلو وكل الغاصبُ لم يجز، لأن كل محرم فعله لاتجوز النيابة فيه، ولاوكالة فى الصلاة والطهارة وماشابه ذلك ولا أن تكون معونة لأهل الباطل.

(٦) الوكالة عقد من العقود فلا تصح إلا بإستيفاء أركانها من الإيجاب والقبول، ولايشترط فيهما لفظ معين، بل تصح بكل مايدل عليهما من القول أو الفعل، ولكل واحد من المتعاقدين أن يرجع فى الوكالة ويفسخ العقد فى أى حال لأنها من العقود الجائزة أى غير اللازمة.

---

(١) أخرجه أبو داود.

(٢) صياغة الرجل الذين يميلون إليه ويأتونه.

(٧) الوكيل أمين، فمتى تمت الوكالة، كان الوكيل أميناً فيما وُكل فيه فلا يضمن إلا بالتعدى أو التفريط ويُقبل قوله فى التلف كغيره من الأمناء .

(٨) قوله تعالى : ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾[الكهف :١٩] فيه أن الوكالة إنما كانت مع التقية خوف أن يشعر بهم أحد لما كانوا عليه من الخوف على أنفسهم، وجواز توكيل ذوى العذر متفق عليه، فأما من لاعذر له فالجمهور على جوازها، فعن أبى هريرة قال: كان لرجل على النبي ﷺ سن من الإبل فجاء يتقاضاه فقال : «أعطوه» فطلبوا له سنّه فلم يجدوا إلا سناً فوقها، فقال: «أعطوه» فقال: أوفيتنى أوفى الله لك، قال النبى ﷺ : « إن خيركم أحسنكم قضاء»[1] فدل هذا الحديث على جواز توكيل الحاضر الصحيح البدن.

(٩) قال ابن خويز منداد : تضمنت هذه الآية جواز الشركة لأن الورق كان لجميعهم وتضمنت جواز الوكالة لأنهم بعثوا من وكلوه بالشراء، وتضمنت جواز أكل الرفقاء وخلطهم طعامهم معاً، وإن كان بعضهم أكثر أكلاً من الآخر اهـ.

ومما يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾[البقرة : ٢٢٠] وقوله : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾[النور : ٦١]. وثناء النبى ﷺ على رفقة الأشعريين، أنهم إذا أكلوا فى الغزو جمعوا أزوادهم فى ثوب واحد .

(١٠) على الوكيل أن يصدق وله أن يأخذ أجراً على وكالته، وليس له أن يشترى من نفسه لنفسه على قولى أبى حنيفة والشافعى وأحمد فى أظهر روايتيه، وقال مالك: للوكيل أن يشترى من نفسه لنفسه بزيادة فى الثمن .

(١١) تنتهى الوكالة بموت أحد المتعاقدين أوجنونه، وبانتهاء العمل المقصود من الوكالة وبعزل الموكل للوكيل ولو لم يعلم، وبعزل الوكيل نفسه وبخروج الموكل فيه عن ملك الموكل .

---

(١) رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري.

هل الاستكراه لم يكن عذراً من أصحاب الكهف

يقول الإمام الشنقيطى فى تفسيره «أضواء البيان» [جـ (٤) صـ ٧٢]، فى تفسير قوله تعالي: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾[الكهف: ٢٠]: «أخذ بعض العلماء من هذه الآية الكريمة، أن العذر بالإكراه من خصائص هذه الأمة لأن قوله تعالى عن أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾[الكهف: ٢٠]. ظاهر فى إكراههم على ذلك وعدم طواعيتهم يوضح هذا قوله عنهم: ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾[الكهف: ٢٠]، فدل ذلك على أن ذلك الإكراه ليس بعذر، ويشهد لهذا المعنى حديث طارق بن شهاب فى الذى دخل النار فى ذباب قربه مع الإكراه بالخوف من القتل لأن صاحبه الذى امتنع أن يقرب ولو ذباباً قتلوه، وشهد له أيضاً دليل الخطاب أى مفهوم المخالفة فى قوله : « إن الله تجاوز لى عن أمتى الخطأ والنسيان وماستكرهوا عليه»، فإنه يفهم من قوله تجاوز لى عن أمتي، أى غير أمته لم يتجاوز لهم عن ذلك .

وهذا الحديث وإن أعله الإمام أحمد وابن أبى حاتم، فقد تلقاه العلماء قديماً وحديثاً بالقبول وله شواهد ثابتة فى القرآن العظيم والسنة الصحيحة، وقد أوضحنا هذه المسألة فى كتاب [دفع إيهام الإضطراب عن آيات الكتاب]، أما هذه الأمة فقد صرح الله تعالى بعذرهم بالإكراه فى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾[النحل :١٠٦] والعلم عند الله تعالى» أ.هـ .

والإكراه فى الشرع بمعنى حمل الغير على مايكره بالوعيد بالقتل أو التهديد بالضرب أو السجن أو إتلاف المال أو الأذى الشديد أو الإيلام القوى ويشترط فيه أن يغلب على ظن المكرَه إنفاذ ماتوعد به المكرِه، قال عمر : ليس الرجل آمن على نفسه إذا أخفته أو أوثقته أو ضربته، وقال ابن مسعود : مامن ذى سلطان يريد أن يكلفنى

كلاماً يدرأ عنى سوطاً أو سوطين إلا كنت متكلماً به .

وقال ابن حزم : ولايعرف له من الصحابة مخالف .

والإكراه يلغى الاختيار ويرفع الإثم والذنب، وقد يكون إكراهاً على الكلام أو على الأفعال إلا أن العزيمة عند الإكراه على الكفر وفى مواطن إظهار الدين أفضل، من بقاء طوابير طويلة تعطى الطغاة مايريدونه .

وقد أخرج ابن أبى شيبة عن الحسن، وعبد الرزاق فى تفسيره عن معمر أن مسيلمة أخذ رجلين فقال لأحدهما: ماتقول فى محمد؟ قال: رسول الله، قال: فما تقول فيَّ؟ فقال: أنت أيضاً، فخلاه. وقال للآخر: ماتقول فى محمد؟ قال: رسول الله. قال: فما تقول فيَّ ؟ فقال : أنا أصم . فأعاد عليه ثلاثاً. فأعاد ذلك فى جوابه فقتله. فبلغ رسول الله ﷺ خبرهما فقال: «أما الأول فقد أخذ برخصة الله تعالى وأما الثانى فقد صدع بالحق فهنيئاً له» .

وهناك مسائل لاإستكراه فيها كالقتل قال القرطبى : «أجمع العلماء على أن من أكره على قتل غيره فلا يجوز له الإقدام على قتله ولا انتهاك حرمته بجلد أو غيره ويصبر على البلاء الذى نزل به ولايحل له أن يفدى نفسه بغيره ويسأل الله العافية فى الدنيا والآخرة» أهـ.

أما لو أكره على شرب الخمر أو أكل الميتة أو الخنزير أو مايشابه ذلك أوالنطق بكلمة الكفر فلا إثم عليه، فإن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه .

حرم الله على الأرض أن تأكل أجساد بعض الخلق

ورد في الحديث :«إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»(١)

وروى ابن كثير في[البداية والنهاية] عن يونس بن بكير قال: لما فتحنا تستر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عنده مصحف، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر، فدعا له كعباً فنسخه بالعربية، فأنا أول رجل من العرب قرأه ، قرأته مثل ماأقرأ القرآن هذا . فقلت لأبي العالية : ماكان فيه؟ قال : سيركم وأموركم ولحون كلامكم وماهو كائن بعد. قلت : فما صنعتم بالرجل ؟ قال حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة، فلما كان بالليل دفناه، وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس فلا ينبشونه، قلت: فما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون . قلت : من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له دانيال . قلت : منذ كم وجدتموه ؟ قال : قد مات منذ ثلاثمائة سنة قلت : ماتغير منه شئ ؟ قال : لا إلا شعرات من قفاه، إن لحوم الأنبياء لايبليها الأرض ولاتأكلها السباع.

قال : ابن كثير : وهذا إسناد صحيح إلى أبي العالية .

وقد صح عن النبي ﷺ أن : «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون» (٢) .

وروى مسلم عن أبي هريرة في قصة الإسراء : «وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء فإذا موسى قائم يصلي . . . وإذا عيسى بن مريم قائم يصلي، وإذا إبراهيم قائم يصلي».

وهذه الحياة حياة برزخية لاتقاس على حياتنا الدنيوية، وهي أتم من حياة الشهداء وقد وُجد الغلام المذكور في قصة أصحاب الأخدود زمن عمر بن الخطاب

---

(١) رواه أبو داود والنسائي وصححه ابن خزيمة وغيره.

(٢) رواه الجماعة عن أنس.

رضى الله عنه ويده على صدغه على النحو الذى مات عليه كلما أزالوا اليد انبثق الدم من جرحه، ووجد بعض شهداء أحد ـ بعد أكثر من عشرين سنة من دفنهم ـ على الحال الذى ماتوا عليه، لم يتغير شئ من هيئتهم، وكذلك كان الأمر بالنسبة لأصحاب الكهف، فإن الأرض لم تأكل أجسادهم طيلة هذه المدة، وكان العثور عليهم آية . قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾[الكهف : ٢١]

وقد ذكرت كتب التفسير، أن دقيانوس مات ومضت قرون ومَلَكَ أهل تلك الدار رجل صالح، فاختلف أهل بلده فى الحشر وبعث الأجساد من القبور فشك ذلك بعض الناس واستبعدوه وقالوا : إنماتحشر الأرواح والجسد تأكله الأرض، وقال بعضهم : تبعث الروح والجسد جميعاً، فكبر ذلك على الملك وبقى حيران لايدرى كيف يتبين أمره لهم، حتى لبس المَسُوح وقعد على الرماد وتضرع إلى الله تعالى فى حجة وبيان، فأعثر الله على أهل الكهف، فيقال : إنهم لما بعثوا أحدهم بورقهم إلى المدينة ليأتينهم برزق منها استُنكر شخصه، واستنكرت دراهمه لبعد العهد فحُمل إلى الملك وكان صالحاً قد آمن وآمن من معه، فلما نظر إليه قال: لعل هذا من الفتية الذين خرجوا على عهد دقيانوس الملك، فقد كنت أدعو الله أن يُرينهم، وسأل الفتى فأخبره، فسُرَّ الملك بذلك، وقال: لعل الله قد بعث لكم آية .

كرامة ظاهرة لأصحاب الكهف

من أصول أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات الأولياء، ومايجرى الله على أيديهم من خوارق العادات إكراماً لهم لصلاحهم وقوة إيمانهم، ومن ذلك ماجرى لأصحاب الكهف حيث ضرب الله على آذانهم فى الكهف ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعاً، وحفظ أجسادهم تلك بالدهور المتطاولة . والكرامة الرحمانية ضابطها الإستقامة ، والا فقد تكون خارقة شيطانية، قال تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾

[الشعراء: ٢٢١-٢٢٣]

وكان الليث بن سعد - فقيه مصر - يقول: إذا رأيت الرجل يمشى على الماء فلا تصدقه حتى تعرض عمله على السنة، فلما سمع ذلك الشافعى - رحمه الله - قال: قصر والله الليث، بل لو رأيته يطير فى الهواء فلا تصدقه حتى تعرض عمله على السنة. والإستقامة هى أعظم كرامة، ولذلك لما قيل لعبد القادر الجيلاني: أرنا من نفسك كرامة، صعد على المنبر وقال: منذ كم وأنا فيكم، فقالوا : منذ عشرين سنة، فقال : هل رأيتم عليَّ معصية، هل جربتم عليَّ مخالفة، فإن الإستقامة هى أعظم كرامة، والإستقامة ثابتة لأصحاب الكهف على حداثة سنهم فلا يجوز لنبى أو ولى أن يخالف أمر ربه، وقد ثبت فى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « قد كان فى الأمم قبلكم محدثون فإن يكن فى أمتى أحد منهم فعمر منهم»، وفى لفظ فى الصحيح : «إن فى هذه الأمة محدثين وإن منهم عمر» .

وحديث: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» أخرجه الترمذى وحسنه، ثم عمر - رضى الله عنه - مع كونه من المحدثين - بالنص - كان يشاور الصحابة ويشاورونه، ويراجعهم ويراجعونه ، ويحتج عليهم بالكتاب والسنة ويرجعون جميعاً إليهما، وكان إذا عُرضت عليه المسألة ويقول: أقول فيها، فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسى ومن الشيطان، والله منه برئ وكان أبو سليمان الدارانى يقول: إنها لتقع فى قلبى النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين، الكتاب والسنة.

وقال أبوعثمان النيسابوري: من أمر على نفسه الشريعة قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ومن أمر على نفسه الهوى قولاً وفعلاً نطق بالبدعة لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾[النور: ٥٤]

والكرامة تحدث للكبير والصغير كما تحدث للرجل والمرأة، ومن ذلك ماحدثنا به القرآن الكريم من شأن مريم فقد كان يوجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[آل عمران : ٣٧] .

ومما ورد أن أسيد بن حُضير وعباد بن بشر تحدثا عند النبيﷺ في حاجة لهما حتى ذهب من الليل ساعة، في ليلة شديدة مظلمة، ثم خرجا من عند رسول اللهﷺ ينقلبان وبيد كل واحد منهما عصيّة، فأضاءت عصى أحدهما لهما حتى مشيا في ضوئها، حتى إذا افترقت بهما الطريق أضاءت للآخر عصاه، فمشى كل واحد منهما في ضوء عصاه حتى بلغ أهله»[1] .

وهذا سفينة مولى رسول اللهﷺ أخطأ جيش المسلمين بأرض الروم أو أسر، فانطلق هارباً يلتمس الجيش، فإذا هو بالأسد، فقال : ياأبا الحارث (كنية الأسد) أنا مولى رسول اللهﷺ ، كان من أمرى كيت وكيت، فأقبل الأسد له بصبّصة (أى تحريك بالذنب) حتى قام إلى جنبه، كلما سمع صوتاً أهوى إليه ثم أقبل يمشى إلى جنبه حتى بلغ الجيش ثم رجع الأسد.

ومن ذلك أن عمر بن الخطاب بعث جيشاً وأمَّر عليهم رجلاً يدعى سارية، وبينما عمر يخطب فجعل يصيح: ياسارية الجبل الجبل، فقدم رسول من الجيش، فقال : ياأمير المؤمنين، لقد لقينا عدواً فهزمونا، فإذا بصائح يصيح: يا سارية الجبل، فأسندنا ظهورنا إلى الجبل فهزمهم الله تعالى .

ومن ذلك إجابة الدعاء كما فى قصة أصحاب الكهف، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية قصة الذى عنده علم من الكتاب، وإخبار أبى بكر بأن ببطن زوجته أنثي، وإخبار عمر بمن يخرج من ولده فيكون عادلاً وقصة صاحب موسى فى علمه بحال الغلام ، وقصة خالد بن الوليد وأبى مسلم الخولانى . . . .

---

(١) رواه البخاري.

هل بنوا مسجداً على قبر أصحاب الكهف[(١)]

استدل بعض القبوريين على بناء المساجد على القبور بقوله تعالى : ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[الكهف : ٢١] . وذكروا أن الذين قالوا هذا القول كانوا نصارى على ماهو مذكور فى كتب التفسير، فيكون اتخاذ المسجد على القبر من شريعتهم، وشريعة من قبلنا شريعة لنا إذا حكاها الله تعالي، ولم يعقبها بما يدل على ردها كما فى هذه الآية الكريمة.

وماستدلوا به لايسلم لهم من وجه فغاية مافى الآية أن جماعة من الناس قالوا : ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[الكهف : ٢١] . فليس فيها تصريح بأنهم كانوا مؤمنين، وعلى التسليم فليس فيها أنهم كانوا مؤمنين صالحين، مستمسكين بشريعة نبى مرسل .

قال الحافظ ابن رجب فى شرح حديث: «لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وقد دل القرآن على مثل مادل عليه هذا الحديث ، وهو قول الله عزوجل فى قصة أصحاب الكهف : ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[الكهف : ٢١] .

فجعل اتخاذ القبور على المساجد من فعل أهل الغلبة على الأمور وذلك يشعر بأن مستنده القهر والغلبة واتباع الهوى وأنه ليس من فعل أهل العلم والفضل المنتصر لما أنزل الله تعالى على رسله من الهدى .

وفي[تحذير الساجد] صـ٥٠ مانصه : «قال الشيخ على بن عروة فى [مختصر الكواكب] (١٠/٢٠٧/٢) تبعاً للحافظ ابن كثير فى تفسيره (٣/٧٨): «حكى ابن جرير فى القائلين ذلك قولين: أحدهما : أنهم المسلمون منهم. والثاني: أهل الشرك منهم، فالله أعلم».

---

(١) راجع كتاب [تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد] للألباني.

والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ، ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر، لأن النبي ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». يحذر مافعلوا، وقد رُوِّينا عن عمر بن الخطاب أنه لما وجد قبر دانيال فى زمانه بالعراق، أمر أن يخفى على الناس، وأن تدفن تلك الرقعة التى وجدها عنده، فيها شئ من الملاحم وغيرها . إذا عرفت هذا فلا يصح الإحتجاج بالآية على وجه من الوجوه .

وقال العلامة المحقق الألوسى في[روح المعاني(٣١٥)]: «واستدل بالآية على جواز البناء على قبور العلماء واتخاذ مسجد عليها ، وجواز الصلاة فى ذلك! وممن ذكر ذلك الشهاب الخفاجى فى حواشيه على البيضاوي، وهو قول باطل عاطل، فاسد كاسد، فقد روى. .».

ثم ذكر بعض الأحاديث المتقدمة، وأتبعها بكلام الهيثمى فى «الزواجر» مقراً له عليه ثم نقل عنه فى كتابه «شرح المنهاج» مانصه : «وقد أفتى جمع بهدم كل مابقرافة معد من الأبنية، حتى قبة الإمام الشافعى عليه الرحمة التى بناها بعض الملوك ، وينبغى لكل أحد هَدْم ذلك مالم يخش منه مفسدة، فيتعين الرفع للإمام آخذاً من كلام ابن الرفعة فى الصلح» أ هـ .

وقد يقال : إنما أرادوا اتخاذ مسجد عندهم وقريباً من كهفهم كما فى رواية السدى ووهب وقد ورد عن مجاهد أن الملك تركهم فى كهفهم وبنى على كهفهم مسجداً فوق الجبل الذى هو فيه، وعن الحسن أنه اتخذ (يعنى المسجد) ليصلى فيه أصحاب الكهف إذا استيقظوا .

قال الألوسى : «وهذا مبنى على أنهم لم يموتوا بل ناموا أولاً وإليه ذهب بعضهم، بل قيل : إنهم لايموتون حتى يظهر المهدى ويكونوا من أنصاره، ولامعول على ذلك ، وهو عندى أشبه شئ بالخرافات» .

وكما ترى فإن الآية لاتصلح دليلاً على بناء المساجد على القبور لكثرة المآخذ والإحتمالات ولأن حكاية القول عن الكفار والفجار يكفى فى رده عزوه إليهم، فلا يعتبر السكوت عليه إقراراً كما لايخفي، وقد وردت النصوص الكثيرة بالنهى عن بناء المساجد على القبور .

وشريعة الله حاكمة ومهيمنة على سائر الشرائع، على فرض ورود ذلك فى شرع من قبلنا فكيف وهو لم يثبت !!.

شبهات مماثلة والرد عليها

(١) أن قبر النبى ﷺ فى مسجده

الجواب: نتيجة التوسعات التى تمت فى عهد الوليد بن عبد الملك، أدخلت الحجرة التى مات ودفن فيها رسول الله ﷺ (حجرة أم المؤمنين عائشة) داخل المسجد ولم يكن فى المدينة يومئذ أحد من الصحابة، وقد ذكر الشيخ الألبانى أن التبعة تعود على الوليد حيث تخطى المحذور الذى أشار إليه عمر عندما قام بتوسيع المسجد من الجهات الأخرى ولم يتعرض للحجرة، بل قال : إنه لاسبيل إليها .

ثم محاولة إرجاع الحجرة إلى ماكانت عليه، قد يترتب عليه شر وفسادعظيم وفتن لايعلم مداها إلا الله ، ولايجوز منع أحد من الصلاة فى مسجد رسول الله ﷺ ، حتى لو وُجد القبر بداخله، إذ الصلاة فيه بألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام والمسجد الأقصي، ومامُنع سداً للذريعة أبيح للمصلحة الراجحة كما يقرر العلماء، وترى لجنة الفتوى بالسعودية أنهم احتاطوا فبنوا جدار من وراء جدار بحيث لايستطيع أحد الصلاة إلى القبر ، وطالما أن للمسجد جداره وللمقبرة جدارها، وهناك جدار يفصل بينهما فلاحرج فى الصلاة فى المسجد كما قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ

(٢) أن النبى ﷺ صلى فى مسجد الخيف وقد ورد فى الحديث أن فيه قبر سبعين نبياً !!.

الجواب: الحديث المذكور ضعيف والصحيح: «صلى فى مسجد الخيف سبعون نبياً». وحتى لو صح فأين هذه المقابر الآن؟ومن المعلوم أن الشريعة إنما تبنى أحكامها على الظاهر، وبالتالى فلا محظور فى الصلاة فى مسجد الخيف .

(٣) أن قبر إسماعيل عليه السلام وغيره فى الحجر من المسجد الحرام .

الجواب : لم يثبت فى حديث مرفوع أن إسماعيل عليه السلام أو غيره من الأنبياء الكرام دفنوا فى المسجد الحرام، ولو صح ذلك فأين هي؟

فإن قيل في باطن الأرض، فلا ضرر فالأرض باطنها للأموات وظاهرها للأحياء ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴾[المرسلات ٢٥ : ٢٦]. ولذلك لاتقصد من دون الله تعالى لكونها غير ظاهرة ولابارزة، ولايصح الإستدلال بذلك على جواز اتخاذ المساجد على قبور مرتفعة على وجه الأرض .

(٤) أن أبا جندل بنى مسجداً على قبر أبى بصير رضى الله عنهما.

الجواب : هذه شبهة لاتساوى حكايتها، إذ هذا البناء المذكور لم يثبت من أصله ولو صح لم يجز أن تُرد به الأحاديث الصريحة فى تحريم بناء المساجد على القبور، إذ ليس فى القصة أن النبى ﷺ اطلع على ذلك وأقره، وعلى فرض أن النبي ﷺ علم بذلك وأقره، فيجب أن يحمل ذلك على أنه قبل التحريم ، لأن الأحاديث صريحة فى أن النبى ﷺ حرم ذلك فى آخر حياته، فلا يجوز أن نترك النص لمتأخر من أجل النص المتقدم ـ على فرض صحته ـ عند التعارض، فكيف وهذا البناء لم يثبت.

تحريم بناء المساجد على القبور

والصلاة إليها وعليها

أولا : بعض النصوص الدالة على ذلك :

(١) قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾[الجن: ١٨]. فلا يجتمع فى دين الإسلام مسجد وقبر، وقد صار وجود القبر داخل المسجد ذريعة لصرف العبادة للمقبور

(٢) عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ فى مرضه الذى لم يقم منه: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، قالت : فلولا ذاك لأبرزَ قبره غير أنه خُشى أن يتخذ مسجداً»[(١)].

(٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[(٢)].

(١، ٢) رواه البخاري ومسلم.

(٤) عن عائشة وابن عباس رضى الله عنهم أن رسول الله ﷺ لما حضرته الوفاة جعل يلقى على وجهه طرف خميصة له، فإذا اغتم كشفها عن وجهه وهو يقول: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، تقول عائشة: يحذر مثل الذى صنعوا»(١).

(٥) عن عائشة رضى الله عنها قالت: لما كان مرض النبي ﷺ تذاكر بعض نسائه كنيسة بأرض الحبشة يقال لها : مارية ـ وقد كانت أم سلمة وأم حبيبة قد أتتا أرض الحبشة ـ فذكرت من حسنها وتصاويرها ـ قالت :

(فرفع النبى رأسه)وقال : أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح بنو على قبره مسجداً، ثم صوروا تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله { يوم القيامة }»(٢).

(٦) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

«اللهم لاتجعل قبرى وثناً، لعن الله قوماً اتخذوا قبورأنبيائهم مساجد»(٣).

(٧) عن عبد الله بن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن من شرار الناس من تدركه الساعة وهم أحياء ، ومن يتخذ القبور مساجد»(٤).

(٨) عن أمهات المؤمنين أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: كيف نبنى قبر رسول الله ﷺ ؟ أنجعله مسجداً؟ فقال أبو بكر الصديق: سمعت رسول الله ﷺ يقول : لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(٥).

(٩) عن أبى سعيد الخدرى : «أن رسول الله ﷺ نهى أن يبنى على القبور، أو يعقد عليها أو يصلى عليها»(٦).

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.
(٣) رواه أحمد وغيره بسند صحيح.
(٤) رواه أحمد وابن خزيمة وابن حبان وأبو يعلي، قال ابن تيمية: «وإسناده جيد».
(٥) رواه ابن زنجويه.
(٦) رواه أبو يعلى وقال الألباني «إسناده صحيح».

ثانياً : طائفة من أقوال أهل العلم تدل على ماذكرنا

(١) قال الحافظ العراقي: «فلو بنى مسجداً يقصد أن يدفن فى بعضه دخل فى اللعنة، بل يحرم الدفن فى المسجد، وإن شرط أن يدفن فيه لم يصح الشرط لمخالفة وقفه مسجداً» .

(٢) ترجم البخارى «باب مايكره من اتخاذ المساجد على القبور» .

(٣) قال الحافظ ابن حجر فى [فتح الباري]: «هذا الحديث رقم (٥) يدل على تحريم بناء المساجد على قبور الصالحين وتصوير صورهم فيها، كما يفعله النصاري، ولاريب أن كل واحد منهما محرم على انفراده، فتصوير صور الآدميين يحرم، وبناء القبور على المساجد بإنفراده يحرم، كما دلت عليه نصوص أخري» أ هـ

(٤) قال القرطبى فى [تفسيره ١٠/ ٣٨]: «قال علماؤنا : وهذا يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد» .

(٥) قال ابن تيمية فى [الإختيارات العلمية] صـ٥٢ : «ويحرم الإسراج على القبور، واتخاذ المساجد عليها وبيتها ويتعين إزالتها، ولاأعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين».

وسئل رحمه الله : «هل تصح الصلاة فى المساجد إذا كان فيه قبر، والناس تجتمع فيه لصلاتى الجماعة والجمعة أم لا ؟ وهل يمهد للقبور، أو يعمل عليه حاجز أو حائط ؟ **فأجاب**: الحمد لله، اتفق الأئمة أنه لايبنى مسجد علي قبر لأن النبي ﷺ قال : «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإنى أنهاكم عن ذلك». وأنه لايجوز دفن ميت فى مسجد فإن كان المسجد قبل الدفن غُيِّر، إما بتسوية القبر وإما بنبشه إن كان جديداً، وإن كان المسجد بُنى بعد القبر، فإما أن يزال المسجد، وإما أن تزال صورة القبر، فالمسجد الذى على القبر لايصلى فيه فرض ولانفل، فإنه منهى عنه» [١].

(٦) تحت عنوان «إتخاذ المساجد على القبور من الكبائر» قال الشيخ الألباني: «إن كل من يتأمل فى تلك الأحاديث الكريمة يظهر له بصورة لاشك فيها أن الإتخاذ المذكور حرام، بل إنه كبيرة من الكبائر ، لأن اللعن الوارد فيها، ووصف المخالفين

---

(١) الفتاوى (١/ ١٠٧، ٢/ ١٩٢).

بأنهم شرار الخلق عند الله تبارك وتعالى لايمكن أن يكون فى حق من يرتكب ماليس كبيرة كما لايخفى . . . وقد اتفقت المذاهب الأربعة على تحريم ذلك ومنهم من صرح بأنه كبيرة» [١] .

ما الحكم لو انتفى الافتتان بالمقبور ؟

زعم البعض أن المنع من اتخاذ القبور مساجد، كان خشية الإفتتان بالمقبور وقد زال برسوخ الإيمان فى النفوس !! .

وهذا الكلام غريب غربة الأوضاع التى نعيشها، ومنحرف كانحرافها عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، فما زال الناس يحلفون بالأولياء ويستغيثون بقبورهم ويلتمسون المدد منهم . . . فصُرفت العبادات لغير الله ووُجد من يُشرع مع الله، وقد حذر النبي ﷺ أمته من اتخاذ المساجد على القبور فى آخر حياته، بل فى مرض موته فمتى زالت العلة التى ذكرها ؟! وفى بعض الأحاديث استمرار الحكم إلى قيام الساعة.

ومن المعلوم أن الصحابة رضى الله عنهم إنما دفنوه فى حجرته ﷺ خشية أن يتخذ قبره مسجداً كما تقدم عن عائشة رضى الله عنها، وقد استمر العمل من السلف على هذا الحكم، فعن عبد الله بن شرحبيل ابن حسنة قال: رأيت عثمان بن عفان يأمر بتسوية القبور، فقيل له: هذا قبر أم عمرو بنت عثمان! فأمر به فسوى[٢]

وعن أبى الهياج الأسدى قال : قال لى على بن أبى طالب: «ألا أبعثك على مابعثنى عليه رسول الله ﷺ ؟ أن لاتدع تمثالاً إلا طمسته، ولاقبر مشرفاً إلا سويته»[٣] .

وعن أبى بردة قال : أوصى أبوموسى حين حضره الموت فقال : إذا انطلقتم بجنازتى فأسرعوا المشى ولايتبعنى بمجمر، ولاتجعلوا فى لحدى شيئاً يحول بينى وبين التراب، ولاتجعلوا على قبرى بناء وأشهدكم أنى برئ من كل حالقة، أو

---

(١) تحذير الساجد ص(٣٣).
(٢) رواه ابن أبي شيبة بسند صحيح.
(٣) رواه مسلم.

سالقـة، أو خارقة[١]، قالوا : أوسـمعت فـيه شيـئاً ؟ قـال : نعم، من رسول الله ﷺ »[٢].

وعن أنس : كان يكره أن يبنى مـسجد بين القبـور، وعن إبراهيم النخعي: أنه كان يكره أن يجـعل على القبر مسـجداً . ورأى ابن عمـر فسطاطاً على قبر عـبد الرحمن فقال: «انزعه ياغلام فإنما يظله عمله».

وعن عمـرو بن شرحـبيل قال: «لاترفـعوا جـدثى - يعنى القبـر - فإنى رأيت المهاجرين يكرهون ذلك»[٣].

إن السلامـة لايعدلها شئ والحـيطة لعدم خـدش جناب التوحيـد متأكـدة، وسد الذرائع التى تؤول بالعبـادة لمواقعة ماحـرم الله مشروعة، وكمـا هو واضح فإن علة النهى عن اتخاذ القبور مساجد لاتقتصر عـلى الإفتتان بالمقبور، بل يضاف إليها أمور أخرى كالتشبه بالنصارى وكالإسراف فى صـرف المال فيما لافائدة فيه شرعاً . . . . . وحتى علة الإفتـتان فهى مازالت باقـية لاينكرها عاقل، والشركـيات والكفريات لم تنته، فلن تقوم الساعة وأحد يقول الله الله، ولن تقوم الساعة حتى تضطرب إليات نساء دوس حول ذى الخلصة، ولن تقوم الساعة حتى تُعبد اللات والعزي.

الدفن في التابوت

صح عن سعد بن أبى وقـاص أنه قال فى مرضه الذى مات فـيه : اتخذوا لى لحد أو انصبوا عليّ اللّبن نصباً، كما صُنع برسول الله ﷺ .

وقـد ثبت عن رسـول الله ﷺ أنه قـال: «اللـحد لـنا والشق لأهل الكتـاب» واللحد هو الشق فى الأرض الرخوة.

وروى أن دانيال صلـوات الله عليه كان فـى تابوت من حجر، وقـال أبو بكر محمد بن الفضل الحنفي: ينبغى أن يفرش فـيه التراب وتطين الطبقة العليا مما يلى الميت، ويُجعل اللبن الخفيف على يمين الميت ويساره ليصير بمنزلة اللحد .

---

(١) الحالقة: هي التي تحلق شعرها عند المصيبة والسالقة: التي ترفع صوتها، والخارقة: التي تخرق ثيابها عند المصيبة.
(٢) أخرجه أحمد وإسناده قوي.
(٣) رواه ابن سعد بسند صحيح.

قال القرطبى : ومن هذا المعنى جعل القطيفة فى قبر النبى ﷺ ، فإن المدينة سَبِخة، قال شقران : «أنا والله طرحت القطيفة تحت رسول الله ﷺ فى القبر» قال الترمذى : حديث شقران حديث حسن غريب.

التركيز في العرض على الأهداف والغايات

إن الغاية من خلق الخلق، هى عبادة الله وحده، وإقامة منهج العبودية لله فى أرضه، فلابد من وضع هذه الغاية نصب الأعين أثناء دراسة حادثة أوحقبة ، ولايليق بالباحث أن ينفق كل جهده فى الوسيلة ويترك الغاية، ولاينبغى أن ننشغل بدقائق التفصيلات فى حوادث التاريخ عن العبرة من الحادث، ولايصح إنفاق الوقت والجهد فى البحث عن أمور لاطائل تحتها ولاتعود على البحث بفائدة، فليس هذا من هدف المسلم ولاغايته فى الحياة إلاأن يكون البحث فى التفصيلات مقصد شرعي، وهذا مستفاد من قوله تعالي : ﴿ **سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾[الكهف : ٢٢] .

فالخلاف حول عدد أصحاب الكهف يستخلص منه أن الناس دائماً يتعلقون بالأمور الجانبية، التى لافائدة ترجى من وراء معرفتها، ويختلفون فى ذلك ثم يخوضون بالجدل فيه بغير علم ، ويتركون المقاصد والأمور المهمة ، وهو أخذ العبرة من وراء سياق القصة، وإنه ليستوى فى أخذ العبرة أن يكون عددهم ثلاثة أوخمسة أو أقل أو أكثر، فالعبرة فى أمرهم حاصلة بالعدد القليل والكثير، لكن إذا وُجد علم صحيح، فإنه لامانع من الأخذ به وإثباته كحادثة تاريخية، وقد كان ابن عباس رضى الله عنهما يقول : كانوا سبعة وثامنهم كلبهم لقوله تعالي: ﴿ **وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾[الكهف: ٢٢]. وذلك بعد قوله سبحانه : ﴿ **رَجْمًا بِالْغَيْبِ** ﴾تعقيباً على من قال بغير ذلك .

وكان ابن عباس يقول : أنا من هذا القليل وقوله تعالى : ﴿ **فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا** ﴾ أى لاتجادل فى أصحاب الكهف إلا بما أوحيناه إليك، وهو رد علم عدتهم إلى الله تعالي، وقد نُهينا عن الجدال بلا علم، كما لايجوز الجدال

المشكك فى الدين، أو الذى يُفضى إلى مفسدة ومضرة أعظم وأُبيح الجدال بالتى هى أحسن بغية إظهار الحق ودفع الشبهات .

وقد خُتمت الآية بقوله تعالى : ﴿ وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ روى أنه ﷺ أراد أن يسأل نصارى نجران عنهم فنُهى عن السؤال ، وفى هذا دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب فى شئ من العلم .

الوقوف مع المعاني الغيبية بحسن الأدب

عاتب الله تعالى نبيه ﷺ على قوله للكفار حين سألوه عن الروح والغيبة وذى القرنين: غداً أخبركم بجواب أسئلتكم، ولم يستثنى فى ذلك، فاحتبس الوحى عنه خمسة عشر يوماً حتى شق ذلك عليه وأرجف الكفار به، فنزلت عليه سورة الكهف مفرّجة . وأمر فى قوله تعالي: ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾[الكهف] . ، ألايقول فى أمر من الأمور إنى أفعل غداً كذا وكذا، إلا أن يعلق ذلك بمشيئة الله عزوجل حتى لايكون محققاً لحكم الخبر، فإنه إذا قال: لأفعلن ذلك ولم يفعل كان كاذباً ، وإذا قال لأفعلن ذلك إن شاء الله خرج عن أن يكون محققاً للخبر عنه . ومن المعلوم أن معرفة الغيب من صفات الربوبية التى استأثر الله تعالى بها دون سواه، فلا سميٍّ له ولامضاهى ولامشارك .

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾[الأنعام: ٥٩] ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[النمل: ٦٥]

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾[الجن: ٢٦-٢٧].

﴿ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴾[النجم: ٣٥] .

فكل من ادعى معرفة المغيبات كالعراف (اسم للكاهن والمنجم والرّمال ونحوهم كالحاذر الذى يدعى علم الغيب، أو يدعى الكشف) ونحوه ممن يتكلم فى معرفة الأمور الغائبة كالدلالة على المسروق ومكان الضالة ونحوها أو المستقبلة كمجئ المطر أو رجوع الغائب أو هبوب الرياح ونحو ذلك مما استأثرالله عزوجل بعلمه فلا يعلمه ملك مقرب ولا نبى مرسل إلا من طريق الوحي.

قال تعالى لنبيه محمدﷺ : ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾[الأنعام: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾[الأعراف: ١٨٨].

ولم يعلم الرسولﷺ مكان راحلته حتى أعلمه الله بذلك وقال فى سؤال الحبر إياه فأجابهﷺ وصدقه الحبر، ثم انصرف فذهب فقال رسول اللهﷺ : «لقد سألنى هذا عن الذى سألنى عنه ومالى علم بشئ منه حتى أتانى الله عزوجل به» .

وهى فى مسلم وفيه قول عائشة رضى الله عنها لمسروق ومن زعم أن رسول اللهﷺ يخبر بما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول: ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾[النمل : ٦٥]. فليس لنا سؤال العرافين أوتصديقهم ففى الحديث: «من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمدﷺ » .

وروى مسلم عن بعض أزواج النبيﷺ عن النبيﷺ قال : «من أتى عرافاً فسأله عن شئ لم تقبل له صلاة أربعين ليلة» فهذا حكم من سأله مطلقاً، والأولى حكم من سأله وصدقه بما قال . ولما سئل رسول اللهﷺ عن الكهان، قال : «ليسوا بشئ» .

واذكر ربك إذا نسيت

أرشد الله تعالى رسولهﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شئ ليفعله فى المستقبل، أن يرد ذلك إلى مشيئة الله عز وجل علام الغيوب، الذى يعلم ماكان وما يكون ومالم يكن لو كان كيف يكون.

كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة عن رسول اللهﷺ أنه قال : «قال سليمان بن داود عليهما السلام، لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ـ وفى رواية تسعين امرأة وفى رواية مائة امرأة ـ تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل فى سبيل الله فقيل له : وفى رواية قال له الملك ـ قل إن شاء الله ـ فلم يقل، فطاف بهن، فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان، فقال رسول اللهﷺ : والذى نفسى بيده لو قال : إن شاء الله لم يحنث وكان دركاً لحاجته» وفى رواية : «و لقاتلوا فى سبيل الله فرساناً أجمعون».

فماذا يقول من نسى الإستثناء ـ إن شاء الله ـ؟ وماذا يفعل من نسى مصالحه؟.

يقول تعالي: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾[الكهف: ٢٤]. قيل: معناه إذا نسيت الإستثناء فاستثن عند ذكرك له، قاله أبو العالية والحسن ، وحُكى عن ابن عباس: أنه إن نسى الإستثناء ثم ذكر ولو بعد سنة لم يحنث إن كان حالفاً، وهو قول مجاهد.

قال القرطبى : فيحمل على تدارك التبرك بالإستثناء للتخلص عن الإثم فأما الإستثناء المفيد حكماً فلايصح إلا متصلاً .

قال ابن كثير فى تفسيره : «ومعنى قول ابن عباس أنه يستثنى ولو بعد سنة أى إذا نسى أن يقول فى حلفه أو فى كلامه ـ إن شاء الله ـ وذكر ولو بعد سنة، فالسنة له أن يقول ذلك ليكون آتياً بسنة الإستثناء، وحتى ولو كان بعد الحنث قاله ابن جرير ـ رحمه الله ـ:ونص على ذلك لا أن يكون رافعاً لحنث اليمين ومسقطاً للكفارة، وهذا الذى قاله ابن جرير ـ رحمه الله ـ هو الصحيح وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه والله أعلم» ا.هـ

وورد عن ابن عباس فى قوله : ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾[الكهف:٢٣-٢٤]. أن تقول : إن شاء الله .

وروى الطبرانى عنه أيضاً فى قوله : ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾[الكهف] الاستثناء فاستثن إذا ذكرت، وقال: هى خاصة برسول الله ﷺ وليس لأحد منا أن يستثنى إلا فى صلة من يمينه (بمعنى يقول لأفعلن كذا إن شاء الله فيتصل اليمين بالإستثناء).

قال الحسن : مادام فى مجلس الذكر . وقال السدي: أى كان صلاة نسيها إذا ذكرها (أى فليصلها وقت ذكرها) .

وقيل: استثنى باسمه ـ سبحانه ـ لئلا تنسى، وقيل: اذكره تعالى متى نسيته . وقيل : إذا نسيت شيئاً فاذكره يُذَكِّركه، وقيل: اذكره إذا نسيت غيره أونسيت نفسك، فذلك حقيقة الذكر .

وقال ابن كثير: ويحتمل فى الآية وجه آخر وهو أن يكون الله تعالى قد أرشد من نسى الشئ فى كلامه إلى ذكر الله تعالى لأن النسيان منشؤه من الشيطان كما قال فتى موسى: ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾[الكهف :٦٣].

وذكر الله تعالى يطرد الشيطان فإذا ذهب الشيطان، ذهب النسيان، فذكر الله تعالى سبب الذكر ولهذا قال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾[الكهف : ٢٤] . وقوله: ﴿وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾[الكهف: ٢٤]. أى إذا سئلت عن شئ لاتعلمه فاسأل الله تعالى فيه وتوجه إليه فى أن يوفقك للصواب والرشد فى ذلك، وقيل فى تفسيره غير ذلك والله أعلم أهـ .

وقال القرطبى فى الآية :وهذه الآية مخاطبة للنبيﷺ وهى استفتاح كلام على الأصح، وليست من الإستثناء فى اليمين بشئ، وهى بعدُ تعم جميع أمته لأنه حكم يتردد فى الناس لكثرة وقوعه ، والله الموفق أ.هـ .

هناك نسيان رُفع فيه الإثم لقوله تعالي: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[البقرة : ٢٨٦]. قال : قد فعلت، ولقول النبىﷺ : «رُفع عن أمتى الخطأ والنسيان وماستكرهوا عليه»كنسيان ركعة فى الصلاة، والأكل والشرب ناسياً أثناء الصلاة، وكمن نسى التسمية فى أول الأكل، ثم ذكره فليقل: بسم الله فى أوله وآخره. وهناك نسيان مذموم، هو نوع من الإعراض عن دين الله، والغفلة عن الله، قال تعالى : ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[الحشر : ١٩]. وقال تعالي: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الأنعام : ٤٤].

فاللهم ذكرنا مانسينا وعلمنا ماينفعنا وانفعنا بما علمتنا .

لمـاذا قيل :
﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾؟

أخبر الله تعالى عن مدة مكث الفتية فى كهفهم، فقال سبحانه : ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾[الكهف : ٢٥] . وحكى النقاش مامعناه: أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية بحساب الأيام، فلما كان الإخبار هنا للنبى العربى ذُكرت التسع، إذ المفهوم عنه من السنين القمرية، وهذه الزيادة هى مابين الحسابين ونحوه ذكر الغرفوي، أى باختلاف سنى الشمس والقمر لأنه يتفاوت فى كل ثلاث وثلاثين وثلث سنة، فيكون فى ثلاثمائة تسع سنين .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : إن بعض المفسرين زعموا أن هذا القول لبعض أهل الكتاب، لقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾[الكهف : ٢٦]. وليس كذلك فإن الله لم يذكر هذا عن أهل الكتاب بل ذكره كلاماً منه تعالى أهـ .

لاعبرة لما ورد فى التوراة والإنجيل إذا خالف ماجاء فى شرع الله، لأن الله تعهد بحفظ كتابه وسنة نبيه فقال سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[الحجر : ٩]. والتوراة والإنجيل كلاهما قد بُدل وحُرف وغُيِّر، وبالتالى فلا التفات لمن قال: إنهم مكثوا مدة لاتزيد على مائتى سنة، ولأنه لاعصمة له، والواجب رد ماتنازعنا فيه لكتاب الله ولسنة رسول الله ﷺ .

قل الله أعلم

بعد أن أخبر الله تعالى نبيه ﷺ بمدة مكثهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً أمره الله سبحانه أن يرد العلم إليه : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[الكهف : ٢٦] .

وهذا أدب جميل تأدب به علماء الأمة، فهم يحرصون على تذييل إجابتهم بقولهم: «الله أعلم» .

ويتأكد ذلك إذا سئل الإنسان عما لايعلم، أن يقول لاأدرى أو لا أعلم، إذ القول على الله بغير علم كبيرة من الكبائر، قال تعالي: ﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾[النحل: ١١٦].

وقال سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: ٣٣] .

قال بعض السلف: ليتقى أحدكم أن يقول : أحل الله كذا وحرم الله كذا فيقال له : كذبت لم أحل كذا ولم أحرم كذا .

وكان النبي ﷺ ينهى أميره بريدة أن ينزل عدوه إذا حاصرهم على حكم الله وقال : «إنك لاتدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا ولكن أنزلهم على حكمك

وحكم أصحابك» ، ففرق ﷺ بين حكم الله وحكم الأمير المجتهد الذى قد يصيب وقد يخطئ .

وكان الإمام مالك ـ رحمه الله ـ يأتيه الرجل من المغرب يسأله فلربما قال له : لاأدري، وسُئل عن بضع وأربعين مسألة فأجاب فى بضع وثلاثين منها بلا أدرى .

فنصف العلم لاأدرى ، ومن تركها أصيبت مقاتله.

قال تعالى : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[الإسراء: ٣٦] .

وكان السلف الصالح من الصحابة والتابعين يكره التسرع فى الفتوى ويود كل واحد منهم أن يكفيه غيره، فإذا رأى أنها تعينت عليه بذل اجتهاده فى معرفة حكمها من الكتاب والسنة ثم أفتى .

عن عبدالرحمن بن أبى ليلى قال : أدركت عشرين ومائة من أصحاب رسول الله ﷺ مامنهم من رجل يسأل عن شئ إلا ود أن أخاه كفاه ولايتحدث حديثاً إلا ود أن أخاه كفاه . وقال ابن عباس وابن مسعود : إن كان من أفتى الناس فى كل مايسألونه عنه لمجنون .وقال يحيى بن سعيد : أجرأ الناس على الفتيا أقلهم علماً، يكون عند الرجل الباب الواحد من العلم يظن أنه الحق كله.

وعن ابن سيرين قال : قال حذيفة : إنما يفتى الناس أحد ثلاثة من يعلم مانسخ من القرآن أو أميراً لايجد بداً أو أحمق كاذب . قال ابن سيرين : فلست بواحد من هذين ولاأحب أن أكون الثالث .

وعن عطاء قال : أدركت أقواماً إن كان أحدهم يسأل عن الشئ فيتكلم وإنه ليرع حتى كأنه ليس بالذى كان، وقال بعضهم: والله إن مالكاً كان إذا سئل عن مسألة فكأنه بين الجنة والنار، وذلك لعظم المسئولية .

فاتق الله ولاتتكلم بغير علم واخشى يوماً لايجزى والد عن ولده ولامولود هو جاز عن والده شيئاً، وإذا سئلت عما لاتعلم فقل: الله أعلم، إذ رد العلم إليه أسلم.

الخاتمة

الطاعة سبب كل خير وسعادة، فى الدنيا قبل الآخرة ، فعلى العبد أن يحرص عليهما ، ويعلم أن ماأصابه لم يكن ليخطئه، وأن ماأخطاه لم يكن ليصيبه ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا﴾[التوبة : ٥١] . فالمعصية والكفر لاتطيل عمراً، ولاتزيد رزقاً، بل هى وبال على صاحبها فى الدنيا والآخرة، والمفاجآت الغيبية، التى تظهر بين حين وآخر، تبرز فى حينها، وفى الوقت الذى يقدره الله عزوجل لحكمة عليا، إن وعد الله حق، وماعلينا إلا أن نؤمن بهذه المواعيد الصادقة بنصر الله المؤمنين وببعث الأموات، وأن الساعة آتية لاريب فيها .... وأن نعلم أنه ماآمن أحداً إيماناً أفضل من إيمان بغيب ، وهذا الإيمان لاينفى الأخذ بالأسباب المعنوية، فقد عاش أصحاب الكهف أحياء، بدون السبب العادى الكونى للحياة وهو الطعام والشراب، ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً، فالأسباب والمسببات بيد الله ، وخالق السبب قادر على تعطيله ، وهو سبحانه الذى قال للنار :كونى برداً وسلاماً على إبراهيم.

فعلى القلوب أن تتعلق بربها وتنيب إليه، وتستند إلى الأسباب المعنوية التى رضى الله عنها، تفعل ذلك وهى تأخذ بالأسباب المادية، فلا تعارض بين الإيمان والسعى طلباً للسلامة والنجاة ، وهذه تجارة رابحة، الأخذ بها ثقة فى الله واستعانة بالله، ولا أحد أقوى ولا أغنى ولا أكرم من الله تعالي، لقد نشر الله رحمته على أهل الإيمان فى كهف ضيق، وهيأ لهم من أمره أمناً على دينهم وحياتهم ونجاة مما خافوا والله يفعل مايشاء ويحكم مايريد.

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

وكتبه

سعيد عبد العظيم

١٨ ربيع الأول ١٤١٧هـ

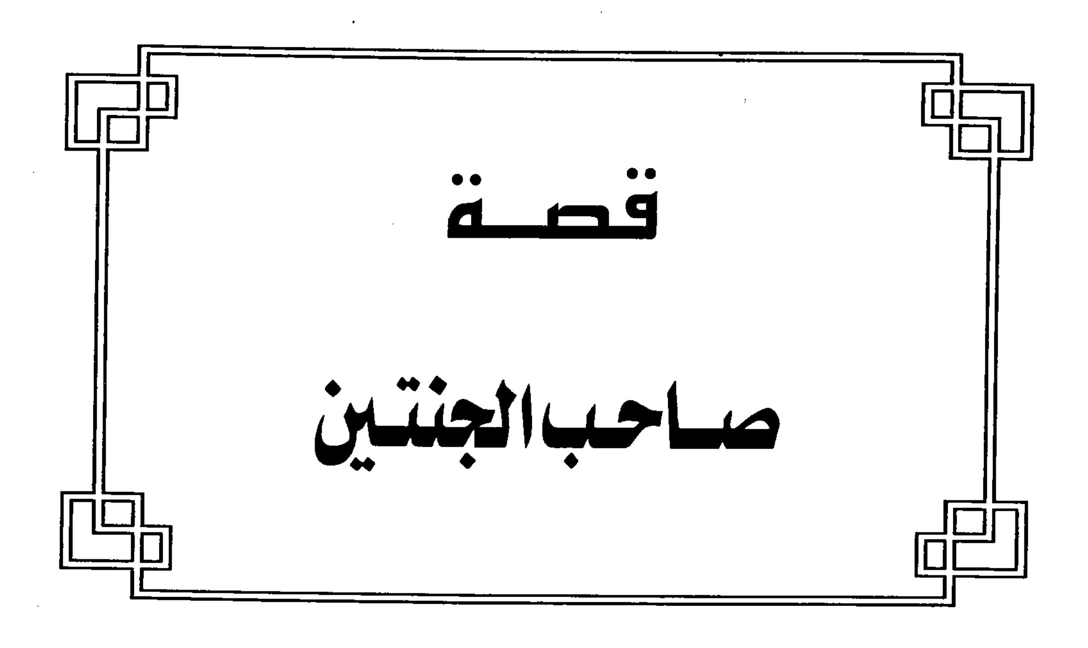
الموافق ٢٤ يوليو ١٩٩٦م

أخي الكريم :

احـرص على متـابعة سلسـلة قصص القـرآن عظات وعبـر، ففيهـا القدوة فى الصالحين وطريق الدعوة القويم وفـيه الصبر فى الشدائد ومنها نستلهم الواقع.

هذه القصص التي قصها الله سبحانه على نبيه الكريم ليثبت بها فؤاده فـى طريقه في الدعوة إلى الله، فمـا أحوجنا نحن فى هذه الأيام إلى تلك القصص بعظاتها الشاملة.

- قـصـة أهل الكهف
- قـصـة صاحب الجنتين
- قـصـة موسي والخضر
- قـصـة ذي القرنين
- قـصـة صاحب يس
- قـصـة مؤمن آل فرعون
- قـصـة أصحاب الأخدود



قصة

صاحب الجنتين



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار.

قصة صاحب الجنتين هى القصة الثانية فى سورة الكهف بعد قصة أصحاب الكهف وهم الفتية الذين آمنوا بربهم، ويعقبها قصة آدم وإبليس ثم قصة موسى والخضر، وتأتى قصة ذى القرنين فى نهاية السورة.

وقصة صاحب الجنتين تدور حول تصحيح العقيدة، ففيها يقول المؤمن لصاحبه وهو يحاوره: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾[الكهف: ٣٧-٣٨].

ويأتي في التعقيب عليها قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾[الكهف: ٤٣-٤٤] وهي قصة حدثت وتتكرر بين حين وآخر، هنا وهناك، على مستوى الفرد والدولة والجماعة، تصور حالة من حالات الغرور والطغيان تحدث عند البعض نتيجة تملك عرض من أعراض الدنيا الفانية، مال أو جاه أو سلطان، مما يجعله ينسى نفسه، وأن المرجع والمآب إلى الله، وقد تدفعه هذه الحالة إلى التطاول على المؤمنين وتنقصهم واتهامهم بأنهم لم يحسنوا التعامل مع الدنيا، ولم يفهموها على حقيقتها !!! .

وفى مواجهة هذا الصلف، يعتز المؤمن بإيمانه، فلا ينخدع بظل زائل وزخارف ونقوش سرعان ما تنتهي، لقد وقف المؤمن على أرض صلبة، وعلم من خلقه ولماذا خلقه وإلى أين المصير؟ ولذلك فهو يواجه صاحبه المبطل الذى أعمته الدنيا عن الدين ويقول له: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾[الكهف: ٣٧-٤١].

إن النعمة تستوجب الشكر لا الجحود والكفر، ومن جهل ذلك اليوم فغداً لا محالة سينجلى وينكشف له الأمر، والخوف كله من أن يضرب الإنسان كف نادم بعد فوات الأوان. فحياتنا قصيرة قصيرة، والكون الذى نعيش فيه محكم ومنظم، يسير وفق أمر الله وقدرته سبحانه .

وعقب القصة يضرب مثلاً للحياة الدنيا وسرعة زوالها: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[الكهف: ٤٥].

وتأتي هذه المقابلة بين القيم الزائلة والقيم الباقية: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[الكهف: ٤٦].

إن القصة تعـرض سنة من سنن الله الماضية فى خلقـه، وهى سنة التدافع، بين الإيمان والكفر والحق والباطل، وفى ثنايا ذلك تأتى المشاهد المتـقابلة، مشهد النماء والإزدهار المتمثل فى الجنتين، إلى مشهد الدمار والبوار، ومشهد البطر والاستكبار المتمثل فى صاحب الجنتين المشرك إلى مشهد الندم بعد فوات الأوان ﴿**وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا**﴾[الكهف: ٤٢].

إن سورة الكهف هى إحـدى السور المكيـة، أى أنها نزلت قبل الهـجرة، وهى تحمل خـصائص وطابع القرآن المكى من حـيث التركيز عـلى العقيدة . . وتثـبيت قلب رسول الله ﷺ وصـحابتـه الكرام ﷺ فى مـواجهـتهم لصلف وغـرور المشركين، ولذلك فقصة صـاحب الجنتين تؤدى هذا الغرض على أكمل وجه، فإن كان الكفار قد افـتخروا بأموالهم وأشياعهم على فقـراء المسلمين، فهذا من الجهل بمكان وهو لا يوجب الافتخـار لاحتمال أن يصير الـفقير غنياً والغنى فقـيراً، وما الفخـر الحقيقى إلا لأهـل الإيمان الذين يعلمون الحق ويرحمـون الخلق، وبهم قام الإسلام وبه قاموا، أبصروا فى ضوء الـكتاب والسنة الغاية التى من أجلها خُلقوا، فنفضوا أيديهم من الوهم والسراب، وتعلقوا بخالق الأرض والسماوات، وارتحلوا إلى ربهم متـزودين بالصالحات وتـشابهوا فى ذلك بمن تقـدمهم بإحسـان، وذكره سبحانه عظة وعبرة لأولى الألباب .

فاللهم ارزقنا توبـة صادقة قبل المـمات، وأقلنا من العثـرات والزلات، وأسبغ علينا من الرحمات والبركات ما يكون لـنا هادياً وسبيلاً إلى الجنات، فأنت ملاذنا وأنت ولينا يا خالق الأرض والسماوات .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبـه

سعيـد عبـد العظـيم



قصة صاحب الجنتين في القرآن

وردت هذه القصة فى سورة الكهف كحكاية عما جرى بينهما فى الدنيا، ثم ذُكرت عاقبة كلٍ منهما فى الآخرة وذلك فى سورة الصافات .

قال تعالي: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾[الكهف: ٣٢-٤٤]. (١)

وهذه قصة رجلين كانا شريكين فى بنى إسرائيل، وقد ذكروا أنها تدخل ضمن عموم هذه الآية: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾

[الصافات: ٥٠-٦١]

(١) حسبانا: جمع حسبانه وهي الصاعقة. القرين: تطلق علي شيطان الإنس والجن يتعاونان وكل منهما يوسوس سواء الجحيم: وسط الجحيم. لتردين: لتهلكني ، المحضرين: أي في العذاب.

القصة كما وردت في كتب التفسير

خلاصة ما ورد أن صاحبين أو أخوين من بنى إسرائيل أو من هذه الأمة كان أحدهما مؤمناً والآخر كافراً، فأنفق المؤمن ماله فى طاعة الله، بينما حرص الكافر على تثمير وتنمية ماله، وقد جرت بينهما هذه المحاورة التى قصها الله علينا فى كتابه .

قوله تعالي: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ﴾[الكهف: ٣٢] هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة المؤمنين، وهو متصل بقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾[الكهف: ٢٨] واختلف فى اسم هذين الرجلين وتعيينهما، فقال الكلبي: نزلت فى أخوين من أهل مكة مخزوميين، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، زوج أم سلمة قبل النبي ﷺ، والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد، وهما الأخوان المذكوران فى سورة «الصافات» فى قوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾[الصافات: ٥١] ورث كل واحد منهما أربعة آلاف دينار، فأنفق أحدهما ماله فى سبيل الله وطلب من أخيه شيئاً فقال ما قا، ذكره الثعلبى والقشيري. وقيل: نزلت فى النبي ﷺ وأهل مكة. وقيل: هو مثل لجميع من آمن بالله وجميع من كفر، وقيل: هو مثل لعيينة بن حصن وأصحابه مع سلمان وصهيب وأصحابه، شبههم الله بالرجلين من بنى إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا، فى قول ابن عباس. وقال مقاتل: اسمه تمليخاً. والآخر كافر واسمه قرطوش. وهما اللذان وصفهما الله تعالى فى سورة الصافات. وكذا ذكر محمد بن الحسن المقرئ قال: اسم الخير منهما تمليخا، والآخر قرطوش، وأنهما كانا شريكين ثم اقتسما المال فصار لكل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار، فاشترى المؤمن منهما عبيداً بألف وأعتقهم، وبالألف الثانية ثياباً فكسا العُراة، وبالألف الثالثة طعاماً فأطعم الجوع، وبنى أيضاً مساجد، وفعل خيراً، وأما الآخر فنكح بماله نساء ذوات يسار، واشترى دواب وبقراً فاستنتجها فنمت له نماء مفرطاً، وأتجر بباقيها فربح حتى فاق أهل زمانه غني، وأدركت الأول الحاجة، فأراد أن يستخدم نفسه فى جنة يخدمها فقال: لو ذهبت لشريكى وصاحبى فسألته

أن يستخدمني في بعض جناته رجوت أن يكون ذلك أصلح بي، فجاءه فلم يكد يصل إليه من غلظ الحجاب، فلما دخل عليه وعرفه وسأله حاجته قال له: ألم أكن قاسمتك المال نصفين! فما صنعت بمالك؟ قال: اشتريت به من الله تعالى ما هو خير منه وأبقى فقال: أئنك لمن المصدقين، ما أظن الساعة قائمة! وما أراك إلا سفيهاً، وما جزاؤك عندى على سفاهتك إلا الحرمان، أو ما ترى ما صنعت أنا بمالى حتى آل إلى ما تراه من الثروة وحسن الحال، وذلك أنى كسبت وسفهت أنت، اخرج عني. ثم كان من قصة هذا الغنى ما ذكره الله تعالى فى القرآن من الإحاطة بثمره وذهابها أصلاً بما أرسل عليها من السماء من الحسبان. وقد ذكر الثعلبى هذه القصة بلفظ آخر، والمعنى متقارب. قال عطاء: كانا شريكين لهما ثمانية آلاف دينار. وقيل: ورثاه من أبيهما وكانا أخوين فاقتسماها، فاشترى أحدهما أرضاً بألف دينار، فقال صاحبه: اللهم إن فلاناً قد اشترى أرضاً بألف دينار وإنى اشتريت منك أرضاً فى الجنة بألف دينار فتصدق بها، ثم إن صاحبه بنى داراً بألف دينار فقال: اللهم إن فلاناً بنى داراً بألف دينار وإنى أشترى منك داراً فى الجنة بألف دينار، فتصدق بها، ثم تزوج امرأة فأنفق عليها ألف دينار، فقال: اللهم إن فلاناً تزوج امرأة بألف دينار وإنى أخطب إليك من نساء الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار. ثم اشترى خدماً ومتاعاً بألف دينار، وإنى أشترى منك خدماً ومتاعاً من الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار. ثم أصابته حاجة شديدة فقال: لعل صاحبى ينالُنى معروفه فأتاه فقال: ما فعل مالُك؟ فأخبره قصته فقال: وإنك لمن المصدقين بهذا الحديث! والله لا أعطيك شيئاً! ثم قال له: أنت تعبد إله السماء، وأنا لا أعبد إلا صنماً، فقال صاحبه: والله لأعظنه، فوعظه وذكره وخوفه. فقال: سر بنا نصطد السمك، فمن صاد أكثر فهو على حق، فقال له: يا أخي! إن الدنيا أحقر عند الله من أن يجعلها ثواباً لمحسن أو عقاباً لكافر. قال: فأكرهه على الخروج معه، فابتلاهما الله، فجعل الكافر يرمى شبكته ويسمى باسم صنمه، فتطلع متدفقة سمكاً. وجعل المؤمن يرمى شبكته ويسمى باسم الله فلا يطلع له فيها شئ، فقال له: كيف تري! أنا أكثر منك فى الدنيا نصيباً ومنزلةً ونفراً، كذلك أكون أفضل منك فى الآخرة إن كان ما تقول بزعمك

حقاً قال: فضج الملك الموكل بهما، فأمر الله تعالى جبريل أن يأخذه فيذهب به إلى الجنان فيريه منازل المؤمن فيها، فلما رأى ما أعد الله له قال: وعزتك لا يضره ما ناله من الدنيا بعد ما يكون مصيره إلى هذا، وأراه منازل الكافر فى جهنم فقال: وعزتك لا ينفعه ما أصابه من الدنيا بعد أن يكون مصيره إلى هذا، ثم إن الله تعالى توفى المؤمن وأهلك الكافر بعذاب من عنده، فلما استقر المؤمن فى الجنة ورأى ما أعد الله له أقبل هو وأصحابه يتساءلون، فقال: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ الآية، فنادى مناد: يا أهل الجنة هل أنتم مطلعون فاطلع إلى جهنم فرآه فى سواء الجحيم، فنزلت: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً﴾ [الكهف: ٣٢].

بين الله تعالى حال الأخوين فى الدنيا فى هذه السورة، وبين حالهما فى الآخرة فى سورة «الصافات» فى قوله: ﴿يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾[الصافات: ٥٢-٦٢].

قال ابن عطية: وذكر إبراهيم بن القاسم الكاتب فى كتابه فى عجائب البلاد أن بحيرة تنيس كانت هاتين الجنتين، وكانتا لأخوين فباع أحدهما نصيبه من الآخر فأنفق فى طاعة الله حتى عيره الآخر، وجرت بينهما المحاورة فغرقها الله تعالى فى ليلة، وإياها عنى بهذه الآية. وقد قيل: إن هذا مثل ضربه الله تعالى لهذه الأمة، وليس بخبر عن حال متقدمة، لتزهد فى الدنيا وترغب فى الآخرة، وجعله زجراً وإنذاراً، ذكره الماوردي. وسياق الآية يدل على خلاف هذا، والله أعلم .

قصة صاحب الجنتين مثل مضروب لحال الكافرين والمؤمنين

قال تعالي: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ﴾[الكهف: ٣٢] أى مثل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين كانا أخوين فى بنى إسرائيل فهذا مثل من أمثال القرآن، وقد ذكر الله فى كتابه العزيز أنه يضرب الأمثال ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الحشر: ٢١].

﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[العنكبوت: ٤٣].

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[الزمر: ٢٧].

وعن على رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله أنزل القرآن أمراً وزاجراً، وسنة خالية ومثلاً مضروباً». (١)

ويطلق المثل على الحال والقصة العجيبة الشأن كقوله تعالي: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾[محمد: ١٥] أى قصتها التى يتعجب منها .

والمثل فى القرآن عبارة عن إبراز المعنى فى صورة رائعة موجزة لها وقعها فى النفس سواء كانت تشبيهاً أو قولاً مرسلاً .

قال ابن القيم فى أمثال القرآن: «تشبيه شئ بشئ في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر...»أ.هـ

والأمثال فى القرآن ثلاثة أنواع :

(١) الأمثال المصرحة .

(٢) الأمثال الكامنة .

(٣) الأمثال المرسلة .

---

(١) رواه الترمذي.

(١) الأمثال المصرحة :

هى ما صرح فيها بلفظ المثل أو ما يدل على التشبيه كقوله تعالى في حق المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة: ١٧-٢٠].

(٢) الأمثال الكامنة :

وهى التى لم يصرح فيها بلفظ التمثيل ولكنها تدل على معان رائعة فى إيجاز مثل: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾[الإسراء: ٢٩].

وقوله: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ١١٠].

(٣) الأمثال المرسلة :

وهى جُمل أرسلت إرسالاً من غير تصريح بلفظ التشبيه فهى آيات جارية مجرى الأمثال مثل ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾[يوسف: ٥١].

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾[النجم: ٥٨] ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[الأنعام: ٦٧] ﴿أليس الصبح بقريب﴾[هود: ٥٨] ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾[فاطر: ٤٣] ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[المؤمنون: ٥٣] والحرج الكبير هنا فى أن يقصد الرجل إلى التظاهر بالبراعة فيتمثل بالقرآن حتى فى مقام الهزل والمزاح .

وكما عنى العلماء بأمثال القرآن فإنهم عنوا كذلك بالأمثال النبوية، وعقد لها الترمذى باباً فى جامعه أورد فيه أربعين حديثاً .

ومن العلماء من أفرد الأمثال فى القرآن بالتأليف كالماوردى ومنهم من عقد لها باباً فى كتاب من كتبه كالسيوطى فى الإتقان وابن القيم فى أعلام الموقعين، وقد بلغ بها بضعة وأربعين مثلاً .

والأمثال تبرز المعقول فى صورة المحسوس الذى يلمسه الناس كمثل المنفق رياء حيث لا ينتفع بصدقته ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ﴾[البقرة: ٢٦٤].

وتكشف الأمثال عن الحقائق، وتعرض الغائب فى معرض الحاضر كقوله تعالي: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾[البقرة: ٢٧٥].

ويضرب المثل للترغيب فى الممثل كما فى قوله تعالي: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦١].

ويضرب المثل للتنفير حيث يكون الممثل به مما تكرهه النفوس كقوله تعالى فى النهى عن الغيبة: ﴿وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[الحجرات: ١٢].

ويضرب المثل لمدح الممثل كقوله تعالى فى الصحابة: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾[الفتح: ٢٩].

والأمثال أوقع فى النفس وأبلغ فى الوعظ وأقوى فى الزجر وأقوم فى الإقناع، ولذلك أكثر الله تعالى الأمثال فى القرآن للتذكرة والعبرة. وضربها النبي ﷺ فى حديثه، واستعان بها الداعون إلى الله فى كل عصر لنصرة الحق وإقامة الحجة. فاستخدم أمثال القرآن والسنة، ومن جملتها المثل المضروب فى قصة صاحب الجنتين لتبسيط المعاني، وإزالة الشبهات، وتشويق النفوس للعمل بطاعة الله وتنفيرها من كل ما يغضب الله تعالى .

القصة صورة للتواصل العجيب بين الدنيا والآخرة

الدنيا والآخـرة حسـبة واحدة وطريق واحـد، فاليوم عـمل ولا حسـاب وغداً حساب ولا عـمل، وقد ارتحلت الدنيا مدبرة وارتحلت الآخرة مـقبلة، وما من يوم يمر علينا إلا ويقـربنا من لقاء الله، فـما أنت إلا أيام مجـموعـة، وإذا مضى يوم مضى بعضك، ولذا قالوا: كيف يفرح بالدنيا من يومـه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنتـه تهدم عمره، وعمـره يقوده إلى أجله وحياته تـقوده إلى موته ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[آل عمران: ١٨٥] وأنت من التراب وإلى التراب تعـود، أنت اليوم حى وغداً مـيت، فاستقم كـما أمرت فـما هى لحظات معدودات، وتنتـهى فترة الإختـبار والإمتحان، ويلقى كل منـا ربه، حيث يُجازى المحسن بإحسانه والمسيئ بإساءته، والأمر إما جنة وإما نار.

قال تعالي: ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾

[المؤمنون: ١١٢-١١٥]

وقصة صاحب الجنتين تحكى لنا صورة من صور التواصل السريع والعجيب بين الدنيا والآخـرة، فقد انتقلت بـنا من حكاية ما حدث بين الرجلين هنا لتـصور لنا نهاية كـلٍ منهما هناك وكـأن قد، فـالأحداث متـلاحقـة، والدنيا سـريعة الزوال والانتهاء، والسعيد من وُعظ بغيره، وشبـيه بهذا التواصل السريع ما جاء فى قوله تعالي: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[المؤمنون: ١٢-١٤] ثم يأتى بعد ذكر مراحل نمو الجنين فى بطن أمه، قوله تعالي: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾

[المؤمنون: ١٥]

وكذلك ما ورد في قصة صاحب يس، فـقد أتى من أقصى المدينة يسعى قال : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ⟨٢٠⟩ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ⟨٢١⟩ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ⟨٢٢⟩ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ ⟨٢٣⟩ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ⟨٢٤⟩ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾[يس: ٢٠-٢٥] فلما أخذوه وقتلوه نصحهم ميتاً كما نصحهم حياً قال: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ⟨٢٦⟩ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾[يس: ٢٦-٢٧]

وهكذا تواصلت الحياتين سريعاً، وهذا هو الشأن فى قـصة فرعون، فقد أغرقه سبحانه فى اليم وقال: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾[يونس: ٩٢] ولم تكن هذه نهاية أمره فـقد أوضحت الآيات ما يعانيـه الآن، قال تعالي: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾

[غافر: ٤٦].

وكثير ما يأتى خبر الساعة بصيغة الماضى لتحقق وقوعه وقرب ذلك قال تعالي: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[النحل: ١] وقـال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾[القمر: ١] وقال: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾

[الأنبياء: ١].

وفى قصة صـاحب الجنتين، وكأن الرجلين سرعان مـا قُبضا ومـاتا وانتقلا إلى الله تعالى وكما اختلف حالهـما فى الدنيا، فكذلك لم يتساويا فى الآخرة ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[الشورى: ٧].

فعلى المسـلم أن لا ينافس فى عز الدنيـا ولا يجزع من ذلها فلـه شأن وللناس شأن وعليه أن يتـحقق سرعة الرحيل، فـلا داعى لطول الأمل ولا لليأس والقنوط من رحمة الله، وإلا فـما هى إلا لحظات معدودات، ولو غُمس فى الجنة غـمسة واحدة لنسى معها بؤس الدنيا وشقائها .

زيارة أهل الجنة بعضهم بعضاً وتذاكرهم ما كان بينهم في الدنيا

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾[الصافات: ٢٧] أى عن أحوالهم وكيف كانوا فى الدنيا وماذا كانوا يعانون فى مجالسهم وهو جلوس على السرر والخدم بين أيديهم يجيئون بكل خير عظيم من مأكل وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

قال ابن القيم: إن أهل الجنة أقبل بعضهم على بعض يتحدثون ويسأل بعضهم بعضاً عن أحوال كانت فى الدنيا فأفضت بهم المحادثة والمذاكرة إلى أن قال قائل منهم: إنى كان لى قرين فى الدنيا ينكر البعث والدار الآخرة ويقول ما حكاه الله عنه يقول: أئنك لمن المصدقين بأنا نبعث ونجازى بأعمالنا ونحاسب بها بعد أن مزقنا البلى وكنا تراباً وعظاماً ثم يقول المؤمن لإخوانه فى الجنة: هل أنتم مطلعون فى النار لننظر منزلة قرينى هذا وما صار إليه.

هذا أظهر الأقوال وفيها قولان آخران (أحدهما) أن الملائكة تقول لهؤلاء المتذاكرين الذين يحدث بعضهم بعضاً: هل أنتم مطلعون رواه عطاء عن ابن عباس (والثاني) أنه من قول الله عز وجل لأهل الجنة يقول لهم: هل أنتم مطلعون والصحيح القول الأول وأن هذا قول المؤمن لأصحابه ومحادثيه والسياق كله والإخبار عنه وعن حال قرينه قال كعب: «بين الجنة والنار كوى فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدو كان له فى الدنيا اطلع من بعض تلك الكوي» (وقوله) فاطلع أى أشرف قال مقاتل: لما قال لأهل الجنة: هل أنتم مطلعون قالوا له: أنت أعرف به منا فاطلع أنت فأشرف فرأى قرينه فى سواء الجحيم ولولا أن الله عرفه إياه لما عرفه لقد تغير وجهه ولونه وغيره العذاب أشد تغيير فعندها قال: تالله إن كدت لتردين ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين أى إن كدت لتهلكنى ولولا أن أنعم الله على بنعمته لكنت من المحضرين معك فى العذاب وقال تعالي: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾[الروم: ٢٥-٢٨]

وقال الطبرانى حدثنا الحسن بن إسحاق حدثنا سهل بن عثمان حدثنا المسيب بن شريك عن بشر بن نمير عن القاسم عن أبى أمامة قال سئل رسول الله ﷺ :

«أيتزاور أهل الجنة؟ قال: يزور الأعلى الأسفل ولا يزور الأسفل الأعلى إلا اللذين يتحابون فى الله يأتون منها حيث شاؤا على النوق محتقبين الحشايا»[١] .

وقال الدورقى حدثنا أبو سلمة التبوذكى حدثنا سلمان بن المغيرة عن حميد بن هلال قال: **«بلغنا أن أهل الجنة يزور الأعلى الأسفل ولا يزور الأسفل الأعلى»** وقد تقدم حديث علقمة بن مرثد عن يحى بن إسحاق عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة . وقال الطبرانى حدثنا محمد بن عبدوس حدثنا الحسن بن حماد حدثنا جابر بن نوح عن واصل بن السائب عن أبى سورة عن أبى أيوب يرفعه **«إن أهل الجنة يتزاورون على النجائب»**[٢] وقد تقدم، فأهل الجنة يتزاورون فيها ويستزير بعضهم بعضاً وبذلك تتم لذتهم وسرورهم ولهذا قال حارثة للنبي ﷺ وقد سأله: **«كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت مؤمناً حقاً، قال إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ قال عزفت**[٣] **نفسي عن الدنيا فاسهرت ليلى وأظمأت نهاري وكأني أنظر إلى عرش ربى بارزاً، وإلى أهل الجنة يتزاورون فيها وإلى أهل النار يعذبون فيها، فقال: عبد نور الله قلبه»**[٤] .

وقال ابن أبى الدنيا حدثنا عبد الله حدثنا سلمة بن شيب حدثنا سعيد بن دينار عن الربيع بن صبيح عن الحسن عن أنس قال قال رسول الله ﷺ : **«إذا دخل أهل الجنة الجنة فيشتاق الإخوان بعضهم إلى بعض قال فيسير سرير هذا إلى سرير هذا وسرير هذا إلى سرير هذا حتى يجتمعا جميعاً فيقول أحدهما لصاحبه تعلم متى غفر الله لنا؟ فيقول صاحبه: يوم كنا فى موضع كذا وكذا فدعونا الله فغفر لنا»**[٥] . قال وحدثنى حمزة بن العباس أنبأنا عبد الله بن عثمان أنبأنا ابن المبارك أنبأنا إسماعيل بن عياش قال حدثنى ثعلبة بن مسلم عن أيوب بن بشير العجلى

---

(١) أي جعلوا وراءهم الفرش، والحشايا القرش واحدها حشية .إسناده صعيف فيه بشر بن نمير متروك متهم.

(٢) إسناده ضعيف لضعف واصل بن السائب وجابر بن نوح وأبي سورة.

(٣) عزفت نفسي عن الدنيا أي كرهتها وعافتها .

(٤) حديث ضعيف : قال الهيثمي في مجمع الزرائد : فيه يوسف لن عطيه لا يحتج به ، وقال بن حجر في الإصابة : قال البيهقي هذا منكر.

(٥) وإذا تذاكروا وما كان بينهم فتذاكروا فيما كان يشكل عليهم في الدنيا من مسائل العلم وفهم القرآن والسنة ألذ من الطعام والشراب والجماع فتذاكر ذلك في الجنة أعظم لذة وهذة لذة يختص بها أهل العلم ويتميزون بها علي من عداهم.

عن شفى بن مانع أن رسول الله ﷺ قال: «إن من نعيم أهل الجنة أنهم يتزاورون على المطايا والنجب وأنهم يؤتون فى الجنة بخيل مسرجة ملجمة لا تروث ولا تبول فيركبونها حتى ينتهوا حيث شاء الله عز وجل فيأتيهم مثل السحابة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت فيقولون: أمطرى علينا فما يزال المطر عليهم حتى ينتهي ذلك فوق أمانيهم ثم يبعث الله ريحاً غير مؤذية فتنسف كثائب من مسك عن أيمانهم وعن شمائلهم فيأخذ ذلك المسك فى نواصى خيولهم وفى مفارقهم وفى رؤوسهم ولكل رجل منهم جمة على ما اشتهت نفسه فيتعلق ذلك المسك فى تلك الجمام وفى الخيل وفيما سوى ذلك من الثياب ثم يقبلون حتى ينتهوا إلى ما شاء الله تعالى فإذا المرأة تنادى بعض أولئك: يا عبد الله أما لك فينا حاجة؟ فيقول: ما أنت ومن أنت؟ فتقول: أنا زوجتك وحبك فيقول ما كنت علمت بمكانك، فتقول المرأة: أو ما علمت أن الله قال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] فيقول: بلى وربى فلعله يشتغل عنها بعد ذلك الموقف أربعين خريفاً لا يلتفت ولا يعود ما يشغله عنها إلا ما هو فيه من النعيم والكرامة» حدثنى حمزة أنبأنى عبد الله بن عثمان أنبأنا ابن المبارك أنبأنا رشدين بن سعد قال حدثنى ابن أنعم أنا أبا هريرة قال: «إن أهل الجنة ليتزاورون على العيس الجون[1] عليها رحال الميس[2] تثير مناسمها[3] غبار المسك، خطام أو زمام أحدها خير من الدنيا وما فيها» وذكر ابن أبى الدنيا من حديث أبى اليمان حدثنا إسماعيل بن عياش عن عمرو بن محمد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبى هريرة عن النبي ﷺ أنه سأل جبريل عن هذه الآية ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٧] قال: هم الشهداء يبعثهم الله متقلدين أسيافهم حول عرشه فأتاهم ملائكة من المحشر بنجائب من ياقوت أزمتها الدر الأبيض برحال الذهب أعنقاها السندس والاستبرق ونمارقها ألين من الحرير مد خطاها مد أبصار الرجال يسيرون فى الجنة على خيول يقولون عند طول النزهة: انطلقوا بنا ننظر كيف يقضى الله بين خلقه يضحك الله إليهم وإذا ضحك الله إلى عبد فى موطن فلا حساب عليه».

---

(١) هي الإبل البيض مع سواد يسير واحدها أعيس وعيساء.

(٢) الميس شجر صلب تعمل منه أكوار الإبل ورحالها.

(٣) أي أخفاها.

قال ابن أبى الدنيا وحدثنا الفضل ابن جعفر ابن حسن حدثنا أبى عن الحسن بن على عن على قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن فى الجنة لشجرة يخرج من أعلاها حلل ومن أسفلها خيل من ذهب مسرجة ملجمة من در وياقوت لا تروث ولا تبول لها أجنحة خطوها مد بصرها فيركبها أهل الجنة فتطير بهم حيث شاؤوا فيقول الذين أسفل منهم درجة: يا رب بما بلغ عبادك هذه الكرامة؟ قال: فيقال لهم: كانوا يصلون فى الليل وكنتم تنامون، وكانوا يصومون وكنتم تأكلون، وكانوا ينفقون وكنتم تبخلون وكانوا يقاتلون وكنتم تجبنون**» .

قال : ولهم زيارة أخرى أعلى من هذه وأجل وذلك حين يزورون ربهم تبارك وتعالى فيريهم وجهه ويسمعهم كلامه ويحل عليهم رضوانه [١] .

المؤمن في الجنة يطلع على الكافر فيزداد شكراً

الجنة عالية والنار هاوية، والجنة فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون، وأهلها ينادى عليهم إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وأن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وأن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وأن تنعموا فلا تيأسوا أبداً.

قال تعالي: ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾[يونس: ٦٢-٦٤].

وفى حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**يأكل أهل الجنة فيها ويشربون ولا يتمخطون ولا يتغوطون ولا يبولون ويكون طعامهم ذلك جشاءً ورشحاً كرشح المسك، يلهمون التسبيح والحمد كما يلهمون النفس**»[٢] فلا حزن ولا تكدير بل نعيم مقيم .

وقوله تعالي: ﴿**فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ**﴾[الصافات: ٥٥] لا تعارض بينه وبين ما ورد فى نصوص الكتاب والسنة إذ أنها خرجت من مشكاة واحدة، وقد

---

(١) حادي الأرواح ص٢٤٤-٢٤٧ طبعة دار الحديث.

(٢) رواه مسلم .

ذكر العلماء: أن المؤمن اطلع فى الكوى الموجودة بين الجنة والنار فرأى صاحبه الكافر وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد فعرفه ورأى جماجم القوم تغلى فازداد شكراً لله تعالى وهذا من تمام وكمال نعيم أهل الجنة .

المؤمن لا يتذكر في الجنة أشد عليه من الموت في الدنيا

يتذكر المؤمن ما مر عليه في الدنيا من الشدة فلا يذكر أشد عليه من الموت وهذا معنى قوله تعالي: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الصافات: ٥٩]

وقد وردت النصوص تفيد ذبح الموت بين الجنة والنار .

قال ابن القيم : قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[مريم: ٣٩].

وعن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : **«يجاء بالموت كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، ثم يقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون : هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح، قال: ثم يقال: ياأهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾**[مريم: ٣٩]

وفى الصحيحين أيضا من حديث ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقوم مؤذن بينهم فيقول يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت كل خالد فيما هو فيه»** وعنه قال: قال رسول الله ﷺ : **«إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار أتى بالموت حتى يجعل بين النار والجنة ثم ينادى يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت فيزداد أهل الجنة فرحاً ويزداد أهل النار حزناً إلى جهنم »**.

وعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا دخل أهل الجنة الجنة**

(١) الحديث متفق عليه .

وأهل النار النار أتى بالموت ملبياً فيوقف على السور الذى بين أهل الجنة وأهل النار ثم يقال يا أهل الجنة فيطلعون خائفين ثم يقال ياأهل النار فيطلعون مستبشرين يرجون الشفاعة فيقال لأهل الجنة وأهل النار هل تعرفون هذا؟ فيقول هؤلاء وهؤلاء: قد عرفناه هو الموت الذى وكل بنا فيضجع فيذبح ذبحاً على السور ثم يقال: يا أهل الجنة خلود لا موت، ويا أهل النار خلود لا موت» [(١)].

وهذا الكبش والإضجاع والذبح ومعاينة الفريقين ذلك حقيقة لا خيال ولا تمثيل كما أخطأ فيه بعض الناس خطأ قبيحاً وقال: الموت عرض والعرض لا يتجسم فضلاً عن أن يذبح وهذا لا يصح فإن الله سبحانه وتعالى ينشئ من الموت صورة كبش يذبح كما ينشئ من الأعمال صوراً معاينة يثاب بها ويعاقب والله تعالى ينشئ من الأعراض أجساماً تكون الأعراض مادة لها وينشئ من الأجسام أعراضاً كما ينشئ سبحانه وتعالى من الأعراض أعراضاً ومن الأجسام أجساماً فالأقسام الأربعة ممكنة مقدورة للرب تعالى ولا يستلزم جمعاً بين النقيضين ولا شيئاً من المحال ولا حاجة إلى تكلف من قال: إن الذبح لملك الموت فهذا كله من الاستدراك الفاسد على الله ورسوله والتأويل الباطل الذى لا يوجبه عقل ولا نقل وسببه قلة الفهم لمراد الرسول ﷺ من كلامه فظن هذا القائل أن لفظ الحديث يدل على أن نفس العرض يذبح وظن غالط آخر أن العرض يعدم ويزول ويصير مكانه جسم يذبح ولم يهتدى الفريقان إلى هذا القول الذى ذكرناه وأن الله سبحانه ينشئ من الأعراض أجساماً ويجعلها مادة لها كما فى الصحيح عنه ﷺ : **«تجئ البقرة وآل عمران يوم القيامة كأنهما غمامتان»**، الحديث فهذه هى القراءة التى ينشئها الله سبحانه وتعالى غمامتين وكذلك قوله فى الحديث الآخر: **«إن ما تذكرون من جلال الله من تسبيحه وتحميده وتهليله يتعاطفن حول العرش لهن دوى كدوى النحل يذكرن صاحبهن»** ذكره أحمد وكذلك قوله فى حديث عذاب القبر ونعيمه للصورة التى يراها **«فيقول: من أنت فيقول: أنا عملك الصالح وأنا عملك السيئ»**، وهذا حقيقة لا خيال ولكن الله سبحانه وتعالى أنشأ له من عمله صورة حسنة وصورة قبيحة وهل النور الذى يقسم بين المؤمنين يوم

---

(١) رواه النسائي والترمذي وقال حديث حسن صحيح.

القيامة إلا نفس إيمانهم أنشأ الله سبحانه وتعالى لهم منه نوراً يسعى بين أيديهم فهذا أمر معقول لو لم يرد به النص فورود النص به من باب تطابق السمع والعقل، وقال سعيد عن قتادة بلغنا أن نبى الله ﷺ قال: « **إن المؤمن إذا خرج من قبره صور له عمله في صورة حسنة وبشارة حسنة فيقول له: من أنت فوالله إنى لأراك أمرأ الصدق فيقول له: أنا عملك فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة، أما الكافر إذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة سيئة وبشارة شيئة فيقول ما أنت فوالله إني لأراك أمرأ السوء فيقول له: أنا عملك فينطلق به حتى يدخله النار** » وقال مجاهد مثل ذلك، وقال ابن جريج : يمثل له عمله فى صورة حسنة وريح طيبة يعارض صاحبه ويبشره بكل خير فيقول له: من أنت فيقول: أنا عملك فيجعل له نوراً بين يديه حتى يدخله الجنة فذلك قوله: ﴿ **يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ** ﴾[يونس: ٩] والكافر يمثل له عمله فى صورة سيئة وريح نتنة فيلازم صاحبه وينطلق به حتى يقذفه فى النار، وقال ابن المبارك ثنا المبارك بن فضالة عن الحسن أنه ذكر هذه الآية: ﴿ **أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ** ﴾ [الصافات: ٥٨-٥٩] قال: اعلموا أن كل نعيم بعده الموت أنه يقطعه فقالوا: أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن معذبين قيل لا، قالوا إن هذا لهو الفوز العظيم وكان يزيد الرشاقى يقول فى كلامه: أمن أهل الجنة من الموت فطاب لهم العيش وأمنوا من الأسقام، فهناهم فى جوار الله طول المقام ثم يبكى حتى تجرى دموعه على لحيته .

كل قرين يقتدى إلا من رحم الله

الحمام مع الحمام، والحيات مع الحيات، والثعالب مع الثعالب، والطيور على أشكالها تقع، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾[الفرقان: ٢٧-٢٩].

وقد نزلت بشأن عقبة بن أبى معيط -أشقى القوم- وكان رغم كفره يحسن التعامل مع رسول الله ﷺ ، فلما أتى صاحبه من الشام، ودفعه لإيذاء النبي ﷺ ، فقام عقبة ووضع سلا الجزور على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد أمام الكعبة تارة، وخنقه بطرف رداءه تارة أخرى ففيه نزلت هذه الآيات، توضح أنه يعض على يديه، وليس فقط على أطراف أصابعه وهذا ندم لا ينفع إذ أنه بعد فوات الأوان .

وقد ورد فى حديث أبى موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يُحذيك، وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكبير، إما أن يُحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحاً منتنة**»[(١)] .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**»[(٢)] أى من يصادق .

فاحرص على أن لا تصاحب إلا مؤمناً، وأن لا يأكل طعامك إلا تقي.

وقد كان صاحب الجنتين قريناً للمؤمن، قيل كان أخوه أو صاحبه، قد بلغ من خطورة صاحب الجنتين الكافر أن حاول إضلال أخيه وتشكيكه، قال المؤمن: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ .

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن.

ومعنى أئنك لمن المصدقين أى بالبعث والنشور والحساب والجزاء، وقال ذلك على وجه التعجب والتكذيب والإستبعاد والكفر والعناد، يدل عليه ما ورد فى سورة الكهف ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾[الكهف: ٣٥] .

لقد كان منكراً للبعث، ولذلك قال: ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ [الصافات: ٣٥] أى كيف نُجازى ونُحاسب وقد صرنا تراباً وعظاماً بعد موتنا وهو شبيه بمن قال الله فيه: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[يس: ٧٩] إن صحبة أمثال هؤلاء شر عظيم، ولذلك ينبغى التباعد عنهم، فإن لم تجد بداً ولا سعة فليكن اقترابك منهم اقتراب الناصح الأمين، وإلا فملازمة الحيات والعقارب أهون من الاختلاط بأمثال هؤلاء الذين يميتون القلوب ويخربون العقول، ولذلك استشعر المؤمن رحمة ربه ونعمته عليه فقال لقرينه الكافر إن كدت لتردين أى تهلكنى ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾[الصافات: ٥٧] أى معك فى العذاب، فهو سبحانه الذى أرشدنى إلى توحيده وهدانى للإيمان، فلم ينسب الفضل لنفسه، ولم يصنع كما صنع قارون عندما قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾[القصص: ٧٨] وإنما سلك مسالك المؤمنين الذين يقولون: ﴿لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾[القصص: ٨٣] ويقولون: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾[الأعراف: ٤٣] .

فالخير كله بيديه سبحانه وما بكم من نعمة فمن الله وأعظم هذه النعم التوفيق للإيمان، وأن يختم للعبد بإحسان. .

انحراف صاحب الجنتين وغيره يساوي لذة ساعة وألم دهر

شقى صاحب الجنتين بجمع المال وحفظه واستثماره، وضرب كف نادم بعد فوات الأوان عندما تخربت البساتين ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾[الكهف: ٤٢] وهذا فى الدنيا، ثم ولعذاب الآخرة أشد، فقد مات صاحب الجنتين، وارتحل عن ماله وأهله وولده، وترك الدنيا بأسرها، ليواجه عذاباً مقيماً، خالداً فيه أبداً، قال تعالى: ﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾[الصافات: ٥٧].

واهمٌ من يظن أن السعادة تكمن فى تكديس المال وجمع الثروات والبساتين وكثرة الأولاد وبناء العقارات والقصور، وإن حدث فهى لذة ساعة وألم دهر قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[التوبة: ٥٥].

قال بعض السلف: يعذبون بجمعها، وتزهق أنفسهم بحبها، وهم كافرون بمنع حق الله فيها.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: ما أصبح أحد فى الدنيا إلا وهو ضيف وماله عارية فالضيف مرتحل والعارية مؤداة.

وقد قص علينا ربنا جل وعلا قصة قارون فقال سبحانه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾[القصص: ٧٩] وانبهر به الناس فقالوا: ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[القصص: ٧٩] ولم يكن الأمر كذلك، فقد كان كافراً بالله تعالى قال: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾[القصص: ٨١].

إن الدنيا يعطيها ربنا لمن يحب ومن لا يحب، أما الآخرة فلا يعطيها إلا لمن أحب ولذلك قال الذين أوتوا العلم والإيمان، لمن انبهر بالزينات والنقوش: ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾[القصص: ٨٠]

وختمت القصة بقوله تعالي: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[القصص: ٨٣] .

فالسعادة الحقيقة ليست فى المال أو الجاه أو كثرة الأولاد، وإنما هى فى طاعة الله تعالي: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسي وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾[طه: ١٢٣-١٢٦] فلابد من إسلام الوجه لله، من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله، يومئذ يصدعون من كفر فعليه كفره، ومن آمن وعمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون، يوم عناه سبحانه بقوله: ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الشعراء: ٨٨-٨٩].

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ ويقال لمن أعمته الدنيا عن الدين، وتكثر بماله وجاهه وولده على سبيل التعيير: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾[الأحقاف: ٢٠].

إن الأمان غداً لمن باع قليلاً بكثير ونافذاً بباق كما قال عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- فأحسنوا المسير إلى ربكم

﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾[فاطر: ٥] واطلبوا السعادة من مظانها، واعلموا أن الإستقامة هى أعظم كرامة، وأن هذا هو الطريق الموصل لسعادة الدنيا والآخرة .

وجه الشبه كبير بين المادية الغربية المعاصرة وصاحب الجنتين فكيف نتابعهم ؟!

المال هو مال الله، والكون كله ملك لله جل وعلا، والواجب علينا أن نحسن وننفق مما جعلنا مستخلفين فيه، وأن نؤدى شكر هذه النعم، ولكن البعض بدلاً من ذلك، يصيبه البطر والكبر والغرور، وهذا شأن صاحب الجنتين، الذى كفر بربه وقال لأخيه المؤمن: **﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾**[الكهف: ٣٤-٣٦] وشبيه به هذه المادية الغربية المعاصرة، التى رأت أن التقدم والتحضر والتطور يستلزم التفلت من قيود الدين، فركبت موجة الإباحية والإنسلاخ من معانى الإيمان، وقالت: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، صيرت الإنسان عبداً للدرهم والدينار، أو عبداً لشهوة البطن والفرج، وأصابت بلوثتها هذه الأمة، ففى الحديث عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع، فقيل: يا رسول الله كفارس والروم؟ فقال: ومن الناس إلا أولئك**»[1] .

وفى رواية عن أبى سعيد: «**قلنا يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟**»[2] .

قال ابن بطال: « **أعلم صلى الله عليه وسلم أن أمته ستتبع المحدثات من الأمور والبدع والأهواء كما وقع للأمم قبلهم، وقد أنذر في أحاديث كثيرة بأن الآخرة شر والساعة لا تقوم إلا على شرار الناس، وأن الدين إنما يبقى قائماً عند خاصة من الناس**» أ. هـ .

وقد وقع معظم ما أنذر به صلى الله عليه وسلم وسيقع بقية ذلك كما قال الحافظ ابن حجر.

وفى هذا الزمن كثر فى المسلمين من يتشبه بالكفار من شرقيين وغربيين، فتشبه رجالنا برجالهم ونساؤنا بنسائهم وافتتنوا بهم حتى أدى الأمر ببعض الناس إلى

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

الخروج عن الإسلام، واعتقدوا أنه لا يتم لهم تقدم وحضارة إلا بنبذ كتاب الله وسنة نبيه ﷺ . ومن عرف الإسلام الصحيح عرف ما وصل إليه المسلمون فى القرون الأخيرة من بُعد عن تعاليم الإسلام. وانحراف عن عقيدته، فلم يبق عند بعضهم من الإسلام إلا إسمه، فقد حكموا قوانين الكفار، وابتعدوا عن شريعة الله، وليس هناك أبلغ مما وصف به النبي ﷺ فى اتباعهم ومحاكاتهم للكفار فقال: « **شبراً بشبر، وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا حجر ضب تبعتوهم**» .

قال النووي: «والمراد بالشبر والذراع، وحجر الضب: التمثيل بشدة الموافقة لهم. والمراد: الموافقة فى المعاصى والمخالفات لا فى الكفر، وفى هذا معجزة ظاهرة لرسول الله فقد وقع ما أخبر به ﷺ »

هذا والفتن ليس لها حصر ففتنة النساء، وفتنة المال وحب الشهوات، وحب السلطان والسيادة والزعامة كلها فتن، ربما تهلك الإنسان وتعصف به إلى مهاوى الردي، نسأل الله العافية والسلامة .

إن صاحب الجنتين ومن تشابه معه هنا وهناك يصدق عليهم قوله تعالي: ﴿**يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ**﴾[الروم: ٧] وكما نظر صاحب الجنتين لأخيه المؤمن على أنه لم يحسن التعامل مع الدنيا وتأدى به ذلك لاحتقاره، فكذلك الغرب فى نظرته للمسلمين باستعلاء وكبرياء وغطرسة، وهى هى نفس نظرة فرعون وقارون ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾

[المطففين: ٢٩-٣٦].

فالعبرة بمن يضحك آخراً، لا بمن يستهزئ ويستخف أولاً دون وجه حق وكما كان صاحب الجنتين عبرة للمعتبرين، فلا نستبعد أن يحدث مع الكفرة الفجرة هنا وهناك مثل ما حدث معه، فالشرع لا يفرق بين المتساويين، وبأسه سبحانه لا يُرد من القوم المجرمين .

ليس في القصة تبرير للصراع الطبقي أو تأييد للمذهب الاشتراكي

لقد كان دمار الجنتين من جزاء الكفر بالله تعالى لا لغنى صاحب الجنتين، إذ لا يحل لأحد أن يتطلع لمال الغنى طالما أخذه من حله ووضعه فى حقه، وقد ورد أن كل المسلم على المسلم حرام ماله ودمه وعرضه، وحرمة هذه الأمور كحرمة يوم عرفة فى شهر ذى الحجة فى بلد الله الحرام، فلا يحل مال امرئ مسلم بغير طيب نفس منه وطالما أنه أخذه من حله ووضعه فى حقه فلا يجوز التطلع لهذا المال قل أو كثر وقد تكلم العلماء فى مسألة وهي: هل فى المال حق سوى الزكاة؟ ومن أجاز اشتراط أن يخلو بيت المال من المال، وتنزل بالمسلمين جائحة كمجاعة أو الدخول فى حرب ثم الحاكم لا يستوفى أكثر من مال الزكاة إلا بعد أن يتنازل هو وحاشيته عن كل ما يملك من الحوائص المذهبة وغيرها ويستبقى مركوبه وسلاحه وما لابد له منه، وهذا قول النووى والعز بن عبد السلام وعبد الله بن الفراء وغيرهم، وهذه حالة استثناء قد تحدث، ولكن ترك البعض دينه وراءه ظهرياً، وذهب يستورد من الشيوعيين نظمهم وفلسفاتهم الإشتراكية، فكان أن تم الإستيلاء على الأموال بزعم القضاء على الرأسمالية واستلاب الأراضى بزعم القضاء على الإقطاع، مصادماً بذلك الكتاب والسنة والعقل والفطرة، قال تعالي: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾[النحل: ٧١] وقال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾[الفرقان: ٢٠] فالناس منهم الغنى والفقير وكل صنف مبتلى بالصنف الآخر، والواجب على الجميع أن يتقوا الله ويستقيموا على شرع الله فى غناهم وفقرهم، وبزعم الإنحياز إلى طبقة العمال والفلاحين فى صراعهم مع الرأسمالية والإقطاع واستئناساً بوقوع بعض المظالم تم اغتصاب الأموال والأراضى ووزع بعضها على البعض، وصار من لا يملك يُعطى من لا يستحق، وتأججت نيران الفتنة بين طبقات الشعب .

إن نصرة المظلومين والمسحوقين تكون بإقامة شرع الله، ورد الحقوق لأصحابها دون جور أو شطط لا بمصادمة غريزة حب التملك وإفقار الأغنياء وتعميم الإتهام وتخريب البلاد والعباد بظلم أشنع وأشد ولذلك لا تستغرب فشل النظم الإشتراكية وليس فقط المزارع الجماعية التى أقامتها الشيوعية .

إن الواجب علينا أن نبدأ ونسارع برد الأموال والأراضى لأصحابها ولا نكتفى بدفع التعويضات الهزيلة لبعض من سميناهم إقطاعيين ورأسماليين، إذ الظلم ظلمات وما هو حرام بالنسبة للأفراد حرام بالنسبة للدول والجماعات .

الإنكار على صاحب الجنتين لم يكن لغناه ولكن لكفره

لقد كان غنى صاحب الجنتين سبباً فى بطره وطغيانه ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ⦗٦⦘ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾[العلق: ٦] ولذلك قال لأخيه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾[الكهف: ٣٤] قال سبحانه: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَداً ⦗٣٥⦘ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً﴾ ولذلك لما راجعه أخوه المؤمن قال له: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾[الكهف: ٣٧]

الفلوس من شأنها أن تغرى النفوس وخصوصاً إذا ضعف فينا وازع الإيمان، وقد بين سبحانه أنها فتنة ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[التغابن: ١٥] وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»** .

والإنسان يوم القيامة يُسأل عن ماله من أين أخذه، وفيما أنفقه؟ وهل أخذه من حله ووضعه فى حقه؟ أم أن الحلال عنده ما وصلت إليه يده!!

ومن رحمة الله بعباده، أن أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾[المائدة: ٣] والإسلام هو دين الوسطية والعدل والاعتدال فى كل أمر ومعنى، ومن جملة ذلك، وسطتيه بين الإشتراكية والرأسمالية، فلم يأمر بإلغاء الملكية وتأميم الممتلكات ومصادرة الحقوق ومصادمة الفطرة بإلغاء الإرث والهبة بدعوى المساواة وفرض الضرائب والتصاعدية والتركات . . . إلى غير ذلك مما هو موجود فى النظام الاشتراكي، ولا هو أيضاً بالذى أطلق الحبل على الغارب، ونادى بعلمانية الدولة وفصل الدين عن الحياة . . كما هو الحال فى النظام الرأسمالى المبنى على الاستغلال والاستعباد، والذى

قالوا فيه: «إن التنظيم متروك للإنسان» فالإسلام دين ودولة، وعقيدة وشريعة، ودنيا وآخرة ولابد من الرجوع فى ذلك كله لكتاب الله ولسنة نبيه ﷺ، ونحن لا نقبل الثنائيات التى ينادى بها البعض، فمن لم يكن اشتراكياً قالوا له: «إذن أنت رأسمالي، ومن لم يكن ديمقراطياً، قالوا له إذن أنت ديكتاتوري» ، وكأن هؤلاء أسقطوا الإسلام من حساباتهم!! فالإسلام نظام مستقل يرفض هذا العفن، ويرفض أيضاً هذا التدليس وهذا التزييف الذى يصنعه البعض حين ينادى بالاشتراكية الإسلامية أو الديمقراطية الإسلامية، ففى ذلك تحبيب للنفوس فى هذه الأنظمة الوضعية الوافدة والمستوردة، وإضفاء صفة الشرعية عليها، ويجب أن نعلم أن كل نظام له عقيدة وأن النظام لا يؤخذ إلا مع عقيدته لضمان حسن التطبيق وتحقيق معنى الإخلاص والولاء، والمسلم من شأنه أن يرتبط بالمبادئ وبما جاء فى الكتاب والسنة ويطيع الأشخاص ما أطاعوا الله ورسوله ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾[آل عمران: ٨٥] ويقال لهذا الفريق الذى ينادى بأخذ النظام الاقتصادي الماركسى مثلاً من أبناء جلدتنا وممن يتكلم بلساننا ﴿**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ**﴾[البقرة: ٨٥] فالإسلام أقدم من الاشتراكية والرأسمالية، والفرق بينه وبين هذه النظم فى المنشأ والطريق والغاية، ولا ندرى كيف سولت لهم أنفسهم أن يقادوا إلى مبادئ لا يعرفون حقيقتها لأنها ليست حقيقة؟! وكيف جهلوا دين ربهم -إن كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر؟! ومن المعلوم أن النبي ﷺ ما انتقل إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن بين لنا وأعطانا من كل شئ علماً وتركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وقد عملت الأمة جيلاً بعد جيل بكتاب ربها وسنة نبيها ﷺ، فى سياستها واقتصادها واجتماعها وأخلاقها فسعدت وملأت الدنيا عدلاً ونوراً، وما أصابتها المذلة والمهانة إلا بعد أن تنكبت الصراط وخالفت الطريق وارتمت فى أحضان الشرق تارة وفى أحضان الغرب تارة أخري، تاركة دينها وراءها ظهرياً، وصدق عمر فى قوله لأبى عبيدة ﷺ: «**إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بهذا الدين فمهما نطلب العز في غيره أذلنا الله**»، لا ندرى ما الذى انبهروا به فى حضارة القلق المفلسة عند الغرب، فالحق الذى عندهم يلزمنا والباطل الذى معهم نحن فى غنى

عنه والحق مقبول من كل من جاء به، والعلوم النافعة تؤخذ فمن أفلح فيها، والحضارة التى نحرص عليها هي التى تقوم على منهج العبودية والإستقامة على الكتاب والسنة ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء:٩] ثم ألم يروا هزيمة الشيوعية واندحارها وفشلها وسوء عاقبتها، وانظروا إلى حطام المزارع الجماعية فى روسيا وما الذى وصل إليه حال اليمن السعيد وليبيا الشقيقة وكل البلدان التى طبقت النظام الإشتراكى من خراب ودمار، إن الاشتراكية تعنى اصطلاحاً معيناً، فقد أطلقها أصحابها على نظام اقتصادى يقوم على إدعاء المساواة، والماركسية تعتبر مصدراً رئيسياً من مصادر الفكر الاشتراكى والعرب لم تعرف الاشتراكية لا فى الجاهلية ولا فى الإسلام، وباختصار شديد فهذا النظام تحكم فى الحكم وفى وسائل الإنتاج، مساواة فى الفقر، وقيد وإكراه وفقدان عنصر الاختيار وحد من النشاط الاقتصادي، انقلاب وثورات واستبداد مطلق يؤدى بدوره إلى قتل الحريات

غصب الأرض لتوزيعها أو لبناء مسجد عليها وحكم ذلك

أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من ظلم قيد شبر من أرض طوقه من سبع أرضين**» ذكر البغوى أنه يخسف به الأرض فتصير البقعة فى عنقه كالطوق، وروى البخاري: «**من أخذ من الأرض شبراً بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين**» .

وروى مسلم: «**لا يأخذ أحد شبراً من الأرض بغير حقه إلا طوقه الله إلى سبع أرضين يوم القيامة**» .

وروى أحمد والطبراني: «**من أخذ أرضاً بغير حقها كلفه أن يحمل ترابها إلى المحشر**» .

وروى أحمد والطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود: «**قلت: يا رسول الله أي ظلم أظلم؟ فقال: ذراع من الأرض ينقصها المرء المسلم من حق أخيه فليس حصاة من الأرض يأخذها إلا طوقها يوم القيامة إلى قعر الأرض ولا يعلم قعرها إلا الله الذي خلقها**» .

وروى الطبراني: «**من غصب رجلاً أرضاً ظلماً لقى الله وهو عليه غضبان**» .

وروى الطبرانى فى الكبير والصغير: «**من أخذ من طريق المسلمين شبراً جاء يوم القيامة يحمله من سبع أرضين**»

وقد اعتبر البغوى وغيره فى كون الغصب كبيرة أن يكون المال المغصوب ربع دينار، وقال الحليمي: إن كان شيئاً تافهاً فصغيرة إلا أن يكون صاحبه لا غنى به عنه فكبيرة، وذكر العز بن عبد السلام أنهم أجمعوا على أن غصب الحبة وسرقتها كبيرة، يوافقه قول القرطبى أجمع أهل السنة على أن من أكل مالاً حراماً، ولو ما يصدق عليه اسم أكل فسق. أ.هـ .

ولا فرق فى كون الغصب كبيرة بين الأرض وغيرها من الأموال، ويدخل فى ذلك تغيير علامات الأراضى وحدودها فيوسع أرضه على حساب جاره وهو المشار إليه بقوله ﷺ : «**لعن الله من غير منار الأرض**»[1] .

ومن هذا تعلم حرمة غصب أراضى الآخرين بزعم وضع اليد وحرمة الإستيلاء على أموال الناس كما لا يجوز أيضاً اقتطاع جزء من طريق المسلمين لخاصة نفسه دون وجه حق أو بناء مسجد يسد به الطريق عليهم، فلابد من نية وصحة أو إخلاص ومتابعة ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾[الكهف: ١١٠] ولا تصح الصلاة فى الأرض المغصوبة كما قال الإمام أحمد وغيره .

ما شاء الله لا قوة إلا بالله كنز فاحرص عليه

لما سمع المؤمنُ الكافر يقول: ﴿**مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا**﴾[الكهف: ٣٥] رد عليه على جهة التوبيخ وقال: ﴿**وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ**﴾[الكهف: ٣٩] فما اجتمع لك من المال فهو بقدرة الله وقوته لا بقدرتك وقوتك، ولو شاء لنزع البركة منه فلم يجتمع إذ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله فلا تغير من حال إلى حال إلا بفضل الله .

---

(١) رواه مسلم.

قال مالك: ينبغي لكل من دخل منزله أن يقول هذا: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله».

وقال ابن وهب قال لي حفص بن ميسرة: رأيت على باب وهب بن منبه مكتوباً: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله».

وروى عن النبي ﷺ أنه قال لأبي هريرة: **«ألا أدلك علي كلمة من كنوز الجنة -أو قال كنز من كنوز الجنة قلت: بلى يا رسول الله، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، إذا قالها العبد قال الله عز وجل أسلم عبدي واستسلم»** (١)

وروى أنه من دخل منزله أو خرج منه فقال: باسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله تنافرت عنه الشياطين من بين يديه، وأنزل الله تعالى عليه البركات، وقالت عائشة: «إذا خرج الرجل من منزله وقال: باسم الله، قال الملك: هُديت، وإذا قال: ما شاء الله، قال الملك: كفيت، وإذا قال: لا قوة إلا بالله، قال الملك وُقيت»(٢).

وقال البعض: ما من أحد قال ما شاء الله كان فأصابه شئ إلا رضى به.

وروى أن من قال أربعاً أمن من أربع: من قال هذه أمن من العين «ما شاء الله لا قوة إلا بالله»، ومن قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل» أمن من كيد الشيطان، ومن قال: «وأفوض أمرى إلى الله» أمن مكر الناس، ومن قال: «لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين» أمن من الغم» فاحرص على الإكثار من ذكر الله ولا تغفل، فقد حذرك من مثل هذا النسيان المريب، وعاب البعض من خلقه فقال سبحانه: ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾[الحشر: ١٩].

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي موسي وفيه: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي من حديث أنس، وابن ماجة من حديث أبي هريرة.

فضل الزهد في الدنيا
والحث على التقلل منها، وفضل الفقر

أنفق المؤمن ماله فى سبيل الله، فغراً وليس عنده شئ، وخرج يعمل بقوته، وما دفعه لذلك إلا زهده فى الدنيا وحرصه على التجارة الرابحة مع الله، وقد وردت النصوص تدل على فضل الزهد فى الدنيا وتحث على التقلل منها .

قال تعالي: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[يونس: ٢٤].

وقال تعالي: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[الكهف: ٤٦].

وقال تعالي: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾

[الحديد: ٢٠].

وقال تعالي: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[آل عمران: ١٤] .

وقال تعالي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[فاطر: ٥] .

وقال تعالي: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾[التكاثر: ١-٥] .

وقال تعالي: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[العنكبوت: ٦٤] .

والآيات فى الباب كثيرة مشهورة .

وأما الأحاديث فأكثر من أن تحصر .

فعن أبى سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء»**(١) .

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة»**(٢) .

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **«يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ فى النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله، يا رب! ويؤتى بأشد الناس بؤساً فى الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة فى الجنة، فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله، ما مر بى بؤس قط، ولا رأيت شدة قط»**(٣)

وعن المستورد بن شداد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **«ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظربم يرجع»**(٤).

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بالسوق والناس كنفيه، فمر بجدى أسك ميت، فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: **«أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم؟» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشئ، وما نصنع به؟ ثم قال: «أتحبون أنه لكم»؟ قالوا: والله، لو كان حياً كان عيباً. إنه أسك فكيف وهو ميت! فقال: «فوالله، للدنيا أهون على الله من هذا عليكم»**. رواه مسلم. قوله: «كنفيه»: أى عن جانبيه. و«الأسك» : الصغير الأذن(٥) .

---

(١) رواه مسلم في كتاب الرقاق (باب أكثر أهل الجنة الفقراء) .

(٢) رواه البخاري في الرقاق والجهاد (باب التحريض علي القتال) ومناقب الأنصار والمغازي، ومسلم في الجهاد(باب غزوة الأحزاب وهي الخندق) .

(٣) رواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار (باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار) .

(٤) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة) .

(٥) رواه مسلم في أول كتاب الزهد والرقائق .

وعن أبى ذر رضي الله عنه قال: كنت أمشى مع النبى ﷺ فى حرة بالمدينة، فاستقبلنا أحد، فقال: «يا أبا ذر»، قلت: لبيك يا رسول الله. فقال: «ما يسرنى أن عندى مثل أحد هذا ذهباً، تمضى على ثلاثة أيام وعندى منه دينار إلا شيء أرصده لدين، إلا أن أقول به فى عباد الله هكذا وهكذا وهكذا» عن يمينه وعن شماله ومن خلفه، ثم سار فقال: «إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال بالمال هكذا وهكذا وهكذا» عن يمينه وعن شماله ومن خلفه «وقليل ما هم»! ثم قال لى: «مكانك! لا تبرح حتى آتيك». ثم انطلق فى سواد الليل حتى توارى، فسمعت صوتاً قد ارتفع، فتخوفت أن يكون أحد عرض للنبى ﷺ، فأردت أن آتيه، فذكرت قوله: «لا تبرح حتى آتيك»، فلم أبرح حتى أتانى فقلت: لقد سمعت صوتاً تخوفت منه، فذكرت له، فقال: «وهل سمعته؟» قلت: نعم، قال: «ذاك جبريل أتانى فقال: من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق»[(١)]

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم»[(٢)].

وعن النبي ﷺ قال: «تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أعطى رضى، وإن لم يعط لم يرض»[(٣)].

وعنه رضي الله عنه قال: لقد رأيت سبعين من أهل الصفة، ما منهم رجل عليه رداء: إما إزار وإما كساء، قد ربطوا فى أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته»[(٤)].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال: «كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» وكان ابن عمر رضي الله عنه يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك[(٥)].

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (باب المكثرون هم المقلون) و (باب ما أحب أن لي مثل أحد ذهباً) والاستقراض والاستئذان، ومسلم في الزكاة (باب الترغيب في الصدقة) .

(٢) متفق عليه وهذا لفظ مسلم .

(٣) رواه البخاري في الجهاد (باب الحراسة) وفي الرقاق .

(٤) رواه البخاري في المساجد (باب نوم الرجال في المسجد) .

(٥) رواه البخاري في الرقاق (باب قول النبي ﷺ كن في الدنيا إلخ) .

قالوا فى شرح هذا الحديث: معناه: لا تركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطناً، ولا تحدث نفسك بطول البقاء فيهـا، ولا بالإعتناء بها، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب فى غيـر وطنه، ولا تشتغل فيها بما يشـتغل به الغريب الذى يريد الذهاب إلى أهله . وبالله التوفيق .

عن أبى العباس سهل بن سعد الساعدى ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، دلنى على عمل إذا عملته أحبنى الله وأحبنى الناس. فقال: «**ازهد فى الدنيا يحبك الله، وازهد فـيما عند الناس يحبك الناس**» رواه ابن ماجة وغيره بأسانيد حسنه[١] .

وعن النعمان بن بشير ﷺ قال: ذكر عمر ابن الخطاب ﷺ ما أصاب الناس من الدنيا، فـقال: لقـد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليـوم يلتوي، ما يـجد من الدقل ما يملأ به بطنه[٢] . رواه مسلم.

«الدقل» بفتح الدال المهملة والقاف: ردئ التمر .

وعن عائشة ﷺ قال: توفى رسول الله ﷺ وما فى بيتى من شئ يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رف لي، فأكلت منه حتى طال علي، فكلته ففني[٣] . متفق عليه.

قولها «شطر شعير»: أى شئ من شعير، كذا فسره الترمذي.

وعن عمرو بن الحارث أخى جويرية بنت الحارث أم المؤمنين ﷺ قال: ما ترك رسول الله ﷺ عند موته ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً، إلا بغلته البيضاء التى كان يركبها، وسلاحه، وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة[٤].

وعن سهل بن سعـد الساعدى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء**»[٥] .

---

(١) رواه ابن ماجة في الزهد، وأخرجه الطبراني في معجمه الكبير، والحاكم في الرقائق من مستدركه .
(٢) رواه مسلم فى كتاب الزهد والرقائق .
(٣) رواه البخاري في الجهـاد (باب نفقة نساء النبي ﷺ بعد وفاته) والرقائق (باب فـضل الفقر) ومسلم في أوائل كتاب الزهد والرقائق .
(٤) رواه البخاري في الوصايا (باب الوصايا) والجهاد (باب بغلة النبي ﷺ البيضاء، وغيره) والمغازي (باب مرض النبى ﷺ ووفاته) .
(٥) رواه الترمذي في الزهد (باب ما جاء في هوان الدنيا علي الله عز وجل) رقم/ ٢٣٢١ / .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **«ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى وما والاه، وعالماً ومتعلماً»** (١).

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسوله اله صلى الله عليه وسلم: **«لا تتخذوا الضيعة فترغبوا فى الدنيا»**(٢).

وعن عبد الله بن الشخير «بكسر الشين والخاء المشددة المعجمتين» رضي الله عنه أنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ: **﴿ألهاكم التكاثر﴾** قال: **«يقول ابن آدم: مالى مالى! وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت!؟»**(٣).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فقام وقد أثر فى جنبه، قلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء. فقال: **«مالى وللدنيا؟ ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»** (٤).

وعن ابن عباس وعمران بن الحصين رضي الله عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«اطلعت فى الجنة، فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء»** (٥)

وعن أسامه بن زيد رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«قمت على باب الجنة، فكان عامة من دخلها المساكين! وأصحاب الجد محبوسون! غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار»** (٦).

«والجد»: الحظ والغني.

---

(١) رواه الترمذي في الزهد (باب ما جاء في هوان الدنيا علي الله عز وجل) رقم/ ٢٣٢٣ / .

(٢) رواه الترمذي في الزهد (باب لا تتخذوا الضيعة فترغبوا في الدنيا) رقم/ ٢٣٢٩ / .

(٣) رواه مسلم في أوائل كتاب الزهد والرقائق .

(٤) رواه الترمذي في الزهد (باب ما أنا في الدنيا إلا كراكب) رقم / ٢٣٧٨ / .

(٥) رواه البخاري في بدء الخلق (باب ما جاء في صفة الجنة) وفي النكاح والرقاق، ومسلم في كتاب الرقاق (باب أكثر أهل الجنة الفقراء) .

(٦) رواه البخاري في النكاح (باب لا تأذن المرأة في بيت زوجها إلا بإذنه) والرقاق، ومسلم في أول كتاب الرقاق (باب أكثر أهل الجنة الفقراء) .

فضل الجوع وخشونة العيش
والاقتصار على القليل من المأكول والمشروب والملبوس
وغيرها من حظوظ النفس وترك الشهوات

وجد المؤمن شدة وعانى من خشونة العيش فصبر واحتسب، وهذا الحال لا يخلو من فضل وأجر دلت عليه نصوص الشريعة .

قال الله تعالي: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾[مريم: ٥٩-٦٠].

وقال تعالي: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾[القصص: ٧٩-٨٠].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[التكاثر: ٨].

وقال تعالي: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾[الإسراء: ١٨] . والآيات كثيرة معلومة .

عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: والله يا ابن أختي، إن كنا ننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال: ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار! قلت: يا خالة، فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منايح وكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا.[1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقال: «**ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟**» قالا: الجوع يا رسول الله. قال: «**وأنا والذي نفسي بيده، لأخرجني الذي أخرجكما! قوماً**»

---

(٣) رواه البخاري في فاتحة كتاب الهبة وفي الرقاق (باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه) ومسلم في أوائل كتاب الزهد والرقائق .

فقاما معه فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس فى بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً فقال رسول الله ﷺ : «أين فلان؟» قالت: ذهب يستعذب لنا الماء. إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني، فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب فقال: كلوا. وأخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ «إياك والحلوب» فذبح لهم. فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق ،وشربوا فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر رضي الله عنهما: **«والذي نفسي بيده، لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة! أخرجكم من بيوتكم الجوع. ثم لم ترجعوا حتي أصابكم هذا النعيم»**[١]

قولها: «يستعذب»: أى يطلب الماء العذب وهو الطيب. و«العذق» بكسر العين وإسكان الذال المعجمة، وهو الكباسة وهى الغصن. و«المدية» بضم الميم وكسرها: هى السكين. و «الحلوب»: ذات اللبن. والسؤال عن هذا النعيم سؤال تعديد النعم لا سؤال توبيخ وتعذيب. والله أعلم. وهذا الأنصارى الذى أتوه هو أبو الهيثم بن التيهان .

وعن خالد بن عمر العدوى قال: خطبنا عتبة بن غزوان وكان أميراً على البصرة- فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن الدنيا قد آذنت برم، وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها! وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يُلقى من شفير جهنم، فيهوى فيها سبعين عاماً لا يدرك لها قعراً! والله لتملأن! أفعجبتم؟ ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عاماً، وليأتين عليها يوم وهو كظيظ من الزحام. ولقد رأيتنى سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الشجر، حتى قرحت أشداقنا فالتقطت بردة، فشققها بينى وبين سعد بن مالك، فاتزرت بنصفها واتزر سعد بنصفها، فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميراً على مصر من الأمصار. وإنى أعوذ بالله أن أكون فى نفسى عظيماً، وعند الله صغيراً[٢] .

(١) رواه مسلم في كتاب الأشربة (باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك) .

(٢) رواه مسلم في أوائل كتاب الزهد والرقائق.

قوله: «آذنت» : أى أعلمت. وقوله: «بصرم» : أى بانقطاعها وفنائها. «وولت حذاء» : أى سريعة. و«الصبابة» - البقية اليسيرة. وقوله: «يتصابها» : أى يجمعها. و«الكظيظ» : الكثير الممتلئ. وقوله: «قرحت» : أى صارت فيها قروح.

وعن أبى موسى الأشعري رضي الله عنه قال: أخرجت لنا عائشة رضي الله عنها كساء وإزاراً غليظاً. قالت: قبض رسول الله ﷺ فى هذين.[1]

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: والله الذى لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدى على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطنى من الجوع. ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذى يخرجون منه، فمر بى النبي ﷺ فتبسم حين رآني، وعرف ما فى وجهى وما فى نفسي، ثم قال: «أبا هر» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «الحق»، ومضى فاتبعته، فدخل فاستأذن فأذن لى فدخلت، فوجد لبناً فى قدح فقال: «من أين هذا اللبن؟» قالوا: أهداه لك فلان - أو فلانة- قال: «أبا هر»، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي» (قال): وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد، وكان إذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها. فساءنى ذلك، فقلت: وما هذا اللبن فى أهل الصفة! كنت أحق أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها، فإذا جاءوا أمرنى فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغنى من هذا اللبن! ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسول الله ﷺ بد. فأتيتهم فدعوتهم، فأقبلوا واستأذنوا، فأذن لهم وأخذوا مجالسهم من البيت. قال: «أبا هر» قلت: لبيك يا رسول الله. قال: «خذ فأعطهم» (قال) : فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد على القدح فأعطيه الآخر فيشرب حتى يروي، ثم يرد على القدح حتى انتهيت إلى النبي ﷺ وقد روى القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده، فنظر إلى فتبسم فقال: «أبا هر»، قلت: لبيك يا رسول الله ﷺ قال: «بقيت أنا وأنت» قلت: صدقت يا رسول الله، قال: «اقعد فأشرب» فقعدت فشربت.

---

(١) رواه البخاري في الجهاد (باب ما ذكر من ورع النبي ﷺ وعصاه وسيفه) واللباس (باب الأكسية والخمائص) ومسلم في اللباس (باب التواضع في اللباس).

فقال: «اشـرب» فشربت، فما زال يقول: «اشـرب» حتى قلت : لا والذى بعثك بالحق لا أجد له مسلكاً، قال: «فأرني» فأعطيتـه القدح، فحمد الله تعالى وسمى وشرب الفضلة(١) .

وعن محمـد بن سيرين عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: لقد رأيتنى وإنى لأخـر فيما بين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حجرة عائشة رضي الله عنها مغشياً علي، فيجئ الجائى فيضع رجله على عنقي، ويرى أنى مجنون وما بى من جنون، ما بى إلا الجوع(٢) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودى فى ثلاثين صاعاً من شعير(٣) .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: لقـد رأيت سبـعين من أهل الصفة مـا منهم رجل عليـه رداء، إما إزار وإمـا كسـاء، قـد ربطوا فى أعناقهم: مـنها مـا يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته»(٤) .

وعن ابن عـمر رضي الله عنهما قال: كنا جلوسـاً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء رجل من الأنصـار فـسلم عليـه، ثم أدبر الأنصـاري، فقـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : «يا أخا الأنصار، كيـف أخي سعد بن عبـادة؟» فقال: صالح، فقـال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من يعوده منكم؟» فقام وقمنا معه ونحن بضعة عشر ما علينا نعال ولا خفاف ولا قلانس ولا قمص، نمشى فى تلك السـباخ حتى جئناه، فاستأخـر قومه من حوله حتى دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين معه(٥) .

وعن عـبـيـد الله بن مـحـصن الأنصـارى الخطمى رضي الله عنه قـال: قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : **«من أصبح منكم آمناً فى سـربه، معافى فى جسـده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»**(٦) .

---

(١) رواه البخاري في الرقائق (باب كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه) .
(٢) رواه البخاري في كتاب الاعتصام (باب ما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وحض على اتفاق أهل العلم وما أجمع عليه الحرمان) .
(٣) رواه البخاري في كتاب الجهاد (باب ما قيل في درع النبي صلى الله عليه وسلم والمغازي، ومسلم في البيوع (باب الرهن وجوازه في الحضركالسفر) بلفظ آخر .
(٤) رواه البخاري في أبواب المساجد (باب نوم الرجال في المساجد) .
(٥) رواه مسلم في الجنائز (باب عيادة المرضي) .
(٦) رواه الترمذي في كتاب الزهد (باب من بات آمناً في سربه) رقم/ ٢٣٤٧ / .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لقد أفلح من أسلم، وكان رزقه كفافاً، وقنعه الله بما آتاه»** (١).

وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم فى الصلاة من الخصاصة -وهم أصحاب الصفة- حتى يقول الأعراب: هؤلاء مجانين! فإذا صلى رسول الله ﷺ انصرف إليهم فقال: **«لو تعلمون ما لكم عند الله تعالى لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة»**(٢).

«الخصاصة» : الفاقة والجوع الشديد .

وعن أبى كريمة المقداد بن معديكرب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطنه. بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»**(٣).

«أكلات» : أى لقم .

وعن أبى أمامة إياس بن ثعلبة الأنصارى الحارثى رضي الله عنه قال: ذكر أصحاب رسول الله ﷺ يوماً عنده الدنيا، فقال رسول الله ﷺ : **«ألا تسمعون؟ ألا تسمعون؟ إن البذاذة من الإيمان، إن البذاذة من الإيمان»** يعني: التقحل(٤). رواه أبو داود .

«البذاذة»: بالباء الموحدة والذالين المعجمتين، وهى رثاثة الهيئة وترك فاخر اللباس. وأما «التقحل» فبالقاف والحاء، قال أهل اللغة: المتقحل هو الرجل اليابس الجلد من خشونة العيش وترك الترفه .

وعن أبى عبد الله جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: بعثنا رسول الله ﷺ وأمر علينا أبا عبيدة رضي الله عنه نتلقى عيراً لقريش، وزودنا جراباً من تمر لم يجد لنا غيره. فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة . فقيل: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال: نمصها كما يمص الصبي، ثم نشرب عليها من الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل. وكنا نضرب بعصينا

---

(١) رواه مسلم في كتاب الزكاة (باب في الكفاف والقناعة) .
(٢) رواه الترمذي في الزهد (باب ما جاء في معيشة أصحاب النبي ﷺ) .
(٣) رواه الترمذي في أبواب الزهد (باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل)(٢٣٨١).
(٤) رواه أبو داود في أول كتاب الترجل .

الخبط ثم نبله بالماء فنأكله. قال: وانطلقنا على ساحل البحر فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا هى دابة تدعى العنبر، فقال أبو عبيدة: ميتة: ثم قال: لا، بل نحن رسل رسول الله ﷺ وفى سبيل الله، وقد اضطررتم فكلوا، فأقمنا عليه شهراً ونحن ثلاثمائه حتى سمنا. ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينه بالقلال الدهن، ونقطع منه الفدر كالثور أو كالقدر الثور، ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم فى وقب عينه، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها، ثم رحل أعظم بعير معنا، فمر من تحتها وتزودنا من لحمه وشائق، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له، فقال: «هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شئ فتطعمونا؟» فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله[(١)].

«الجراب»: وعاء من جلد معروف، وهو بكسر الجيم وفتحها، والكسر أفصح قوله. «نمصها» بفتح الميم. «والخبط» ورق شجر معروف تأكله الإبل. «والكثيب»: التل من الرمل. «والوقب» بفتح الواو وإسكان القاف، وبعدها باء موحدة، وهو نقرة العين. «والقلال»: الجرار. «والفدر» بكسر الفاء وفتح الدال: القطع. «رحل البعير» بتخفيف الحاء: أى جعل عليه الرحل. «الوشائق» بالشين المعجمة والقاف: اللحم الذى اقتطع ليقدد منه، والله أعلم.

وعن جابر رضي الله عنه قال: إنا كنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كدية شديدة، فجاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت فى الخندق. فقال: «أنا نازل»، ثم قام وبطنه معصوب بحجر. ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب فعاد كثيباً أهيل أو أهيم، فقلت: يا رسول الله، ائذن لى إلى البيت. فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئاً، ما فى ذلك صبر، فعندك شئ؟ فقالت: عندى شعير وعناق، فذبحت العناق وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم فى البرمة، ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافى قد كادت تنضج، فقلت: طعيم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان. قال: «كم هو؟» فذكرت له، فقال: «كثير طيب، قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي» فقال: «قوموا» فقام المهاجرون والأنصار. فدخلت عليها فقلت:

---

(١) رواه مسلم في كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان (باب إباحة ميتة البحر).

ويحك، قد جاء النبي ﷺ والمهاجرون والأنصار ومن معهم. قالت: هل سألك؟ قلت: نعم. قال: «ادخلوا ولا تضاغطوا» . فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم، ويخمر البرمة، والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع، فلم يزل يكسر ويغرف حتى شبعوا وبقى منه، فقال: «كُلى هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة» متفق عليه.

وفى رواية قال جابر: لما حفر الخندق رأيت بالنبي ﷺ خمصاً، فانكفأت إلى امرأتى فقلت: هل عندك شئ؟ فإنى رأيت برسول الله ﷺ خمصاً شديداً، فأخرجت إلى جراباً فيه صاع من شعير، ولنا بهيمة داجن فذبحتها، وطحنت الشعير ففرغت إلى فراغي، وقطعتها فى برمتها، ثم وليت إلى رسول الله ﷺ فقالت: لا تفضحنى برسول الله ﷺ ومن معه، فجئت فساررته فقلت: يا رسول الله، ذبحنا بهيمة لنا، وطحنت صاعاً من شعير، فتعال أنت ونفر معك. فصاح رسول الله ﷺ فقال: «يا أهل الخندق، إن جابراً قد صنع سؤراً فحيهلا بكم» فقال النبي ﷺ: «لا تنزلن برمتكم، ولا تخبزن عجينكم حتى أجئ» فجئت وجاء النبي ﷺ يقدم الناس حتى جئت امرأتى فقالت: بك وبك! فقلت: قد فعلت الذى قلت، فأخرجت عجيناً فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك، ثم قال: «ادعى خابزة فلتخبز معك، واقدحى من برمتكم ولا تنزلوها» وهم ألف، فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو[1] .

قوله: «عرضت كُدية» بضم الكاف وإسكان الدال وبالياء المثناه تحت: وهى قطعة غليظة صلبة من الأرض لا يعمل فيها الفأس. «والكثيب»: أصله تل الرمل، والمراد هنا صارت تراباً ناعماً، وهو معنى «أهيل» و«الأثافي» : الأحجار التى تكون عليها القدر. و«تضاغطوا» تزاحموا. و«المجاعة»: الجوع، وهوبفتح الميم. و«الخمص» بفتح الخاء المعجمة والميم: الجوع. و«انكفأت» : انقلبت ورجعت. و«البهيمة» بضم الباء تصغير بهمة، وهى العناق بفتح العين. و«الداجن» هى التى

(١) رواه البخاري في المغازي (باب غزوة الخندق) ومسلم في كتاب الأشربة (باب جواز استتباعه غيره إلى دارمن يثق برضاه بذلك) .

ألفت البيت. و«السؤر» : الطعام الذى يدعى الناس إليه، وهو بالفارسية و«حيهلاً»: أى تعالوا. وقولها «بك ويك»: أى خاصمته وسبته، لأنها أعتقدت أن الذى عندها لا يكفيهم، فاستحيت وخفى عليها ما أكرم الله سبحانه وتعالى به نبيه ﷺ من هذه المعجزة الظاهرة والآية الباهرة. «بسق»: أى بصق، ويقال أيضاً: بزق - ثلاث لغات- «وعمد» بفتح الميم: أى قصد و«اقدحي» : أى اغرفي، والمقدحة: المغرفة. و«تغط» أى لغليانها صوت، والله أعلم.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال أبو طلحة لأم سليم قد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفاً أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شئ؟ فقالت: نعم، فأخرجت أقراصاً من شعير، ثم أخذت خماراً لها، فلفت الخبز ببعضه، ثم دسته تحت ثوبى وردتنى ببعضه، ثم أرسلتنى إلى رسول اله ﷺ ، فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺ جالساً فى المسجد ومعه الناس فقمت عليهم، فقال رسول الله ﷺ : «أرسلك أبو طلحة؟» فقلت: نعم، فقال: «ألطعام»؟ فقلت: نعم، فقال رسول الله ﷺ : «قوموا» فانطلقوا وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة، فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أم سليم: قد جاء رسول الله ﷺ بالناس، وليس عندنا ما نطعمهم؟ فقالت: الله ورسوله أعلم. فانطلق أبو طلحة حتى لقى رسول الله ﷺ فأقبل رسول الله ﷺ معه حتى دخلا، فقال رسول الله ﷺ : «هلمي، ما عندك يا أم سليم» . فأتت بذلك الخبز فأمر به رسول الله ﷺ ، ففت وعصرت عليه أم سليم عكة فآدمته، ثم قال فيه رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقول، ثم قال: «ائذن لعشرة»، فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم فأكلوا ثم خرجوا ثم قال: «ائذن لعشرة» حتى أكل القوم كلهم وشبعوا، والقوم سبعون رجلاً أو ثمانون» متفق عليه. وفى رواية: فما زال يدخل عشرة ويخرج عشرة حتى لم يبق منهم أحد إلا دخل فأكل حتى شبع، ثم هيأها فإذا هى مثلها حين أكلوا منها. وفى رواية: فأكلوا عشرة عشرة، حتى فعل ذلك بثمانين رجلاً، ثم أكل النبي ﷺ بعد ذلك وأهل البيت وتركوا سؤراً. وفى رواية: ثم أفضلوا ما بلغوا جيرانهم.

وفى رواية عن أنس قال: جئت رسول الله ﷺ يوماً فوجدته جالساً مع أصحابه وقد عصب بطنه بعصابة، فقلت لبعض أصحابه: لم عصب رسول الله ﷺ بطنه؟ فقالوا: من الجوع، فذهبت إلى أبى طلحة -وهو زوج أم سليم (بنت ملحان) فقلت: يا أبتاه، قد رأيت رسول الله ﷺ عصب بطنه بعصابة، فسألت بعض أصحابه، فقالوا: من الجوع. فدخل أبو طلحة على أمى فقال: هل من شئ؟ قالت: نعم عندى كسر من خبز وتمرات، فإن جاءنا رسول الله ﷺ وحده أشبعناه، وإن جاء آخر معه قل عنهم .[1]

القناعة والعفاف والاقتصاد

عرض المؤمن نفسه على شريكه ليعمل عنده، فقال له شريكه الكافر: أخذت مثل ما أخذت وهذه حالك وهذه حالي، أخبرنى عما فعلت، فقال له: أقرضته ربى فسحب يده من يده ثم قال: أئنك لمن المصدقين، فما تزعزع المؤمن وما اهتزت ثقته عند الله وقد وردت النصوص تدل على فضل القناعة والعفاف وإليك بعضها .

قال الله تعالي: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾[هود: ٦] .

وقال تعالي: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾

[البقرة: ٢٧٣].

وقال تعالي: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[الفرقان: ٦٧].

وقال تعالي: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾[الذاريات: ٥٦-٥٧].

---

(١) رواه البخاري في الأنبياء (باب علامات النبوة في الإسلام) وفي المساجد والأطعمة والإيمان والنذور، ومسلم في الأشربة (باب جواز استتباعه غيره إلي دار من يثق برضاه بذلك).

عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس»** متفق عليه. «العرض» : بفتح العين والراء: هو المال[(١)]

وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال **«يا حكيم، إن هذا المال خضر حلو: فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذى يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى»** . قال حكيم: فقلت : يا رسول الله، والذى بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا. فكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو حكيماً ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئاً، ثم إن عمر رضي الله عنه دعاه ليعطيه فأبى أن يقبله، فقال: يا معشر المسلمين، أشهدكم على حكيم أنى أعرض عليه حقه الذى قسمه الله له فى هذا الفئ، فيأبى أن يأخذه. فلم يرزأ حكيم أحداً من الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم حتى توفي[(٢)].

«يرزأ» : أى لم يأخذ من أحد شيئاً، وأصل الرزء: النقصان: أى لم ينقص أحداً بالأخذ منه. و«إشراف النفس» تطلعها وطمعها بالشئ. و«سخاوة النفس» هى عدم الإشراف إلى الشئ، والطمع فيه. والمبالاة به، والشره.

وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«اليد العليا خير من اليد السفلي، وأبدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غني، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله»** متفق عليه. وهذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم أخصر[(٣)].

وعن أبى عبد الرحمن معاوية بن أبى سفيان صخر بن حرب رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **«لا تلحفوا في المسألة، فوالله لا يسألني أحد منكم شيئاً فتخرج له مسألته منى شيئاً وأنا له كاره، فيبارك له فيما أعطيته»**[(٤)].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب الغنى غنى النفس) ومسلم في الزكاة (باب ليس الغني عن كثرة العرض) .

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا والزكاة (باب الإستعفاف عن المسألة) والرقاق والخمس، ومسلم في الزكاة (باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى) .

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (باب لا صدقة إلا عن ظهر غني) ومسلم في الزكاة (باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلي).

(٤) رواه مسلم في كتاب الزكاة (باب النهي عن المسألة) .

وعن أبي عبد الرحمن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: «ألا تبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم؟» وكنا حديثي عهد ببيعة، قلنا: قد بايعناك يا رسول الله. ثم قال: «ألا تبايعون رسول الله؟» فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟ قال: **«أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس وتطيعوا الله»** وأسر كلمة خفيفة: «ولا تسألوا الناس شيئاً». فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحداً يناوله إياه[1].

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس في وجهه مزعة لحم»**[2].

«المزعة» بضم الميم، وإسكان الزاي، وبالعين المهملة: القطعة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«من سأل الناس تكثراً فإنما يسأل جمراً فليستقل أو ليستكثر»**[3].

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«من تكفل لي ألا يسأل الناس شيئاً وأتكفل له بالجنة؟»** فقلت: أنا، فكان لا يسأل أحداً شيئاً[4].

وعن أبي بشر قبيصة بن المخارق رضي الله عنه قال: تحملت حمالة، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأل فيها فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها» ثم قال: **«يا قبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة، فحلت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش، أو قال: سداداً من عيش - ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجى من قومه لقد أصابت فلاناً فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش أو قال: سداداً من عيش فما سواهن من المسألة، يا قبيصة، سحت يأكلها صاحبها سحتاً»**[5].

---

(١) رواه مسلم في الزكاة (باب كراهة المسألة للناس).
(٢ رواه البخاري في كتاب الزكاة (باب من سأل الناس تكثراً) ومسلم في كتاب الزكاة (باب كراهة المسألة للناس).
(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد (باب ما جاء في الهم في الدنيا) رقم / ٢٣٢٧ /. وأبو داود في كتاب الزكاة (باب الإستعفاف).
(٤) رواه أبو داود في كتاب الزكاة (باب كراهية المسألة).
(٥) رواه مسلم في الزكاة (باب من تحل له المسألة).

«الحمـالة» : أن يقع قتال ونـحوه بين فريقين فـيصلح إنسان بيـنهم على مال، يتحمله ويلتزمه على نفسه. و«الجائحة»: الآفة تصيب مال الإنسان و«القوام»: هو ما يقوم به أمر الإنسـان من مال ونحوه و«السداد»: ما يسد حاجـة المعوز ويكفيه. و«الفاقة» الفقر و«الحجي» العقل.

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«ليس المسكين الذى يطوف على الناس، ترده اللقـمة واللقمـتان، والتـمرة والتمـرتان، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس»**[1].

الحث على الأكل من عمل يده والتعفف به عن السؤال والتعرض للإعطاء

لقـد طلب المؤمن عمـلاً يتكسب منه، وهذا مما لا حرج فـيه لورود النـصوص بذلك.

قال الله تعالي: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قـال: قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : **«لأن يحـتطب أحـدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه»**[2].

وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«كان زكريا عليه السلام نجاراً»**[3].

وعن المقداد بن معديكرب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«ما أكل أحد طعاماً قط خـيراً من أن يأكل من عـمل يديه، وإن نـبى الله داود صلى الله عليه وسلم كـان يأكل من عـمل يده»**[4].

---

(١) رواه البخاري في الزكـاة (باب لا يسألون الناس إلحافا) وفي الـتفسير، ومـسلم في الزكاة (باب المسكين الذي لا يجد غني..).

(٢) رواه البخاري في الزكاة (باب الإستعفـاف عن المسألة)و (باب لا يسألون الناس إلحافا) ومسلم في الزكاة (باب كراهة المسألة للناس) وفي البيوع والشرب.

(٣) رواه مسلم في أحاديث الأنبياء من كتاب الفضائل (باب من فضائل زكريا عليه السلام).

(٤) رواه البخاري في أوائل البيوع (باب كسب الرجل وعمله بيده).

الكرم والجود والإنفاق في وجوه الخير

ثقة بالله تعالى

الكرم والجـود من الأخلاق الفـاضلة التى يحبـها الله، وهـى صفـات وجدت بوضـوح عند المؤمن فـقد أنـفق فى وجوه الخـيـر ثقـة بالله تعـالى وإليك بعض النصوص التى تدل على فضيلة هذه الخصال .

قال الله تعالي: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾[سبأ: ٣٩] .

وقال تعالي: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢٧٢] .

وقال تعالي: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٧٣].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « **لا حسـد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فلسـلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله حكمـة فهو يقـضى بها ويعلمـها**» مـتفق عليـه. ومـعناه: ينبـغى ألا يغبط أحـد إلا على إحـدى هاتين الخصلتين[(١)] .

وعنه قـال: قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : «**أيكم مـال وارثه أحب إليـه من مـاله؟**» قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه. قال: «**فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر**» [(٢)] .

وعن عدى بـن حاتم رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**اتقـوا النار ولو بشق تمرة**» [(٣)] .

وعن جابر رضي الله عنه قال: ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً قط فقال: لا .[(٤)]

---

(١) رواه البخاري في العلم (باب الاغتـبـاط في العلم والحكمة) والزكاة وغيرهمـا، ومسلم في المسافرين من كتاب الصلاة (باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه) .

(٢) رواه البخاري في الرقاق (باب ما قدم من مال وارثه فهو له) .

(٣) رواه البـخاري في الأدب (باب طيب الكلام) والزكـاة وغيـرهمـا، ومسلم في الزكـاة (باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة) .

(٤) رواه البخاري في الأدب (باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل) ومسلم في فضائل النبي صلى الله عليه وسلم (باب ما سئل الرسول صلى الله عليه وسلم شيئاً قط فقال لا) .

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط مُمسكاً تلفاً»**(١).

وعنه أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالي: **«أنفق يا ابن آدم ينفق عليك»**(٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أى الإسلام خير؟ قال: **«تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»**(٣).

وعن أنس ﷺ قال: ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، ولقد جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم، أسلموا، فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخشى الفقر، وإن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يلبث إلا يسيراً حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها(٤).

وعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل»**(٥).

وعن أبى كبشة عمرو بن سعد الأنمارى ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«ثلاثة أقسم عليهن، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه: ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزاً، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر - أو كلمة نحوها- وأحدثكم حديثاً فاحفظوه. (قال): إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقى فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقاً: فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه**

---

(١) رواه البخاري في الزكاة (باب قوله تعالى: فأما من أعطى واتقى) ومسلم في الزكاة (باب في المنفق والممسك):

(٢) رواه البخارى فى التفسير (باب قوله تعالى: وكان عرشه على الماء) وفي النفقات، ومسلم في الزكاة (باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف).

(٣) رواه البخاري في الإيمان (باب إطعام الطعام) ومسلم في الإيمان (باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل).

(٤) رواه مسلم في فضائل النبي ﷺ (باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا).

(٥) رواه مسلم في البر والصلة (باب استحباب العفو والتواضع).

مـالاً، فهـو صادق النـية، يقـول: لو أن لى مالاً لـعملت بعـمل فـلان، فهـو نيتـه، فأجـرهما سواء، وعـبد رزقه الـله مالاً ولـم يرزقه علمـاً، فهو يخـبط فى ماله بغـير علم، لا يتقى فـيه ربه، ولا يصل فـيه رحمه، ولا يـعلم لله فيه حـقا: فهـذا بأخبث المنازل، وعبـد لم يرزقه الله مالاً ولا علمـاً، فهو يقـول: لو أن لى مالاً لعملت فـيه بعمل فلان، فهو نيته، فوزرهما سواء» [(١)] .

وعن عائشة ﵂ أنهم ذبحوا شاة، فقال النبي ﷺ : «ما بقى منها؟» قال: ما بقى منهـا إلا كتفهـا . قال : بقى كلها غـير كتفـها» [(٢)] رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح ومعناه: تصدقوا بهـا إلا كتفها، فقال: بقيت لنا فى الآخرة إلا كتفها .

وعن أبى هريرة ﵁ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جنتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت -أو وفرت- عـلى جلده حتى تخفى بنانه وتعفو أثره. وأما الـبخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع» [(٣)] .

و«الجنة»: الدرع. ومـعناه أن المنفق كلما أنفق سـبغت وطالت حـتى تجر وراءه وتخفى رجليه وأثر مشيه وخطواته .

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ : «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب- ولا يقبل الله إلا الطيب- فـإن الله يقبلها بيمـينه ثم يربيها لصـاحبها كمـا يربى أحدكم فلوه، حـتى تكون مثل الجـبل!» [(٤)] متـفق عليـه. «الفلو» بفتح الفـاء وضم اللام وتشديد الواو، ويقال أيضاً بكسر الفاء وإسكان اللام وتخفيف الواو: وهو المهر .

وعنه عن النبي ﷺ قال: «بينما رجل يمشى بفـلاة من الأرض فسمع صوتاً فى سحـابة: أسق حديقـة فلان، فـتنحى ذلك السحـاب فأفـرغ ماءه فى حـرة، فإذا

---

(١) رواه الترمذي في الزهد (باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر) رقم/ ٢٣٢٦ / .

(٢) رواه الترمذي صفة القيامة (باب فضل التصدق) رقم / ٢٤٧٢ / .

(٣) رواه البخاري في الزكاة (باب مثل البخيل والمتصدق) واللفظ له، ومسلم في الزكاة من طرق (باب مثل المنفق عليه والبخيل) .

(٤) رواه البخاري في الزكاة (باب الصدقة من كسب طيب) ومسلم في الزكاة (باب قبول الصدقة من الكسب وتربيتها) واللفظ للبخاري .

شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء فإذا رجل قائم فى حديقته يحول الماء بمسحاته،فقال له: يا عبد الله، ما اسمك؟ قال: فلان للاسم الذي سمع في السحابة فقال له: يا عبد الله لم تسألنى عن اسمى؟ فقال: إنى سمعت صوتاً فى السحاب الذى هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان لإسمك، فما تصنع فيها؟ فقال: أما إذ قلت هذا فإنى أنظر ما يخرج منها، فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالى ثلثاً. وأرد فيها ثلثه» [(١)] .

«الحرة»: الأرض الملبسة حجارة سوداً. و«الشرجة» بفتح الشين المعجمة وإسكان الراء وبالجيم: هى مسيل الماء.

النهي عن البخل والشح

انتفع المؤمن بصدقته أحوج ما يكون إليها، بينما عاد مال المشرك وبالاً عليه، فقد بخل بماله وكان سبباً فى طغيانه وقد وردت النصوص تنهى عن البخل والشح.

قال الله تعالي: **﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾**[الليل: ٨-١١].

وقال تعالي: **﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**[التغابن: ١٦].

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»** [(٢)] .

(١) رواه مسلم في الزهد والرقائق (باب الصدقة في المساكين) .

(٢) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (باب تحريم الظلم).

الإيثـــار والمواسـاة

كان أرفق بالمشرك لو ارتفـع إلى مقامات الإيثار والمواسـاة بدلاً من اغتراره بماله وأولاده، واحتقـاره لأخيه المؤمن بسبب احـتياجه وقـد وردت النصوص تدل على فـضل الإيثار والمواسـاة . قال الله تعـالى : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر: ٩]. وقـال تعالي: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[الإنسا: ٨].

وعن أبي هريرةﷺ قال: جـاء رجل إلى النبيﷺ فقـال: إني مجـهود. فأرسل إلى بعض نسائه، فقـالت: والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا والذى بعثك بالحق ما عندى إلا مـاء. فقـال النبيﷺ : «من يضـيف هذا الليلة؟» فـقـال رجل من الأنصار: أنا يا رسـول الله. فانطلق به إلى رحله، فـقال لامرأته: أكـرمى ضيف رسول اللهﷺ . وفى رواية قال لامرأته: هل عندك شئ؟ قالت: لا، إلا قوت صبـياني. قـال: فعلليهم بشئ، وإذا أرادوا الـعشاء فنومـيهم، وإذا دخل ضـيفنا فأطفئ السراج وأريه أنا نأكل. فقعدوا، وأكل الضيف، وباتا طاويين، فلما أصبح غدا على النبيﷺ ، فقال: «لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة»[(١)] .

وعنه قال: قال رسول اللهﷺ : «**طعام الاثنين كافـى الثلاثة، وطعام الثلاثة كافـى الأربعة**» متفق عليه.[(٢)]

وعن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال: بينما نحن فى سفر مع النبيﷺ إذ جاء رجل على راحلة له، فجعل يصرف بصره يميناً وشـمالاً، فقال رسول اللهﷺ : «**من كان معه فـضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له**» فذكر من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل![(٣)] .

---

(١) رواه البخـاري في المناقب باب ويؤثرون علي أنفـسهم. . . الآية) وفي فضـائل الأنصار وفي التـفـسير، ومسلم في الأشربة (باب إكرام الضيف وفضل إيثاره) .

(٢)رواه البخاري في الأطعمة (باب طعام الواحـد يكفي الاثنين) ومسلم في الأشربة (باب فضيلة المواساة في الطعام القليل) .

(٣) رواه مسلم في اللقطة (باب استحباب المواساة بفضول المال).

التنافس فى أمور الآخــرة

قــال العلمــاء: إذا رأيت الرجل ينافـسك فى الدنيــا فنافـسه فى الآخــرة، وإن استطعت أن لا يسبـقك إلى الله أحد فافعل، فالمنافسـة المحمودة لا تكون فى بناء القصــور واقتناء الأموال وإنما فـيما يثـقل الميزان ويرضى الرحــمن وقد وردت فى التنافس المحمود نصوص نذكر لك بعضها .

قال الله تعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[المطففين: ٢٦].

وعن سهل بن سعدﷺ أن رسول اللهﷺ أتى بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام وعن يساره الأشياخ. فـقال للغلام: «أتأذن لى أن أعطى هؤلاء؟» فقال الغلام: لا والله يا رسول الله، لا أوثر بنصيـبى منك أحداً فتله رسول اللهﷺ فى يده [(١)] .

«تله» ب: أى وضعه، وهذا الغلام هو ابن عباس ﷺ.

فضــل الغنى الشاكـر

وهو من أخذ المال من وجهه وصرفه فى وجوهه المأمور بها .

لم يختلف العلماء فى أن الفقيـر المؤمن أفضل من الغنى الكافر، وإنما تنازعوا فى المفاضلة بين الفقير المؤمن والغنى الشاكر والراجح أن أتقاهما لله أفضلهما عنده سبحانه، وقد وردت النصوص تبين فضل الغنى الشاكر .

قال الله تــعالي: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾[الليل: ٥-٧]. وقال تعالي: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[الليل: ١٧-٢١] .

وقال تعالى : ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[البقرة: ٢٧١].

---

(٣) أخرجه البخاري في المظالم (باب إذا أذن له أو حلله) وفي أول الشرب وأبواب أخرى منه، ومسلم في الأشربة

وقال تعالي: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾[آل عمران: ٩٢].

والآيات فى فضل الإنفاق فى الطاعات كثيرة معلومة .

عن أبى هريرة ﷺ أن فقـراء المهاجريـن أتو رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العـلى والنعيم المقيم، فـقال: «وما ذاك؟» فـقالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتـصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق. فقال رسول الله ﷺ : «**أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم، وتسـبقون به من بعـدكم، ولا يكون أحد أفـضل منكم، إلا من صنع مـثل ما صنعـتم؟**» قالوا: بلي، يا رسول الله، قال: «**تسبـحون، وتكبرون، وتحمـدون دبر كل صلاة، ثلاثاً وثلاثين مرة**». فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فـعلنا، ففعـلوا مثله. فقـال رسول الله ﷺ : «**ذلك فضل الله يوتيه من يشاء**»(١) متفق عليه. وهذا لفظ رواية مسلم.

ذكـر الموت وقصر الأمـل

ما أكثر العبد من ذكر الموت إلا ورأيت خـير ذلك فى أقواله وأفعاله، وقد كان هذا شأن المؤمن فإذا رأى صاحبه المشرك قد اشـترى قصوراً أو عبيداً . . .يقول فى نفسه يموت غداً فيتركهم ويموتون فيتـركونه ثم يقوم فيصلى ويتصدق بماله كما ورد فى كتب التفسير وقد دلت النصوص على فضل ذكر الموت وقصر الأمل .

قال الله تعالي: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾

[آل عمران: ١٨٥].

وقـال تعـالي: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[لقمان: ٣٤].

وقال تعالي: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[الأعراف: ٣٤]

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (باب الدعاء بعد الصلاة) ومسلم في كتاب الصلاة (باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته) .

وقال تعالي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المنافقون: ٩-١١] والآيات فى الباب كثيرة معلومة .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال: «**كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**» وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك رواه البخارى .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خط النبي ﷺ خطا مربعاً، وخط خطا فى الوسط خارجاً منه، وخط خططاً صغاراً إلى هذا الذى فى الوسط من جانبه الذى فى الوسط، فقال: **هذا الإنسان، وهذا أجله محيطاً به -أو قد أحاط به- وهذا الذى هو خارج أمله، وهذه الخطط الصغار الأعراض: فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا**»[1]

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**أكثروا من ذكر هاذم اللذات**» يعنى الموت[2] .

وعن أبى بن كعب رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلث الليل قام فقال: «**يا أيها الناس، اذكروا الله، جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه!**» قلت: يا رسول الله، إنى أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: «**ما شئت**» قلت: الربع؟

قال: «**ما شئت، فإن زدت فهو خير لك**» قلت: فالنصف؟

قال: «**ما شئت، فإن زدت فهو خير لك**» قلت: فالثلثين؟

قال: «**ما شئت، فإن زدت فهو خير لك**» قلت: أجعل لك صلاتى كلها؟ قال: «**إذن تكفي همك ويغفر له ذنبك**»[3]

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب في الأمل وطوله) .
(٢) رواه الترمذي في الزهد (باب ما جاء في ذكر الموت) رقم/ ٢٣٠٨ / .
(٣) رواه الترمذي في أبواب صفة القيامة (باب رقم ٢٤) رقم/ ٢٤٥٩ / .

وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون (١)

الدنيا دار بلاء وامتحان، فأراد سبحانه أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم في جميع الناس مؤمن وكافر، فالصحيح فتنة للمريض، والغني فتنة للفقير، والفقير الصابر فتنة للغني قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾[الفرقان: ٢٠] .

ومعنى هذا أن كل واحد مختبر بصاحبه، فالغني ممتحن بالفقير، عليه أن يواسيه ولا يسخر منه، والفقير ممتحن بالغني، عليه ألا يحسده ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق، كما قال الضحاك في معني«أتصبرون» أي على الحق، وأصحاب البلايا يقولون: لِمَ لم نُعاف؟ والأعمى يقول: لِمَ لم أجعل بصيراً؟ وهكذا صاحب كل آفة .

والرسول ﷺ المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس من الكفار في عصره، وكذلك العلماء وحكام العدل. ألا ترى إلى قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[الزخرف: ٣١].

فالفتنة أن يحسد المبتلى المعافى، ويحقر المعافى المبتلى، والصبر أن يحبس كلاهما نفسه هذا عن البطر، وذاك عن الضجر «أتصبرون» محذوف الجواب، يعني أم لا تصبرون فيقتضي جواباً كما قاله المزني، وقد أخرجته الفاقة والفقر يوماً فرأى خصياً في مراكب ومناكب، فخطر بباله شئ فسمع من يقرأ الآية: «أتصبرون» فقال: بلى ربنا نصبر ونحتسب، وقد تلا ابن القاسم صاحب مالك هذه الآية حين رأى أشهب بن عبد العزيز في مملكته عابراً عليه، ثم أجاب في نفسه بقوله: سنصبر .

وفي تفسير القرطبي: عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ قال: «**ويل للعالم من الجاهل، وويل للجاهل من العالم، وويل للمالك من المملوك، وويل للملوك من المالك، وويل للشديد من الضعيف، وويل للضعيف من الشديد، وويل للسلطان من الرعية، وويل للرعية من السلطان، وبعضهم لبعض فتنة وهو** قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾[الفرقان: ٢٠].

---

(١) راجع كتابي « صور من الفتن » .

قال ابن كثير فى تفسير الآية: أى اختبرنا بعضكم ببعض وبلونا بعضكم ببعض لنعلم من يطيع ممن يعص، ولهذا قال تعالي: ﴿ **أتصبرون وكان ربك بصيراً** ﴾ أى بمن يستحق أن يوحى إليه كما قال تعالي: ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ومن يستحق أن يهديه الله عز وجل لما أرسلهم به ومن لايستحق ذلك، وقال محمد بن إسحاق فى قوله تعالي: ﴿ **وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ** ﴾ [الفرقان: ٢٠].

قال: يقول الله عز وجل: لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى فلا يُخالفون لفعلت، ولكن قد أردت أن أبتلى العباد بهم وأبتليكم بهم.

وفى صحيح مسلم: عن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى: إنى مبتليك ومبتلى بك**» (١).

وفى المسند: عن رسول الله ﷺ: « **لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة**» (٢).

وفى الصحيح: أنه عليه أفضل الصلاة والسلام خير بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبداً رسولاً فاختار أن يكون عبداً رسولاً» أ.هـ.

والخطاب فى الآية عام فى جميع الناس، وهذا هو الصحيح، وقيل: إن هذا فى رؤساء المشركين وفقراء الصحابة، فإذا رأى الشريف الوضيع قد أسلم قبله أنف أن يُسلم فأقام على كفره لئلا يكون للوضيع السابقة والفضل عليه، ودليله قوله تعالي: ﴿ **لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ** ﴾ [الأحقاف: ١١] وهذا قول الكلبى والفراء والزجاج.

وقيل: إن هذا فى أصحاب البلاء والعافية، هذا يقول: لم لم أُجعل مثله فى الخلق والخُلق وفى العقل وفى العلم وفى الرزق وفى الأجل؟ وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما والحسن رحمه الله.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه أحمد.

وقيل: هذا احتجاج عليهم فى تخصيص محمد ﷺ بالرسالة مع مساواته إياهم فى البشرية وصفاتها، فابتلى المرسلين بالمرسل إليهم وأنواع أذاهم على ما قال تعالي: ﴿ولَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ومِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾[آل عمران: ١٨٦] .

والمُرسل إليهم يتأذون أيضاً من المُرسل بسبب الحسد وصيرورته مكلفاً بالخدمة وبذل النفس والمال بعد أن كان رئيساً مخدوماً. والأولى حمل الآية على الكل لأن بين الجميع قدراً مشتركاً .

وقد كانت قصة صاحب الجنتين، صورة واضحة للفتنة والابتلاء بين الغنى الكافر والفقير المؤمن الصابر، وستظل هذه الآية من سورة الفرقان ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾[الفرقان: ٢٠] تتنزل كالبلسم الشافى على الإنسانية المعذبة فى ضميرها المضطربة فى أنظمتها، المتداعية فى أخلاقها، فلابد من التدبر والتأمل فى معانيها فهى كافية فى عصمة البشر من الهاوية، التى ترددوا فيها نتيجة إعراضهم عن منهج ربهم عز وجل: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ (١٢٣) ومَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ونَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾

[طه: ١٢٤].

القواعد الذهبية حتى لا تكون فتنة (١)

أولاً: العقيدة

قوة العقيدة صمام أمان، وعصمة للنفس فى مواجهة الفتن، فلا أمن ولا أمان إلا بالإيمان قال سبحانه وتعالي: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وهُم مُّهْتَدُونَ﴾[الأنعام: ٨٢] .

والعقيدة: هى مسائل الإيمان وقضايا التوحيد.

وسنستعرض بعض جوانبها وأثر هذه الجوانب فى الوقاية من الفتنة والاكتئاب .

(١) راجع كتابي «صور من الفتن» طبعة دار العقيدة .

(١) القضاء والقدر

إيمان العبد بالقضاء والقدر يجعله مطمئن القلب، هادئ البال، فالقدر هو نظام التوحيد، ومن كذب بالقدر فقد نقض تكذيبه توحيده، قال سبحانه وتعالي: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[الأحزاب:٣٨] تسكن النفس عندما تطالع هذه الآيات وتمتلئ القلوب رضى عن الله عز وجل، فهو سبحانه وتعالى بقسطه وعلمه، جعل الروح والفرح فى اليقين والرضي، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط .

قال سبحانه وتعالي: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[الحديد: ٢٢-٢٣] فعندما يعلم المؤمن أن المصيبة مقدرة من عند الله سبحانه وتعالي، فإنه لا يحزن على فائت، ولا يفرح فرحاً يطغيه بما آتاه، بل يسير إلى ربه سيراً جميلاً معتدلاً بلا إفراط أو تفريط وبلا غلو أو جفو، وبلا إسراف أو تقصير، فالنعمة لا تطغيه والبلوى لا تقنطه من رحمة الله عز وجل.

(٢) الإيمان باليوم الآخر

من علم أن المرجع والمآب إلى الله عز وجل، وتيقن الصراط والميزان وتطاير الصحف، وأن الأمر إما جنة وإما نار، وأن الآخرة من ذهب يبقي، وأن الدنيا من خزف يفني، وأن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، وأن الآخرة قد ارتحلت مقبلة، وقد اقترب للناس حسابهم، وأن الموت نهاية كل حي، وأن القبر أول منزل من منازل الآخرة، من علم ذلك هانت عليه المصيبات وخفت عنده الأحزان، وأصبحت الهموم هماً واحداً، وهو هم الآخرة، فالإيمان باليوم الآخر تسلية المؤمنين فى مواجهة شدائد الدنيا وفتنتها.

(٣) الإيمان بالأسماء والصفات

إن الإيمان بالأسماء والصفات من شأنه أن يثبت النفوس ويقوى العزائم ويعين على مواجهة النوائب والفتن، فالمسلم الذى يعلم أن الله حكيم يتقبل الأحداث ويدرك أن فيها خيراً له، حتى وإن خفيت الحكمة منها.

(٤) مفهوم المسلم للمصائب والأحزان

المسلم يؤمن بأن المصائب قد تكون علامة على محبة الله للعبد ففى الحديث: **«إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم»**[١] والابتلاء للمسلمين يكون على قدر إيمانهم **«أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل»**[٢] فإذا صبر واحتسب نال الأجر العظيم **﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾**[الزمر: ١٠].

ولكى تستبين قيمة العقيدة، انظر فى قصة الخنساء، هذه المرأة التى بكت أخاها صخراً وأنشدت فيه المعلقات وانتابها الجزع بسبب فراقه، هى هى عندما يموت أولادها الأربعة فى معركة القادسية، ما زادت على قولها: «الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم، وأرجو أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته».

هى امرأة هنا وهناك، وهذا أخوها وهؤلاء هم أولادها الأربعة، ومن المعلوم أن حزن المرأة على ولدها أشد من حزنها على أخيها، ولكنه الإيمان الذى يصنع الأعاجيب.

إن الحال لا يمكن أن يستقيم إلا بالإيمان بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره حلوه ومره .

فاللهم ارزقنا إيماناً صادقاً وديناً قيماً تخالط بشاشته القلوب، وتوفنا اللهم مسلمين غير خزايا ولا مفتونين .

---

(١) رواه أحمد وصححه الألباني

(٢) رواه الطبراني وصححه الألباني .

ثانياً : التقوى والعمل الصالح

قال سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧] وهذه الحياة حياة الرضا والقناعة، ومدارها على تقوى الله والعمل الصالح، فلا يمكن أن تطيب الحياة ولا أن تسعد النفوس إذا أعرضت عن أمر خالقها ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[طه: ١٢٣-١٢٤] والمال والجاه والسلطان والشهرة والجمال .... لا يمكن أن يحقق هذه السعادة فهذا هو حكم الخالق جل وعلا ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[الملك: ١٤] ولذلك كان إبراهيم بن أدهم رحمه الله يقول: «والله إننا لفى نعمة لو يعلم بها الملوك وأبناء الملوك لجالدونا عليها بالسيوف» .

ثالثاً : الدعاء والتسبيح والصلاة

صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ما أصاب عبداً هم ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرجاً**»[1] .

فإذا خفت الفتنة فاهرع إلى الصلاة والدعاء والتسبيح فهو سبحانه وتعالى الذى يجيب المضطر ويكشف الضر .

---

(١) رواه أحمد وابن حبان .

رابعـاً : تقدير أسوأ الاحتمالات والنظر إلى من هو أسوأ حالاً

جاء خباب بن الأرت رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ وكان متـوسداً بردة فى ظل الكعبة وقال له: ألا تستنـصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال ﷺ : **«قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتي بالمنشار فيوضع علي رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسيـر الراكب من صنعاء إلي حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»** .[1]

فإن أصبت فى مال أو نفس أو ولد، أو رأيت نفسك مـبخوس الحظ كما تقول فانظر إلى ما هو أسوأ حالاً، حتى تؤدى شكر ما أنت فيه من نعمة.

ففى الحديث: **«انظروا إلى من هو أسـفل منكم فى متاع الدنيـا ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم»**[2] .

خامساً : الواقعية والبعد عن الخيالية

إن الخيالية فى التعامل والتقييم، عواقبها وخيمة، ولذلك قال النبي ﷺ : **«لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضى منها آخر»**[3] فلو ركز الرجل نظره على نقائص زوجـته سيتكدر هـو ويكدرها، بل لا يبعد أن يطلقـها، فمن الخيـالية أن ينشدها دائماً دون العـشرين، لونها كذا وشعرها كذا. . . والبـعض يتعامل مع من أمامه وكأنه ملك، فإذا بدرت منه الهفـوة، صار شيطاناً فى نظره!! وهذه خيالية، فلا هو ملاك ولا هو شيطان، وإنما هو بشر يصيب ويُخطئ، نقبل منه إصابته ونرد عليه خطأه، فالواقعية المنضبطة بالشرع، والبعد عن الخيالية وقاية لك من الفتن .

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) رواه مسلم.

سادساً : تقديم حسن الظن

من الفتنة أن تحسد الآخرين وتحقد عليهم، وتنظر إليهم على أنهم لا يستحقون هذا المال أو الجاه أو الصحة . . . وأنك أحق بذلك منهم، فلديك من الذكاء والفهم والفطنة ما يفوقهم!! إن فتنة البعض فى أن يحسن الظن بنفسه ويسيئ الظن بالآخرين، ويحمل الأقوال والأفعال على أسوأ محاملها، فيتوهم أن فلاناً يكرهه ويعاديه لكونه لم يُسلم عليه أو لم يبتسم فى وجهه وقد يكون السبب أنه لم يره أو كان منشغلاً مهموماً، ولذا قال سبحانه وتعالي: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾[الحجرات: ١٢].

سابعاً : كن كالشجر يقذف بالحجر فيلقي الثمر

شأنك كشأن النخلة، فلا تواجه الإساءة بالإساءة، واتق الله فيمن لا يتقى الله فيك، واشغل نفسك بطاعة الله وبذكره سبحانه وتعالي، فنفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل فلا داعى للقيل والقال، فذكر الناس داء وذكر الله شفاء، وطن نفسك على العفو والصفح وكظم الغيظ، فأنت تتعامل مع من لا تخفى عليه خافية .

ثامناً : الأمل

لن يغلب عسر يسرين ﴿**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**﴾

٨[الشرح: ٥-٦]

وقال سبحانه وتعالي: ﴿**سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا**﴾[الطلاق: ٧].

وفى الحديث: «**واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً**».

فالكرب والشدة لن تدوم، بل سرعان ما تنقشع ويعقبها فرجاً وسعة، وما أكثر السنن الشرعية والكونية الدالة على ذلك، فاستصحب الأمل، ولا ينقطع رجاؤك فى الله عز وجل ثق فى وعده سبحانه وتعالي، فهو لا يضيع أهله وأوليائه ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ**﴾[الطلاق: ٢-٣].

الحكمة في فتنة وابتلاء البعض بالبعض الآخر

من تتبع نصوص الشريعة ونظر فى الواقع سيجد أن فتنة البعض بالبعض الآخر لا تخلو من عدة فوائد، منها :

(١) رفع درجات المؤمنين، ومضاعفة حسناتهم وتكفير خطاياهم

(٢) الفتنة تميز المؤمن من المنافق والصادق من الكاذب :

(٣) البلاء والفتنة كالدواء للداء.

انتصار المؤمن على صاحب الجنتين

قال تعالي: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾[غافر: ٥١].

وقال: ﴿إن تنصروا الله ينصركم﴾ وقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

[الرووم: ٤٧].

وهذا وعد من الله بنصرة عباده المؤمنين، ووعد الله لا يتخلف أبداً، فمن أصدق من الله قيلاً وحديثاً، والنصر كما يكون بالغلبة والقهر للأعداء كما حصل لداود وسليمان وموسى ومحمد صلوات الله وسلامة عليهم أجمعين، فكذلك يتحقق النصر بإهلاك المكذبين كما حدث مع قوم نوح وعاد وثمود .

قال تعالي: ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[العنكبوت: ٤٠].

وقد يكون الانتصار بانتقام الله من الكفرة بعد وفاة الأنبياء والصالحين كما حدث مع من قتل يحيى ومن حاول قتل عيسى عليهما السلام .

ثم ثبات الداعية على مبدئه وقوة حجته، وصحة برهانه هي من أعظم صور النصر، قال تعالى عن نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾[الصافات: ٩٧-٩٨].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[الصافات: ١٧١-١٧٣].

بل ما يتصوره كثير من الناس هزيمة، قد يكون هو النصر الحقيقى كالقتل والسجن والطرد والأذى .

قال تعالي: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[آل عمران: ١٦٩].

وقال عن صاحب يس لما قتلوه: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾[يس: ٢٦-٢٧] ولو نظرت فى سجن نبى الله يوسف -عليه السلام- لوجدته تمخض عن نصر عظيم، وكذلك المذلة التى لحقت بلال رضي الله عنه أثناء تعذيبه، انتهت إلى عز كبير، فما قام عبد لله مقام ذل إلا وأقامه الله مقام عز .

ولو تتبعنا قصة المؤمن مع صاحبه الجنتين، لوجدناها انطوت على صور كثيرة من صور النصر فى الدنيا والآخرة. فثبات المؤمن وحرصه على طاعة الله فى عسره ويسره، وغناه وفقره وقوة حجته وسطوع برهانه عندما قال له أخوه الكافر ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[الكهف: ٣٤] رد عليه قائلاً: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾[الكهف: ٣٧-٤١] ثم انظر كيف حل الدمار والهلاك بمال الكافر، فما كاد المؤمن يفرغ من قولته إلا ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾[الكهف: ٤٢] وكلها من صور النصر الذى تحقق لمؤمن فى الدنيا مصداق قوله تعالي: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الروم: ٤٧] ثم فى الآخرة تكتمل حلقة ومعالم الإنتصار بدخول المؤمن الجنة، واستقر صاحب الجنتين المشرك فى نيران الجحيم .

فليس لأحد أن يستريب في وعد الله، ولا أن يتحجر واسعاً ويقصر معاني النصر على قهر الأعداء في ساحة الحرب، كما لا يليق لأحد أن يسيئ الظن بربه، فمن ظن أن الله يخذل أولياءه فقد ظن ظن السوء برب العزة جل وعلا ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[آل عمران: ١٥٤] وقد يتأخر أو يتخلف النصر لسبب أو لآخر فلا تتنازل عن عقيدتك ولا تساوم على إيمانك فالسلامة لا يعدلها شئ، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، واتهم نفسك إن اتهمت فما نزل بلاء إلا بذنب وما رفع إلا بتوبة كما قال على بن أبى طالب رضي الله عنه وثق فى وعد الله، واقرأ السنن الشرعية والكونية قراءة واعية قال تعالي: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[البقرة: ٢١٤].

وقال: ﴿الم ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[العنكبوت: ١-٣]

وقال سبحانه: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[العصر] تأمل هذه السورة وتدبرها فلو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم كما قال الإمام الشافعي رحمه الله ففيها بيان منهج النصر بسعته وشموله وتوضيح لأسبابه وطريقه .

لمثل هذا النعيم وهذا الفوز لا لغيره فليعمل العاملون

إن الفوز الحقيقي، يوم ينجح العبد فى الابتلاء والاختبار والامتحان، ويطمئن على خاتمته ويؤتى كتابه بيمنه فيقول: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾[الحاقة: ١٩-٢٤]

قال ابن عباس هنيئاً: أى لا يموتون فيها. لقد بلغ من فضل الله على المؤمن أن أدخله الجنة وأنجاه من النار فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾[الصافات: ٦٠-٦١].

أى لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون ليصيروا إليه فى الآخرة، وهذا نظير ما قال له الكافر: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾[الكهف: ٣٤].

وقيل: يحتمل أن يكون من قول الملائكة أو هو من قول الله عز وجل لأهل الدنيا، أى قد سمعتم ما في الجنة من الخيرات والجزاء ﴿لِمِثْلِ هَذَا﴾ والجزاء والعطاء والفضل ﴿فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾[الصافات: ٦١] فيلكن عملك هنا ونظرك فى السماء، وعملك هنا وحساباتك حسابات أخروية، فليس دون الله منتهى وهذا هو الذى ترجوه، من وراء القول والفعل ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا ⑨ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾[الإنسان: ٩-١٠] فالعمل الذى يتحقق به الفوز العظيم هو ما كان ابتغاء وجه الله، وعلى سنة رسول الله ﷺ، وهو أيضاً ما تم حباً لله وطمعاً فى جنته وخوفاً من ناره ﴿كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ⑨⓪ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء: ٩٠-٩١] وهذا هو الذى يفرق بين المؤمن وغيره، فالكل عامل ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾[الإسراء: ٨٤] وشتان بين عمل رضي الله عنه، وبين عمل شقى صاحبه به .

والكل أيضاً ساع ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾[الليل: ٤] وسعى العباد يفترق، فمن السعى ما يوصل إلى جنات النعيم، ومنه ما يقود إلى نيران الجحيم .

والكل متحرك ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾[المدثر: ٣٧] فمن تقدم إنما تقدم بطاعة الله، ومن تأخر إنما تأخر بمعصية الله، فليس منا من هو ساكن فى مكانه، ولا أضر على العبد من ذنوبه ومعاصيه فهذه هى التى تفعل به الأفاعيل فى الدنيا والآخرة، وتؤخره إلى وراء وراء .

والكل أيضاً مريد ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾[آل عمران: ١٥٢] فكن أنت من أبناء الآخرة ولا تكن من أبناء الدنيا، فإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، والآخرة قد ارتحلت مقبلة، وكما قال شداد بن أوس: اعلموا أنكم لن تروا من الخير إلا أسبابه، ولن تروا من الشر إلا أسبابه الخير بحذافيره فى الجنة، والشر بحذافيره فى النار، والدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر والآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قادر، ولكل دار بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا.

وقالوا: اعمل عمل رجل لا ينجيه إلا عمله وتوكل توكل رجل لا يصيبه إلا ما كُتب له .

وقال مؤمن آل فرعون: ﴿يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار﴾ ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلايَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[لقمان: ٣٣] فضع الآخرة نصب عينيك، وارتحل طلباً لها، واحذر أن تنخدع بزخرف فان وعارية مسترجعة، واسلك سبيل قوم ركبوا سفن الآخرة ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الذاريات: ١٧-١٨] طلبوا السلامة لأنفسهم وعلموا أن الراحة عند أول قدم يضعونها في الجنة، فهذا هو الفوز العظيم ولمثل هذا فليعمل العاملون .

✪✪✪✪✪

الخـاتمـة

بدأت القصة بمشهد الجنتين ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا ﴾[الكهف: ٣٢].

فالبساتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً، بينما كان صاحبها جاحداً وكافراً ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾[الكهف: ٣٥] فلم يؤد شكر ما أنعم الله به عليه، ولذلك كان كفره مؤذناً بزوال النعمة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[الأنفال: ٥٣] ولذلك لا عجب أن أسدل ستار القصة على مشهد الجنة الخاوية على عروشها، وموقف صاحبها يقلب كفيه أسفاً وندماً ويقول: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾[الكهف: ٤٢] ولم يكن ذلك منه إيماناً برب الأرض والسماوات، ولكن حزناً على ضياع المال، وبدليل أنه مات وجاء مشهد صاحبه المؤمن مع إخوانه فى الجنة وذلك فى سورة الصافات وهو القائل: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾[الصافات: ٥٢] ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أى أن صاحب الجنتين على شركه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾[النساء: ٤٨].

وتأتى هذه التعقيبات القرآنية فى نهاية هذه القصة ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾[الكهف: ٤٣-٤٤] فلا منقذ له، وهناك كل أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾[غافر: ٨٤] وكقوله إخباراً عن فرعون ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[يونس: ٩٠-٩١] حينئذ تنكشف الحقائق ويعلم الجميع أنه سبحانه المتفرد بالولاية والقدرة فلا قوة إلا قوته، ولا نصراً إلا نصره، وثوابه هو خير الثواب، وعاقبة الأعمال التى تكون لله عز وجل حميدة رشيدة كلها خير ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾[الكهف: ٤٤].

وأمام هذا المشهد يضـرب مثلاً للحياة الدنيا كلها فـإذا هى كتلك الجنة المضروبة مثلاً قصيرة قصيرة، لا بقاء لها ولا قرار .

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[الكهف: ٤٥] فالماء اختلط به نبات الأرض، والنبـات صار هشيمـاً، فما أقـصرها وما أهونها حـياة، فكيف استخفت عقول البشر، وكيف صرفت الناس عن طاعة ربهم؟! وهذه هى حقيقتها سريعة الزوال والانتهاء، وقد آذنت برحيل، لا تستقر على حال، وكذلك أهلها لا يثبتون على وضع فـالغنى قد يصير فقيراً، والصحـيح قد يعانى السقم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[الكهف: ٤٥].

ثم يأتى هذا التعقيب ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[الكهف: ٤٦] أى الإقبال عليه والتفـرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم والشفقة المفرطة عليهم فالآخرة خير وأبقي، والدنيا متاع زائل، ولذلك فـالعاقل هو الذى يقدم لنفسـه الباقيات الصـالحات التى تبقى لأهلها فى الجنة ما دامت السماوات والأرض، وهى شـاملة لجميع الطاعات سواء كانت فرضاً أو نفلاً.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هى الصلوات الخمس .

وقال عثمان رضي الله عنه: هى لا إله إلا الله وسبحان الله والحـمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وقد ورد ركـعتا الفجـر خير من الدنيـا وما فيـها، ولهمـا أحب إليّ من الدنيا جميـعاً وركعتـا الفجر ليست واجـبة، وليس معنى ذلك أن يترك الإنسـان العمل والتكسب أو أن يسب الدهر، ويحـرم الطيبات، فنحن بحـاجة لأن نقيم حـضارة على منهاج النبـوة، وأن نعمر الدنيـا بطاعة الله، وأن نقيم واجب العـبودية، وأن نعلم أن الذم الوارد فى النصوص، لا لزمان الدنيا ولا لمكانها، فـقد جعل سبحانه ذلك ﴿خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾[الفرقان: ٦٢].

وإنما يقع الذم على تصرفات العباد المخالفة لشرع الله، كشأن صاحب الجنتين فقد كان ظالماً لنفسه بينما الجنة (البستان) ﴿آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾[الكهف: ٣٣] ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[الأعراف: ٣٢] ولا يليق فى الوقت ذاته أن ننشغل بالدنيا عن الدين، أو أن يبيع الإنسان دينه بدنيا غيره، فلابد من مواجهة النعمة بالشكر، واعمال الضوابط والموازين الشرعية فى كل آن وحين ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾[الكهف: ٤٦] وتتوالى الآيات بعد ذلك ويأتى الأمر لرسول الله ﷺ فى أن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه، وهكذا تتناسب قصة الجنتين مع المثل المضروب للحياة الدنيا مع هذا الأمر الإلهي، لتصبح هذه القصة الحقيقة الواقعية -التى لا خيال فيها- بمثابة عظة وعبرة وتقريراً خير للقيم فى الحياة وما بعد الحياة والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعملون .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه

سعيد عبد العظيم

أخي الكريم :

احـرص على متـابعة سلسـلة قصص القـرآن عظات وعبـر، ففيهـا القدوة فى الصالحين وطريق الدعوة القويم وفـيه الصبر فى الشدائد ومنها نستلهم الواقع.

هذه القصص التي قصها الله سبحانه على نبيه الكريم ليثبت بها فؤاده فـى طريقه في الدعوة إلى الله، فمـا أحوجنا نحن فى هذه الأيام إلى تلك القصص بعظاتها الشاملة.

قـصـة أهل الكهف

قـصـة صـاحب الجنـتين

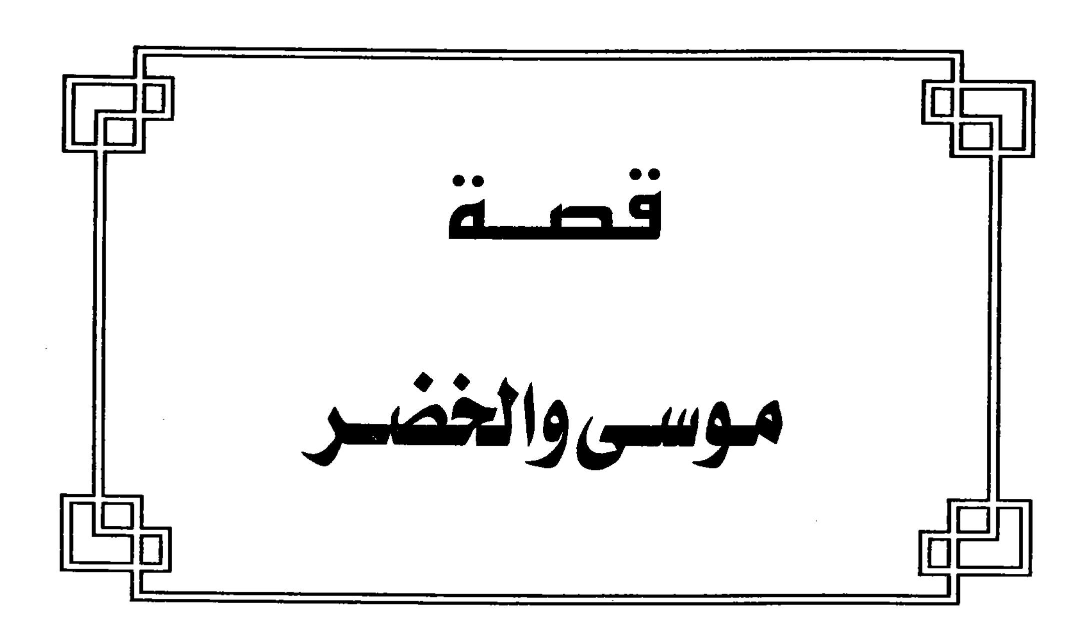
قـصـة مـوسى والخـضـر

قـصـة ذي القـرنين

قـصـة صـاحب يس

قـصـة مـؤمن آل فـرعـون

قـصـة أصـحـاب الأخـدود



قصة موسى والخضر



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[النساء: ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[الأحزاب: ٦٩-٧١] .

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار .

قصة موسى بن عمران مع العبد الصالح عند مجمع البحرين، هى إحدى قصص سورة الكهف وسورة الكهف من السور المكية . وهى إحدى سور خمس بدئت ب «الحمد لله» وهذه السور: الفاتحة، الأنعام، الكهف، سبأ، فاطر .

والحمد لله هو الثناء على الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، وفى ذلك إرشاد للعباد إلى وجوب حمده سبحانه، وقد ختمت سورة الكهف بالتوحيد كما بدأت به، ففى خاتمتها يقول ربنا جل وعلا: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾[الكهف: ١١٠] .

والقصص من سمات القرآن المكى، وهذا واضح فى سورة الأعراف ويونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر والإسراء والكهف وطه والأنبياء والمؤمنون والفرقان والنمل والقصص وغيرها من سور القرآن، وقد كانت الدعوة فى مكة بحاجة إلى تنزل القصص بغرض إظهار صدق النبى ﷺ فى دعوته الأمم بما أخبر به عن الأحوال الماضية عبر القرون والأجيال وقيام التحدى بذلك، ومن هذه الأهداف زجر الكفار وإنذارهم وتخويفهم، وبيان أسس الدعوة وأن

الدين عند الله الإسلام، وأن الذى تعدد هو الشرائع، وشريعة الإسلام حاكمة ومهيمنة على سائر الشرائع، كما أن فى القصص حث على مكارم الأخلاق وهو بمثابة إعجاز فى إيجاز .

وقد اشتملت سورة الكهف على عدة قصص وأمثال بقصد العظة والإعتبار . وقد عدد البعض قصص السورة بخمس، وأدخل فيها قصة السجود لآدم على الرغم من أنها كررت كثيراً فى القرآن الكريم . وقصص السورة ورد بهذا الترتيب.

الأولى: قصة أصحاب الكهف، وهى تبدأ بالآية السادسة والعشرين .

الثانية: قصة صاحب الجنتين مع صاحبه وتبدأ بالآية الثانية و الثلاثين .

الثالثة: قصة سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس وعصيانه وتبدأ بالآية الخمسين من السورة.

الرابعة: قصة الخضر مع موسى عليه السلام وتبدأ بالآية الستين من السورة : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾[الكهف: ٦٠].

الخامسة: قصة ذى القرنين وتبدأ بالآية الثالثة والثمانين من السورة .

وقد حث النبى ﷺ على قراءة سورة الكهف خصوصاً يوم الجمعة، فقد روى الحاكم عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور مابين الجمعتين».

فينبغى الحرص على تلاوتها وخصوصاً فى خير يوم طلعت عليه الشمس، وينبغى كذلك حفظ آيات من سورة الكهف لأمر النبى ﷺ بقراءة فواتح الكهف على الدجال أو آخرها، فقد أخرج مسلم من حديث النواس بن سمعان، أن النبى ﷺ قال: «من أدركه فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف» .

وروى مسلم أيضاً عن أبى الدرداء أن النبى ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال ـ أى من فتنته ـ»[1] .

قال شعبة: من آخر الكهف، وقال همام: من أول الكهف، ومعلوم أنه ما بين خلق آدم حتى قيام الساعة فتنة أعظم أو أشد من الدجال، وما من نبى إلا وأنذر أمته الدجال .

قال النووى: سبب ذلك (الحث على تلاوة سورة الكهف) ما فى أولها من العجائب والآيات فمن تدبرها لم يفتن بالدجال وكذا آخرها . . . .

وقصة الخضر مع نبى الله موسى من القصص الذى لم يتكرر فى كتاب الله تعالى، وقد اشتملت على فوائد كثيرة ومسائل عديدة حرية بالتوضيح والبيان .

وهذا أوان الشروع فى المقصود، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) صححه الألباني -حفظه الله- .

مناسبة القصة

سبب هذه القصة ما خرجه الصحيحان عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى عليه السلام قام خطيباً فى بنى إسرائيل فسئل أى الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه: إن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب فكيف لى به، قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله فى مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم» وذكر الحديث، واللفظ للبخارى .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لما ظهر موسى وقومه على أرض مصر أنزل قومه مصر، فلما استقرت بهم الدار أمره الله أن يذكرهم بأيام الله، فخطب قومه فذكرهم ما آتاهم الله من الخير والنعمة إذ نجاهم من آل فرعون، وأهلك عدوهم، واستخلفهم فى الأرض، ثم قال: وكلم الله نبيكم تكليماً، واصطفاه لنفسه، وألقى عليه محبة منه، وآتاكم من كل ما سألتموه، فجعلكم أفضل أهل الأرض، ورزقكم العز بعد الفقر، والتوراة بعد أن كنتم جهالاً، فقال له رجل من بنى إسرائيل: عرفنا الذى تقول، فهل على وجه الأرض أحد أعلم منك يا نبى الله ؟ قال: لا، فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إليه، فبعث الله جبريل أن يا موسى وما يدريك أين أضع علمى ؟ بلى، إن لى عبداً بمجمع البحرين أعلم منك، وذكر الحديث .

قال القرطبى: قال علماؤنا: قوله فى الحديث: «هو أعلم منك أى بأحكام وقائع مفصلة، وحكم نوازل معينة، لامطلقاً، بدليل قول الخضر لموسى: إنك على علم علمكه الله لا أعلمه أنا، وأنا على علم علمنيه لا تعلمه أنت وعلى هذا فيصدق على كل واحد منهما أنه أعلم من الآخر بالنسبة إلى ما يعلمه كل واحد منهما ولايعلمه الآخر، فلما سمع موسى هذا تشوقت نفسه الفاضلة، وهمته العالية لتحصيل علم ما لم يعلم، وللقاء من قيل فيه: إنه أعلم منك، فعزم فسأل سؤال الذليل بكيف السبيل، فأمر بالإرتحال على كل حال . وقيل له احمل معك حوتاً مالحاً فى مكتل .... وهو الزنبيل .... فحيث يحيا وتفقده فثم السبيل، فانطلق مع فتاه لما واتاه، مجتهداً طلباً قائلاً: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾[الكهف: ٦٠].

يا عليم علمنى

العلم شـريف فمن أراد به الدنيـا وجدها، ومن أراد به الآخـرة وجدهـا، وما أجمل أن تضرع إلى ربك وتقول: اللهم يا معلم إبراهيم الخير علمنى، ويا مفهم سليمان فـهمنى، فالله تعالى هو العليم، يعلم ما كـان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وأحاط بكل شئ علماً، ولايعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

قال الشيخ حافظ حكمى فى المعارج[١]: ومما أثبته الله لنفسه أنه عليم بعلم وأن علمه مـحيط بجـميع الأشيـاء من الكليات و الجزئيـات وهو من صفـاته الذاتية، وعلمه أزلى بأزليـته، فقد علم تعالـى فى الأزل جميع ما هو خالق وعـلم جميع أحوال خلقه وأرزاقـهم وآجالهم وأعمالهم وشقاوتـهم وسعادتهم، ومن هو منهم من أهل الجنة، ومن هـو منهم من أهل النار، وعلم عـدد أنـفـاسـهم ولحظاتهم وجميع حـركاتهم وسكناتهم أين تقع ومتى تقع وكيف تـقع، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السمـوات ولا فى الأرض ولا فى الدنيا ولا فى الآخرة قال تعالى: **﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾**

{ الأنعام: ٥٩}.

وفى الصحيحين حـديث موسى والخضر عليهمـا السلام: «يا موسى إنك على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمـه، وأنا على علم من الله علمنيـه لاتعلمه» إلى أن قال: «فركـبنا فى السفينة قال: ووقع عـصفور على حرف السفـينة فغمس منقاره فى البحر فقال الخضر لموسى: ما علمك وعلمى وعلم الخلائق فى علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره» .

قال الخطابى: العليم هو العـالم بالسرائر والخفيات التى لا يـدركها علم الخلق وجاء على بناء فعيل للمبالغة فى وصفه بكمال العلم .

---

(١) راجع كتاب شرح أسماء الله الحسني للأستاذ محمد حسين.

ورد فى القرآن العظيم اسم العليم «١٦٢» مائة واثنان وستون مرة .

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: إن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «من قال حين يصبح بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شئ فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات لم تفجأه فاجئة بلاء حتى يمسى، ومن قالها حين يمسى ثلاث مرات لم تفجأه فاجئة بلاء حتى يصبح»[1] .

قال الإمام الغزالى: شرف العبد سببه العلم من حيث أنه من صفات الله تعالى ولكن العلم الأشرف ما معلومه أشرف، وأشرف المعلومات هو الله تعالى فلذلك كانت معرفة الله تعالى أفضل المعارف، بل معرفة سائر الأشياء أيضاً لها معرفة لأفعال الله تعالى، أو معرفة للطريق الذى يقرب العبد من الله أو الأمر الذى يسهل به الوصول إلى معرفة الله والقرب منه، وكل معرفة خارجة عن ذلك فليس فيها كثير شرف .

أولاً : دلائل ذلك من كتاب الله

(١) مدح سبحانه أهل العلم وأثنى عليهم وشرفهم فقال: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾[العنكبوت: ٤٩] .

(٢)نعم الله على أنبيائه كثيرة وأخصها نعمة العلم، قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[النساء: ١١٣] وقال عن نبيه موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[القصص: ١٤] .

وقال عن يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢] .

وقال عن داود عليه الصلاة والسلام: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠] .

---

(١) رواه أبو داود والبيهقي.

وقال عن سليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿ **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا** ﴾[الأنبياء: ٧٩].

وقال فى حق الخضر عليه السلام: ﴿ **فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا** ﴾[الكهف: ٦٥] .

(٣) ذكر سبحانه عباده بنعمة العلم وأمرهم بشكرها فقال: ﴿ **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ** ﴾

[البقرة: ١٥١-١٥٢] .

(٤) فضل الله آدم على الملائكة، فلما رأوا علمه بالأسماء كلها قالوا: ﴿ **سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾[البقرة: ٣٢] .

(٥) العلم حياة ونور والجهل موت وظلمة لقوله تعالى: ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾[الأنعام] قالوا :كان قلبه ميتاً من الجهل فأحياه الله بنور العلم، وجعل له من الإيمان نوراً يمشى به فى الناس .

(٦) للعلم سلطان على القلوب أقوى من سلطان القوة الجسدية، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل سلطان فى القرآن فهو حجة، قال تعالى: ﴿ **إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا** ﴾[يونس: ٦٨] أى بعلم .

(٧) جعل سبحانه صيد الكلب الجاهل ميتة لا يحل أكله وأباح صيد الكلب المعلم فقال تعالى :

﴿ **يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ** ﴾ [المائدة : ٤] .

(٨) لاينفر الكل للغزو، فلا بد من بقاء طائفة للتفقه والتعلم، قال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾[التوبة: ١٢٢] .

(٩) العلماء هم المستفيدون بحق من آيات الله قال تعالى:

﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[العنكبوت: ٤٣] .

(١٠) العلماء هم من أهل الخشية قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر: ٢٨] ولذلك لما قيل للإمام الشعبي: ياعالم، قال: إنما العالم من يخش الله.

(١١) أمر سبحانه خلقه بالرجوع للعلماء فقال:

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

(١٢) أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يدعو ويقول: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[طه: ١١٤].

(١٣) العلم نعمة جليلة تستحق الفرح بها، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[يونس: ٥٨]، وفضل الله هو الإيمان والرحمة هى القرآن .

(١٤) من آتاه الله العلم فقد آتاه خيراً كثيراً، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[البقرة: ٢٦٩].

(١٥) ذكر الله رفع الدرجات فى القرآن الكريم أربع مرات، ثلاث منهن لأهل العلم وواحدة لأهل الجهاد، وكفى بهذا الفضل شرفاً لأهل العلم، قال تعالي: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] .

(١٦) يستشهد الله بأهل العلم يوم القيامة دون غيرهم، قال تعالي: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[الروم: ٥٦]

(١٧) وصف الله أهل النار بالجهل فقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[الملك: ١٠] وأدوات العلم هى القلب والسمع والبصر .

(١٨) سلى الله نبيه ﷺ بإيمان أهل العلم به فقال سبحانه: ﴿قُلْ آمنُوا به أَوْ لا تؤْمنوا إنَّ الَّذين أُوتُوا الْعلْمَ من قَبْله إذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهمْ يَخرُّونَ للأَذْقَان سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾[الإسراء: ١٠٧-١٠٨] .

(١٩) لايستوى العالم والجاهل، قال تعالى :

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر: ٩] .

(٢٠) ويكفيهم فخراً هذه الشهادة:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾[آل عمران: ١٨]

بعض الأحاديث
الدالة على فضل العلم وأهله

(١) عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «ما من رجل يسلك طريقا يلتمس فيه علماً إلا سهل الله له طريقاً إلى الجنة، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به حسبه»[(١)].

(٢) عن أبى موسى رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، وكانت منها بقعة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها بقعة أمسكت الماء فنفع الله به الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وكانت منها طائفة لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعمل، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به»[(٢)].

قسم النبى ﷺ الناس فى هذا الحديث إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: هم أهل الحفظ والفهم الذين حفظوا العلم وعقلوه وفهموا معانيه واستنبطوا وجوه الأحكام والفوائد منه فهؤلاء بمنزلة الأرض التى قبلت الماء.

---

(١) أخرجه مسلم ورواه الأربعة والحاكم وقال: على شرط الشيخين.

(٢) متفق عليه.

القسم الثانى: أهل الحفظ الذين رزقوا حفظ العلم ونقله وضبطه ولم يرزقوا تفهما فى معانيه ولا استنباطا ولا استخراجا لوجوه الأحكام فهؤلاء بمنزلة الأرض التى أمسكت الماء ولم تنبت الكلأ والعشب الكثير .

القسم الثالث: الذين لا نصيب لهم من العلم، لا حفظا ولا فهما ولارواية ولادراية وهؤلاء هم الأشقياء، فهم بمنزلة الأرض التى هى قيعان لا تنبت ولا تمسك ماءاً .

(٣) عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «مامن قوم يجتمعون فى بيت من بيوت الله يتعلمون القرآن ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وتنزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده، وما من رجل يسلك طريقاً يلتمس فيها علماً إلا سهل الله له طريقاً إلى الجنة، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» .

(٤) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[1]، وكانت قراءة القرآن أحب إلى سفيان الثورى من غزو التطوع .

(٥) عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة أشياء، من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعوا له»[2].

(٦) صح وثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من يرد الله به خيراً يفقه فى الدين» ومعنى ذلك أن من لم يرد الله به خيراً لم يفقهه فى الدين .

(٧) صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلى رضي الله عنه : «لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم» وحمر النعم هى النوق، وهى أنفس أموال العرب.

(٨) روى مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لاينقص من آثامهم شيئاً ».

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

(٩) عن أبي أمـامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال: «إن الله وملائكـته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها وحـتى الحوت فى البحر ليصلون على معلمى الناس الخـير ثم قال رسول الله ﷺ : فـضل العالم على العابد كـفضلى على أدناكم»[١] .

(١٠) عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن رسـول الله ﷺ أنه قال: «من سلك طريـقاً يبتغى فـيه علماً سهل الله له طريقـاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتـها رضاً لطالب العلم وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[٢] .

(١١) عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ : «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وماوالاه، وعالم ومتعلم» قال الترمذي: حديث حسن.

(١٢) عن أنس رضي الله عنه قال: قـال رسول الله ﷺ : «من خـرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع» [٣].

(١٣) عن ابن مـسعـود رضي الله عنه، عن النبى ﷺ قـال: «نضـر الله امرءاً سـمع مقالتى فوعاها وحفظها وبلغها ،فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» [٤].

(١٤) وعن أبي مسـعود الأنصـارى رضي الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ : «الدال على الخير له مثل أجر فاعله»[٥].

(١٥) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «لا حسد إلا فى اثنتين، رجل آتـاه الله مـالاً فـسلطه على هلكتـه فـى الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها»[٦]، والحكمة هى الفقه فى دين الله، وهى السنة، وهى أيضاً طاعة الله والإتباع لها .

---

(١) رواه الترمذي وقال حسن غريب.
(٢) رواه أبو داود والترمذي.
(٣) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب.
(٤) رواه الترمذي.
(٥) رواه مسلم وأبو داود.
(٦) متفق عليه.

(١٦) عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «الناس معادن خيارهم في الجاهلية، خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»[١].

(١٧) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «بلغوا عني ولو آية وحدثواعن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» ففي تبليغ العلم إرضاء لرسول الله ﷺ وكفى بذلك شرفاً للعلم والعلماء.

(١٨) قدم النبي ﷺ حاملي العلم على غيرهم فقال: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم إسلاماً»[٢].

(١٩) أوصى النبي ﷺ بطلبة العلم خيراً، فيروى أنهم كانوا يأتون أبا سعيد الخدري رضي الله عنه فيقول: مرحباً بوصية رسول الله، إن النبي ﷺ قال: «إن الناس لكم تبع وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً» .

(٢٠) وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال: إن الله تعالى يرفع بهذا الكلام أقواماً ويضع به آخرين»[٣] .

وعن ابن عباس رضي الله عنه ما قال: «كان القراء (الفقهاء) أصحاب مجلس عمر رضي الله عنه ومشاورته كهولاً وشباباً»[٤].

قال أبو عمر بن عبد البر: أحاديث الفضائل تسامح العلماء قديماً في روايتها عن كل، ولم ينتقدوا فيهاكانتقادهم في أحاديث الأحكام، وبالله التوفيق .

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه البخاري.

آثار هامة

(١) عن على بن أبى طالب رضي الله عنه : الناس ثلاثة، فعالم ربانى، ومتعلم على سبيل النجاة وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق . العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكوا على الإنفاق والمال تنقصه النفقة، العلم حاكم والمال محكوم عليه، ومحبة العلم دين يدان به .

(٢) قال معاذ بن جبل رضي الله عنه : «تعلموا العلم فإن فى تعلمه لله خشية وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس فى الوحدة، والصاحب فى الخلوة، والدليل على الدين ،والصبر على البأساء والضراء، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم خير قادة، سادة هداة يقتدى بهم، أدلة على الخير تقتص آثارهم، يبلغ العبد منازل الأبرار والدرجات العلى، والتفكُر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به يطاع الله عز وجل وبه يعبد وبه يوحد ويمجد وبه توصل الأرحام وبه يعرف الحلال والحرام وهو إمام والعمل تابع له، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء.

(٣) عن أبى الدرداء رضي الله عنه قال: من رأى أن الغدو إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص فى عقله ورأيه .

(٤) قال ابن مسعود رضي الله عنه : عليكم بالعلم قبل أن يرفع ورفعه هلاك العلماء، فوالذى نفسى بيده ليرغبن رجال قتلوا فى سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم، وإن أحداً لم يولد عالماً وإنما العلم بالتعلم .

(٥) قال لقمان لابنه: «يابنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله سبحانه يحيى القلوب بنور الحكمة كما يحيى الأرض بوابل السماء» .

(٦) قال الحسن: لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم .

(٧) قال بعض السلف: إذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علماً يقربنى إلى الله فلا بورك لى فى شمس ذلك اليوم. وقالوا أيضاً: أى شئ أدرك من فاته العلم، وأى شئ فاته من أدرك العلم.

(٨) سئل ابن المبارك عن أحسن الناس، قال: العلماء، قيل من الملوك، قال فالزهاد قيل فمن السفلة، قال: الذى يأكل بدينه.

(٩) عن الحسن: إن الرجل ليتعلم الباب من العلم فيعمل به خير من الدنيا وما فيها.

(١٠) عن أبى عمير الطورى أبان بن سليم قال: كلمة حكمة لك من أخيك خير لك من مال يعطيك لأن المال يطغيك والكلمة تهديك .

(١١) وعن الحسن البصرى قال: الدنيا كلها ظلمة إلا مجالس العلماء .

(١٢)عن ميمون قال: إن مثل العالم فى البلد كمثل عين عذبة فى البلد .

(١٣) عن عبد الله بن المبارك قال: خُيِّرَ سليمان بن داود بين الملك والعلم فاختار العلم، فآتاه الله الملك والعلم معه باختياره العلم .

(١٤) عن الحسن فى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾[البقرة:٢٠١]، قال: الحسنة فى الدنيا العلم والعبادة، والحسنة فى الآخرة الجنة.

(١٥) كان ابن مسعودرضى الله عنه إذا رأى الشباب يطلبون العلم يقول: مرحباً بينابيع الحكمة ومصابيح الظلم خلقان الثياب، جدد القلوب، حبس البيوت ريحان كل قبيلة .

(١٦) فى حكمة داود عليه السلام: العلم فى الصدر كالمصباح فى البيت، وقيل لبعض حكماء الأوائل: أى الأشياء ينبغى للعالم أن يقتبسها ؟ قال: الأشياء التى إذا غرقت سفينته سبحت معه يعنى العلم . وقال غيره: من اتخذ العلم لجاما اتخذه الناس إماماً، ومن عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار.

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: يا بنى تعلموا العلم فإن استغنيتم كان لكم كمالاً، وإن افتقرتم كان لكم مالاً.

(١٧) قال معتمر بن سليمان: كتب إلى أبى وأنا بالكوفة يا بنى اشتر الورق واكتب الحديث فإن العلم يبقى والدنانير تذهب، وقال إسماعيل بن جعفر بن سليم الهاشمى: عجبت لمن يكتب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة . وقال بعض العلماء: من شرف العلم وفضله أن كل من نسب إليه فرح بذلك وإن لم

يكن من أهله، وكل من دفع عنه ونسب إلى الجهل عز عليه ونال ذلك من نفسه وإن كان جاهلاً .

(١٨) قال جعفر بن محمد: الكمال كل الكمال التفقه فى الدين، والصبر على النائبة، وتدبير المعيشة، قال: وما موت أحد أحب إلى إبليس من موت فقيه، وقال بعض الحكماء: من الدليل على فضيلة العلماء أن الناس تحب طاعتهم، وكان يقال: العلم أشرف الأحساب والأدب والمروءة أرفع الأنساب، ويقال: مثل العلماء مثل الماء حيث ما سقطوا نفعوا .

(١٩) قال أبو الأسود الدؤلى: الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك، وقيل لبزرجمهر: أيما أفضل الأغنياء أو العلماء ؟ فقال: العلماء، قيل له: فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء ؟ قال لمعرفة العلماء بفضل الغنى وجهل الأغنياء بفضل العلم، وقال بعض الحكماء: أفضل العلم وأولى مانافست عليه منه علم ماعرفت به الزيادة فى دينك ومروءتك .

(٢٠) قال المبرد: كان يقال: تعلموا العلم فإنه سبب إلى الدين، ومنبهة للرجل، ومؤنس فى الوحشة، وصاحب فى الغربة، ووصلة فى المجالس، وجالب للمال، وذريعة فى طلب الحاجة .

وقال ابن المقفع: اطلبوا العلم فإن كنتم ملوكاً برزتم وإن كنتم سوقة عشتم .

ويقال: ثلاثة لابد لصاحبها أن يسود: الفقه، والأمانة، والأدب .

وقيل للقمان الحكيم: أى الناس أفضل ؟ قال: مؤمن عالم إن ابتغى عنده الخير وجد . وقال الحجاج لخالد بن صفوان: من سيد أهل البصرة ؟ فقال له: الحسن، فقال وكيف ذلك وهو مولى ؟ فقال: احتاج الناس إليه فى دينهم واستغنى عنهم فى دنياهم، وما رأيت أحداً من أشراف أهل البصرة إلا وهو يروم الوصول فى حلقته إليه ليستمع قوله ويكتب علمه، فقال الحجاج: هذا والله السؤدد .

(٢١) عن كعب قال: أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: تعلم الخير وعلمه الناس فإنى منور لمعلم العلم ومتعلمه قبورهم حتى لايستوحشوا لمكانهم، وكتب رجل إلى أخ له: إنك قد أوتيت علماً فلا تطفئ نور علمك بظلمات الذنوب فتبقى فى ظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم إلى الجنة . وروى: «ما

أدى المرء لأخيه هدية أفضل من كلمة حكمة يزيده الله بها هدى أويرده بها عن ردى ». وعن أبى الدرداء رضي الله عنه قال: يرزق الله العلم السعداء ويحرمه الأشقياء .

الرحلة فى طلب العلم

لقد ارتحل نبى الله موسى صلوات الله وسلامه عليه لسماع الخضر وتكلف السفر للإستزاده من العلم، وهذا دأب الصالحين.

قال القرطبى: «فى هذا من الفقه رحلة العالم فى طلب الإزدياد من العلم، والإستعانة على ذلك بالخادم والصاحب، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بعدت أقطارهم، وذلك كان من دأب السلف الصالح، وبسبب ذلك وصل المرتحلون إلى الحظ الراجح، وحصلوا على السعى الناجح، فرسخت لهم فى العلوم أقدام، وصح لهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأقسام.

قال البخارى: ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس فى حديث أهـ .

وقال سعيد بن المسيب: إن كنت لأسير الليالى والأيام فى طلب الحديث الواحد.

وقال الشعبى: ماعلمت أن أحداً من الناس كان أطلب لعلم فى أفق من الآفاق من مسروق .

وعن مالك بن دينار قال: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: أن اتخذ نعلين من حديد وعصا من حديد ثم اطلب العلم واتعب حتى تخلق نعليك أو تخلق نعلاك وتنكسر عصاك.

وقال الشعبى: لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة ما رأيت أن سفره ضاع .

وعن بسر بن عبيد الله الحضرمى قال: إن كنت لأركب إلى المصر من الأمصار فى الحديث الواحد لأسمعه ورحل مسروق فى حرف، ورحل أبو سعيد فى حرف .

وقال ابن عباس رضي الله عنه : كان يبلغنا الحديث عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فلو أشأ أن أرسل إليه حتى يجيئنى فيحدثنى فعلت، ولكنى كنت أذهب إليه فأقيل (نومة القيلولة) على بابه حتى يخرج إلى فيحدثنى .

حدث الشعبي قال: حدثنا أبو بردة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ : «أيما رجل كانت عنده وليدة، فعلمها وأحسن تعليمها، وأدبها فأحسن تأديبها، وأعتقها فتزوجها فله أجران، وأيما رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران، وأيما مملوك أدى حق مواليه وأدى حق ربه فله أجران»[1]

خذها بغير شئ قد كان الرجل يرحل فيما دونها إلى المدينة، كان الشعبي يقوله.

الحال التي تنال بها العلم

عن أبي الأحوص قال: قال عبد الله: إن الرجل لايولدعالماً، وإنما العلم بالتعلم.

وعن ابن شبيب قال: لا يكون طبع بلا أدب، ولاعلم بلا طلب.

وقال علي رضي الله عنه : العلم ضالة المؤمن، فخذوه ولو من أيدي المشركين ولا يأنف أحدكم أن يأخذ الحكمة ممن سمعها منه.

وقال أيضاً: تزاوروا وتذاكروا الحديث فإنكم إن لم تفعلوا يدرس (يمحى) علمكم.

وعن ابن جريج قال: لم استخرج الذي استخرجت من عطاء إلا برفقي به.

وقال علقمة: تذاكروا الحديث فإن إحياءه ذكره.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: تذاكروا الحديث فإنه يهيج بعضه بعضاً.

وعن إسماعيل بن رجاء أنه كان يأتي صبيان الكتاب فيعرض عليهم حديثه كي لا ينسى.

وحدث عيسى بن المسيب قال: سمعت إبراهيم يقول: إذا سمعت حديثاً فحدث به حين تسمعه ولو أن تحدث به من لا يشتهيه، فإنه يكون كالكتاب في صدرك.

وعن يزيد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: إحياء الحديث مذاكرته، فقال له عبد الله بن شداد: يرحمك الله كم من حديث أحييته في صدري.

---

(١) رواه البخاري.

وسئل بعض الحكماء ماالسبب الذى ينال به العلم، قال: بالحرص عليه يتبع، وبالحب له يستمع وبالفراغ له يجتمع .

وقال سعيد بن جبير: لقد كان ابن عباس يحدثنى بالحديث لو يأذن لى أن أقوم فأقبل رأسه لفعلت . وقال الخليل بن أحمد: كن على مدارسة ما فى صدرك أحرص منك على مدارسة ما فى كتبك .

وعن عون بن عبد الله بن عتبة قال: لقد أتينا أم الدرداء فتحدثنا عندها فقلنا: أمللناك يا أم الدرداء فقالت: ماأمللتمونى لقد طلبت العبادة فى كل شئ فما وجدت شيئاً أشفى لنفسى من مذاكرة العلم، أو قالت: من مذاكرة الفقه .

وقال الرياشى: سمعت الأصمعى وقيل له كيف حفظت ونسى أصحابك ؟ قال: درست وتركوا .

وقال الفراء: لا أرحم أحداً كرحمتى لرجلين، رجل يطلب العلم ولا فهم له، ورجل يفهم ولايطلبه، وإنى لأعجب ممن فى وسعه أن يطلب العلم ولايتعلم .

وقيل لبزرجمهر: بم أدركت من العلم ؟ قال: ببكور كبكور الغراب وصبر كصبر الحمار، وحرص كحرص الخنزير .

وقال رجل لأبى هريرة: إنى أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه، فقال أبو هريرة: كفى بتركك له تضييعاً .

وقد أنشد بعضهم:

أدم للعلم مذاكرة — فحياة العلم مذاكرته

وقصة موسى مع الخضر خير شاهدعلى أن العلم لا ينال براحة الجسم .

الصبر على النصب واستدامة الطلب

ركب نبى الله موسى البحر، ولم يكتف بما عنده من العلم، تاركاً موطنه صابراً محتسباً، فلما لقى الخضر قال له:

﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ [الكهف: ٦٦-٦٩]

وقد كان مالك بن أنس يقول: لا ينبغى لأحد يكون عنده العلم أن يترك العلم.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: منهومان لا تنقضى نهمتهما طالب علم وطالب دنيا.

وروى أن المسيح عليه السلام قيل له: إلى متى يحسن التعلم؟ قال: ما حسنت الحياة.

وقيل لابن المبارك: إلى متى تطلب العلم ؟ قـال: حتى الممات إن شاء الله . وقيل له مرة أخرى مثل ذلك فقال: لعل الكلمة التى تنفعنى لم أكتبها بعد ذلك .

وسئل سفيان بن عيـينة: من أحوج الناس إلى طلب العلم ؟ قال: أعلمهم لأن الخطأ منه أقبح .

وقال المنصور بن المهـدى للمأمون: أيحسن بالشيخ أن يتعلـم ؟ فقال: إن كان الجهل يعيبه فالتعلم يحسن به .

وقال ابن أبى غسان: لاتزال عالماً ما كنت متعلماً فإذا استغنت كنت جاهلاً .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قـال: إن الناس يقولون أكـثر أبو هريرة ولولا آيتـان فى كتاب الله ماحدثت حديثاً ثم تلا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ ﴾

[البقرة: ١٧٤] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ ﴾ [البقرة: ١٥٩].

وإخواننا المـهاجرين كـان يشغلهم العـمل فى أموالهم وإن أبا هريـرة كان يلزم رسول الله صلى الله عليه وسلم لشبع بطنه ويحضر مالا يحضرون .

قال أبو عمر: فى هذا الحديث من الفقه معان، منها: أن الحديث عن رسول الله ﷺ حكمه حكم كتاب الله المنزل، ومنها: إظهار العلم ونشره وتعلمه، ومنها: ملازمة العلماء والرضى باليسير للرغبة، ومنها الإيثار للعلم على الإشتغال بالدنيا وبكسبها.

وروى ابن أبى الزناد عن أبيه قال: رأيت عمر بن عبد العزيز يأتى عبيد الله بن عبد الله يسأل عن علم ابن عباس فربما أذن له وربما حجبه .

كان مالك يقول: إن هذا الأمر لن ينال حتى يذاق فيه طعم الفقر، وذكر ما نزل بربيعة من الفقر فى طلب العلم حتى باع خشب سقف بيته فى طلب العلم، وحتى كان يأكل ما يلقى على مزابل المدينة من الزبيب وعصارة التمر .

وقال سحنون: لا يصلح العلم لمن يأكل حتى يشبع ولا لمن يهتم بغسل ثوبه .

قالوا: من لم يحتمل ذل القلم ساعة بقى فى ذل الجهل أبداً.

وقال على رضي الله عنه فى خطبة خطبها: واعلموا أن الناس أبناء من يحسنون، وقدر كل امرئ ما يحسن، فتكلموا فى العلم تتبين أقداركم .

قالوا: ولا كلمة أضر بالعلم وبالعلماء والمتعلمين من قول القائل: ماترك الأول للآخر شيئاً .

وقال قتادة: لو كان أحد يكتفى من العلم بشئ لاكتفى موسى عليه السلام ولكنه قال: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾[الكهف: ٦٦] .

التواضع فى طلب العلم

ارتحال نبى الله موسى عليه السلام لسماع الخضر يدل على تواضع جم، فنبى الله موسى أحد أولى العزم من الرسل، وهو أعلى رتبة من الخضر بإتفاق، وكلاهما كان على علم من علم الله لايعلمه الآخر، لقد أدرك نبى الله موسى قيمة التواضع الجميل، فلم يعجب بعلمه، ونبذ حب الرئاسة عنه، ومن تواضع لله رفعه، وفى الحديث عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»(١).

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إن العبد إذا تواضع لله رفعه الله بحكمته وقيل له انتعش نعشك الله، فهو فى نفسه حقير وفى أعين الناس كبير.

وعن أيوب السختيانى قال: ينبغى للعالم أن يضع التراب على رأسه تواضعاً لله.

وقالوا: المتواضع من طلاب العلم أكثر علماً كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماءً.

وقال ابن عبدوس: كلما توقر العالم وارتفع كان العجب إليه أسرع إلا من عصمه الله بتوفيقه وطرح حب الرياسة عن نفسه .

وسئل الفضيل عن التواضع فقال: أن تخضع للحق وتنقاد له ممن سمعته ولو كان أجهل الناس لزمك أن تقبله منه .

وقال عمر: أخوف ما أخاف عليكم أن تهلكوا فيه ثلاث خلال: شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه. وعن مسروق قال: كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعلمه .

وقال أبو نعيم: والله ما هلك من هلك إلا بحب الرياسة.

وقالوا من أعجب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله زل، ومن تكبر على الناس ذل، ومن خالط الأندال حقر ومن جالس العلماء وقر .

وعن على رضي الله عنه قال: الإعجاب آفة الألباب، وقال غيره: إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله.

لا تهمل لا أدري

عوتب نبى الله موسى عليه السلام، عندما سئل عن أعلم أهل الأرض فقال: أنا، لم لم يرد العلم لله تعالى إذ رد العلم إليه أسلم، وقد أخبر الله نبيه ﷺ بمدة لبث أصحاب الكهف، ثم أمره سبحانه برد العلم إليه فقال: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[الكهف: ٢٥-٢٦] ولذلك أيضاً يجيب العلماء فى فتاواهم ثم يختمونها بقولهم (والله أعلم) .

وقد حرم سبحانه القول عليه بغير علم فقال سبحانه: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾[النحل: ١١٦] .

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف: ٣٣] وهذا مما اتفقت عليه الشرائع .

قال بعض السلف: ليتقى أحدكم أن يقول أحل الله كذا أو حرم الله كذا، فيقال له: كذبت، لم أحل كذا ولم أحرم كذا .

وكان رسول الله ﷺ ينهى أميره بريدة أن ينزل عدوه إذا حاصرهم على حكم الله، وقال: «إنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا، ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك »، فهناك فرق بين حكم الله وحكم الأمير المجتهد، والمجتهد قد يصيب وقد يخطئ، وحكم الله لا يكون إلا صواباً .

وعلى المفتى أن يتريث قبل أن يجيب، وأن يعلم أنه إنما يوقع عن الله، فلا يهمل لا أدرى فيما لا يعلمه، فمن أهمل لا أدرى أصيبت مقاتله .

قال تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[الإسراء: ٣٦].

وعن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال: «أدركت عشرين ومائة من أصحاب رسول الله ﷺ ، ما منهم من رجل يُسأل عن شئ إلا ود أن أخاه كفاه ولا يتحدث حديثاً إلا ود أن أخاه كفاه».

وقال ابن عباس رضي الله عنه : «إن كل من أفتى الناس فى كل ما يسألونه عنه لمجنون» وروى مثل هذا عن ابن مسعود رضي الله عنه .

ويقول يحيى بن سعيد: أجرأ الناس على الفتيا أقلهم علماً، يكون عند الرجل الباب الواحد من العلم يظن أنه الحق كله.

وعن ابن سيرين قال: قال حذيفة: «إنما الناس أحد ثلاثة: من يعلم ما نسخ من القرآن أو أمير لا يجد بداً أو أحمق متكلف» .

قال ابن سيرين: «فلست بواحد من هذين ولاهذين ولا أحب أن أكون الثالث».

وقال سحنون: «إنا لله مـا أشقى المفتى والحاكم ثم قال: «هـأنذا يتعلم منى ما تضرب به الركاب وتوطأ به الفروج وتؤخذ به الحقوق أنما كنت عن هذا غنياً ».

العلم الواجب على كل مسلم ومسلمة

عن أنس بن مـالك رضي الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ : «طلب العلم فـريضة على كل مسلم»[1].

وفى الحديث الآخر الضـعيف سنداً الصحيح معنى، «طلـب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ».

أما «اطلبـوا العلم ولو فى الصين» فلا يصح نسـبته لرسـول الله ﷺ ، وقد ذكر شيخ الإسلام بن تيمية، أنه لا يجب على الآمر الناهى أن يصل إلى كل مكان أو إلى كل فرد بعينه، إذ هذا ليس فى استطاعته، بل ولا فى مقدور الأنبياء ذلك، فإذا سـمع الناس بالآمر الناهى عليـهم أن يرتحلوا إليه لسـماعه ورفع الجـهالة عن أنفسهـم، وإذا كان تقديم الأهم على المهم أمر واجب فى العلم والعـمل والدعوة إلى الله تعالي، فالواجب على المسلم أن يبدأ بتعلم التوحيد وما ينافيه من الشرك، والفرائض، مـا تصح به وما تبطل به، كـالصلاة والصـيام والحج ويتـعلم الحلال والحرام، والأمور التى تسـتصلح بها القلوب كالصبـر والشكر والإخلاص ويتعلم الشبهات ودفعها، من باب:

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه

ومن لايعرف الشر من الخير يقع فيه

ولحديث حذيفـة رضي الله عنه : «كانت الناس تسأل رسول الله ﷺ عـن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى»[2].

---

(١) حديث حسن رواه أبو داود.

(٢) رواه البخاري.

ثم لابد من معرفة أحكام المعاشرة والمعاملة التى تحصل بينه وبين الناس خصوصاً وعموماً وهذا يختلف من حاكم إلى محكوم إلى زارع إلى صانع إلى بائع وهكذا كل بحسب مهنته.

العلم يطلب للعمل

العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل، والعلم هو الخشية، ولا شك أن الأنبياء والمرسلين هم أكثر الخلق علماً وخشية وتقى، وما تكلفوا طلب العلم إلا ليدلهم على الله وليعملوا بمقتضاه، وقد سار على دربهم السعداء والموفقون من عباد الله فمن ازداد علماً ولم يزدد عملاً كان كالحمار يحمل أسفاراً .

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ [الصف: ٢-٣]

وقال سبحانه: ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾[البقرة: ٤٤].

وقال عز وجل : ﴿ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ** ﴾[هود: ٨٨] .

ويروى أن الله تبارك وتعالى قال فى بعض الكتب أو أوحى إلى بعض الأنبياء: «قل للذين يتفقهون بغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ويلبسون للناس مسوك الكباش وقلوبهم كقلوب الذئاب وألسنتهم أحلى من السكر وقلوبهم أمر من الصبر أإياى يخدعون وبى يستهزءون فلأتيحن لهم فتنة تدع الحليم فيهم حيران» .

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : «ويل لمن لايعلم ولا يعمل مرة وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات ».

وقال بعض السلف: كانوا يقولون إن الذى يعظ الناس وينسى نفسه كالمصباح يحرق نفسه ويضئ لغيره.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كونوا للعلم وعاة ولا تكونوا له رواة.

وقال معاذ رضي الله عنه: اعلموا ماشئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا .
وقال بعض السلف: قالت الحكمة أنى التمستنى وجدتنى فى حرفين تعمل بخير ما تعلم وتدع شر ما تعلم .

وقال سفيان الثورى: العلماء إذا علموا عملوا فإذا عملوا شغلوا فإذا شغلوا فقدوا، فإذا فقدوا طلبوا فإذا طلبوا هربوا .

وقال مالك بن دينار: إن العالم إذا لم يعمل ذلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا . وكان البعض يقول: إذا خرج الكلام من القلب وقع فى القلب وإذا خرج من اللسان لم يجاوز الآذان» .

والقرآن إذا وقع فى القلب فرسخ فيه نفع، وكان حذيفة رضي الله عنه يقول: لو شئتم لأخبرتكم بأول علم يرفع من الناس: قال الخشية . وذلك لأنها ثمرة العلم المحمود.

وقال على رضي الله عنه: ياحملة العلم اعملوا به، فإنما العالم من علم ثم عمل ووافق علمه عمله وسيكون أقوام يحملون العلم ولا يجاوز تراقيهم، يخالف سريرتهم علانيتهم، ويخالف عملهم علمهم، يقعدون حلقاً يباهى بعضهم بعضاً، حتى أن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره، أولئك لاترفع أعمالهم فى مجالسهم تلك إلى الله عز وجل .

آداب العالم والمتعلم

فى هذه القصة إشارة إلى بعض الآداب التى ينبغى على العالم والمتعلم أن يتحلى بها كالرفق بالمتعلم والصبر على المعلم وتوقيره . . .

وقد أخرج البخارى فى الأدب المفرد عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «علموا ويسروا ولاتعسروا ثلاثاً ». وروى: تعلموا له السكينة والوقار، وتواضعوا لمن تتعلمون منه، ولا تكونوا جبابرة العلماء .

وقال عطاء بن يسار: ما أرى شئ أزين من حلم إلى علم .

وقال إبراهيم بن أدهم: ما من شئ أشد على الشيطان من عالم حليم، إن تكلم تكلم بعلم وإن سكت سكت بحلم، يقول الشيطان انظروا إليه، كلامه أشد على من سكوته .

وعن رجاء بن حيوة قال: يقال ما أحسن الإسلام ويزينه الإيمان، وما أحسن الإيمان ويزينه التقوى، وما أحسن التقوى ويزينها العلم، وما أحسن العلم ويزينه الحلم، وما أحسن الحلم ويزينه الرفق .

وعن أبى جحيفة قال: كان يقال: جالس الكبراء وخالل العلماء وخالط الحكماء .

وقال أبو الدرداء: من فقه الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه مع أهل العلم .

وقال الشافعى: من حفظ القرآن عظمت حرمته، ومن طلب الفقه نبل قدره، ومن عرف الحديث قويت حجته، ومن نظر فى النحو رق طبعه، ومن لم يصن نفسه لم يصنه العلم .

وقال عمر مولى غفرة: لايزال العالم مالم يجسر فى الأمور برأيه ولم يستحى أن يمشى إلى من هو أعلم منه وعن الحسن قال: كان طالب العلم يرى ذلك فى سمعه وبصره وتخشعه .

وعن وهب بن منبه قال: إن للعلم طغياناً كطغيان المال . أخذ ابن عباس رضي الله عنه بركاب زيد بن ثابت، فقال له زيد: خلّ عنه يا ابن عم رسول الله، فقال ابن عباس: هكذا يفعل بالعلماء والكبراء .

وعن طاوس قال: من السنة أن يوقر العالم .

وعن الزهرى قال: كان سلمة يمارى (يجادل) ابن عباس فحرم بذلك علماً كثيراً.

وعن على رضي الله عنه قال: إن من حق العالم ألا تكثر عليه بالسؤال، ولاتعنته فى الجواب وأن لا تلح عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ولا تفشين له سراً، ولا تغتابن عنده أحداً، ولا تطلبن عثرته، وإن زل قبلت معذرته، وعليك أن توقره وتعظمه لله مادام يحفظ أمر الله، وأن تجلس أمامه، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته .

وقال الحسن بن على لابنه: يابنى إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلم حسن الإستماع كما تتعلم حسن الصمت ولاتقطع على أحد حديثاً وإن طال حتى يمسك .

وقال الشعبى: جالسوا العلماء فإنكم إن أحسنتم حمدوكم، وإن أسأتم تأولوا لكم وعذروكم وإن أخطأتم لم يعنفوكم، وإن جهلتم علموكم، وإن شهدوا لكم نفعوكم.

وقد ذكر النووى فى كتابه { التبيان فى آداب حملة القرآن }: أنه على العالم والمتعلم أن يقصد بذلك رضا الله تعالى، فلا يجوز التوصل بالعلم إلى غرض من أغراض الدنيا من مال أو رياسة أو وجاهة أو ارتفاع على أقرانه أو ثناء الناس أو صرف وجوه الناس إليه أونحو ذلك.

وليحذر كل الحذر من قصده التكثر بكثرة المشتغلين عليه والمختلفين إليه، وأن يتخلق بالمحاسن التى ورد الشرع بها والخصال الحميدة والشيم المرضية من الزهادة فى الدنيا والسخاء ومكارم الأخلاق وطلاقة الوجه والسكينة والوقار واجتناب الضحك وإزالة الروائح الكريهة.

وليحذر كل الحذر من الحسد والرياء والعجب واحتقار غيره، ويرفق بمن يتعلم منه ويبذل له النصيحة، ويؤدب المتعلم على التدريج، وأن لا يذل العلم، وينبغى أن يطهر قلبه من الأدناس ليصلح لقبول القرآن وحفظه واستثماره، وأن ينقاد لمعلمه، ولا يتعلم إلا ممن تكملت أهليته وظهرت ديانته وتحققت معرفته واشتهرت صيانته فقد قال محمد بن سيرين ومالك بن أنس وغيرهما من السلف: هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم .وعليه أن ينظر معلمه بعين الإحترام ويعتقد كمال أهليته ورجحانه على طبقته فإنه أقرب إلى انتفاعه به وكان بعض المتقدمين إذا ذهب إلى معلمه تصدق بشئ وقال: اللهم استر عيب معلمى عنى ولا تذهب بركة علمه منى . . . . .

هيبة المتعلم للعالم

قال نبى الله موسى للخضر : ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾[الكهف: ٦٩] وقال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾[الكهف: ٧٦] فتوقير العالم وهيبته دين يدان به.

قال الربيع صاحب الشافعى رحمهما الله: ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعى ينظر إلى هيبة له، وكان للإمام مالك هيبة شديدة رغم ضعف جسده، قيل لأمر كان بينه وبين الله، فإنهم لما حفظوا أمر الله قذف الله لهم المهابة فى قلوب الخلق .

قال ابن عباس رضي الله عنهما: مكثت سنة وأنا أشك فى ثنتين وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن المتظاهرتين على رسول الله ﷺ ، وما أجد له موضعاً أسأله فيه، حتى خرج حاجاً وصحبته حتى إذا كنا بمر الظهران ذهب لحاجته وقال أدركنى بإداوة من ماء، فلما قضى حاجته ورجع أتيته بالإداوة أصبها عليه فرأيت موضعاً، فقلت: يا أمير المؤمنين من المرأتان المتظاهرتان على رسول الله ﷺ ؟ فما قضيت كلامى حتى قال عائشة وحفصة.

قال أبو عمر: لم يمنع ابن عباس من سؤال عمر عن ذلك إلاهيبته، وذلك موجود فى حديث ابن شهاب .

وقال سعيد بن المسيب: قلت لسعد بن مالك إنى أريد أن أسألك عن شئ وإنى أهابك، فقال: لاتهابنى ياابن أخى، إذا علمت أن عندى علماً فسلنى عنه . قال: قلت قول رسول الله ﷺ : ياعلى أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى.

وقد ورد فى الصحيح: «رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عجَّل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة[1] ولو صبر لرأى العجب» . وفى البخارى عن النبى ﷺ قال: «يرحم الله موسى لوددْنا أنه صبر حتى يقص علينا من أمرهما».

---

(١) كأنه استحيا من تكرار مخالفته وما صدر عنه من تغليظ الإنكار.

هل يكون المتعلم مع المعلم كالميت بين يدي المغسل ؟

ينبغى أن ينقاد المتعلم لمعلمه ويشاوره فى أموره ويقبل قوله كالمريض العاقل يقبل قول الطبيب الناصح الحاذق، وهذا أولى .

وقد قال الخضر لموسى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[الكهف:٦٧] أى إنك ياموسى لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمى، لأن الظواهر التى هى علمك لا تعطيه، وكيف تصبر على ماتراه خطأ ولم تخبر بوجه الحكمة فيه، ولاطريق الصواب، وهو معنى قوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾[الكهف:٦٨] والأنبياء لا يقرون على منكر ولايجوز لهم التقرير أى لايسعك السكوت جرياً على عادتك وحكمك.

فما كان من نبى الله موسى إلا أن قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾[الكهف: ٦٩] فاعترض وسأل .

قال القرطبى: قال علماؤنا: إنما كان ذلك منه لأن الصبر أمر مستقبل ولايدرى كيف يكون حاله فيه، ونفى المعصية معزوم عليه حاصل فى الحال، فالإستثناء فيه ينافى العزم عليه، ويمكن أن يفرق بينهمابأن الصبر ليس مكتسب لنا بخلاف فعل المعصية وتركه، فإن ذلك كله مكتسب لنا والله أعلم اهـ.

وقد ذكر البعض أن المريد مع مربيه ومؤدبه ينبغى أن يكون كالميت بين يدى المغسل . فإن قصدوا بذلك أن يكون هيناً ليناً سهلاً منقاداً فلابأس، أما أن تكون الطاعة فى معصية الله فلا يجوز ذلك لأن الطاعة إنما تكون فى المعروف، وعلى المرء السمع والطاعة فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولاطاعة، ولاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

وقد قال العلماء: إذا صح الحديث فهو مذهبي، وكل إنسان يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله ﷺ . ومن المعلوم أن كل الطرق مسدودة إلاطريق رسول الله ﷺ .

تعلم الفاضل من المفضول

في هذه القصة دليل على أن المتعلم تبع للعالم وإن تفوتت المراتب، ولا يظن أن في تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل منه، فقد يشذ عن الفاضل ما يعلمه المفضول، والفضل لمن فضله الله، فالخضر إن كان ولياً فموسى أفضل منه، لأنه نبي، والنبي أفضل من الولي، وإن كان نبياً فموسى فضله بالرسالة .

وعموماً فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها، وما من إنسان إلا وقد تغيب عنه سنة من سنن رسول الله ﷺ ، فلا يستنكف الإنسان أن يتعلم ممن هو دونه، وإلا فاته خير كثير، ولذلك قالوا: تفقهوا قبل أن ترأسوا، وقالوا أيضاً: تفقهوا قبل أن تسودوا، فاقبل النصيحة حتى ولو جاءت من كافر، واعمل بمعاني الخير حتى ولو دلك عليها صغير .

وقد أذن عمر لابن عباس أن يتكلم بحضرة الكبار، وكان حبراً بحراً ترجماناً للقرآن وفقيهاً في دين الله رغم صغر سنه .

وعن حجاج بن عمرو بن غزية أنه كان جالساً عند زيد بن ثابت فجاءه ابن فهد - رجل من اليمن - فقال: يا أبا سعيد إن عندي جواري ليس نسائي اللائي أكنُّ بأعجبَ إليَّ منهن، وليس كلهن يعجبنني أن تحمل مني فأعزل ؟ فقال زيد: أفت يا حجاج، قال: قلت غفر الله لك إنما نجلس إليك لنتعلم منك، فقال أفته، قال: قلت هو حرثك إن شئت سقيته، وإن شئت عطشته. وكنت أسمع ذلك من زيد بن ثابت، فقال زيد: صدق.

فكلام المفضول بحضرة الفاضل في الدين، وفتياه لمن سأله، شواهده كثيره، ومن ذلك أن أم الإمام أبي حنيفه ـ رحمه الله ـ كانت تقول له اذهب بنا لمجلس عمر بن ذر ـ وهو تلميذ الإمام ـ فيذهب بها، فتسأل عمر بن ذر، فيخجل ويستحي أن يتكلم بحضرة الإمام، فيقول له الإمام: هي طلبت مني ذلك، فيسأل الإمام عن الإجابة، ثم يقول والقول ما قاله أبو حنيفة ـ رحمة الله عليهم أجمعين.

العالم والفقيه والمفتي بحق

عن على بن أبى طالب رضي الله عنه قال: ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه ؟ قالوا: بلى، قال: من لم يقنط الناس من رحمة الله ،ولم يؤيسهم من روح الله، ولم يؤمنهم من مكر الله، ولايدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه، ألا لاخير فى عبادة ليس فيها تفقه ولا علم ليس فيه تفهم، ولا قراءة ليس فيها تدبر .

وعن كعب أن موسى قال: يارب أى عبادك أعلم؟ قال عالم غرثان العلم . قال ابن وهب يريد الذى لا يشبع من العلم .

وعن عمر مولى غفرة أن موسى قال: يارب أى عبادك أعلم؟ قال الذى يلتمس علم الناس إلى علمه.

وقيل للقمان: أى الناس أغنى ؟ قال: من رضى بما أوتى، قالوا: فأيهم أعلم قال: من ازداد من علم الناس إلى علمه .

وعن مجاهد فى قوله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦] قال إلا: ليعرفون.

وقال ابن جريج: إلا ليعلموا ماجبلتهم عليه من الشهوة والسعادة .

وعن أبى الدرداء قال: لن تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً كثيرة، ولن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس فى ذات الله ثم تقبل على نفسك فتكون لها أشد مقتاً منك من الناس .

وعن قتادة قال: من لم يعرف الإختلاف لم يشم الفقه بأنفه، فمن لم يكن عالماً باختلاف الناس رد من العلم ما هو أوثق من الذى فى يديه.

وقال أبو أيوب السختيانى: أجسر الناس على الفتيا أقلهم علماً باختلاف العلماء، وأمسك الناس عن الفتيا أعلمهم باختلاف العلماء، قال: وقال ابن عيينة: العالم الذى يعطى كل حديث حقه.

وقال ابن الماجشون: كانوا يقولون لا يكون فقيهاً فى الحادث من لم يكن عالماً بالماضى .

وقال عبد الرحمن بن مهدى: لا يكون إماماً من تتبع شواذ الحديث، أو حدث بكل مايسمع، أو حدث عن كل أحد .

قال الخليل بن أحمد: الرجال أربعة، رجل يدرى أنه لايدرى فذلك جاهل فعلموه، ورجل يدرى ولايدرى أنه يدرى فذلك غافل فنبهوه، ورجل لايدرى ولايدرى أنه لايدرى فذلك مائق (أحمق) فاحذروه، ورجل يدرى ويدرى أنه يدرى فذلك عالم فاسألوه.

وقال سعيد بن المسيب: ليس من عالم ولا شريف ولاذى فضل إلا وفيه عيب، ولكن من كان فضله أكثر من نقصه ذهب نقصه لفضله، كما أنه من غلب نقصانه ذهب فضله .

وقال مالك بن أنس: لايؤخذ العلم عن أربعة :

سفيه معلن السفه، وصاحب هوى يدعوا إليه، ورجل معروف بالكذب فى أحاديث الناس، وإن كان لايكذب على الرسول ﷺ ، ورجل له فضل وصلاح لايعرف مايحدث به .

ثم اعلم أن فتوى المفتى وحكم الحاكم وقضاء القاضى لا تجعل الحرام حلالاً ولا الحلال حراماً.

زيارة أهل الخير ومجالستهم وصحبتهم

استدل الإمام النووى ـ رحمه الله ـ على استحباب زيارة أهل الخير ومجالستهم بعدة إستدلالات منها:

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾[الكهف: ٦٠] إلى قوله تعالى : ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[الكهف:٦٦] ومنها قوله تعالى : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[الكهف:٢٨] .

ومنها حديث أبى هريرة عن النبىﷺ : «أن رجلاً زار أخاً له فى قرية أخرى فأصدر الله تعالى على مدرجته ملكاً فلما أتى عليه قال: أين تريد ؟ قال: أريد أخاً لى فى هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها عليه ؟ قال لا، غير أنى أحببته فى الله تعالى، قال: فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه» [1].

---

(١) رواه مسلم.

وعنه قال رسول الله ﷺ : «من عاد مريضاً أو زار أخاً له فى الله ناداه منادياً: طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلا»[١].

وعن أبى موسى الأشعرى أن النبى ﷺ قال: «إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يجذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً منتنة».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبى ﷺ لجبريل: «مايمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ فنزلت: ﴿**وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا**﴾[مريم: ٦٤]»[٢].

وأهل الخير هم حزب الله المنقطعون إليه اللائذون به الحائزون لشرف العلم والعمل به مع الإخلاص، ومن شبه بقوم فهو منهم، وهم القوم لايشقى بهم جليسهم، أماتنا الله على محبتهم وحشرنا كذلك فى زمرتهم .

وقدعقد نبى الله موسى العزم على لقاء الخضر بمجمع البحرين حتى ولو كلفه ذلك مضى الحقب، وهو عبارة عن ثمانين أو سبعين سنة، وقد قيل لم ينصب (يتعب) نبى الله موسى حتى جاوز الموعد فلما جاوزه وسار الليلة والغد إلى الظهر ألقى عليه الجوع والنصب .

وقوله تعالى: ﴿**قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ**﴾ [الكهف: ٦٦] قال ابن علان: ففى هذا دليل لزيارة أهل الخير فى أماكنهم ومصاحبتهم ومجالستهم والتواضع معهم .

لاتقل عبدي وأمتي وقل فتاي وفتاتي

الفتى المذكور فى قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ**﴾[الكهف: ٦٠] الآية، هو يوشع بن نون وهو نبى بنى إسرائيل بعد نبى الله موسى وهو أيضاً الذى حبست له الشمس وقد قيل أنه كان مع نبى الله موسى يخدمه، والفتى فى كلام العرب: الشاب، ولما كان الخدمة أكثر مايكونون فتياناً، قيل للخادم فتى على

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

(٢) رواه البخاري.

جـهـة حسـن الأدب و ندبت الشـريعـة إلى ذلك فى قـول النبى ﷺ : «لايقل أحدكم عبـدى ولاأمتى وليقل فتـاى وفتاتى» فهذا ندب الـى التواضع . وقيل: الفتى هو ابن أخت موسى عليه السلام وقد سـمى فتى موسى لأنه قام مقام الفتى وهوالعبد .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ﴾[يوسف: ٦٢]

قال تعالي: ﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾[يوسف: ٣٠]. قال ابن العربى: فظاهر القرآن يقتضى أنه عبد، وفى الحديث أنه كان يوشع بن نون . وفى التفسير أنه ابن أخته، وهذا كله مما لا يقطع به والوقف فيه أسلم أ.هـ.

ويبقى أن يقـال: إذا صح الحديث بأنه يوشع بن نون فـلا يترك النص الصـريح لأمر احتمالى أو لكلام بعض أهل العلم رحمهم الله.

قال السيوطى فى [الإكليل فى أحكام التنزيل]: فى الآية أنه لا بأس بالإستخدام واتخاذ الرفيق والخادم فى السفر واستـحباب الرحلة فى طلب العلم واستزادة العالم من العلم وتواضع المتعلم لمن يتعلم منه ولو كان دونه فى المرتبة أهـ ملخصاً.

الشيطان ينسي العبد مصالحه

قال تعالي: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ [الكهف: ٦١] .

جمهور المفـسرين أن الحوت بقى موضع سلوكه فارغـاً، وأن موسى مشى عليه متبـعاً للحوت حتى أفـضى به الطريق إلى جزيرة فى البحـر وفيها وجـد الخضر، وظاهر الروايات والكتاب أنه إنما وجد الخضر فى ضفة البحر .

وقوله: ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ وإنما كان النسيان من الفتى وحده فقيل: المعنى نسى أن يُعلم موسى بما رأى من حاله فنسب النسيان إليهـما للصحبة. وفى [البخاري]: «فقـال لفتـاه: لا أكلفك إلاأن تخبـرنى بحيث يفـارقك الحوت، قال : مـاكلفت كثيراً»، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ ﴾[الكهف: ٦٠] يوشع بن نون.

قال: فبينا هو في ظل صخرة في مكان ثريان (في التراب بلل) إذ تّضرب (اضطرب وتحرك) الحوت وموسى نائم فقال فتاه لاأوقظه حتى إذا استيقظ نسى أن يخبره وتضّرب الحوت حتى دخل البحر فأمسك الله عنه جرية البحر حتى كان أثره في حجر ،قال ابن جريج: قال لي عمرو: هكذا كأن أثره في حجروحلق بين إبهاميه واللتين تليانهما .

وفي رواية: «وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار مثل الطاق، فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: ﴿آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ﴾[الكهف: ٦٢] فقال له فتاه: ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾[الكهف: ٦٣].

وقيل: إن النسيان كان منهما لأنه الذى أمر به، فلما مضيا كان فتاه هو الحامل له حتى أويا إلى الصخرة نزلا ﴿ فلما جاوزا ﴾[الكهف: ٦٢] يعنى الحوت هناك منسياً ـ أى متروكاً ـ فلما سأل موسى الغداء نسب الفتى النسيان إلى نفسه عند المخاطبة، وإنما ذكر الله نسيانهما عند بلوغ مجمع البحرين وهو الصخرة، فقد كان موسى شريكاً في النسيان، فلما مضيا من الصخرة لم يحمله واحد منهما، فجاز أن ينسب إليهما لأنهما مضيا وتركا الحوت .

فإذا كان الشيطان من شأنه أن ينسى العبد مصالحه، وهو جاثم على قلب العبد فإذا سها وغفل وسوس له الشيطان كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ، فما عليك إلاأن تكثر من ذكر الله ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾[الكهف: ٢٤] وقل اللهم رب الضالة، رد على كل غائبة بخير .

أخذ الزاد في السفر لا ينافي التوكل

أخذ نبى الله موسى فى رحلته حوتاً فى مكتل كما جاء فى الحديث: «احمل معك حوتاً فى مكتل فحيث فقدت الحوت فهو ثم»، فلما جاع قال: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ وفى هذا دليل على اتخاذ الزاد فى الأسفار، فهذا فعل نبى الله وكليمه، فقد اتخذ الزاد مع معرفته بربه، وتوكله عليه سبحانه .

وفى صحيح البخارى: «إن ناساً من أهل اليمن كانوا يحجون ولايتزودون ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا سألوا الناس، فأنزل الله تعالي: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوي﴾[البقرة]

وقوله تعالي: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾[الكهف: ٦٢] أى تعباً وقيل: عنى به الجوع، وفى هذا دليل على جواز الإخبار بما يجده الإنسان من الألم والأمراض، وأن ذلك لايقدح فى الرضا، ولافى التسليم للقضاء، لكن إذا لم يصدر ذلك عن ضجر ولا سخط.

إن حقيقة التوكل، اعتماد القلب على الله فى حصول ماينفع العبد فى دينه ودنياه ودفع ما يضره فى دينه ودنياه، ولابد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطلاً للأمر والحكمة والشرع، فلا يجعل العبد عجزه توكلاً ولاتوكله عجزاً، إذ عدم الأخذ بالأسباب قدح فى التشريع والاعتقاد فى الأسباب قدح فى التوحيد، ونحن نستدفع قدر الجوع بقدر الأكل وقدر العطش بقدر الشرب، فكلاهما من قدر الله .

ومباشرة الأسباب فى الجملة أمر فطرى ضرورى لاإنفكاك لأحد عنه حتى الحيوان البهيم، بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب، كما قال تعالى : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[الطلاق: ٣] أى كافيه.

والتوكل يترك الأمور المكروهة مع حاجته إليها توكلاً على الله. وقد فسر بعض العلماء التوكل بسبب من الأسباب كإطفاء السراج وإغلاق الباب، فليكن عملك هنا ونظرك فى السماء واعلم أن خالق السبب قادر على تعطيله، ولكى يتحقق به المطلوب نحتاج لفضل من الله أكبر .

هل كان الخضر نبياً أو ولياً ؟

العبد المذكور فى قوله تعالي:

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾[الكهف: ٦٥] هو الخضر فى قول جمهور العلماء وهذا مقتضى الأحاديث الثابتة .

وروى الترمذى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هى تهتز تحته خضراء»(١) والفروة هنا وجه الأرض، قاله الخطابى وغيره .

والخضر نبى عند الجمهور، وهذا هو الصحيح من أقوال أهل العلم، ويشهد بذلك عدة أمور:

منها قوله تعالى عن الخضر ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾

[الكهف: ٦٥] .

وقد كان هو ونبى الله موسى على علم من علم الله لايعلمه الآخر ،كما ورد فى الحديث، و لأن بواطن أفعاله لا تكون إلا بوحى، وإلا فمن الذى يعلم أن غلاماً سيشب كافراً وسيرهق والديه طغياناً وكفراً إلا بوحى من الله، ثم هو فى نهاية القصة قال ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾[الكهف: ٨٢] إذا هو أمر أوحى إليه به، والوحى لايكون إلا للأنبياء والمرسلين ،

أما بالنسبة للوحى المذكور في قوله تعالي: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾[النحل:٦٨] وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾[القصص:٧] فهو من الإلهام الفطرى الغريزى، والوحى المذكور فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام:١٢١] بمعنى الوسوسة، أما الأولياء دون الأنبياء فلا يوحى إليهم.

(١) رواه البخاري.

وقد عرَّف العلماء وحى الله إلى أنبيائه بأنه كلام الله تعالى المنزل على نبى من أنبيائه، أما الإلهام فإنه وجدان تستيقنه النفس فتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتي؟ وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور.

والرحمة المذكورة فى قوله تعالى: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾[الكهف: ٦٥] هى رحمة النبوة، وقد تكرر إطلاقها على النبوة فى القرآن .

كما فى قوله تعالي: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾[الزخرف: ٣٢] وغيرها .

والعلم الوارد فى قوله تعالي: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[الكهف: ٦٥] هو علم الوحي. وقد تكرر ذلك كما فى قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٢].

وقوله تعالي: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾[يوسف: ٦٨] . إلى غير ذلك من الآيات .

العلم اللدني

قول الله تعالي: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[الكهف: ٦٥] يكثر الإستدلال به فى غير موضعه، حتى آل الأمر بالبعض إلى الإستغناء عن الشريعة عملا بوسواس النفوس وخواطر القلوب.

يقول الشنقيطى(١): «ومن أظهر الأدلة فى أن الرحمة والعلم اللدنى الذين امتن الله بهما على عبده الخضر عن طريق النبوة والوحى .

قوله تعالى عنه: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢] أى: وإنما فعلته عن أمر الله جل وعلا.

وأمر الله إنما يتحقق عن طريق الوحى، إذ لاطريق تعرف بها أوامر الله ونواهيه إلا الوحى من الله جل وعلا ولاسيما قتل النفس البريئة فى ظاهر الأمر، وتعييب السفينةبخرقها لأن العدوان على أنفس الناس وأموالهم لا يصح إلاعن طريق الوحى من الله تعالي.

---

(١) أضواء البيان جـ(٤) ص١٥٨ .

وقد حصر تعالى طرق الإنذار فى الوحى فى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾[الأنبياء: ٤٥]، (وإنما) صيغة حصر.

فإن قيل قد يكون ذلك عن طريق الإلهام ؟

فالجواب: أن المقرر فى الأصول أن الإلهام من الأولياء لايجوز الإستدلال به على شئ لعدم العصمة وعدم الدليل على الإستدلال به، بل ولوجود الدليل على عدم جواز الإستدلال به، وما يزعمه بعض المتصوفة من جواز العمل بالإلهام فى حق الملهم دون غيره، وما يزعمه بعض الجبرية أيضاً من الإحتجاج بالإلهام فى حق الملهم وغيره جاعلين الإلهام كالوحى المسموع مستدلين بظاهر قوله تعالي: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾[الأنعام: ١٢٥] وبخبر: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظربنور الله» كله باطل لا يعول عليه، لعدم اعتضاده بدليل. وغير المعصوم لاثقة بخواطره، لأنه لايأمن دسيسة الشيطان.

وقد ضمنت الهداية فى اتباع الشرع، ولم تضمن فى اتباع الخواطر والإلهامات.

والإلهام فى الإصطلاح: إيقاع شئ فى القلب يثلج له الصدر من غير استدلال بوحى ولا نظر فى حجة عقلية، يختص الله به من يشاء من خلقه ، أما مايلهمه الأنبياء مما يلقيه الله فى قلوبهم فليس كإلهام غيرهم، لأنهم معصومون بخلاف غيرهم .

وبالجملة فلا يخفى على من له إلمام بمعرفة دين الإسلام أنه لاطريق تعرف بها أوامر الله ونواهيه، وما يتقرب إليه به من فعل وترك، إلا عن طريق الوحى . فمن ادعى أنه غنى فى الوصول إلى ما يرضى ربه عن الرسل وماجاءوا به ولو فى مسألة واحدة، فلا شك فى زندقته، والآيات الدالة على هذا لا تحصى .

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[الإسراء: ١٦٥] ولم يقل حتى نلقى فى القلوب إلهاماً .

وقال تعالى: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[النساء: ١٦٥].

وبذلك تعلم أن ما يدعيه كثير من الجهلة المدعين للتصوف من أن لهم ولأشياخهم طريقاً باطنة توافق الحق عند الله ولو كانت مخالفة لظاهر الشرع،

كمخالفة مافعله الخضر لظاهر العلم الذى عند موسى زندقة وذريعة إلى الإنحلال بالكلية من دين الإسلام، بدعوى أن الحق فى أمور باطنة تخالف ظاهره .

كلام القرطبي فيمن زعم الاستغناء عن الشريعة بما يجده في قلبه

قال القرطبى رحمه الله فى تفسيره مانصه: «قال شيخنا أبو العباس: ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق لا تلزم منه هذه الأحكام الشرعية . فقالوا: هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأنبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص، بل إنما يراد منهم ما يقع فى قلوبهم، ويحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم.

وقالوا : وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار، وخلوها عن الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات، ويعلمون أحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، كما اتفق للخضر فإنه استغنى بما تجلى له من العلوم عما كان عند موسى من تلك الفهوم . وقد جاء فيما ينقلون «استفت قلبك وإن أفتاك المفتون»[(١)] .

قال شيخنا رضى الله عنه: وهذا القول زندقة وكفر، يقتل قائله ولا يستتاب لأنه إنكار ماعلم من الشرائع، فإن الله تعالى قد أجرى سنته، وأنفذ حكمته بأن أحكامه لاتعلم إلابواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه، وهم المبلغون عنه رسالته وكلامه المبينون شرائعه وأحكامه، اختارهم لذلك وخصهم بما هنالك ،كما قال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾[الحج: ٧٥]

وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾[الأنعام :١٢٤] وقال تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[البقرة: ٢١٣] إلى غير ذلك من الآيات .

---

(١) يبين أنه لا دليل في هذا النص وما اشبهه من أحاديث علي اعتبار الإلهام، وما فيها من الشبه لأن الحلال بين والحرام بين.

وعلى الجملة، فقد حصل العلم القطعي واليقين الضروري، واجتماع السلف والخلف على أن لاطريق لمعرفة الله تعالى التى هى راجعة إلى أمره ونهيه، ولا يعرف شئ منها إلا من جهة الرسل . فمن قال إن هناك طريقاً أخرى يعرف بها أمره ونهيه غير الرسل حيث يستغنى عن الرسل فهو كافر يقتل ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال وجواب . ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبينا ﷺ ، الذى جعله الله خاتم أنبيائه ورسله، فلا نبى بعده ولارسول .

وبيان ذلك ـ أن من قال: يأخذ عن قلبه، وأن ما يقع فيه حكم الله تعالى، وأنه يعمل بمقتضاه، وأنه لايحتاج مع ذلك إلى كتاب ولا سنة، فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة، فإن هذا نحو ما قاله ﷺ : «إن روح القدس نفث فى روعى. . . .» الحديث [أهـ من تفسير القرطبى].

الحقيقة والشريعة والظاهر والباطن

الحقيقة حقيقة الدين، دين رب العالمين هى ماااتفق عليها الأنبياء والمرسلون وإن كان لكل منهم شرعة ومنهاج، فالشرعة هى الشريعة .

قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة:٤٨].

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾[الجاثية:١٨-١٩]

والمنهاج هو الطريق، والغاية المقصودة هى حقيقة الدين، وهى عبادة الله وحده لا شريك له، وهى حقيقة دين الإسلام، وهو أن يستسلم العبد لله رب العالمين لا يستسلم لغيره، فمن استسلم لغيره كان مشركاً، والله لايغفر أن يشرك به، ومن لم يستسلم لله بل استكبر عن عبادته كان ممن قال الله فيه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] .

ودين الإسلام هو دين الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[آل عمران:٨٥] عام فى كل زمان ومكان، فنوح وإبراهيم ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والحواريون كلهم دينهم الإسلام الذى هو عبادة الله وحده لا شريك له .

وقد جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا معشر الأنبياء ديننا واحد» .

ومن المعلوم أن النبي ﷺ بلغ البلاغ المبين وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك وقد أمرنا أن ندخل في السلم كافة .

فكيف ساغ للبعض أن يقسم الدين إلى ظاهر وباطن، ويقسم العبادة إلى حقيقة وشريعة؟! .

لقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أولياء الله على أن الأنبياء أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء، والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم يجب لهم الإيمان بجميع ما يخبرون به عن الله عز وجل، وتجب طاعتهم فيما يأمرون به، بخلاف الأولياء فإنهم لاتجب طاعتهم في كل ما يأمرون به، ولا الإيمان بجميع ما يخبرون به، بل يعرض أمرهم وخبرهم على الكتاب والسنة، فما وافق الكتاب والسنة وجب قبوله، وما خالف الكتاب والسنة كان مردوداً، وإن كان صاحبه من أولياء الله وكان مجتهداً معذوراً فيما قاله، لكنه إذا خالف الكتاب والسنة كان مخطئاً وكان من الخطأ المغفور إذا كان صاحبه قد اتقى الله ما استطاع، فإن الله تعالى يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن: ١٦] فلا يسوغ لولي أن يدعى العلم اللدني، أو أن يعتقد إنسان أن لأهل الحقيقة ـ بزعمه ـ أن يخلفوا الشريعة، أو يبتدع في دين الله فيصف الفقهاء بأنهم علماء الظاهر وأن الصوفية هم علماء الباطن !!!كفانا تبعيضاً وتجزيئاً لدين الله . قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[البقرة: ٨٥].

لو كان موسى حياً
لما حل له إلا أن يتابع رسول الله ﷺ

صح الخبر أن النبي ﷺ لما وجد في يد عمر بن الخطاب صحيفة من التوراة غضب وقال: «أهذا وأنا حياً بين أظهركم، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، والله لو كان موسى حياً لما حل له إلا أن يتبعني »، فكيف بالخضر وبمن هو دونه من الأولياء .

فإن من ادعى ـ كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ (أو ادعى له أصحابه)أنه ولى لله وأنه مخاطب يجب على أتباعه أن يقبلوا كل ما يقوله ولا يعارضوه، ويسلموا له حاله من غير اعتبار بالكتاب والسنة، فهو وهم مخطئون ومثل هذا من أضل الناس، فعمر ابن الخطاب رضي الله عنه أفضل منه وهو أمير المؤمنين وكان الناس ينازعونه فيما يقوله وهو وهم على الكتاب والسنة .

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من كلامه ويرد إلا رسول الله ﷺ فأولياء الله يجب عليهم الإعتصام بالكتاب والسنة، وأنه ليس فيهم معصوم يسوغ له أو لغيره اتباع ما يقع في قلبه من غير اعتبار بالكتاب والسنة، وهو مما اتفق عليه أولياء الله عز وجل، من خالف في هذا فهو ليس من أولياء الله سبحانه الذين أمر الله باتباعهم بل إما أن يكون كافراً وإما إن يكون مفرطاً في الجهل، وهذا كثير في كلام المشايخ.

كقول الشيخ أبي سليمان الداراني: إنه ليقع في قلبي النكتة من نكت القوم، فلا أقبلها إلا بشاهدين الكتاب والسنة .

وقال أبو القاسم الجنيد رحمة الله عليه: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم في علمنا، أو قال: لا يقتد به.

وقال أبو عثمان النيسابوري: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى علي نفسه قولا وفعلاً نطق بالبدعة، لأن الله تعالى يقول في كلامه القديم: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾[النور: ٥٤] .

وقال أبو عمر بن نجيد: كل وجد لايشهد له الكتاب والسنة فهو باطل .

لقد كان بعض الصوفية يعتب على أهل السنة أنهم يقولون حدثنا فلان عن فلان، قال: قلنا وأين فلان، قالوا مات، عن فلان، قلنا: وأين فلان، قالوا مات، أما الواحد منا (أى من الصوفية) فيقول حدثنى قلبى عن ربى .

ولاندرى كيف جزم بأن قلبه قد حدثه عن ربه، والوحى قد انقطع، ولا نبى بعد رسول الله ﷺ ،فما الذى يمنع من أن تكون الشياطين هى التى حدثته، ولماذا لم يكتف بتصديق الوحى المنزل .

يقول ابن تيمية: فإن مرتبة الصديق فوق مرتبة المحدث، لأن الصديق يتلقى عن الرسول المعصوم كل ما يقوله ويفعله، والمحدث يأخذ عن قلبه أشياء وقلبه ليس بمعصوم فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبى المعصوم ﷺ ، ولهذا كان عمر رضي الله عنه يشاور الصحابة رضي الله عنهم ويناظرهم، ويرجع إليهم فى بعض الأمور وينازعونه فى أشياء فيحتج عليهم ويحتجون عليه بالكتاب والسنة ويقررهم على منازعته، ولا يقول لهم أنا محدث ملهم مخاطب ينبغى لكم أن تقبلوا منى ولا تعارضونى.

الصوفية في الميزان

التصوف بلاء لاحد له، امتد من حقل التربية إلى وضع الحديث، وإفساد العقيدة وتحطيم الشرع، وفتح الباب للخرافات ثم الشركيات ثم الفلسفات الهالكة كالقول بوحدة الوجود ثم اسقاط التكاليف .

ولم يقتصر أمر المتصوفة على الإنفراد فى الخرائب والقبور وترك الكلام والجلوس فى الشمس وتعذيب النفس والأذكار المبتدعة والرقص والغناء والسماع الشيطانى وترك النظافة والعزلة والعيش على طعام واحد بل تعداه لما هو أعظم من ذلك، ولذلك لا غرابة فى أن يصادر الأزهر تفسير ابن عربى لما فيه من كفر وإلحاد وإن كان ابن تيمية قد أثنى على البعض مثل الجنيد وعبد القادر الجيلانى إلا أنه وصف ابن عربى بأنه من ملاحدة التصوف، وأطلق على بعض المتصوفة اسم موسوية المحمدية وعيسوية المحمدية للتشابه مع اليهود والنصارى، وقد أدى القول بوحدة الوجود عند ابن عربى إلى اندحار الشريعة وظهور التتار.

وقام دين الصوفية على تعظيم المشاهد والقبور وصرف العبادة للمقبورين من ذبح ونذر ودعاء. . . . بزعم محبة الأولياء، واستدلوا على ذلك زوراً وبهتاناً بمثل قوله تعالي: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾[يونس: ٦٢-٦٣].

ولم يتفطنوا إلى أن كل مؤمن ولى من أولياء الله بحسب ايمانه وتقواه - سواء كان حياً أو مقبوراً - وعلى كل حال لا يجوز صرف العبادة لغير الله سواء كان نبياً أو ولياً، قال تعالى: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[الزمر: ٦٥] .

إن منهج التلقى عند الصوفية يقوم على الفتوحات والكشوفات والمنامات، إلا البعض منهم قال إن طريقته مقيدة بالكتاب والسنة، وقد أنكر ابن تيمية الإنتاج الفلسفى لكافة الفلاسفة كالكندى والفارابى وابن سينا وبين فشل التوفيق بين القرآن والفلسفة، كما رد التفسيرات الخاطئة للغزالى عندما أقحم على الإسلام أفكار بعض فلاسفة اليونان وأعجبته بعض فصول كتاب (إحياء علوم الدين) مثل المهلكات والمنجيات وبين أن الغزالى ـ رحمه الله ـ كان مخلصاً فى طلب الحقيقة ولكن لم ينشأ بين محدثين ولم يتلق الحديث عن أصحابه، ولذلك قال عن نفسه: بضاعتى فى الحديث مزجاة ومات رحمه الله والبخارى على صدره.

ولو تتبعنا نشأة التصوف لوجدناه دخيلاً على الإسلام وعلى بيئة العرب، فقد ظهر فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى وكان معروفاً من قبل فى بيئات غير عربية إنتشرت فيها الديانات الوثنية كالبوذية والبراهمية والفكر الاغريقى .

وليس فى لغة العرب اشارة إلى كلمة صوفية أو صوفى بنفس المعنى الذى يهدف إليه أعلام التصوف كما أن الكتاب والسنة لاإشارة فيهما للتصوف لابلفظه ولا بمعناه . وقد كان سبب الصوفية ظهور سلطان الموالى من غير المسلمين لاسيما الفرس وترجمة كتب الفرس والروم والهند، وإلا فالإتجاه الصوفى على هذا النحو لم تعرفه البيئة العربية قبل الإسلام، ولا يصح الإحتجاج بفترات التحنث فى غار حراء قبل البعثة .

كما أن ظن البعض أن الصوفية استأثرت بالجانب العاطفى أو السلوكى عار عن الصحة، فلم يأت الإسلام ناقصاً فجاؤوا هم فأتموه، ولا يجوز أخذ جانب من الإسلام وإهمال جانب آخر . والإسلام لم يكن دعوة للفرار من الحياة ودخول الخرائب والإنعزال عن الدنيا، ولذلك فالفكر الصوفى لا يستطيع أن يدخل حلبة النزاع مع الفكر الفلسفى الغربى أو أن يواجه النظريات الإجتماعية والإقتصادية التى يروج لها.

وقد أصبحت الصوفية وسيلة لمجابهة الدعوة السلفية ولفت النظر فى ذلك أمور منها:

(١) إهتمام دوائر الإستشراق فى المجال العلمى الأكاديمى بالتصوف فى الإسلام بعامة والإتجاهات المنحرفة بخاصة .

(٢) التعايش السلمى بين مشايخ الطرق الصوفية والأنظمة الإستعمارية المعادية للإسلام وتحذيرهم من التيار السلفى .

(٣) انصب غضب علماء الغرب على شيوخ السلفية بينما كان المدح منهم لأمثال الحلاج وابن عربى وابن الفارض وابن سينا فى مجال الفلسفة وعلم الكلام والتصوف .

إننا نحب الخير للصوفية ولكل مسلم بل وللناس كافة، ونرى سبيل النجاة فى الرجوع لمثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام علماً وعملاً واعتقاداً .

وكل خير فى اتباع من سلف وكل شر فى ابتداع من خلف

ومالم يكن يومئذ ديناً، فليس اليوم ديناً ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

شطحات صوفية

صنف العلماء قديماً وحديثاً الكتب للرد على انحرافات الصوفية، ومن ذلك كتاب {تلبيس إبليس للحافظ بن الجوزي} وابن تيمية وبرهان الدين البقاعى الذى ألف كتابين فى الرد على المتصوفة وهما:

١ـ تنبيه الغبى على تكفير ابن عربى (النكرة أما ابن العربى فهو من علماء المالكية ومن أئمة السنة).

٢ـ تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الإتحاد .

وهما مطبوعان ضمن كتاب واحد بتحقيق الشيخ عبد الرحمن الوكيل وسماه {مصرع التصوف} كما ألف الشيخ عبد الرحمن الوكيل كتاباً فى بيان هذه الطريقة سماه { هذه هى الصوفية }وللشيخ عبد الرحمن عبد الخالق مؤلف فى الرد عليهم، كما أن فتاوى دار الإفتاء المصرية وفتاوى اللجنة الدائمة بالسعودية كافية فى توضيح هوية هذه الطائفة وتفنيد شبهاتها ومزاعمها فارجع إليها .

وما هدفنا من وراء هذه النصيحة الموجزة إلا رد الحق لنصابه والتحذير من ضلالات لم تُمت بعد، فقد ذكر الشيخ سعيد حوى ـ رحمه الله ـ فى كتابه {تربيتنا الروحية} مانصه: «فإنكار الكرامة لطبقات الصوفية إنكار غير علمى وليس فى محله، وأهم ماينصب عليه الإنكار ما يحدث لأهل الطريقة الرفاعية من كون النار لاتؤثر فيهم ومن كونهم يضربون أنفسهم بالرصاص أو بالسيوف ولايوثرذلك فيهم وهذه قضية منتشرة ومشتهرة محسة وقد تتبعها الكثير من المنكرين فرجعوا عن الإنكار . . . . . . .إن الحجة الرئيسية لمنكرى هذا الموضوع هى أن هذه الخوارق تظهر على يد الفساق من هؤلاء كما تظهر على يد صالحين وهذا صحيح، والتعليل لذلك هو أن الكرامة ليست لهؤلاءبل للشيخ الأول الذى أكرمه الله عز وجل بهذه الكرامة وجعلها مستمرة فى أتباعه أ. هـ.»

ونحن بدورنا نسأل الشيخ سعيد حوى ـ رحمه الله ـ وأمثاله: إذا رأيت الدجال وقد ظهرت على يديه خوارق العادات ـ كما ورد فى النصوص ـ أفتؤمن به ؟!

وكيف يختلط على مثلك التفريق بين الكرامة الرحمانية والخارقة الشيطانية ؟!.

قال الليث بن سعد: لو رأيت الرجل يمشى على الماء فلا تصدقه حتى تعرض عمله على السنة . إن الكرامة ضابطها الإستقامة على الكتاب والسنة .

وما الذى يمنع من أن تكون المخاريق التى تحدث لأبناء الطريقة الرفاعية بسبب تعاطى السحر أوبعض الحيل ،كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حين تحدى الطرق الصوفية وأبطل دعاويهم الكاذبة وطلب من طائفة منهم أن يغسلوا أجسامهم بالخل والماء الحار قبل أن يمسوا النار فامتنعوا وخافوا لأنه كشف حيلتهم حيث عرف أنهم يطلون أجسامهم بأدوية يصنعونها من دهن الضفادع وباطن قشر النارنج وحجر الطلق وغير ذلك من الحيل المعروفة لهم .

هيا بنا نتفق على كلمة سواء، فالتوحيد أولا ، وكلمة التوحيد قبل توحيد الكلمة، وتقديم الأهم على المهم أمر واجب فى العلم والعمل والدعوة إلى الله . ولابد فى ذلك كله من الرجوع للكتاب والسنة بفهم العلماء الذين اتبعوا هذا المنهج توحيداً واتباعاً وتزكية، ولم يقعوا فى الشرك الظاهر ولا التأويل الباطل أو ضلال السلوك وترهات التصوف فهؤلاء هم القدوة بعد الصحابة والتابعين .

المشاهد التي حدثت بين الخضر وموسى وتفسير ابن تيمية لها

قال شيخ الإسلام فى رسالة {الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان} : «فلفظ الشرع والشريعة إذا أريد به الكتاب والسنة لم يكن لأحد من أولياء الله ولا لغيرهم أن يخرج عنه، ومن ظن أن لأحد من أولياء الله طريقاً إلى الله غير متابعة محمدﷺ باطناً وظاهراً فلم يتابعه باطناً وظاهراً فهو كافر، ومن احتج فى ذلك بقصة موسى مع الخضر كان غالطاً من وجهين:

أحدهما: أن موسى لم يكن مبعوثاً إلى الخضر ولا كان على الخضر اتباعه، فإن موسى كان مبعوثاً إلى بنى اسرائيل، وأما محمدﷺ فرسالته عامة إلى جميع الثقلين الجن والإنس، ولو أدركه من هو أفضل من الخضر كابراهيم وموسى وعيسى وجب عليهم اتباعه فكيف بالخضر، سواء كان نبياً أو ولياً،

ولهذا قال الخضر لموسى: «أنا على علم من علم الله علمنيه الله لاتعلمه، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه». وليس لأحد من الثقلين الذين بلغتهم رسالة محمد ﷺ أن يقول مثل هذا .

الثاني: أن ما فعله الخضر لم يكن مخالفاً لشريعة موسى عليه السلام، وموسى لم يكن علم الأسباب التى تبيح ذلك، فلما بينها له وافقه على ذلك، فإن خرق السفينة ثم ترقيعها لمصلحة أهلها خوفاً من الظالم أن يأخذها إحساناً إليهم وذلك جائز، وقتل الصائل جائز وإن كان صغيراً، ومن كان تكفيره لأبويه لا يندفع إلا بقتله جاز قتله.

قال ابن عباس رضي الله عنه ما لنجدة الحرورى لما سأله عن قتل الغلمان قال له: «إن كنت علمت منهم ما علمه الخضر من ذلك الغلام فاقتلهم وإلا فلاتقتلهم» رواه البخارى.

وأما الإحسان إلى اليتيم بلا عوض والصبر على الجوع فهذا من صالح الأعمال فلم يكن فى ذلك شئ مخالفاً شرع الله .

وأما إذا أريد بالشرع حكم الحاكم فقد يكون ظالماً وقد يكون عالماً، وقد يكون عادلاً، وقد يكون صواباً وقد يكون خطأ، وقد يراد بالشرع أئمة الفقه كأبى حنيفة والثورى ومالك بن أنس والأوزاعى والليث بن سعد والشافعى وأحمد وإسحاق وداود وغيرهم فهؤلاء أقوالهم يحتج لها بالكتاب والسنة، وإذا قلد غيره حيث يجوز ذلك كان جائزاً، أى ليس اتباع أحدهم واجباً على جميع الأمة كاتباع الرسول ﷺ ، ولا يحرم تقليد أحدهم كما يحرم اتباع من يتكلم بغير علم .

وأما إضافة أحد إلى الشريعة ما ليس منها من أحاديث مفتراة أوتأويل النصوص بخلاف مراد الله ونحو ذلك فهذا من نوع التبديل، فيجب التفريق بين الشرع المنزل والشرع المؤول والشرع المبدل، كما يفرق بين الحقيقة الكونية والحقيقة الدينية الأمرية، وبين ما يستدل عليها بالكتاب والسنة وبين ما يكتفى فيها بذوق صاحبها ووجده أهـ .

مصانعة السلطان
ببعض مال اليتيم عن بعض

فى صحيح مسلم والبخارى: «فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول (أى بغير أجرة)، فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ موسى إلا والخضر قد قلع منها لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً، ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾[الكهف: ٧٢-٧٣]، قال: و قال رسول الله ﷺ : «وكانت الأولى من موسى نسياناً» قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر نقرة فى البحر، فقال له الخضر: ما علمى وعلمك فى جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطير بمنقاره من البحر» .

وعن أبى العالية: لم ير الخضر حين خرق السفينة غير موسى وكان عبداً لاتراه الأعين من أراد الله له أن يريه، ولو رآه القوم لمنعوه من خرق السفينة .

وقيل: خرج أهل السفينة إلى الجزيرة وتخلف الخضر فخرق السفينة . وفى خرق السفينة دليل على أن للولى أن ينقص مال اليتيم إذا رآه صلاحاً، مثل أن يخاف على ريعه ظالماً فيخرب بعضه.

وقال أبو يوسف: يجوز للولى أن يصانع السلطان ببعض مال اليتيم عن البعض.

المسلمون عند شروطهم

فى الصحيحين وصحيح الترمذى: «ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله، قال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[الكهف: ٧٤-٧٥] قال وهذه أشد من الأولي ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦].

لقد نسى نبى الله موسى فى المرة الأولى فاعتذر وذلك لأن النسيان لايقتضى المؤاخذة ولا يدخل تحت التكليف، أما فى المرة الثانية فلم يكن الأمر كذلك، وكان الخضر قد قال: ﴿ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾[الكهف: ٧٠] أى حتى أكون أنا الذى أفسره لك وهذا من الخضر تأديب وإرشاد ولما يقتضى دوام الصحبة، فلو صبر ودأب لرأى العجب لكنه أكثر من الإعتراض فتعين الفراق والإعراض.

وقد قطع نبى الله موسى شرطاً على نفسه فقال: ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾[الكهف: ٧٦]

والمسلون عند شروطهم، وأحق الشروط أن يوفى به ما التزمه الأنبياء . وقد ذكر ابن العربى أن الآيات دليل على قيام الإعتذار بالمرة الواحدة مطلقاً، وقيام الحجة من المرة الثانية بالقطع .

وقال ابن عطية: ويشبه أن تكون هذه القصة أيضاً أصلا للآجال فى الأحكام التى هى ثلاثة، وأيام المتلوم ثلاثة .

وقد ورد: «كل شرط ليس فى كتاب الله ليس بشرط وإن كان مائة شرط» . كما ورد أيضاً: «إن أحق الشروط أن يوفى به مااستحللتم به الفروج» .

فوائد هامة تتعلق بجدار اليتيمين

قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ [الكهف: ٧٧] .

فى صحيح مسلم عن أبى بن كعب رضي الله عنه عن النبى ﷺ: ﴿حتى إذا أتيا أهل قرية﴾ لئاماً ، فطافا فى المجالس ف ﴿ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾[الكهف: ٧٧] أن ينقض: أى مائل فأقامه الخضر بيده، قال له موسى: قوم أتيناهم فلم يضيفونا ولم يطعمونا ﴿ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾[الكهف: ٧٧-٧٨] قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله نبى الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما».

وفى هذه القصة فوائد :

الأولى: سقى نبى الله موسى لبنتى شعيب ابتداءً ولم يسأل قوتاً، بينما سأل القوت فى القرية عندما كان مع الخضر، وقد قيل فى ذلك أنه كان فى حديث مدين منفرداً وفى قصة الخضر تبعاً لغيره.

وقيل كان ذلك سفر هجرة فوكل إلى العون والنصرة بالقوت، وكان هذا سفر تأديب فوكل إلى تكلف المشقة.

وقيل هذا شبيه بإصابته بالجوع مع فتاه مراعاة لصاحبه يوشع.

الثانية: فى هذه الآية دليل على سؤال القوت وأن من جاع وجب عليه أن يطلب مايرد جوعه، ويظهر أن الضيافة كانت عليهم واجبة وأن الخضر وموسى إنما سألا ما وجب لهما من الضيافة .

قال قتادة: شر القرى التى لا تضيف ولا تعرف لابن السبيل حقه.

الثالثة: واجب على الإنسان ألا يتعرض للجلوس تحت جدار مائل يخاف سقوطه، بل يسرع فى المشى إذا كان ماراً عليه .

الرابعة: على القول المرجوح بأن الخضر كان ولياً - والصحيح أنه نبى - يكون ما حدث دليل على كرامته وكرامات الأولياء ثابتة على مادلت عليه الأخبار الثابتة والآيات المتواترة ولا ينكرها إلا المبتدع الجاحد وضابط الكرامة الإستقامة على الوحى المنزل.

الخامسة: قوله تعالي: ﴿ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾[الكهف: ٧٧]. فيه دليل على صحة جواز الإجارة وهى سنة الأنبياء والأولياء .

منع جواز المجاز
في المنزل للتعبد والإعجاز

لما قدم نبى الله موسى والخضر القرية وجدا فيها ﴿ جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾[الكهف: ٧٧]

قال البعض: إرادة الإنقضاض من الجدار هو نوع من المجاز، والصحيح أنه لامجاز فى القرآن، بل هذا أسلوب من أساليب اللغة العربية المتنوعة .

وقد قسم البعض المجاز إلى نوعين:

الأول: مجاز بالكلمة . حيث تنقل الكلمة من معناها الأصلى إلى المعنى المجازى، فتقول: رأيت أسداً (أى رجلاً) يرمى.

الثانى: مجاز بالإسناد وهو المجاز العقلى حيث يسند الفعل أو مافى معناه إلى غير ماهو فى الحقيقة .

فتقول مثلاً: «بنى الأمير قصراً » وما بناه إلا العمال ولكن بنى القصر للأمير .

والمجاز بالكلمة أربعة أنواع:

(١) مجاز بالزيادة: يمثلون له بقوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[الشورى: ١١] وأن الكاف الزائدة لتوكيد نفى المثل .

(٢) مجاز بالنقصان: أى بالحذف مثل ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾[يوسف: ٨٢] أى أهل القرية.

(٣) مجاز بالنقل ومثاله كلمة الغائط فقد نقلت من المكان المطمئن تقضى فيه الحاجة إلى الخارج من الإنسان .

(٤) مجاز بالإستعارة: ويمثلون له بقوله تعالى:

﴿ جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾[الكهف: ٧٧] حيث شبه ميل الجدار إلى السقوط بإرادة السقوط التى هى من صفات الحي. واعلم أن تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز هو المشهور عند المتأخرين فى القرآن وغيره، ومنهم من قال لا مجاز فى القرآن وهو قول ابن خويزمنداد والظاهرية وابن القاص .

ومن أهل العلم من قال لامجاز فى القرآن ولا فى غيره وبه قال الاسفرائينى وأبو على الفارسى .

وألف الشنقيطى رسالة سماها: [منع جواز المجاز فى المنزل للتعبد والإعجاز]، وقد نصر هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم، وبين ابن تيمية أن هذا التقسيم اصطلاح حادث بعد القرون المفضلة لم يتكلم به أحد من الصحابة والتابعين ولاأحد من الأئمة ولا علماء اللغة .

والغالب أن المجاز من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين ليكون سلماً لنفى كثير من صفات الله تعالى بإدعاء أنها مجاز وهذا من أعظم وسائل التعطيل . كما بين أيضاً بطلان هذا التقسيم وأن من ذهب إلى ذلك فقد تكلم بلا علم وابتدع فى الشرع وخالف العقل، ومما يدل على بطلان ذلك أنه لاأحد يثبت أن العرب وضعت ألفاظاً لمعان ثم استعملت هذا الوضع فى معان أخرى .

ومن ادعى أنه يعلم وضعاً تقدم ذلك فهو مبطل . وكل مايسميه القائلون بالمجاز مجازاً فهو عند من يقول بنفى المجاز أسلوب من أساليب اللغة العربية المتنوعة، بعضها يتضح المراد منه بلا قيد، وبعضها يحتاج إلى قيد وكل منهما حقيقة فى محله . [انظر فهارس فتاوى شيخ الإسلام ٢ / ١٣].

أنواع التأويل

قال تعالى حاكياً عن الخضر : ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ [الكهف: ٧٨] .

وتأويل الشئ : مآله، أى قال له: إنى أخبرك لم فعلتُ ما فعلتُ .

وقيل فى تفسير هذه الآيات التى وقعت لموسى مع الخضر: إنها حجة على موسى، وعجباً له . وذلك أنه لما أنكر أمر خرق السفينة نودى: ياموسى أين كان تدبيرك هذا وأنت فى التابوت مطروحاً فى اليم !! فلما أنكر أمر الغلام قيل له: أين إنكارك هذا من وكزك القبطى وقضائك عليه !! فلما أنكر إقامة الجدار نودى ياموسى: أين هذا من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجر !! وفى نهاية القصة قال موسى: ﴿ ذلك تأويل ﴾ أي تفسير ﴿ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾[الكهف: ٧٨] .

والتأويل يطلق فى الإصطلاح مشتركاً بين ثلاث معان:

الأول: يطلق على ماتؤول إليه حقيقة الأمر فى ثانى حال، و هذا هو معناه فى القرآن نحو :

﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [الأسراء: ٣٥]، ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾[يونس: ٣٩] ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ ﴾[الأعراف: ٥٣] .

الثانى: ويطلق التأويل بمعنى التفسير، كقول ابن جرير: القول فى تأويل قوله تعالى كذا (أى تفسير)

الثالث: أما فى اصطلاح الأصوليين فالتأويل هو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه لدليل .

وصرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه له عند علماء الأصول ثلاث حالات:

(١) إما أن يصرف عن ظاهره المتبادر منه لدليل صحيح من كتاب أو سنة، وهذا النوع من التأويل صحيح مقبول لا نزاع فيه.

(٢) صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه لشئ يعتقده المجتهد دليلاً، وهو فى نفس الأمر ليس بدليل، فهذا يسمى تأويلاً بعيداً، ويقال له فاسد .

(٣) أما حمل اللفظ على غير ظاهره لا لدليل، فهذا لايسمى تأويلا فى الإصطلاح، بل يسمى لعباً، لأنه تلاعب بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ومن هذا النوع صرف آيات الصفات عن ظواهرها إلى محتملات ماأنزل الله بها من سلطان.

كقولهم استوى بمعنى استولى، و اليد بمعنى القدرة والنزول بمعنى نزول الأمر، فهذا تلاعب بكتاب الله جل وعلا من غير دليل، ولا يجوز ذلك لأنه تهجم على كلام رب العالمين .

فالواجب علينا أن نثبت لله تعالى ماأثبته لنفسه وماأثبته له نبيه ﷺ وننفى عن الله عز وجل مانفاه عن نفسه، وما نفاه عنه رسوله ﷺ .

ورب العزة جل وعلا وصف نفسه فى سبع مواضع من كتابه فقال: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾[طه: ٥] فنؤمن بذلك على أساس ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[الشورى: ١١] .

وكما أن ذات الله لا تشابه ذوات المخلوقين فكذلك صفات الله لا تشابه صفات المخلوقين، ولذلك قال الإمام مالك: الإستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، ومن قال استوى بمعنى استولى فقد وقع فيما فر منه، فالمخلوق أيضاً يستولى كما قالوا:

استولى بشر على العراق من غير سيف ولا دم مهراق والاستواء إذا ما أضيف إلى الله فعل ما يليق به سبحانه من صفات الكمال ونعوت الجلال واذا أضيف إلى العبد فعل ما يليق به من ضعف وعجز وفقر .... وقس على ذلك .والكلمة إنما يكون معناها بحسب ماأضيفت إليه ككلمة رأس، يقال رأس الجبل ورأس المال ورأس الإنسان ...... وكذلك الأمر بالنسبة للإستواء فإستواء الخالق ليس كإستواء المخلوق، وقس على ذلك بقية الأسماء والصفات ،فلا تشبه الخالق بالمخلوق ولا تنفى عن الله ماأثبته لنفسه سبحانه بزعم التنزيه ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾[الأعراف: ١٨٠].

مساكين رغم امتلاكهم السفينة

عن أبى هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان ولا اللقمة ولا اللقمتان إنما المسكين الذى يتعفف، اقرءوا إن شئتم: ﴿ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وفى لفظ: «ليس المسكين الذى يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس»(١)

وليس هناك فرق بين الفقراء والمساكين من حيث الحاجة والفاقة، ومن حيث استحقاقهم الزكاة،

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ...الآية﴾[التوبة: ٦٠] والمسكين قد يمتلك مالاً لكنه لا يكفيه، ولذلك لا يوصف بوصف الغنى، قال تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾[الكهف: ٧٩]

---

(١) رواه البخاريَ ومسلم.

ومعناها: أن السفينة كانت لقوم ضعفاء ينبغى أن يشفق عليهم.

والفقير والمسكين يعطى إما كفاية عمره وإما كفاية سنته على مذهبين للعلماء .

الرضا بالقضاء

الواجب على كل امرئ الرضا بقضاء الله تعالى، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه له فيما يحب، قال تعالى عن الغلام الذى قتله الخضر: ﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) ﴾[الكهف] أى خيراً منه ديناً وصلاحاً وأوصل للرحم .

قال قتادة: لقد فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل، ولو بقى كان فيه هلاكهما.

وعن ابن جبير وابن جريج: أنهما بدلا جارية، قال الكلبى: تزوجها نبى من الأنبياء فولدت له نبياً فهدى الله تعالى على يديه أمة من الأمم .

وعن ابن عباس: فولدت جارية ولدت نبياً .

ويستفاد من هذه الآية تهوين المصائب بفقد الأولاد وإن كانوا قطعاً من الأكباد، ومن سلم للقضاء أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء .

وللعبد فيما يكره درجتان: درجة الصبر، ودرجة الرضا، فالصبر واجب على المؤمنين والرضا فضل مندوب إليه، وفى الحديث:

« إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا ومن سخط عليه السخط»[١].

وقال عبد الواحد بن زيد: الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا ومستراح العابدين .

وفى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «يقول عز وجل ما لعبدى المؤمن عندى جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة» .

وفى الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : «ما مصيبة تصيب المؤمن إلا كفر الله بها عنه الشوكة يشاكها.

---

(١) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب.

وفى الحديث: «لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة فى جسده وفى ماله، وفى ولده حتى يلقى الله وما عليه من خطيئه»[1]

والمؤمن إذا أصيب بمصيبة كان له فيها ثلاث نعم:

أنها لم تكن أكبر مما كانت، وأنها لابد كائنة وقد كانت، وأنها لم تكن كانت فى دينه.

فالواجب على المؤمن أن يقف مع البلاء بحسن الأدب وأن يسترجع ولا يشكو من يرحمه لمن لا يرحمه، وأن يعلم أن الله بقسطه وعلمه جعل الروح والفرح فى اليقين والرضى وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط.

حفظ الأبناء بصلاح الآباء

كان سعيد بن المسيب يطيل فى صلاته ويقول لابنه: والله إني لأطيل في صلاتي رجاء أن أحفظ فيك ويتلو قوله سبحانه: ﴿ **وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ** ﴾[الكهف: ٨٢] .وقد قال جعفر بن محمد: هو الأب السابع وقال مقاتل هو الأب العاشر، فحفظ الأبناء بصلاح الآباء، وهذا أيضاً مصداق قول النبى ﷺ فى حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «احفظ الله يحفظك» فالإنسان يحفظ فى ولده وولد ولده بسبب طاعته لله وحفظه لأوامره سبحانه، وهذا فى الأعم الأغلب وإلا فقد يشذ الابن عن والديه، فيكونا صالحين تقيين، ويكون هو فاسداً، وقد كان كنعان ابن نوح كافراً، ولم يكن نبى الله نوح ـ وهو أحد أولى العزم من الرسل ـ يعلم بذلك ولهذا لما قال ﴿ **إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي** ﴾[هود: ٤٥] قيل له: ﴿ **إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ** ﴾[هود: ٤٦].

قال الحسن: كان كنعان منافقاً .

قال العلماء: فى هذه الآية تسلية للخلق فى فساد أبناءهم وإن كانوا صالحين .

وروى أن مالك بن أنس نزل من فوق ومعه حمام قد غطاه، قال فعلم مالك أنه قد فهمه الناس، فقال مالك: الأدب أدب الله لا أدب الآباء والأمهات، والخير خير الله لا خير الآباء والأمهات.

---

(١) رواه أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح.

هل الخضر حي إلى الآن ؟

ذهب جمهور العلماء إلى القول بحياته، وممن نصر هذا القول القرطبى فى تفسيره والنووى وابن الصلاح والنقاش وغيرهم، وحكايات الصالحين عن الخضر أكثر من أن تحصر، ودعواهم أنه يحج هو وإلياس كل سنة ويروون عنهما بعض الأدعية ويذكرون منامات وأحاديث مرفوعة عن أنس وغيره وكلها ضعيف لا تقوم به حجة، ولعل من أقوى مايستدل به على حياة الخضر آثار التعزية حين توفى رسول الله ﷺ، وقد روى ذلك الإمام ابن كثير بقوله: «وحكى النووى وغيره فى بقاء الخضر إلى الآن، ثم إلى يوم القيامة قولين، ومال هو وابن الصلاح إلى بقائه، وذكروا فى ذلك حكايات عن السلف وغيرهم وجاء ذكره فى بعض الأحاديث، ولا يصح شئ من ذلك ، وأشهرها حديث التعزية وإسناده ضعيف أ هـ .

وعلى فرض صحة حديث التعزية فهل يلزم من ذلك أن يكون المعزى هو الخضر فقد يكون جناً، ولم يذكر في الحديث أنهم رأوا الخضر، وقد قال تعالى فى الجن: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾[الأعراف: ٢٧] وقد ذهب الشنقيطى فى أضواء البيان إلى ترجيح القول بوفاته واستدل على ذلك بعدة أدلة منها:

(١) ظاهر عموم قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾[الأنبياء: ٣٤] فقوله لبشر نكرة فى سياق النفى فهى تعم كل بشر، والخضر داخل فى هذا المعنى .

(٢) قوله ﷺ : «اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض» رواه مسلم . فلو كان الخضر حياً فى الأرض فإن الله يعبد فى الأرض .

(٣) إخباره ﷺ بإنه على رأس مائة سنة من الليلة التى تكلم فيها بالحديث لم يبق على وجه الأرض أحد ممن عليها تلك الليلة فلو كان الخضر حياً فى الأرض لما تأخر بعد المائة المذكورة .

قال عبد الله بن عمر: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات ليلة صلاة العشاء فى آخر حياته، فلما سلم قام فقال: «أرأيتكم ليلتكم هذه، فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهرها أحد» قال ابن عمر: فوهل الناس فى مقالة رسول الله ﷺ تلك فيما يتحدثون من هذه الأحاديث عن مائة سنة، وإنما قال

رسول الله ﷺ : «لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد» يريد بذلك أن ينخرم ذلك القرن .

وفى بعض الروايات: «ما من نفس منفوسة تبلغ مائة سنة» فقال سالم: تذاكرنا ذلك عنده: إنما هى على نفس مخلوقة يومئذ وكلمة نفس منفوسة تعم كل نفس مخلوقة كل الأرض وهذا العموم يشمل الخضر بلا شك لأنه نفس منفوسة على الأرض .

(٤) أن الخضر لوكان حياً إلى زمن النبى ﷺ لكان من أتباعه، ولنصره وقاتل معه لأنه مبعوث إلى جميع الثقلين الإنس والجن، والآيات الدالة على عموم رسالته كثيرة جداً كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[الأعراف: ١٥٨].

وقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾[سبأ: ٢٨].

فإذا كان موسى حياً زمن بعثته ﷺ لوجب عليه أن يتبعه وكذلك الخضر - سواء كان نبياً أو ولياً - فلو كان حياً فى زمن رسول الله ﷺ لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه يؤمن بما أنزل الله عليه، وينصره أن يصل أحد من الأعداء إليه، لأنه كان ولياً فالصديق أفضل منه وإن كان نبياً فموسى أفضل منه .

وهذا الذى يقطع به ويعلم من الدين علم الضرورة .

وقد صلى النبى ﷺ بالأنبياء صلاة الصبح إثر رجوعه من رحلة الإسراء والمعراج إماماً، ومن المعلوم أن عيسى عليه السلام إذا نزل فى آخر الزمان يحكم بشريعة الإسلام لا يخرج منها ولا يحيد عنها وهو أحد أولى العزم من الرسل . فالقول بوفاة الخضر هو الأشبه بالصحة والصواب، وإن خالف فى ذلك بعض الأئمة - رحمهم الله - فلا نملك إلا أن نقول: شيخ الإسلام حبيب إلى نفوسنا والحق أحب إلينا منه .

الخاتمة

قيل إن الخضر لما ذهب يفارق موسى قال له موسي: أوصنى، قال: كن بساماً ولا تكن ضحاكاً، ودع اللجاجة، ولا تمشى فى غير حاجة، ولا تعب على الخاطئين خطاياهم، وابك على خطيئتك ياابن عمران.

إن الوصول إلى الخاتمة يستثير فى النفس الشجون، فمع تمنى الإنسان حسن الخاتمة وحرصه على تجويدها استجابة لأمر الله ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾[آل عمران: ١٠٢] واجتهاده فى الدعاء ﴿ **تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾[يوسف: ١٠١] وما ينطوى تحت الكلمة من معانى التذكرة .

ورد عن ابن عباس فى معنى كنز اليتيمين الذى وجد تحت الجدار، قال: كان علماً فى صحف مدفونة. وعنه أيضاً قال: كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه بسم الله الرحمن الرحيم، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، عجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب، عجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، عجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، عجبت لمن يؤمن بالدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن لها، لاإله إلا الله محمد رسول الله . والعلاقة بين البداية والنهاية وثيقة، ففساد الإنتهاء من فساد الإبتداء، والعبد إذا فسدت بدايته فسدت نهايته، وإذا فسدت نهايته فربما هلك، فالسعيد الموفق هو من ختم له بإحسان .

ففى الحديث: «من كان آخر كلامه لاإله إلا الله دخل الجنة، والوعظ والتذكر قيمة كبيرة فى اقتلاع العبد من غفلته، وخصوصاً فى لحظات الفراق والوداع، ومن ذلك قول رسول الله ﷺ : «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله» .

وقال لمعاذ بن جبل وهو يودعه: «اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»

واستحب للمسافر أن يقول لمن يخلف: «استودعكم الله الذى لاتضيع ودائعه»، ويقول المقيم للمسافر: «استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم أعمالك، زودك الله بالتقوى وغفر ذنبك ويسر لك الخير حيثما كنت عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف »، فإذا ولى المسافر دعا له المقيم «اللهم اطو له البعد وهون عليه السفر» .

وما اجتمع النبى ﷺ بأصحابه وأراد أن يقوم من المجلس إلا ودعا: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ماتحول به بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا .

إن الخواتيم مطوية، والغيب لا يعلمه إلا الله، ولذلك كان ابن عمر يقول: لو أعلم أن الله تقبل منى سجدة لكان فرحي بالموت أشد من فرح الأهل بقدوم الغائب وذلك لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[المائدة: ٢٧]. فلا نملك إلا أن نسير إلى ربنا بين رغبة ورهبة نرجو رحمته ونخشى عذابه قال تعالي: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[الأنبياء: ٩٠] .

وما كتبناه وذكرناه نرجو غنمه ونفعه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ونسأله سبحانه أن يرزقنا الإخلاص فى القول والعمل، إنه ولى ذلك والقادر عليه.

وختاماً نقول: سبحان الله وبحمده، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك. وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

✪✪✪✪✪

أخي الكريم :

احرص على متابعة سلسلة قصص القرآن عظات وعبر، ففيها القدوة فى الصالحين وطريق الدعوة القويم وفيه الصبر فى الشدائد ومنها نستلهم الواقع.

هذه القصص التي قصها الله سبحانه على نبيه الكريم ليثبت بها فؤاده فى طريقه في الدعوة إلى الله، فما أحوجنا نحن فى هذه الأيام إلى تلك القصص بعظاتها الشاملة.

قصة أهل الكهف

قصة صاحب الجنتين

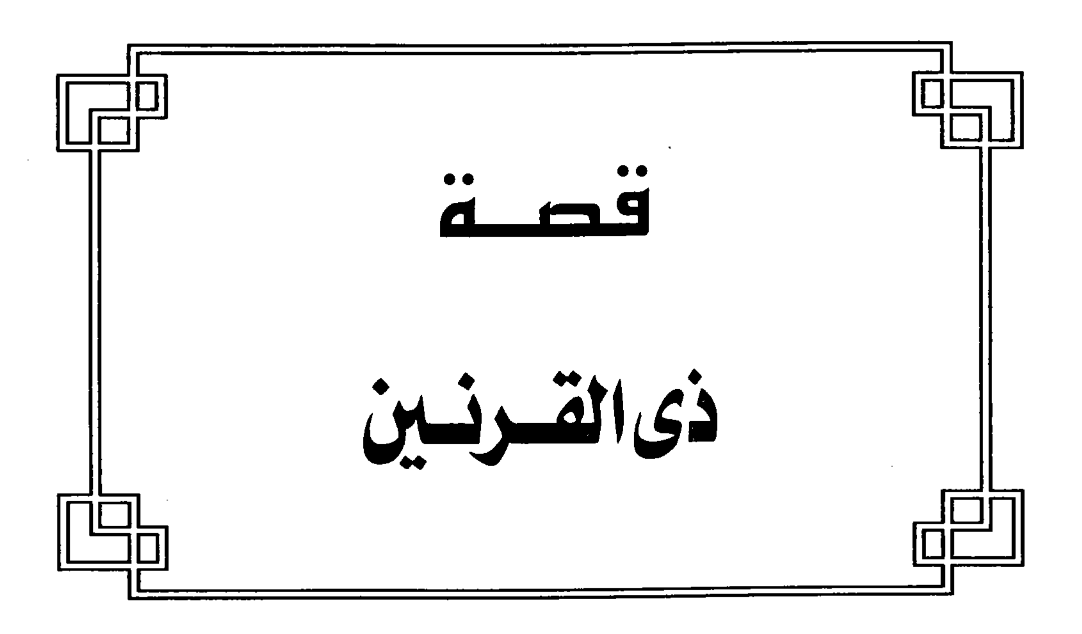
قصة موسى والخضر

قصة ذي القرنين

قصة صاحب يس

قصة مؤمن آل فرعون

قصة أصحاب الأخدود



قصة

ذى القرنين



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لاإله إلاالله وحده لاشريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١] .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار.

الدارس لأحداث التاريخ والذى يقرأ سير الأنبياء والمرسلين ومن تابعهم بإحسان، يجد توافقاً فى المواقف واتحاداً فى المفاهيم، وهذا الأمر لايستغرب لأنهم إنما يصدرون عن مشكاة واحدة ويتلقون عن رب واحد، ويدعون إلى رسالة واحدة وهؤلاء يمثلون خط الاستقامة، وهذا الخط يبدأ بنبى الله آدم، وعليه سار جميع الأنبياء والمرسلين ومن تابعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعلى جنبتى هذا الخط طرق كثيرة معوجة قال تعالي:

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾[البقرة: ٢١٣] .

أى كان الناس أمة واحدة على دين واحد هو دين الإسلام ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾[آل عمران: ١٩].

فلما اختلفوا ووقع فيهم الشرك بعث الله النبيين مبشرين للمؤمنين ومنذرين للكافرين .

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴾ [البقرة : ٢٥٣].

فبين سبحانه لخلقه أن البشرية انقسمت إلى قسمين مؤمنين وكفار، فمن تابع الأنبياء فهو مسلم، ومن كذب الأنبياء فهو كافر، وبالتالى فتوزيع البشرية ينبغى أن يتم على أساس العقيدة وليس على أساس النسب أو الوطن أو القومية أو اللغة أو الإقتصاد، كما لايجوز أن يتم هذا التوزيع على أساس التاريخ المشترك وحده ولا المصالح والآمال والآلام وحدها .

ودارس التاريخ عليه ملاحظة هذه الرابطة المشتركة بين المؤمنين بالله على مر العصور حتى وإن تباعدت ديارهم واختلفت ألسنتهم وألوانهم وتفاوتت أزمانهم، فالتاريخ الإسلامى يشكل وحدة واحدة بسماته وخصائصه، كما أن التاريخ الجاهلى يشكل وحدة واحدة بسماته وخصائصه على مدار العصور .

ولايمكن أن تستقيم الدراسة التاريخية على أساس التوزيع الجغرافى أو العائلى أو الزمنى، فالعصور المظلمة عند الغرب هى من أزهى العصور عند المسلمين، وتقسيم التاريخ إلى قديم ووسيط وحديث، يصلح للغرب ولايستقيم بالنسبة للمسلمين، فالبشرية بدأت بمرتبة من أعلى مراتب الهداية ثم : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[فاطر: ٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء : ٩٢] .

إذا كان الإسلام هو الدين الذى ارتضاه سبحانه للعالمين، فيجب علينا أن نصدرعنه وأن نرجع إليه فى دراستنا للتاريخ وغيره، وماثبت فى شرعنا هو المقياس والميزان، وإن خالفه من خالفه ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[الملك: ١٤].

ولانملك كمسلمين إذا علمنا الله حكماً يتعلق بالأحداث التاريخية كقصة ذى القرنين وغيرها إلاأن نقول سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير .

وهذا أوان الشروع فى المقصود والله المستعان وعليه التكلان ولاحول ولاقوة إلا بالله.

مناسبة القصة

قصة ذى القرنين هى القصة الرابعة فى سورة الكهف، فقد ورد ذكرها بعد قصة أصحاب الكهف وقصة صاحب الجنتين وقصة موسى بن عمران مع الخضر، وهذه القصة تبدأ بالآية الثالثة والثمانين من السورة : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف : ٨٣] .

قال قتادة إن اليهود سألوا النبى ﷺ عن ذى القرنين فأنزل الله ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾ [الكهف : ٨٣].

وذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه القصة مشروحاً فقال :كان النضر بن الحارث من شياطين قريش وكان يؤذى رسول الله ﷺ وينصب له العداوة وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث رستم واسفنديار، وكان رسول الله ﷺ إذا جلس مجلساً ذكر فيه الله وحدث قومه ما أصاب من كان قبلهم من الأمم، وكان النضر يخلفه فى مجلسه إذا قام، فقال: أنا والله يامعشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلموا فأنا أحدثكم بأحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس، ثم إن قريشاً بعثوه وبعثوا معه عتبة بن أبى معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا: لهم سلوهم عن محمد وصفته وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم من العلم ماليس عندنا من علم الأنبياء فخرجا حتى قدما إلى المدينة فسألوا أحبار اليهود عن أحوال محمد فقال أحبار اليهود سلوه عن ثلاث :

عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ماكان من أمرهم فإن حديثهم عجب.

وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ماكان نبؤه، وسلوه عن الروح وماهو ؟ فإن أخبركم فهو نبى وإلافهو متقول، فلما قدم النضر وصاحبه مكة قالا: قد جئناكم بفصل مابيننا وبين محمد، وأخبروا بما قاله اليهود فجاءوا رسول الله ﷺ وسألوه فقال رسول الله ﷺ : أخبركم بماسألتم عنه غداً ولم يستثن، فانصرفوا عنه ومكث رسول الله ﷺ فيمايذكرون خمس عشرة ليلة حتى أرجف أهل مكة به وقالوا: وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة فشق عليه ذلك، ثم جاءه جبريل من عند الله بسورة أصحاب الكهف وفيها معاتبة الله إياه على حزنه عليهم، وفيها خبر أولئك الفتية، وخبر الرجل الطواف .

وقد تعلقت قصة ذى القرنين بخبر يأجوج ومأجوج وهما علامة من علامات الساعة الكبري، وخروجهما من السد الذى بناه ذو القرنين يؤذن بقرب يوم القيامة ولذلك ختمت بقوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾[الكهف: ٩٩-١٠٠].

ولذلك لاعجب أيضاً أن كانت هذه القصة هى ختام المسك فى سورة الكهف، وفيها من العجائب والآيات لمن تدبرها، أن تكون عاصمة له بإذن الله من فتنة الدجال كما ذكر النووى وغيره، وفى الحديث عن أبى الدرداء عن النبىﷺ قال: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال»(١) وعنه أيضاً عن النبىﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال»(٢) وعن أبى سعيد عن النبىﷺ أنه قال : «من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة أضاء له من النور مابينه وبين الجمعتين»(٣)

مسائل سئل عنها رسول الله فأجاب عنها بمايطابق الحق

بعث الله محمداًﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب ليبين للناس ما اختلفوا فيه من الأخبار والأحكام، قال تعالي بعد ذكر التوراة والإنجيل : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[المائدة : ٤٨].

وسورة الكهف وهذه القصة من شواهد ذلك، فهذا الإخبار هو الواقع فى الواقع، وإنما يوافقه من الكتب التى بأيدى أهل الكتاب ما كان منها حقاً وأما ماكان محرفاً مبدلاً فذاك مردود.

وقد ورد فى قصة إسلام عبد الله بن سلام، وأنه قال : لما قدم رسول اللهﷺ المدينة انجفل (اجتمع) الناس إليه فكنت فيمن انجفل، فلما رأيت وجهه قلت: إن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ماسمعته يقول: أيها الناس أفشوا السلام، وصلوا الأرحام وأطعموا الطعام وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام .

---

(١) رواه أحمد ومسلم.
(٢) رواه مسلم وغيره.
(٣) رواه البيهقي والحاكم وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وثبت فى صحيح البخارى وغيره عن أنس رضى الله عنه قصة سؤاله رسول الله ﷺ عن ثلاث لايعلمهن إلانبى : ماأول أشراط الساعة؟ وماأول طعام يأكله أهل الجنة ؟ وماينزع الولدَ إلى أبيه وإلى أمه ؟ فقال رسول الله ﷺ : أخبرنى بهن جبريل آنفاً، ثم قال أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الولد فإذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة نزع الولد إلى أبيه، وإذا سبق ماءُ المرأة ماءَ الرجل نزع الولد إلى أمه.

وقال ثوبان : كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاءه حبر من أحبار اليهود فقال السلام عليك يامحمد، فدفعته دفعة كاد يصرع منها، قال : لِمَ تدفعنى ؟ قال: قلت ألا تقول يا رسول الله؟ قال : إنما سميته باسمه الذى سماه به أهله، فقال رسول الله ﷺ : إن اسمى الذى سمانى به أهلى محمد، فقال اليهودى: جئت أسألك، فقال رسول الله ﷺ : ينفعك شئ إن حدثتك؟ قال : أسمع بأذنى . فنكت بعود معه، فقال له: سَلْ، فقال له اليهودى : أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات، فقال رسول الله ﷺ : فى الظلمة دون الجسر، قال : فمن أول الناس إجازة ؟ فقال: فقراء المهاجرين، قال اليهودى : فما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟ قال: زيادة كبد الحوت، قال وماغذاؤهم على إثره ؟ قال : يُنحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل من أطرافها، قال : فما شرابهم عليه ؟ قال: من عين فيها تسمى سلسبيلاً، قال : صدقت، قال: وجئت أسألك عن شيء لايعلمه أحد من الأرض إلانبى أو رجل أو رجلان، قال : ينفعك إن حدثتك ؟ قال: أسمع بأذنى، قال: جئت أسألك عن الولد، قال : ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا منيّ الرجل منىّ المرأة أذكرا بإذن الله، وإذا علا منىّ المرأة منىّ الرجل أنثا بإذن الله، فقال اليهودى: صدقت وإنك لنبى ثم انصرف، فقال النبى ﷺ : «إنه سألنى عنه وماأعلم شيئاً منه حتى أتانى الله به»(١).

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٩٤-٩٥]

---

(١) رواه مسلم.

ومثلها في سورة الجمعة وهي قوله : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[الجمعة : ٦-٧] .

فدعاهم النبى ﷺ إلى المباهلة وأن يدعوا بالموت على المبطل منهم فنكلوا عن ذلك لعلمهم بظلم أنفسهم، وأن الدعوة تنقلب عليهم ويعود وبالها إليهم . وهكذا دعا النصارى من أهل نجران حين حاجوه فى عيسى بن مريم، فأمره الله أن يدعوهم إلي المباهلة في قوله : ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران : ٦١]

عتاب الوحى

قال العلماء : عاتب الله تعالى نبيه ﷺ على قوله للكفار حين سألوه عن الروح والفتية وذى القرنين : غداً أخبركم بجواب أسئلتكم، ولم يستثن فى ذلك ـ أى لم يقل إن شاء الله ـ فاحتبس الوحى عنه خمسة عشر يوماً حتى شق ذلك عليه وأرجف الكفار به، فنزلت عليه هذه السورة ـ سورة الكهف ـ مفرّجة ونزل عليه قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾[الكهف : ٢٣] . وأمر فى هذه الآية ألايقول فى أمر من الأمور إنى أفعل غداً كذا وكذا، إلاأن يعلق ذلك بمشيئة الله عز وجل .

وهذا العتاب، وماحدث فى هذه القصة دليل من دلائل النبوة، وأن القرآن كلام الله تعالى، أوحى به لنبيه ﷺ وتعبدنا بتلاوته، ولذلك خُتمت السورة بقوله تعالي : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف : ١١٠] .

ونظير هذا معاتبته فى قبول الفداء من أسرى بدر، ومعاتبته فى توليه عن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى، وقد اتهم المنافقون زوجته عائشة رضى الله عنها بحديث الإفك، ومضى شهر بأكمله، فلم يزد على أن قال لها آخر الأمر : «أما إنه بلغنى كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله» وظل هكذا إلى أن نزل الوحى ببراءتها، فماالذى كان يمنعه لو أن

القرآن كلامه من أن يقول كلاماً يقطع به ألسنة المتخرصين، ويحمى عرضه؟ ولكنه ماكان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[الحاقة: ٤٤-٤٧]

لقد تحدى ربنا الإنس والجن على مر العصور وكر الدهور، أن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن فما استطاعوا على الرغم من أن العرب هم أرباب الفصاحة وأهل البلاغة والبيان إلاأنهم عجزوا عن مواجهة التحدى.

قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[البقرة: ٢٤] .

إنه العجز فى الماضى والمستقبل عن مواجهة وحى الله لنبيه الأمى صلوات الله وسلامه عليه .

الوقوف مع القرآن بحسن الأدب

لايجوز الزيادة ولا النقصان فى كلام الله تعالى، وقد اتفق فقهاء بغداد على استتابة ابن شنبوذ المقرئ لقراءته بالشواذ، فكيف بمن أراد حذف كلمة [قل] المذكورة فى قوله تعالى: ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾[الكهف: ٧٣] وقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾[الكهف: ١١٠] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ ... الآيات﴾، يزعم أن الخطاب توجه فيها لرسول الله ﷺ ولم تعد بنا حاجة لقراءتها أو كتابتها !!! وهذا من أعظم الجهل والتبديل لآيات الله، ومن أسباب المروق من دين الله، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾[يونس : ١٥] .

فالخطاب الذى يتوجه لرسول الله ﷺ هو خطاب لأمته والأمة داخلة فى التكليف تبعاً لرسول الله ﷺ، طالما لم يرد دليل يخصص الحكم برسول الله ﷺ، والنبى ﷺ لم يكتم شيئا أُمر بتبليغه، ولو كان كاتماً لشئ لكتم هذه الآية : ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾[الأحزاب: ٣٧] .

كما تروى أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ وهذه الآيات بشأن زواجه من زينب بنت جَحش رضى الله عنها .

كما لم يزد حرفاً على كتاب الله، قال تعالى:

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة ٤٤-٤٧]

وقد نقل إلينا القرآن نقلاً متواتراً، حفظته الصدور والسطور أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى .

فالواجب علينا أن نقف مع القرآن بحسن الأدب، ولانقدم بين يدىّ الله ورسوله بقول أو فعل، وإذا عرفنا قول الله أو قول رسوله ﷺ قلنا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

هل ذو القرنين هو الإسكندر الذي بنى الإسكندرية؟

قال الرازى في[التفسير الكبير] : اختلف الناس فى أن ذا القرنين من هو وذكروا فيه أقوالاً :

الأول: أنه هو الإسكندر بن فيلبوس اليونانى.

قالوا: والدليل عليه أن القرآن دل على أن الرجل المسمى بذى القرنين بلغ ملكه إلى أقصى المغرب بدليل قوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾[الكهف : ٨٦].

وأيضاً بلغ ملكه أقصى الشمال بدليل أن يأجوج ومأجوج قوم من الترك يسكنون فى أقصى الشمال، فهذا الإنسان المسمى بذى القرنين فى القرآن قد دل القرآن على أن ملكه بلغ أقصى المغرب والمشرق والشمال وهذا هو تمام القدر المعمور من الأرض، ومثل هذا الملك البسيط لاشك أنه على خلاف العادات وماكان كذلك وجب أن يبقى ذكره مخلداً على وجه الدهر وأن لايبقى مخفياً مستتراً، والملك الذى اشتهر فى كتب التواريخ أنه بلغ ملكه إلى هذا الحد ليس إلا

الإسكندر وذلك لأنه لمامات أبوه جمع ملوك الروم بعد أن كانوا طوائف ثم جمع ملوك المغرب وقهرهم ومضى حتى انتهى إلى البحر الأخضر ثم عاد إلى مصر فبنى الإسكندرية وسماها باسم نفسه ثم دخل الشام وقصد بنى إسرائيل وورد بيت المقدس وذبح فى مذبحه ثم انعطف إلى أرمينيه وباب الأبواب ودانت له العراقيون والقبط والبربر ثم توجه نحو دارا بن دارا وهزمهُ مرات إلى أن قتله صاحب حرسه فاستولى الإسكندر على ممالك الفرس ثم قصد الهند والصين وغزا الممالك البعيدة ورجع إلى خراسان وبنى المدن الكثيرة ورجع إلى العراق ومرض بشهرزور ومات بها.

فلما ثبت بالقرآن أن ذا القرنين كان رجلاً ملك الأرض بالكلية، أو مايقرب منها وثبت بعلم التواريخ أن الذى هذا شأنه ماكان إلا الإسكندر وجب القطع بأن المراد بذى القرنين هو الإسكندر بن فيلبوس اليونانى . . . . . إلاأن فيه إشكالاً قوياً وهو أنه كان تلميذ أرسطاطاليس الحكيم وكان على مذهبه فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق وصدق وذلك مما لاسبيل إليه . والله أعلم .

قال ابن كثير فى تفسيره : . . . . . وإنما الذى كان من الروم الإسكندر الثانى وهوابن فيلبس المقدونى الذى تؤرخ به الروم، فأما الأول فقد ذكر الأزرقى وغيره أنه طاف بالبيت مع إبراهيم الخليل عليه السلام أول مابناه وآمن به واتبعه وكان وزيره الخضر عليه السلام، وأما الثانى فهو إسكندر بن فيلبس المقدونى اليونانى وكان وزيره أرسطاطاليس الفيلسوف المشهور والله أعلم.

وهو الذى تؤرخ من مملكته ملة الروم وقد كان قبل المسيح عليه السلام بنحو من ثلثمائة سنة، فأماالأول المذكور فى القرآن فكان فى زمن الخليل كماذكره الأزرقى وغيره وإنه طاف مع الخليل عليه السلام بالبيت العتيق لمابناه إبراهيم عليه السلام وقرب إلى الله قرباناً، وقد ذكرنا طرفاً صالحاً من أخباره فى كتاب البداية والنهاية بما فيه كفاية ولله الحمد اهـ .

وقد رجح شيخ الإسلام ابن تيمية أن ذا القرنين ليس هو الإسكندر الذى بنى الإسكندرية لأن الأول كان مؤمناً والثانى كان كافراً، وقد قيل: امتلك الدنيا مؤمنان وكافران أما المؤمنان فسليمان وذو القرنين وأما الكافران فالنمروذ وبختنصر.

حكم الآثار والمخلفات الحضارية

نشطت حركات البحث والتنقيب عن الآثار فى الآونة الأخيرة، وحرص بعض المغرضين على قطع صلة المسلمين بإسلامهم وعلى نسبة هذا البلد للفرعونية وهذا للبابلية أو الأشورية أو الفينيقية، وتم إضفاء الهالة على الآثار والمخلفات المكتشفة بزعم أنها تدل على حضارة الآباء والأجداد .

والحضارة عند المسلمين هى التى تقوم على منهج العبودية لله وحده، وعلى أساس تعمير الدنيا بدين الله، فهذه هى الحضارة الحقة التى يبارك فيها وينتفع بها أحسن انتفاع، وخلاف ذلك من صور التقدم والتطور المادى يعود وباله على صاحبه إن خلا من معانى الإيمان وشأنهم كماقال سبحانه :﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾[الروم: ٧].

بل الآثار والمخلفات المتروكة قد تدل على هلكة هؤلاء المعذبين كما هو الحال بالنسبة لقوم لوط وعاد وثمود، فأى فخر فى الإنتساب لأمثال هؤلاء وتزيين آثار دمارهم ثم اعلم أن الآثارعن الأمم السابقة متنوعة فمنها ما له فائدة علمية أو مادية مثل الوثائق والنقوش وقطع النقود ومثل الجسور والآبار والعيون والسدود والقناطر والطرق فهذه يستفاد منها، ولايجوز تعظيم بناتها أو تقديسهم .

ومنها ما يتنافى مع عقيدة التوحيد كالأصنام والتماثيل والصور وبيوت العبادة لغير الله والمشاهد التى على القبور والمزارت فهذه من جملة المنكرات التى تزال وفق ضوابط الإنكار الشرعية بحيث تتحقق المصلحة وتندفع المضرة والمفسدة، وهذا ماعمله رسول الله ﷺ يوم فتح مكة حيث حطم الأصنام والطواغيت التى كان يعبدها العرب، ويلتحق بهذا النوع من المخلفات المادية والمخلفات الثقافية والفكرية الضارة ككتب السحر والإلحاد والتهتك والفجور .

وهناك نوع من المخلفات والآثار لانفع فيه ولاضرر منه لذاته مثل المبانى الخربة وبقايا الأسوار والحصون والبنايات الكبيرة كالأهرامات التى فى مصر ومثل إيوان كسرى فى العراق، فهذا النوع من الآثار يهمل ولانعيره اهتماماً كما فعل سلفنا الصالح فقد مروا على هذا النوع ولم يشغلوا أنفسهم بالمحافظة عليه وترميمه وزيارته. لقد أصبحت همة البعض فى زيارة الآثار والتقاط التصاوير بجوارها

واللعب واللهو عندها فى الوقت الذى كان ينبغى أن نأخذ العظة والعبرة ونشاهد آيات الله وقدرته وعقابه للمجرمين وإنجائه للصالحين .

قال تعالى : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[الحج: ٤٥-٤٦] وقال تعالى بعد أن ذكر جملة من الأقوام وتكذيبهم لرسلهم وكفرهم بالله:

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠] .

ولما مر رسول الله ﷺ بديار ثمود - مدائن صالح - وهو فى طريقه إلى تبوك قال لأصحابه «لاتدخلوا على هؤلاء المعذبين» وفى رواية: «لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لايصيبكم ماأصابهم ثم قنع رأسه ﷺ وأسرع السير حتى أجاز الوادى وكان بعض القوم قد استقوا البئر التى كانت تردعليها الناقة»(١) .

فأين فعل رسول الله ﷺ ممانحن فيه الآن .

من هو ذو القرنين

قال أبو الريحان الهروى فى كتابه الذى سماه [بالآثار الباقية عن القرون الخالية] قيل إن ذا القرنين هو أبو كرب شمر بن عبير بن أفريقش الحميرى فإنه بلغ ملكه مشارق الأرض ومغاربها. . . . . .قال : ويشبه أن يكون هذا القول أقرب لأن الأذواء كانوا من اليمن وهم الذين لاتخلو أساميهم من ذى كذى النادى وذى نواس وذى النون وغير ذلك .

---

(١) رواه البخاري.

وقيل: إنه كان عبداً صالحاً ملكه الله الأرض وأعطاه العلم والحكمة وألبسه الهيبة وإن كنا لانعرف أنه من هو، وقد سأل ابن الكوا علياً رضى الله عنه عن ذى القرنين وقال: أملك هو أم نبى؟ فقال: لاملك ولانبى كان عبداً صالحاً ضرب على قرنه الأيمن فى طاعة الله فمات ثم بعثه الله فضرب على قرنه الأيسر فمات فبعثه الله فسمى بذى القرنين وملك ملكه .

وقيل : إن ذا القرنين ملك من الملائكة .

عن عمر أنه سمع رجلاً يقول: ياذا القرنين، فقال: اللهم غفراً، أما رضيتم أن تسموا بأسماء الأنبياء حتى تسموا بأسماء الملائكة !

وقد ذهب البعض إلى القول بنبوته مستدلين على ذلك بقوله تعالي: ﴿**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ**﴾[الكهف: ٨٤] وأن التمكين الكامل فى الدين هو النبوة، وقوله سبحانه : ﴿**وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**﴾[الكهف : ٨٤] وأنه تعالى آتاه فى النبوة سبباً، كما استدلواعلى ذلك بقوله تعالي: ﴿ **قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا**﴾[الكهف: ٨٦] وأن كلام الله معه يدل على نبوته.

ولعل الأشبه بالصواب والصحة أنه كان عبداً صالحاً ملكه الله الأرض ومكن له فيها وهيئ له من الأسباب ماساعده على ذلك ويجوز أن يكون الله عز وجل خاطبه على لسان نبى فى وقته.

وقد استدفعنا القول بأن ذا القرنين هو الإسكندر الذى بنى الإسكندرية.

سبب تسميته ذى القرنين

قال وهب بن منبه :كان ملكاً وإنما سمى ذا القرنين لأن صفحتى رأسه كانتا من نحاس قال : وقال بعض أهل الكتاب لأنه ملك الروم وفارس، وقال بعضهم :كان فى رأسه شبه القرنين .

وروى عن علىّ أنه سُئل عن ذى القرنين، فقال : كان عبداً ناصحاً لله دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات فأحياه الله، فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات فسمى ذا القرنين .

ويقـال: إنه إنما سمى ذا القـرنين لأنه بلغ المشارق والمغـارب من حيث يطلـع قرن الشمس و يغرب .

وقيل سمى بذى القرنين لأنه انقرض فى وقته قرنان من الناس.

وقيل : إن الله تعالى سخر له النور و الظلمة فإذا سرى يهديه النور من أمامه و تمده الظلمة من ورائه .

ويجوز أن يلقب بذلك لشـجاعته كـما يسمى الشجـاع كبشاً كـأنه ينطح أقرانه . وقيل: رأى فى المنام كأنه صعد الفلك فتعلق بطرفى الشمس وقـرنيها و جانبيها فسمى لهذا السبب بذى القرنين .

وقيل : سمى بذلك لأنه دخل النور والظلمة .

وليس فى هذه الأقوال شئ مـرفوع لرسول الله ﷺ ، ومـعظمها مـأخوذ عن أهل الكتاب، والعلم عند الله تعـالي، وإلا فـاسمـه الذى سمـاه الله به هو ذو القرنين، فإن ورد نص صحيح عن المعصوم قلنا به و إلا أمسكنا عن القطع والجزم وقلنا الله أعلم إذ رد العلم إليه أسلم .

تقديم المصادر الشرعية
لإثبات الحوادث التاريخية

القرآن الـكريم هو كلام الله الذى لا يأتيـه الباطل من بين يديه و لا من خـلفه وقد تكفل الله بحفظه من التـحريف أو الزيادة والنقصان ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[الحجـر: ٩] والقـرآن قطعى الثبـوت، آية آية وكلمـة كلمـة . و النبى ﷺ ـ كمـا أخبر الله عنـه ـ لاينطق عن الهوي، وقد حفظ الـصحابة ﭫ أقوال الرسول وأفعاله وتقريراته و أدوها إلى من بعدهم كما سمعوها .

وقد قـال ابن المبارك: الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شـاء ماشاء، ولما سئل عن الأحاديث الموضوعة، قال: تعيش لها الجهابذة . فالمنهج العلمى فى التوثيق والتثبيت من الأخبار والروايات عند المسلمين لا مثيل له .

والقرآن والسنة يعطيان الدارس التصورات والمفاهيم والقيم التى فى ضوئها يفسر أحداث التاريخ ويحكم عليها حكماً صحيحاً .

وأى دراسة تتباعد عن المصادر الشرعية، لابد أن تصاب بالنقص والتشوه كهذه الدراسات التى أخذها البعض عن المستشرقين، وعن المدارس المتعددة فى تفسير التاريخ كالمدرسة الإجتماعية والمدرسة النفسية والمدرسة المادية والمدرسة القومية والجغرافية واللاهوتية . فالواجب على كل من يتصدى لدراسة التاريخ الإسلامى وتدريسه، أن يقوم بدراسة القرآن الكريم ومعرفة أسباب النزول وأصول علم التفسيروأصول علم الحديث ومعرفة الأحكام الشرعية وعقيدة أهل السنة والجماعة وعقائد الفرق المخالفة لأن هذه من أهم المصادر لدراسة التاريخ و تقييم الأحداث على أسس صحيحة.

حكم الأخذ من كتب أهل الكتاب

قال تعالي: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾[النساء : ٤٦] .

وقال سبحانه : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٤٦] .

فالكتب السابقة لنزول القرآن منسوخة الشرائع والأحكام بالإسلام، وأخبارها وقصصها مترددة بين الصواب والخطأ لثبوت وقوع التحريف والزيادة والنقص، ولذلك قال رسول الله ﷺ : «لاتصدقوا أهل الكتاب ولاتكذبوهم وقولوا: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا . . . الآية﴾»[1].

ومن المعروف أن الأناجيل قد دونت بعد رفع عيسى بزمن طويل وهى اليوم مختلفة لا تتفق نسخة مع أخري، وكذلك التوراه و التلمود، دونها أحبار اليهود بعد موسى بأزمان متطاولة.

---

(١) رواه البخاري.

وقد جعل شيخ الإسلام ابن تيمية الإسرائيليات على ثلاثة أقسام :

١ـ ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح .

٢ـ ماعلمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه فذاك كذب .

٣- ما هومسكوت عنه، لامن هذا القبيل ولا من هذا فلا تصدق به ولا تكذبه.

وهذا القسم الأخير تجوز حكايته و يشهد لذلك حديث النبي ﷺ أنه قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم».

فقد نهينا عن تصديق ما ينقل عن أهل الكتاب إلا أن يكون مما يجب علينا تصديقه مثل ما أخبر به نبينا عن الأنبياء وأممهم فإن ذلك يجب تصديقه مع الإحتراز فى نقلته كما بين إبن تيمية.

ضوابط الأخذ من كتب غير المسلمين

المسلم له شأن وللناس شأن، ومنهج المسلمين منهج مستقل فى تصوره وغايته وطريقة عمله، فيه سمة الربانية والكمال والشمول ولذلك لا يحتاج إلى شئ من غيره كما أن له الهيمنة والحكم على كافة المناهج .

قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾[المائدة: ٤٨].

والنظر إلى كتب غير المسلمين للأخذ منها يكون بحسب الموضوع . فإذا كان الموضوع متعلقاً بديانتهم وهى ديانة وثنية فإنه حينئذ لا بأس من الأخذ عنهم مع النظر و المقارنة .

أما بالنسبة للإسرائيليات المأخوذة عن أهل الكتاب فلا تقبل منهم ولا تؤخذ عنهم إلا وفقاً للضوابط التى ذكرناها آنفاً .

وإذا كان الموضوع متعلقاً بديننا فإنهم لا يصدقون فيما يقولونه، إذ من شروط البحث فى قضايا الدين الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر، فإذا كان علماء الإسلام لايثبتون الأحكام بما يرويه المسلم ضعيف الضبط فكيف يحق لقوم مؤمنين أن يحملوا عن كافر ساقط العدالة بل يحمل من الحقد والبغضاء على هذا الدين

وأهله ما الله به عليم، فالقول فى الأحكام الشرعية والنظم الإسلامية وفى تقدير رجاله وتاريخه لايؤخذ إلا من المسلم العارف الثقة أما غير ذلك فلا اعتبار لقوله ولخلافه لو خالف .

أما إذا كان ما فى كتبهم ليس له تعلق بشئ من الأنواع السابقة فإنه يخضع لموازين النقد العلمى وماثبت منه لاشئ على من أخذ به ولاسيما إذا كان ذلك وصفاً لحالهم وأوضاعهم ومعاشهم لأنهم بها أخبر، ولها أدري.

التمكين فضل من الله

توجه السؤال لرسول اللهﷺ عن ذى القرنين فجاءت الإجابة : ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾[الكهف: ٨٣].

أى إنى سأفعل هذا إن وفقنى الله تعالى وأنزل فيه وحياً وأخبرنى عن كيفية تلك الحال ،ثم شرعت الآيات توضح مدى الفضل الذى امتن الله به على ذى القرنين ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ﴾[الكهف: ٨٤] .

قال على رضى الله عنه : سخر له السحاب ومُدّت له الأسباب، وبُسط له فى النور فكان الليل والنهار عليه سواء .

وقال ابن كثير : أى أعطيناه ملكاً عظيماً ممكناً فيه من جميع مايؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحصارات ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض ودانت له البلاد وخضعت له ملوك البلاد وخدمته الأمم من العرب والعجم، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمى ذا القرنين لأنه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها.

وقد ذكر الرازى أن النبوة أعظم أسباب التمكين فقال: يحتمل أن يكون المراد منه التمكين بسبب النبوة ويحتمل أن يكون المراد منه التمكين بسبب الملك وحمل كلام الله على الوجه الأكمل الأفضل أوليّ .

وسواء كان هذا أو ذاك، فالتمكين فضل من الله تعالي، ويدل على ذلك قوله تعالي: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ

الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾[القصص: ٥-٦] .

وهو نعمة تستوجب الشكر لله وإقامة واجب العبودية لقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾[الحج: ٤١].

والإيمان والعمل الصالح عدة التمكين فى الأرض، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾[النور : ٥٥] .

والواجب على العباد أن يعملوا بأمر الله ويخضعوا لحكمه سبحانه، سواء مُكن لهم أو لم يُمكنَ لهم، فالعبادة واجبة حتى الممات، فى الرخاء والشدة والعسر واليسر، والمنشط والمكره وفى حال الإستضعاف وحال التمكين .

متابعة الأسباب

قال سبحانه فى معرض الإمتنان على ذى القرنين : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾[الكهف: ٨٤] .

قال ابن عباس : من كل شئ علماً يتسبب به إلى مايريد. وقال الحسن : بلاغاً إلى حيث أراد، وقيل من كل شئ يحتاج إليه الخلق، وقيل : من كل شئ يستعين به الملوك من فتح المدائن وقهر الأعداء، وقال قتادة : منازل الأرض وأعلامها، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : تعليم الألسنة قال : كان لايغزو قوماً إلاكلمهم بلسانهم .

وقد قال الله فى حق بلقيس :﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾[النمل : ٢٤] أى مما يؤتى مثلها من الملوك، وهكذا ذو القرنين يسر الله له الأسباب أى الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرساتيق والبلاد والأراضى وكسر الأعداء وكبت ملوك الأرض وإذلال أهل الشرك، قد أوتى من كل شئ مما يحتاج إليه مثله سبباً كما قال ابن كثير . وهذا من جملة ما تفضل به سبحانه على ذى القرنين، وهو من التهيئة

الربانية، فما كان منه إلا أن أخذ بالأسباب الشرعية المرسومة له، وهذا من فقهه فى دين الله، وعدم الأخذ بالأسباب قدحٌ فى التشريع، والاعتقاد فى الأسباب قدح فى التوحيد كما يقرر العلماء .

قال ابن عباس: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾[الكهف: ٨٥] يعنى بالسبب المنزل . وقال مجاهد: منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب، وفى رواية عن مجاهد قال: طرفى الأرض وقال قتادة: أى اتبع منازل الأرض ومعالمها، وقال الضحاك : أى المنازل، وقال سعيد بن جبير : علما، وقال مطر : معالم وآثار، وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾[الكهف: ٨٥] يوصلها، أى اتبع سبباً من الأسباب التى أوتيها.

ثم اعلم أن الأخذ بالأسباب لايتنافى مع التوكل على الله، ولذلك فسر بعض العلماء التوكل بإغلاق الباب، وإطفاء السراج، والسبب بمفرده لايقوم بل يحتاج لفضل من الله أكبر لكى يحدث أثره .

وخالق الأسباب قادرعلى تعطيلها، ولذلك فبعد الأخذ بالأسباب يجب أن تتعلق القلوب بخالق الأرض والسموات فى جلب النفع ودفع الضر .

وقد ذكر الرازى فى تفسير الآية كلاماً غريباً قال : ثم إن الذين قالوا إنه كان نبياً قالوا من جملة الأشياء النبوة فهذه الآية ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾[الكهف: ٨٤] تدل على أنه تعالى أعطاه الطريق الذى به يتوصل إلى تحصيل النبوة أ.هـ .

فالنبوة فضل من الله يمن به علي من يشاء من عباده والله أعلم حيث يجعل رسالته ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾[الحج: ٧٥] ولاينال العبد درجة بكسبه وإن اجتهد مااجتهد وبذل وسعه فى الطاعة والعبادة .

الشمس لاتدخل في الأرض

قال تعالى عن ذى القرنين: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾[الكهف: ٨٦].

قال ابن كثير ـ رحمه اللـه ـ: أى فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى مايسلك فيـه من الأرض من ناحية المـغرب وهو مغـرب الأرض وأما الوصول إلى مـغرب الشمس من السماء فـمتعذر ومايذكره أصحاب القـصص والأخبار من أنه سار فى الأرض مدة والشمس تغـرب من ورائه فشئ لاحقيقة له وأكـثر ذلك من خرافات أهل الكتـاب واختـلاق زنادقـتـهم وكـذبهم وقـوله: ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾[الكهف : ٨٦] أى رأى الشمس فى منظره تغرب فى البـحر المحيط وهذا شأن كل من انتهى إلى سـاحله يراها كإنها تغرب فيـه وهى لاتفارق الفلك الرابع الذى هى مثبته فيه لاتفارقه أهـ .

وقال القـرطبى: قال القـفال: قـال بعض العلماء: ليس المراد أنه انتـهى إلى الشمس مغرباً حتى وصل إلى جرمها ومسّها، لأنها تدور مع السماء حول الأرض من غيـر أن تلتصق وهى أعظم من أن تدخل فى عين من عـيون الأرض، بل هى أكبر من الأرض أضـعافاً مضـاعفة، بل المراد أنه انتهى إلى آخر العـمارة من جهة المغرب ومن جهة المشرق، فوجدها فى رأى العين تغـرب فى عين حمئة، كما أنا نشاهدها فى الأرض الملساءكأنها تدخل فى الأرض ولهذا قال :﴿ تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾[الكهف: ٩٠] ولم يرد أنها تطلع عليـهم بأن تماسهم وتلاصقهم، بل أراد أنهم أول من تطلع عليهم أهـ .

وقـال الرازى : إنه ثبت بالدليل أن الأرض كـرة وأن السمـاء مـحيطة بهـا، ولاشك أن الشمس فى الفلك وأيضاً قال : ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ﴾[الكهف ٨٦] ومعلوم أن جلوس قـوم فى قرب الشمس غيـر موجود، وأيضاً الشمـس أكبر من الأرض بمرات كثيرة فكيف يعقل دخولها فى عين من عيون الأرض.

إنفصال الكنيسة
عن العلم المادى التجريبى

درجت الكنيسة فى وقت مضى على مصادمة العلم المادى التجريبى بخرافات وخزعبلات نادى بها القساوسة دون مستند من الوحى الصادق .

وقد أدى هذا الصراع بين الكنيسة والعلم إلى قتل وحرق كثير من العلماء، ولهذا السبب وغيره ثار الغرب على الكنيسة وطالب بفصل الدين عن الدولة، وقالوا : دع مالقيصر لقيصر وما لله لله، وانتشرت وذاعت هذه المقولة، وتناقلها بعض الأغرار والمنافقين مطالبين بتحقيقها فى بلاد المسلمين، وتناسى هؤلاء حقائق كثيرة منها أنه لافصل فى الإسلام بين الدولة والدين والدنيا والآخرة، والأرض والسماء، وبين بعض الرجال والبعض الآخر ،وبين بعض العبادات والبعض الآخر، وكذلك لافصل بين ساعة وساعة، فهى حسبة واحدة :﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[الأنعام: ١٦٢-١٦٣] .

فالخلافة موضوعة لإقامة الدين وسياسة الدنيا به، ولابد من تعمير الدنيا بطاعة الله، فهذا الدين ليس دينا كهنوتياً، ولايحل لحاكم ولامحكوم أن ينسلخ عن شرع الله، ولايجوز لرجال الدولة أن يحكموا بالأهواء أو الآراء سواء كانت لأغلبية أو أقلية ـ إذاصادمت دين الله ـ ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[النساء: ٦٥] .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴾[الأحزاب: ٣٦] .

إن دين الإسلام شامل لكل ناحية من نواحى الحياة سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو أخلاقية وسواء تعلقت بالحرب أم بالسلم، بالمسجد أم بالبيت أم بالسوق قال تعالي: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾[المائدة ٣] .

وقال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾

[الشورى : ٢١] .

ولاتناقض بين الدين والعلم الثابت اليقينى، ويكفى الإسلام أنه حث العباد على إطلاق النظرفى ملكوت السموات والأرض وختمت آيات كثيرة بقوله تعالي: **لقوم يتفكرون ـ لقوم يعلمون ـ إن في ذلك لآيات لأولي الألباب** .... وأمر بالسيرفى الأرض سير اتعاظ واعتبار وتأمل ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾....... [العنكبوت : ٢٠]

وفى القرآن والسنة إشارات كثيرة علمية ـ طبية وفلكية ونباتية..... وهذه الإشارات سيقت مساق الهداية، وقد تكلم العلماء قديماً وحديثاً فى المسائل العلمية وقضايا الإعجاز ـ كما مر بك عن بعضهم ـ فمن الذى قتلهم أو حرقهم من أجل ذلك؟! وخلاصة القول أنه لايجوز نقل اللوثة والمصادمة التى حدثت فى الغرب إلى بلاد المسلمين إذ لامبرر لها، فالدين والوطن كلاهما لله، وقيصر ومامللك ملك لله، والكل يجب أن ينصبغ بصبغة الإسلام فى حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[مريم: ٤٠].

لايستوي المحسن والمسئ في الجزاء

لماسار ذو القرنين جهة المغرب، وجد أمة من الأمم، ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بنى آدم: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾[الكهف: ٨٦] فمكنه الله تعالى منهم وحكمه فيهم وأظفره بهم، وكانوا كفارا، فخير الله ذا القرنين فيهم بين التعذيب لهم إن أقاموا على كفرهم وبين المن عليهم والعفو عنهم، وهذا التخييرعلى معنى الاجتهاد فى أصلح الأمرين كما خير نبيه عليه الصلاة والسلام بين المن على المشركين وبين قتلهم.

﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾[الكهف: ٨٦] .

قال الأكثرون: هذا التعذيب هو القتل، وأما اتخاذ الحسنى فيهم فهو تركهم أحياء، ثم قال ذوالقرنين:

﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾[الكهف ٨٧] أى استمر على كفره وشركه بربه ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾[الكهف : ٨٧] أى بالقتل فى الدنيا .

وقال وهب بن منبه : كان يسلط الظُّلمة فتدخل أجوافهم وبيوتهم وتغشاهم من جميع جهاتهم والله أعلم . ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ [الكهف: ٨٧] أى شديداً بليغاً وجيعاً أليماً وفى هذا إثبات المعاد والجزاء.

﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ ﴾ [الكهف ٨٨] أى تابعنا على ما ندعوه من عبادة الله وحده لاشريك له فله جزاء الحسنى أى فى الدار الآخرة عند الله عز وجل .

﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [الكهف: ٨٨] .

قال مجاهد: معروفاً فلا يستوى المؤمن والكافر ولا المطيع والعاصى فى الدنيا ولا فى الآخرة ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[القلم: ٣٥-٣٦]، إن القاعدة الشرعية عدم التسوية بين المختلفين وعدم التفريق بين المتساويين.

مسائل تربوية تتعلق بالأطفال

لابد من تعويد الصبى وتعليمه أصول الإيمان، وهى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وتعليمه أركان الإسلام، وهى الشهادتان والصلاه والصوم والزكاة والحج، وتبسيط المعانى له ومخاطبته على قدر عقله بحيث يستوعب هذه المعانى الإيمانية، ويراعى فى ذلك ربط الأمور بعظيم قدرة الله فى خلقه ورحمته بهم ونعمته عليهم حتى يشب على محبة الله جل وعلا ومراقبته سبحانه.

أخرج الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «كنت خلف النبى ﷺ يوماً فقال ياغلام إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلابشئ قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يضروك إلابشئ قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف» وفى رواية غير الترمذى زيادة : «احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً» .

ومما يحتاج إليه الطفل غاية الإحتياج الإعتناء بأمرخُلُقه، فإنه ينشأ على ما عوَّده المربى فى صغره، وتصير هذه الأخلاق صفات وهيئات راسخة له .

كما يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: وقد اهتم النبىﷺ والسلف الصالح بغرس الأخلاق الفاضلة فى الأطفال[1] وينبغى الحذر من ظهور الأب بمظهر القسوة والأم بمظهر الرأفة، بل لابد من العدل والاعتدال فى تربية الأولاد، وإشعار الصبى بمحبة والده له وشفقته عليه، ومحبة والدته لأدبه وتحليه بالفضائل وتخليه عن الرذائل كماينبغى الحذر من قصر الترغيب والترهيب على النواحى المادية، فلا بأس من مكافأة الصبى وتشجيعه وإدخال السرور إلى نفسه إذا أصاب، وعقوبته إذا استدعى الأمر ذلك، ولاحرج من زرع التنافس البناء بين الأطفال، وكل ذلك وردت به الآثار، ولابد مع ذلك من غرس المعانى الإيمانية فى حسه وشعوره فهو يصلى لكى يرضى ربه ويدخل الجنة، وينتهى عن الكذب ،لأن الكذب فجور، والفجور يهدى إلى النار، ولاأصلح من المنهج القرآنى فى تربية الصغير والكبير، فالقرآن بشر من آمن بالجنة، وأنذرمن خالف بالعذاب واختلطت فيه الأحكام بمعانى الترغيب والترهيب، وقد تجد ذلك فى الآية الواحدة كما فى قوله تعالي: ﴿ **وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ...الآية** ﴾[الكهف: ٨٨] والجزاء فى الأصل أخروي، وهذا لايمنع من ورود عقوبات دنيوية كالتعزير والحدود . إن الترغيب والترهيب من أهم الأساليب التى ينبغى على الدعاة إلى الله أن ينتبهوا لها فى إبلاغ الحق للخلق .

الآيات تحبب في الخير
وتركز على الغايات الهامة

لما ذكر تعالى قصة الخضر أعقبها بقصة ذى القرنين ورحلاته الثلاث إلى الغرب والشرق وإلى السَّدين، وبناؤه للسد فى وجه «يأجوج ومأجوج» وجميعها ترتبط بالعقيدة والإيمان ، وهو الهدف الأصيل للسورة الكريمة، فالإرتكاز على محور العقيدة والتذكير به فى كل مناسبة، وربط الحوادث به وبمقتضياته هو أسلوب

(١) راجع كتابنا (الإشكالية المعاصرة في تربية الطفل المسلم).

القرآن وطريقته فى عرضه للتاريخ، فإنه يركز على الوحدانية وإخلاص العبودية لله ونبذ الشرك والمشركين وبيان تناقضهم، ويجعل القصص ونتائجه مرتبط بذلك. فالبشرية على طول تاريخها كلما فاءت إلى هذه العقيدة وتمسكت بها حصل لها السعادة والتمكين فى الأرض، وكلما بعدت عنها أصيبت بالأمراض الإجتماعية الخلقية وفشا فيها الظلم والجور وسلط عليها الأعداء .

لم تذكر الآيات كيف بلغ ذو القرنين المغرب والمشرق، وفى كم يوم، وماذا كان يأكل، وهل كان طويلاً أو قصيراً، أبيضاً أم أسوداً ...... بل ركزت على قوله لمن كفر: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾[الكهف: ٨٧-٨٨].

إنه العرض الذى يحبب فى الخير وينفر من الشر ويرد الحق لنصابه، فالحق حق مهما كان فاعله، والباطل باطل مهما كان قائله، والميزان هو شرع الله ولذلك كان لابد من الإشادة بالخير ومدح صاحبه، وذم الشر وزجر فاعله، وهذا من أعظم غايات دراسة التاريخ وثمراته كما ينبغى أن لاتشغلنا الدقائق التفصيلية فى حوادث التاريخ عن العبرة من الحدث والرؤية الشاملة له، وعن الاعتبار الذى يترك فى النفس أثراً، وإنفاق الوقت والجهد فى البحث عن أمور لاطائل تحتها ولاتعود على البحث بفائدة، فليست من هدف المسلم ولا غايته فى الحياة .

ما الذى فعله ذو القرنين عند بلوغه مطلع الشمس ؟

قال تعالي: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾[الكهف: ٨٩-٩١].

قال ابن كثير: يقول تعالى ثم سلك طريقاً فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها وكان كلما مر بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله عز وجل فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم آنافهم واستباح أموالهم وأمتعتهم واستخدم من كل آية ما تستعين به جيوشه على قتال الإقليم المتاخم لهم، وذكر فى أخبار بنى إسرائيل أنه عاش ألفاً وستمائة سنة يجوب الأرض طولها والعرض حتى بلغ المشارق والمغارب ولما انتهى

إلى مطلع الشمس من الأرض كماقال الله تعالي: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾[الكهف: ٩٠] أى ليس لهم بناء يكنهم ولاأشجار تظلهم وتسترهم من حر الشمس. قال الحسن : كانت أرضهم لا جبل فيها ولاشجر وكانت لاتحمل البناء، فإذا طلعت عليهم الشمس نزلوا فى الماء فإذا ارتفعت عنهم خرجوا، فيتراعون كما تتراعى البهائم . وقال قتادة : ذكر لنا أنهم بأرض لاتنبت لهم شيئاً فهم إذا طلعت الشمس دخلوا فى أسراب حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم .

قال القرطبى : قلت: وهذه الأقوال تدل على أن لامدنية هناك والله أعلم، وربما يكون منهم من يدخل فى النهر، ومنهم من يدخل فى السّرب فلاتناقض بين قول الحسن وقتاده أهـ .

وقد ذكر البعض أن حال أكثر الزنج كذلك وحال كل من يسكن البلاد القريبة من خط الإستواء كذلك،وقد قيل إن ذا القرنين لماقصد أقرب الأماكن المكونة من مطلع الشمس ،كانت حالته مع أهل المطلع كما كانت مع أهل المغرب قضى فى هؤلاء كما قضى فى أولئك، من تعذيب الظالمين والإحسان إلى المؤمنين.

وقيل : إنه تم الكلام عند قوله كذلك والمعنى أنه تعالى قال أمر هؤلاء القوم كما وجدهم عليه ذو القرنين ثم قال بعده : ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾[الكهف: ٩١]، أى كنا عالمين بأن الأمر كذلك .

بناء السد عمل إيمانى

أخبر تعالى عن ذى القرنين أنه :﴿أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٩٢] أى سلك طريقاً من مشارق الأرض ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ [الكهف: ٩٣] وهما جبلان متناوحان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك فيعيثون فيها فسادا ويهلكون الحرث والنسل كما قال ابن كثير :

وروى عطاء الخرسانى عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ [الكهف: ٩٢-٩٣] أى الجبلين أرمينية وأذربيجان .

قال تعالي: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ [الكهف: ٩٣]. أى وجد من وراء الجبلين قوماً، لاهم يفقهون من غيرهم ولايُفقهون غيرهم، لايكادون يعرفون لساناً غير لسانهم إلا بمشقة وعسر فاشتكوا لذى القرنين من إفساد يأجوج ومأجوج، فردم ذو القرنين حاجزاً بين يأجوج ومأجوج من ورائهم ليقطع مادة غوائلهم وشرهم عنهم، وهذا فى حد ذاته عمل صالح، إذ لم يكن بناء السد لإظهار التطور الزائف، أو لون من الحضارة الكاذبة، أو لإشباع معانى الغرور والكبر ووضع المال والعرق فى غير موضعه، وإنما هو عمل قام على أساس منهج العبودية دون تطاول أو جرأة على الخالق أو المخلوق.

قال تعالي: ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ [الكهف: ٩٥] .

أى ما بسطه اللـه تعالى من القدرة والملك خير من خرجكم وأموالكم ولكن أعينونى بقوة الأبدان أى برجال وعمل منكم بالأبدان، والآلة التى أبنى بها الردم وهو السد .

وهذا تأييد من الله تعالى لذى القرنين فى هذه المحاورة، فإن القوم لو جمعوا له خرجاً وجزءاً من أموالهم لم يعنه أحد ولوكلوه إلى البنيان، ومعونته بأنفسهم أجمل به وأسرع فى إنقضاء هذا العمل.

إن ذا القرنين عبد موفق مسدد فى بداية أمره ونهايته، فنية الخير فى بناء السد ظاهرة، واستقامة الفعل واضحة، وامتنانه وإنابته يدل عليها قوله تعالى بعد فراغه من بناء السد : ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾[الكهف: ٩٨] .

فرض على الملك
أن يقوم بحماية الخلق

الخلافة والحكم والإمارة موضوعة لإقامة الدين ولسياسه الدنيا به، وهذا مما اتفق عليه العلماء، قال تعالي: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[البقرة : ٣٠] .

وقال سبحانه : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[ص : ٢٦].

ولذلك لاعجب أن يتولى أبو بكر الصديق رضى الله عنه الخلافة ويجتمع الصحابة على توليته قبل دفن رسول الله ﷺ .

وفى تفسير قوله تعالي: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾[الكهف: ٩٥]

قال القرطبى : فى هذه الآية دليل على أن الملك فرض عليه أن يقوم بحماية الخلق فى حفظ بيضتهم، وسد فرجتهم، وإصلاح ثغورهم، من أموالهم التى تفئ عليهم، وحقوقهم التى تجمعها خزانتهم تحت يده ونظره، حتى لو أكلتها الحقوق، وأنفذتها المؤن، لكان عليهم جبر ذلك من أموالهم، وعليه حسن النظر لهم، وذلك بثلاثة شروط :

الأول: ألا يستأثر عليهم بشئ .

الثانى: أن يبدأ بأهل الحاجة فيعينهم .

الثالث: أن يستوى فى العطاء بينهم على قدر منازلهم، فإذا فنيت بعد هذا وبقيت صفرا فأطلعت الحوادث أمراً بذلوا أنفسهم قبل أموالهم، فإن لم يغن ذلك فأموالهم تؤخذ منهم على تقدير، وتصرف بتدبير، فهذا ذو القرنين لما عرضوا عليه المال فى أن يكف عنهم مايحذرونه من عادية يأجوج ومأجوج قال : لست أحتاج إليه وإنما أحتاج إليكم ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ أى اخدموا بأنفسكم معى، فإن الأموال عندى والرجال عندكم ورأى أن الأموال لاتغنى عنهم، فإنه إن أخذها أجرة نقص ذلك ممايحتاج إليه، فيعود بالأجر عليهم، فكان التطوع بخدمة الأبدان أولى .

وضابط الأمر أنه لايحل مال أحد إلا لضرورة تعرض، فيؤخذ ذلك المال جهراً لا سراً، وينفق بالعدل لا بالإستئثار، وبرأى الجماعة لا بالإستبداد بالأمر والله تعالى الموفق للصواب أ.هـ.

وتعفف ذى القرنين عن أموالهم لتمكين الله إياه شبيه بقول نبى الله سليمان:

﴿ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم ﴾[النمل : ٣٦] .

إتخاذ السجون

وحبس أهل الفساد فيها

ذكرنا كيف أقام ذو القرنين حاجزاً بين يأجوج ومأجوج من ورائهم ليقطع مادة غوائلهم وشرهم عنهم.

﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾[الكهف:٩٧] أى ماستطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوه ويصعدوا فيه، لأنه أملس مستو مع الجبل، والجبل عال لا يرام.

﴿ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾[الكهف:٩٧] لبعد عرضه وقوته .

وفى هذه القصة دليل على اتخاذ السجون وحبس أهل الفساد فيها ومنعهم من التصرف لما يريدونه، ولايتركون وماهم عليه، بل يوجعون ضرباً ويحبسون أو يكلفون ويطلقون كمافعل عمر رضى الله عنه (ذكره القرطبى) .

وقد اتخذ بعض الخلفاء السجون، كما عاقب عمر ابن الخطاب بهذه العقوبة فى النشوز والهجاء وهذا فى الحقيقة نوع من التوقيت والتعزير فى الجرائم التى لم ينزل تحديد شرعى بعقوبتها .

ولايصلح السجن أن يكون عقوبة لحد من حدود الله تعالى كسرقة وقتل وزنا ونحو ذلك من العقوبات التى جاء لها حدود فى الشريعة الإسلامية ولايزيد على السنة على قول البعض. وقد صار السجن هو صلب العقوبات الوضعية وذلك فى كافة الجرائم على اختلاف صورها وأشكالها كالسرقة والقتل، بل هو العقوبة فيما ليس بجريمة أصلاً كالقتل الخطأ.

وبالإضافة لكون السجن عقوبة خيالية كالسجن المؤبد حتى الموت والسجن مائة سنة وأكثر. . . . .فقد صارت السجون مدرسة للشذوذ والإنحراف الجنسى ودورة للإجرام وذلاً وموتاً بطيئاً للسجين من جهة وتحطيما لأسرته من جهة أخر وإلا فماالذى تفعله الزوجة والأولاد أثناء غياب العائل فى السجن مدة عشرين سنة مثلاً. . . . . إلى غير ذلك من المفاسد، إن السجن لا يصلح بديلاً عن العقوبات الشرعية كالجلد والقطع . ولايمكن أن يحقق شيئاً من الحكم والأهداف الموجودة فى العقوبات الشرعية كالتطهير والقصاص والتعويض والزجر، فإن كان السجن على النحو الذى استخدم فيه فى عهد عمر وغيره من الخلفاء فلابأس وإلاكانت مفسدته أضعاف ماقد يوجد فيه من مصالح تافهة كمانشاهد الآن فى حياتنا .

هل قولهم ﴿إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض﴾ غيبة محرمة ؟

لا خلاف أن الغيبة من الكبائر، وأن من اغتاب أحداً عليه أن يتوب إلى الله عز وجل والغيبة المحرمة هى ذكرك أخاك بما فيه من خلفه وبما يكره، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾[الحجرات : ١٢] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول اللهﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : «إن كان فيه ماتقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته».

وليس من هذا الباب غيبة الفاسق المعلن به المجاهر، أو الفاجر الذى ألقى جلباب الحياء فلاغيبة له ليحذره الناس . روى عن الحسن أنه قال: ثلاثة ليست لهم حرمة: صاحب الهوى والفاسق المعلن والإمام الجائر،

وعنه أيضاً: ليس لأهل البدع غيبة وكذلك قولك للقاضي تستعين به على أخذ حقك ممن ظلمك فتقول: فلان ظلمنى أو غصبنى أو خاننى أو ضربنى أو قذفنى أو أساء إلىّ، ليس بغيبة، وعلماء الأمة على ذلك مجمعة، فلصاحب الحق مقال .

وفى الحديث: «مطل الغنى ظلم يحل ّعرضه وعقوبته».

ومن ذلك الإستفتاء، كقول هند للنبيﷺ : إن أبا سفيان رجل شحيح لايعطينى ما يكفينى أنا وولدي، فآخذ من غير علمه، فقال النبيﷺ : «نعم فخذى» فذكرته بالشح والظلم لها ولولدها، ولم يرها مغتابة، لأنه لم ينكر عليها، بل أجابها عليه الصلاة والسلام بالفتيا لها .

وكذلك إذا كان فى ذكره بالسوء فائدة كقولهﷺ لما استشهد: «أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه» .

فهذا جائز وكان مقصوده ألاتغتر فاطمة بنت قيس بهما ومن ذلك قول علماء الحديث عن الرجل: «كذاب» أو ليس بشئ ونحو ذلك، وقول النبيﷺ : «ما أظن أن فلان وفلاناً لا يعرفان من ديننا شيئاً» لرجلين من المنافقين .

ومن هذا القبيل شكوى القوم لذى القرنين من يأجوج ومأجوج لكثرة فسادهم، وذلك لإعانتهم على دفع شرهم، وقد كان أمر ذى القرنين من العظمة والسلطان وأسباب العلم والقدرة بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير .

يأجوج ومأجوج

(١) أصلهم :

يأجوج ومأجوج : إسمان أعجميان ليس لهما اشتقاق، وقيل عربيان، وعلى هذا يكون اشتقاقهما من أجت النار أجيجاً إذا التهبت . أو من الأجاج وهو الماء الشديد الملوحة .

وقيل :عن الأج وهو سرعة العدو، وقيل يأجوج من ماج إذا اضطرب، ويؤيد ذلك قوله تعالي: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾[الكهف: ٩٩].

وذلك عند خروجهم. وأصل يأجوج ومأجوج من البشر من ذرية آدم وحواء عليهما السلام . وقد قال بعض العلماء: إنهم من ذرية آدم لامن حواء، وذلك أن آدم احتلم فاختلط منيه بالتراب فخلق الله من ذلك يأجوج ومأجوج، وهذا دليل عليه.

قال ابن حجر: «ولم نر هذا عن أحد من السلف إلا عن كعب الأحبار، ويرده الحديث المرفوع أنهم من ذرية نوح، ونوح من ذرية حواء قطعاً» فيأجوج ومأجوج من ذرية يافث أبى الترك، ويافث من ولد نوح عليه السلام .

روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله تعالى : ياآدم، فيقول لبيك وسعديك والخير فى يديك، فيقول : أخرج بعث النار قال : وما بعث النار قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فعنده يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، قالوا : وأينا ذلك الواحد ؟ قال: أبشروا فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألف .

وعن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ : «إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم وإنهم لو أرسلوا إلى الناس لأفسدوا عليهم معايشهم ولن يموت منهم أحد إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً»[1] .

(٢) صفتهم :

ذكر ابن حجر بعض الآثار فى صفتهم، ولكنها روايات ضعيفة وما جاء فى هذه الآثار أنهم ثلاثة أصناف:

(١) صنف أجسادهم كالأرز وهو شجر كبار جداً.

(٢) صنف أربعة أذرع فى أربعة أذرع .

(٣) صنف يفترشون آذانهم ويلتحفون بالأخرى . وقد نقل القرطبى فى تفسيره : «أنهم لايمرون بفيل ولاخنزير إلا أكلوه ويأكلون من مات منهم، مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون أنهار الشرق وبحيرة طبرية فيمنعهم الله من مكة والمدينة وبيت المقدس» قال: وقال على رضى الله تعالى عنه : وصنف منهم فى طول شبر، لهم مخالب وأنياب السباع، وتداعى الحمام، وتسافد البهائم، وعواء الذئاب، وشعور تقيهم الحر والبرد، وآذان عظام إحداها وبرة يشتون فيها، والأخرى جلدة يصيفون فيها . . .

---

(١) رواه أبو داود، وروي الحاكم طرفاً منه في المستدرك وقال: «هذا حديث صحيح علي شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

وقال وهب بن منبه: رآهم ذو القرنين، وطول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منا، لهم مخاليب فى مواضع الأظفار وأضراس وأنياب كالسباع، وأضاك كأضاك الإبل، وهم هُلبٌ عليهم من الشعر مايواريهم . . . .

وقال السدى والضحاك : الترك شرذمة من يأجوج ومأجوج خرجت تغير، فجاء ذو القرنين فضرب السد فبقيت فى هذا الجانب.

قال السدى: بُنى السد على إحدى وعشرين قبيلة، وبقيت منهم قبيلة واحدة دون السد فهم الترك وقاله قتاده .

قلت (أى القرطبى) : وإذا كان هذا، فقد نعت النبى ﷺ الترك كما نعت يأجوج ومأجوج .

وقال ﷺ : «لاتقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون الترك قوماً وجوههم كالمجانّ المطرقة يلبسون الشعر ويمشون فى الشعر» فى رواية : «ينتعلون الشعر»[١] .

وروى الإمام أحمد عن ابن حرملة عن خالته قالت : «خطب رسول الله ﷺ وهو عاصب أصبعه من لدغة عقرب فقال إنكم تقولون لاعدو وإنكم لاتزالون تقاتلون عدواً حتى يأتى يأجوج ومأجوج : عراض الوجوه صغار العيون شهب الشعاف[٢] من كل حدب ينسلون كأن وجوههم المجان المطرقة»[٣] .

وقد دلت الروايات الصحيحة على أنهم رجال أقوياء لاطاقة لأحد بقتالهم ويبعد أن يكون طول أحدهم شبر وشبرين، ففى حديث النواس بن سمعان : «أن الله تعالى يوحى إلى عيسى عليه السلام بخروج يأجوج ومأجوج فيقول له : «حرز عبادى إلى الطور» .

وقد أنكر ابن كثير قول من قال : إن طولهم شبر وشبرين وأطوالهم ثلاثة أشبار وقال: إن من زعم أن هذه صفاتهم فقد تكلف مالا علم له به، وقال مالا دليل عليه.

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود وغيرهما.
(٢) الشعاف: جمع شعفة وهي أعلي الرأس والمراد شهب الشعور.
(٣) قال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح.

يأجوج ومأجوج علامة من علامات الساعة العشر الكبرى

روى الإمام مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفارى رضى الله عنه قال : «اطلع النبى ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: ما تذاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة، قال: إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات، فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم، ويأجوج ومأجوج أوثلاثة خسوف، خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم».

قال الحافظ بن حجر : «الذى يترجح من مجموع الأخبار أن خروج الدجال أول الآيات العظام الموذنة بتغير الأحوال العامة فى معظم الأرض وينتهى ذلك بموت عيسى عليه السلام وأن طلوع الشمس من المغرب هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغير أحوال العالم العلوى، وينتهى ذلك بقيام الساعة، ولعل خروج الدابة يقع فى ذلك اليوم الذى تطلع فيه الشمس من المغرب، ثم قال: والحكمة فى ذلك أن عند طلوع الشمس من المغرب يغلق باب التوبة فتخرج الدابة تميز المؤمن من الكافر تكميلاً للمقصود من إغلاق باب التوبة، وأول الآيات المؤذنة بقيام الساعة النار التى تحشر الناس».

وقال الطيبى : الآيات أمارات للساعة إما على قربها وإما على حصولها .

فمن الأول : الدجال ونزول عيسى ويأجوج ومأجوج والخسف .

ومن الثانى : الدخان وطلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة والنار التى تحشر الناس .

وقد تواترت النصوص بظهور المهدى، ويكون ظهوره سابقاً لهذه العلامات، فهو الذى يملأ الأرض عدلاً بعد أن مُلئت ظلماً وجوراً، ويجتمع عليه المؤمنون لقتال الدجال، ثم ينزل عيسى عليه السلام ويصلى خلفه . ولم يظهر شئ من الأمارات الكبرى حتى زماننا هذا، وستظهر بإذن الله وفق خبر الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه .

العلامات الكبرى كخرزات في النظام

إذا ظهر أول علامات الساعة الكبرى تتابعت الآيات كتتابع الخرز فى النظام يتبع بعضها بعضاً .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ : «الآيات خرزات منظومات فى سلك فإن يقطع السلك يتبع بعضها بعضاً»(١)

وروى الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : «خروج الآيات بعضها على إثر بعض يتتابعن كما تتابع الخرز فى النظام»(٢)

وأول العلامات الكبرى بعد المهدى ظهور الدجال ثم نزول عيسى عليه السلام لقتله ثم ظهور يأجوج ومأجوج ودعاء عيسى عليه السلام عليهم فيهلكهم الله ثم قال عيسى عليه السلام: «ففيما عهد إلى ربى عز وجل أن ذلك إذا كان كذلك فإن الساعة كالحامل المتم التى لايدرى أهلها متى تفجؤهم بولادها ليلاً أو نهاراً» وهذا دليل على قرب الساعة قرباً شديداً، والعلامات المذكورة تقع فى وقت قصير جداً قبل قيام الساعة .

قال الحافظ ابن حجر : وقد ثبت أن الآيات العظام مثل السلك إذا انقطع تناثر الخرز بسرعة، وهو عند أحمد.

الأدلة على خروج يأجوج ومأجوج

(١) الأدلة القرآنية :

قال الله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٦-٩٧] .

وقال سبحانه عن ذى القرنين: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ

---

(١) إسناده صحيح كما قال العلامة أحمد شاكر.

(٢) صححه الألباني.

مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ .... إلى قوله تعالى عن السد: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾[الكهف: ٩٢-٩٩].

وقد دلت الآيات على أنه إذا جاء الوقت المعلوم واقتربت الساعة اندك هذا السد الذى بناه ذو القرنين وخرجت يأجوج ومأجوج بسرعة عظيمة وجمع كبير لايقف أمامه أحد من البشر فماجوا فى الناس وعاثوا فى الأرض فساداً، وهذا علامة على قرب النفخ فى الصور وخراب الدنيا وقيام الساعة .

(٢) أدلة السنة :

عن أم حبيبة بنت أبى سفيان عن زينب بنت جحش أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوماً فزعاً يقول : «لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بأصبعيه الإبهام والتى تليها، قالت زينب بنت جحش فقلت يارسول الله أفنهلك وفينا الصالحون ؟ قال نعم إذا كثر الخبث»[١] .

ومنها ما جاء في حديث النواس بن سمعان رضى الله عنه وفيه : «إذ أوحى الله إلى عيسى أنى قد أخرجت عباداً لى لايدان لأحد بقتالهم فحرز عبادى إلى الطور ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون مافيها ويمر آخرهم فيقولون : لقد كان بهذه مرة ماء، ويحضر نبى الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النغف[٢] فى رقابهم فيصبحون فرسى[٣] كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبى الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون فى الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيراً كأعناق البخت[٤] فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله» رواه مسلم وزاد فى رواية بعد قوله : «لقد

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) دود يكون في أنوف الإبل والغنم.
(٣) فرسي أي قتلي.
(٤) طوال الأعناق.

كان بهذه مرة ماء ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر[١] وهو جبل بيت المقدس فيقولون : لقد قتلنا من فى الأرض هلم فلنقتل من فى السماء، فيرمون بنشابهم إلى السماء فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دماء».

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : لما كان ليلة أسرى برسول الله ﷺ لقى إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا الساعة - إلى أن قال - فردوا الحديث إلى عيسي: «فذكر قتل الدجال، ثم قال: ثم يرجع الناس إلى بلادهم فيستقبلهم يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون لايمرون بماء إلاشربوه ولا بشئ إلا أفسدوه فيجأرون إليّ فأدعوا الله فيميتهم فتجوى الأرض من ريحهم، فيجأرون إليّ فأدعوا الله فيرسل السماء بالماء فيحملهم فيقذف بأجسادهم فى البحر»[٢].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ فذكر الحديث وفيه : «ويخرجون على الناس فيستقون المياه ويفر الناس منهم فيرمون سهامهم فى السماء فترجع مخضبة بالدماء فيقولون : قهرنا أهل الأرض وغلبنا من فى السماء قوة وعلوا. قال: فيبعث الله عز وجل عليهم نغفاً فى أقفائهم، قال: فيهلكهم، والذى نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتبطر وتشكر شكراً وتسكر سكراً من لحومهم»[٣].

السد موجود، ولكن أين مكانه ؟

ورد فى الأخبار الصحيحة مايدل على وجود السد وأنه لم يندك منذ أقامه ذو القرنين، ومن ذلك ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ فى السد قال: «يحفرونه كل يوم حتى إذا كادوا يخرقونه قال الذى عليهم ارجعوا فستخرقونه غداً، قال: فيعيده الله عز وجل كأشد ماكان حتى إذا بلغوا مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس، قال الذى عليهم: ارجعوا فستخرقونه غداً إن شاء الله تعالى واستثني، قال: فيرجعون وهو كهيئته حين تركوه فيخرقونه ويخرجون على الناس، فيستقون المياه ويفرالناس منهم»[٤]

(١) الشجر الملتف وقد فسر في الحديث.
(٢) رواه أحمد والحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.
(٣) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه الألباني.
(٤) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم.

والذى جاء فى حديث الصحيحين، أنه فتح منه جزء يسير ففزع من ذلك النبى ﷺ .

وقد ذكر ابن كثير أن مكانه فى جهة المشرق لقوله تعالي: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾[الكهف : ٩٠] ولا يُعرف مكان هذا السد بالتحديد، وقد حاول البعض التعرف على مكانه، ولا يعنينا تحديد مكان السد بل نقف عند ما أخبرنا الله تعالى به وما جاء فى الأحاديث وهو أن سد يأجوج ومأجوج موجود إلى أن يأتى الوقت المحدد لدك هذا السد وخروج يأجوج ومأجوج وذلك عند دنو الساعة كما قال تعالي: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾

[الكهف: ٩٨-٩٩] .

قال الإمام البخارى : قال رجل للنبى ﷺ : «رأيت السد مثل البرد المحبر . قال : قد رأيته».

خطأ من قال إن يأجوج ومأجوج هم التتار أو روسيا ..

خروج يأجوج ومأجوج من أشراط الساعة الكبري، التى تحدث فى آخر الزمان وقد دلت الأحاديث الصحيحة على أن خروجهم يكون بعد نزول عيسى عليه السلام وأن هلاكهم يتم ببركة دعاء المسيح عليه السلام فتستريح البلاد والعباد من شرهم ومن ذهب إلى أن يأجوج ومأجوج هم التتار أو الشعب الأصفر أو روسيا. . . . فقد جانب الصواب وتكلف ما لاعلم له به.

وممن رجح أنهم التتار الإمام القرطبى حيث قال :

«وقد خرج منهم - أى الترك - فى هذا الوقت أمم لايحصيهم إلا الله تعالى ولايردهم عن المسلمين إلا الله تعالى حتى كأنهم يأجوج ومأجوج أو مقدمتهم» وسلك الأستاذ سيد قطب نفس المسلك فرأى أن وعد الله بدك السد قد وقع وأنه قد خرج يأجوج ومأجوج وهم التتار الذين ظهروا فى القرن السابع الهجرى ودمروا الممالك الإسلامية وعاثوا فى الأرض فساداً .

ولا يُختلف على فساد ما فعله التتار، ولكن لو تركنا الواقع يفسر لنا أمارات الساعة لوجدنا أن البون شاسع والفارق كبير بين التتار وبين يأجوج ومأجوج حتى وإن اشتركا فى معنى وأصل الفساد، فالتتار أسلم منهم خلق كثير بعد ذلك وحسن إسلامه، وقد مضت قرون متطاولة على خروجهم ومن المعلوم أن الأمارات الكبرى - ويأجوج ومأجوج منها - كحبات الخرز فى النظام، يرتبط بعضها ببعض ويتبع بعضها بعض، كما سبق أن أوضحنا، فلو كان التتار هم يأجوج ومأجوج أو مقدمتهم لتتابعت العلامات فى الظهور منذ زمن طويل كخروج المهدى وظهور الدجال ونزول عيسى عليه السلام .

كيف لم يطلع عليهم الناس
رغم التطور ؟!

يقول الإمام الشنقيطى فى كتابه { أضواء البيان } جـ٤صـ١٨٥ : «والعمدة فى الحقيقة لمن ادعى أن يأجوج ومأجوج هم روسية، ومن ادعى من الملحدين أنهم لا وجود لهم أصلاً، هى حجة عقلية فى زعم صاحبها .... وصورة نظمه أن يقول : لو كان يأجوج ومأجوج وراء السد إلى الآن، لاطلع عليهم الناس لتطور طرق المواصلات، لكنهم لم يطلع عليهم أحد فهم ليسوا وراء السدَ إلى الآن .... فيقول المعترض : الربط بين المقدم والتالى غير صحيح، لإمكان أن يكونوا موجودين والله يخفى مكانهم على عامة الناس حتى يأتى الوقت المحدد لإخراجهم على الناس .

ومما يؤيد إمكان هذا ماذكره الله تعالى فى سورة «المائدة» من أنه جعل بني إسرائيل يتيهون في الأرض أربعين سنة وذلك فى قوله تعالي: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾[المائدة : ٢٦] الآية، وهم فى فراسخ قليلة من الأرض، يمشون ليلهم ونهارهم ولم يطلع عليهم الناس حتى انتهى أمد التيه، لأنهم لو اجتمعوا بالناس لبينوا لهم الطريق، وعلى كل حال، فربك فعال لما يريد.

وأخبار رسوله ﷺ الثابتة عنه صادقة، وما يوجد بين أهل الكتاب مما يخالف ما ذكرنا ونحوه من القصص الواردة فى القرآن والسنة الصحيحة - زاعمين أنه منزل فى التوراة أو غيره من الكتب السماوية، باطل يقيناً لا يعول عليه، لأن الله جل

وعلا صرح فى هذا القرآن العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد بأنهم بدلوا وحرفوا وغيروا فى كتبهم كقوله : ﴿ **يحرفون الكلم عن مواضعه** ﴾وقوله : ﴿ **تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا** ﴾. . . . بخلاف هذا القرآن العظيم، فقد تولى الله جل وعلا حفظه بنفسه، ولم يكله أحد حتى يغير فيه أو يبدل أو يحرف كما قال تعالي: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾[الحجر: ٩] .

لقد دلت الأخبار على وجود الدجال ويأجوج ومأجوج، وإذا ورد شرع الله بطل نهر معقل، فالتعويل على صحة الخبر لاعلى تطور زائف ناقص، فالكثرة يصدق عليها قول الله : ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾[الروم: ٧] .

ومازالوا يكتشفون أشياءً تحت الأرض وفى البحر، ويعلنون عن اكتشاف مجرات بملايين النجوم فى السماء من حولنا، فهل يليق أن ننفى وجود هذه الأشياء لجهلنا بوجودها ؟! وهل كان يصح نفى وجود الميكروبات قبل اختراع المجهر؟! وصدق من قال: أن علم البشرية اليوم كطفل يلعب بساحل البحر وهو يجهل أعماقه .

علم الساعة
وميعاد دك السد

قال تعالى : ﴿ **قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا** ﴾ الكهف: ٩٨-٩٩] قال القرطبى : الضمير فى ﴿ **تركنا** ﴾لله تعالى أى تركنا الجن والإنس يوم القيامة يموج بعضهم فى بعض. وقيل: تركنا يأجوج ومأجوج ﴿ **يومئذ** ﴾ أى وقت كمال السد يموج بعضهم فى بعض . واستعارة الموج لهم عبارة عن الحيرة وتردد بعضهم فى بعض، كالمولهين من همَ وخوف، فشبههم بموج البحر الذى يضطرب بعضه فى بعض .

وقيل : تركنا يأجوج ومأجوج يوم انفتاح السد يموجون فى الدنيا مختلطين لكثرتهم . قلت (أى القرطبى) : فهذه ثلاثة أقوال، أظهرها أوسطها، وأبعدها آخرها، وحسن الأول، لأنه تقدم ذكر القيامة فى تأويل قوله تعالي: ﴿ **فإذا جاء وعد ربى** ﴾ والله أعلم. وفى تفسير قوله تعالي: ﴿ **وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ** ﴾[الكهف : ٩٩] قال ابن كثير : أى الناس يومئذ أى يوم يُدك هذا السد ويخرج هؤلاء (يأجوج ومأجوج) فيموجون فى الناس ويفسدون على الناس أموالهم ويتلفون أشياءهم وهكذا قال السدى ...... قال: ذاك حين يخرجون على الناس وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال أهـ .

علمنا أن هذا السد بناه ذو القرنين (العبد الصالح) وهو غير ذى القرنين الإسكندر المقدونى فإن هذا كان كافراً، وهو متأخر عن المذكور فى القرآن وبينهما أكثر من ألفى سنة كما ذكر ابن كثير . ولا ندرى متى يُدك السد ويخرج يأجوج ومأجوج، كما لا ندرى متى تقوم الساعة، فذلك من الغيب الذى لايعلمه إلا الله، فلم يُطلعَ عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً كما قال تعالي:

﴿ **يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا** ﴾[الأحزاب : ٦٣] .

سبحانه : ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا** ﴾ [النازعات: ٤٢-٤٤].

وجبريل ورسول الله ﷺ لايعلمان متى تقوم الساعة ولذلك لما سأل جبريل النبي ﷺ عن الساعة قال : «ما المسئول عنها بأعلم من السائل»[1] . وكذلك عيسى عليه السلام لايعلم متى تقوم الساعة مع أنه ينزل قرب قيامها وهو من علامات الساعة الكبرى . فعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى قال: فتذاكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى ابراهيم فقال : لا علم لى، فردوا الأمر إلى موسى فقال : لا علم لى بها فردوا الأمر إلى عيسى فقال : أما وجبتها فلا يعلمها أحد إلا الله، ذلك وفيما عهد إلىَّ ربى عز وجل أن الدجال خارج قال : ومعى قضيبان، فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص قال: فيهلكه الله»[2] . وقد عبر القرآن بقرب قيام

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أحمد وابن ماجه والحاكم وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

الساعة فقال تعالي: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ① ﴾ [القمر] وقال: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ [الأنبياء : ١] وهذا قرب نسبى لما عند الله : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : ٤٧].

وقد قال ﷺ : «إنما أجلكم - فى أجل من خلا من الأمم - ما بين صلاة العصر ومغرب الشمس»(١).

وقال أيضاً: «بعثت أنا والساعة جميعاً إن كادت لتسبقنى»(٢).

أشراط حدثت تدل على قرب وقوع الساعة

ما أكثر العلامات التى وقعت، ومن جملة ذلك :

(١) **بعثة النبى ﷺ** ، فعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «بعثت أنا والساعة كهاتين، قال : وضم السبابة والوسطي»(٣).

(٢) موت النبى ﷺ

فعن عوف بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :

«اعدد ستاً بين يدى الساعة : موتى»(٤).

(٣) فتح بيت المقدس :

للحديث السابق، وقد تم ذلك فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٤) طاعون عمواس :

فقد ورد فى الحديث السابق: «ثم موتان يأخذ فيكم كقعاصى الغنم» وكان ذلك بعد فتح بيت المقدس فى خلافة عمر، ومات فيه خلق كثير من الصحابة .

(١، ٤) رواه البخاري.

(٢) قال ابن حجر: أخرجه أحمد والطبري وسنده حسن.

(٣) رواه مسلم.

(٥)استفاضة المال والإستغناء عن الصدقة

فعن أبى موسى رضى الله عنه عن النبىﷺ قال : «ليأتين على الناس زمان يطوف الرجل فيه بالصدقة من الذهب، ثم لايجد أحداً يأخذها منه»[١]. وقد حدث ذلك فى عهد الصحابة بسبب ما وقع من الفتوح ثم فاض المال فى عهد عمر بن عبد العزيز وسيكثر المال فى آخر الزمان كما يحدث فى زمن المهدى وعيسى .

(٦) ظهور الفتن :

فعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : «استيقظ رسول اللهﷺ ليلة فزعاً يقول سبحان الله، ماذا أنزل الله من الخزائن ؟ وماذا أنزل من الفتن ؟ من يوقظ صواحب الحجرات ـ يريد أزواجه ـ لكى يصلين، رب كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة »[٢]. وأحاديث الفتن كثيرة، فقد حذر النبىﷺ أمته من الفتن وأمر بالتعوذ منها وأخبر أن آخر هذه الأمة سيصيبها بلاء وفتن عظيمة وليس هنالك عاصم إلا الإيمان بالله واليوم الآخر ولزوم جماعة المسلمين وهم أهل السنة وإن قلوا وقد ظهرت فتن كثيرة كموقعة الجمل وصفين والحرة ومقتل عثمان وظهور الخوارج، وكان منبع معظم الفتن من جهة المشرق.

ففى الحديث : «رأس الكفر من ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان يعنى المشرق»[٣].

فمن العراق وما والاها ظهر الخوارج والشيعة والباطنية والمعتزلة والجهمية والمجوس والمانوية والمزدكية والهندوسية والبوذية والقاديانية والبهائية والتتار والدجال ويأجوج ومأجوج والإلحاد، نعوذ بالله من الفتن ماظهر منها وما بطن .

(٧) اتباع سنن الأمم الماضية

فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبيﷺ أنه قال : «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتى بأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع» فقيل: يارسول الله كفارس والروم؟ فقال : «ومن الناس إلا أولئك»[٤] .

(١، ٣) رواه مسلم.

(٢، ٤) رواه البخاري.

وفى رواية عن أبى سعيد قلنا يارسول الله اليهود والنصارى قال : «فمن»[١] .

(٨) ظهور مدعى النبوة :

ففى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبيﷺ قال: «لاتقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله» .

(٩) انتشار الأمن :

فعن أبى هريرة قال : قال رسول اللهﷺ : «لا تقوم الساعة حتى يسير الراكب بين العراق ومكة لا يخاف إلا ضلال الطريق»[٢] .

وهذا قد وقع زمن الصحابة وسيكون ذلك فى زمن المهدى وعيسى عليه السلام

(١٠) ظهور نار الحجاز :

للحديث : «لاتقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضئ أعناق الإبل ببصري»[٣] . وقد ظهرت هذه النار سنة(٦٥٤) هجرية وأفاض العلماء فى وصفها.

(١١) قتال الترك :

روى مسلم عن أبى هريرة أن رسول اللهﷺ قال: «لاتقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون الترك، قوماً وجوههم كالمجان المطرقة يلبسون الشعر ويمشون فى الشعر». وقد قاتلهم المسلمون من عصر الصحابة وذلك فى أول خلافة بنى أمية والصفات التى جاءت فى وصف الترك تنطبق على التتار (المغول)، وقد كان ظهورهم فى زمن الإمام النووى، وقد دخل كثير من الترك فى الإسلام ووقع على أيديهم خير كثير.

(١٢) ضياع الأمانة :

عن أبى هريرة قال: قال رسول اللهﷺ : «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة قال كيف أضاعتها يارسول الله ؟ قال : إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[٤]. كما أخبر أنه ستكون هناك سنون خداعة يكذب فيها الصادق ويصدق

(١، ٣) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه أحمد .
(٤) رواه البخاري.

فيها الكاذب ويخون الأمين ويؤتمن الخائن ويرتفع فيها الأسافل وينطق الرويبضة وهى السفيه يتكلم فى أمر العامة .

(١٣) قبض العلم وظهور الجهل :

لما ورد فى الصحيحين عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل» ومن أشراط الساعة أن يلتمس العلم عند الأصاغر وهم أهل البدع كما قال ابن المبارك .

(١٤) كثرة الشرط وأعوان الظلمة :

الذين يتسلطون ويعذبون الناس دون وجه حق، ففى حديث النبى ﷺ لأبى هريرة : «إن طالت بك مدة أوشكت أن ترى قوماً يغدون فى سخط الله ويروحون فى لعنته فى أيديهم مثل أذناب البقر»(١) .

(١٥) إنتشار الزنا :

ففى الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : «إن من أشراط الساعة (فذكر منها) ويظهر الزنا . فتشيع الفاحشة ويظهر من يستحل الحر (الزنى) والجهر .

(١٦) إنتشار الربا :

لما ورد عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «ليأتين على الناس زمان لايبالى المرء بما أخذ المال أمن حلال أم من حرام»(٢) .

(١٧) ظهور المعازف وإستحلالها : فعن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال : «سيكون فى آخر الزمان خسف وقذف ومسخ، قيل : ومتى ذلك يارسول الله ؟ قال : إذا ظهرت المعازف والقينات»(٣) . والقينات أى المغنيات.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه البخاري. وفي رواية الطبراني: «بين يدي الساعة يظهر الربا».
(٣) رواه ابن ماجة وصححه الألباني.

(١٨) كثرة شرب الخمر واستحلالها :

فقد روى مسلم عن أنس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من أشراط الساعة» وذكر منها «ويشرب الخمر». وفى حديث الإمام أحمد : «لتستحلن طائفة من أمتى الخمر باسم يسمونها إياه»(١).

أى يسمونها مياه روحية أوكينا أو بيرة أو أم الأفراح .....

(١٩) زخرفة المساجد والتباهي بها :

فعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس فى المساجد»(٢).

قال أنس : يتباهون بها ثم لا يعمرونها إلا قليلاً، وقال ابن عباس : لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى .

(٢٠) التطاول في البنيان : مثل ناطحات السحاب والتفاخر فى طول الأبنية وعرضها وزخرفتها وقد ورد فى الحديث: «وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان»(٣)

(٢١) كثرة القتل : لحديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لاتقوم الساعة حتى يكثر الهرج، قالوا : وما الهرج يارسول الله؟ قال: القتل القتل»(٤) فلا يدرى القاتل فيم قتل؟ ولا المقتول فيم قتل؟ وانتشار الأسلحة الفتاكة والإنحلال وطيش العقول من أعظم أسباب ذلك .

(٢٢) تقارب الزمان : فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لاتقوم الساعة حتى ..... يتقارب الزمان»(٥).

وقد يكون المراد بذلك قلة البركة، أو تقارب أحوال أهله أو بسبب توفر وسائل المواصلات أو بسبب الرخاء زمن المهدى وعيسى أوقصره وسرعته سرعة حقيقية كما ورد فى النصوص أن السنة تكون كالشهر .

---

(١) صححه الألباني.

(٢) رواه البخاري.

(٣،٤) رواه مسلم.

(٥) رواه البخاري.

(٢٣) تقارب الأسواق :

لحديث : «لا تقوم الساعة حتى تظهر الفتن ويكثر الكذب وتتقارب الأسواق»[١] .

(٢٤) ظهور الشرك في هذه الأمة : فقد روى أبو داود والترمذى عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا وُضع السيف فى أمتى لم يُرفع عنها إلى يوم القيامة ولا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتى بالمشركين، وحتى تعبد قبائل من أمتى الأوثان»[٢] . وقد ورد أن الناس يعبدون اللات والعزى وذا الخلصة مرة ثانية.

(٢٥) ظهور الفحش وقطيعة الرحم وسوء الجوار لما رواه أحمد والحاكم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «لاتقوم الساعة حتى يظهر الفحش والتفاحش وقطيعة الرحم وسوء المجاورة».

(٢٦) تشبب المشيخة: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : «يكون قوم يخضبون فى آخر الزمان بالسواد كحواصل الحمام لايريحون رائحة الجنة»[٣]

وهذه كحالة البعض الذى يحلق عوارضه ويدع ما على ذقنه من الشعر، ثم يصبغه بالسواد فيغدوا كحواصل الحمام .

(٢٧) كثرة الشح : وهو أشد البخل، فعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «يتقارب الزمان وينقص العمل ويلقى الشح»[٤] .

(٢٨) كثرة التجارة : روى أحمد والحاكم عن ابن مسعود عن النبى ﷺ أنه قال: «بين يدى الساعة تسليم الخاصة وفشو التجارة حتى تشارك المرأة زوجها فى التجارة».

(٢٩) كثرة الزلازل : لحديث: «لاتقوم الساعة حتى تكثر الزلازل»[٥] .

---

(١) رواه أحمد

(٢) صححه الألباني.

(٣) رواه أحمد، وقال ابن حجر: إسناده قوي.

(٤) رواه البخاري.

(٥) رواه البخاري عن أبي هريرة.

(٣٠) **ظهور الخسف والمسخ والقذف**، فعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «يكون فى آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف، قالت : قلت يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال : نعم إذا ظهر الخبث»(١).

وأكثر ما يحدث ذلك فى الزنادقة والقدرية .

وروى الترمذى عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال : «فى هذه الأمة خسف ومسخ وقذف، فقال رجل من المسلمين : يارسول الله ومتى ذلك ؟ قال: إذا ظهرت القيان والمعازف وشربت الخمور» (٢).

(٣١) **ذهاب الصالحين وقلة الأخيار وكثرة الأشرار** : فقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ أنه قال : «يأتى على الناس زمان يغربلون فيه غربلة يبقى منهم حثالة قد مرجت عهودهم وأماناتهم واختلفوا فكانوا هكذا وشبك بين أصابعه»(٣)

(٣٢) **إرتفاع الأسافل** : ففى البخارى: «إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» وروى الطبرانى فى الأوسط : «من أشراط الساعة : أن يغلب على الدنيا لكع بن لكع» وهو الأحمق اللئيم .

(٣٣) **أن تكون التحية للمعرفة** : فلا يلقى الرجل السلام إلاعلى من يعرفه، ففى الحديث: «إن بين يدى الساعة تسليم الخاصة» (٤). والسنة إلقاء السلام على من عرفت ومن لم تعرف

(٣٤) **ظهور الكاسيات العاريات** ، فعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤسهن كأسنمة البخت المائلة لايدخلن الجنة ولايجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»(٥). وقد ورد فى بعض الروايات أن ظهور ذلك سيكون فى آخر الزمان، وهو من معجزات النبوة، فالتهتك فى الشوارع وعلى شواطئ البحر لايخفى .

(١، ٢) رواه الترمذي وصححه الألباني.
(٣) رواه أحمد والحاكم، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.
(٤) رواه أحمد وصححه الألباني.
(٥) رواه مسلم.

(٣٥) **صدق رؤيا المؤمن**: ففى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً، ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءاً من النبوة»[١]

(٣٦) **كثرة الكتابة وانتشارها** ففى حديث ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : «إن بين يدى الساعة .... ظهور القلم»[٢].

(٣٧) **اتخاذ المساجد طرقاً** : عن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول : «إن من أشراط الساعة أن يمر الرجل بالمسجد لايصلى فيه ركعتين»[٣].

وورد عنه أيضاً : «إن من أشراط الساعة أن تتخذ المساجد طرقاً»[٤].

(٣٨) **انتفاخ الأهلة** : عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «من اقتراب الساعة انتفاخ الأهلة»[٥].

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من اقتراب الساعة انتفاخ الأهلة، وأن يُرى الهلال لليلة فيقال لليلتين»[٦].

(٣٩) **كثرة الكذب وعدم التثبت في نقل الأخبار** : فعن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : «سيكون فى آخر أمتى أناس يحدثونكم مالم تسمعوا أنتم ولا أباؤكم فإياكم وإياهم»[٧].

(٤٠) **كثرة شهادة الزور وكتمان شهادة الحق**: ففى حديث ابن مسعود عن النبى ﷺ أنه قال : «إن بين يدى الساعة .... شهادة الزور وكتمان شهادة الحق[٨].

---

(١) هذا لفظ مسلم، ولفظ البخاري: «لم تكد رؤيا المؤمن تكذب».
(٢) رواه أحمد وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.
(٣) رواه ابن خزيمة وله طرق يتقوي بها كمال قال الألباني.
(٤) رواه البزار وصححه الهيثمي.
(٥) رواه الطبراني في الكبير وقال الألباني صحيح.
(٦) رواه الطبراني في الصغير. وفي صحيح الجامع الصغير: «أن يُري الهلال قبلاً لليلة».
(٧) رواه مسلم.
(٨) رواه أحمد، وصححه احمد شاكر.

(٤١) **كثرة النساء وقلة الرجال** : لقول رسول الله ﷺ : «من أشراط الساعة أن يقل العلم ويظهر الجهل ويظهر الزنا، وتكثر النساء ويقل الرجال حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد»[١]. وقد يكون ذلك بسبب كثرة الفتن والقتل فى الرجال وبسبب كثرة الفتوح فتكثر السبايا، أو قلة من يولد من الرجال.

(٤٢) **كثرة موت الفجأة** : لقول النبى ﷺ : «إن من أمارات الساعة ... أن يظهر موت الفجأة»[٢].

(٤٣) **وقوع التناكر بين الناس** : عن حذيفة رضى الله عنه قال : «سئل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال : علمها عند ربى لايجليها لوقتها إلا هو ولكن أخبركم بمشاريطها وما يكون بين يديها، إن بين يديها فتنة وهرجاً قالوا : يارسول الله الفتنة قد عرفناها فالهرج ماهو؟ قال بلسان الحبشة : القتل، ويلقى بين الناس التناكر فلا يكاد أحد أن يعرف أحداً»[٣]. ويحدث التناكر عند كثرة الفتن والمحن وكثرة القتال وانتشار الأنانية البغيضة .

(٤٤) **عود أرض العرب مروجاً وأنهاراً** : فعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال :«لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً»[٤].

وقد تفجرت فى هذا العصر عيون كثيرة وقامت عليها زراعات عديدة وهناك فكرة بجر نهر الفرات للجزيرة العربية فلعلها تخرج إلى حيز الوجود .

(٤٥) **كثرة المطر وقلة النبات** : لحديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ : «لا تقوم الساعة حتى يمطر الناس مطراً عاماً ولاتنبت الأرض شيئاً»[٥]

(٤٦) **حسر الفرات عن جبل من ذهب** : عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب يقتتل الناس عليه فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون، ويقول كل رجل منهم لعلى أكون أنا الذى أنجو»[٦].

---

(١) رواه البخاري عن أنس.
(٢) رواه الطبراني في الأوسط والضياء المقدس وحسنه الألباني.
(٣) قال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.
(٤) رواه مسلم.
(٥) رواه أحمد، وقال ابن كثير: إسناده جيد.
(٦) رواه البخاري ومسلم.

و قد سمعنا مؤخراً عن اختلاط التراب بذرات الذهب والتقاط التصاوير لجبل من ذهب عند الفرات، وعلى كل حال فالأمر سيحدث كما أخبر الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه .

(٤٧) كلام السباع والجمادات للإنس : فعن أبى سعيد الخدرى فذكر قصة الراعى الذى كلمه الذئب حتى قال : قال رسول الله ﷺ :«صدق والذى نفسى بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس ويكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله ويخبره فخذه بما أحدث أهله بعده»[(١)] .

(٤٨) تمني الموت من شدة البلاء

فعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لاتقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : ياليتنى مكانه»[(٢)] .

وتمنى الموت يكون عند كثرة الفتن وتغير الأحوال . وقال ابن مسعود : سيأتى عليكم زمان لو وجد أحدكم الموت يباع لاشتراه .

خطأ من قال أنه لم يبق على الساعة إلا الأمارات الكبرى

ظن البعض أن الساعة قد استوفت جميع الأمارات والعلامات إلا الأمارات العشر الكبرى - والتى تبدأ بظهور المهدى - وهذا الظن فى غير موضعه فما زالت علامات كثيرة لم تحدث حتى يومنا هذا .

ومن جملة هذه العلامات التي تظهر مصاحبة للأشراط الكبري أو بعدها .

(١) كثرة الروم وقتالهم للمسلمين : وفى الحديث «تقوم الساعة والروم أكثر الناس»[(٣)] . وفى الحديث : «تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله، ثم فارس فيفتحها الله، ثم تغزون الروم فيفتحها الله، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله، وقال نافع :

---

(١) رواه أحمد والترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وقال الألباني: هذا صحيح.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه مسلم عن عمرو بن العاص.

ياجابر لانرى الدجال حتى تفتح الروم»[١]. وهذا القتال يقع بالشام فى آخر الزمان، وقد وردت الأخبار بفتح القسطنطينية قرب قيام الساعة .

(٢) **خروج القحطاني** : روى أحمد والشيخان عن أبى هريرة أن رسول اللهﷺ قال : «لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه . وهذا الرجل تدين له الناس بالطاعة وتجتمع عليه وذلك عند تغير الزمان، وهذا القحطانى ليس هو الجهجاه، فالجهجاه من الموالى .

(٣) **قتال اليهود** : روى الشيخان عن أبى هريرة عن رسول اللهﷺ قال : لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهود من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر : يامسلم يا عبد الله هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله، إلاالغرقد فإنه من شجر اليهود» واليهود يكونون من جند الدجال فيقاتلهم المسلمون الذين هم جند عيسى عليه السلام ويحدث ذلك فى آخر الزمان وينطق الحجر والشجر حقيقة فيقول : يا مسلم ياعبد الله .

(٤) نفي المدينة لشرارها ثم خرابها آخر الزمان

فقد ورد فى الحديث الذى رواه مسلم عن أبى هريرة: «لاتقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارها كما ينفى الكير خبث الحديد» .

وروى البخارى عن أبى هريرة قال سمعت رسول اللهﷺ يقول: «تتركون المدينة على خير ماكانت لايغشاها إلاالعوافى - يريد عوافى السباع والطير - وآخر من يحشر راعيان من مزينة يريدان المدينة ينعقان بغنمهما فيجدانها وحشاً، حتى إذا بلغا ثنية الوداع خرا على وجوههما». وروى الإمام مالك عن أبى هريرة أن رسول اللهﷺ : «قال لتتركن المدينة على أحسن ماكانت حتى يدخل الكلب أو الذئب فيغذى (يبول) على بعض سوارى المسجد أو على المنبر، فقالوا يارسول الله فلمن تكون الثمار ذلك الزمان؟ قال : للعوافى، الطير والسباع».

وقد رجح ابن كثير أن خراب المدينة بعد وفاة المسيح ودفنه بها.

---

(١) رواه مسلم.

(٥) رفع القرآن من المصاحف والصدور :

قال ابن مسعود : «لينتزعن القرآن من بين أظهركم يُسرى عليه ليلاً فيذهب من أجواف الرجال فلا يبقى فى الأرض منه شئ»[(١)] .

قال ابن تيمية : يسرى به فى آخر الزمان من المصاحف والصدور فلا يبقى فى الصدور منه كلمة، ولا فى المصاحف منه حرف.

(٦) بعث الريح الطيبة لقبض أرواح المؤمنين :

جاء فى حديث النواس بن سمعان الطويل فى قصة الدجال ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج : «إذا بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة»[(٢)] .

فهذه الريح تكون بعد نزول عيسى وقتله الدجال وهلاك يأجوج ومأجوج .

(٧) استحلال البيت الحرام وهدم الكعبة : حدَّث أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «يبايع لرجل ما بين الركن والمقام ولن يستحل البيت إلا أهله فإذا استحلوه فلا يُسأل عن هلكة العرب ثم تأتى الحبشة فيخربونه خراباً لا يعمر بعده أبداً وهم الذين يستخرجون كنزه»[(٣)] .

وروى أحمد والشيخان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «يخرب الكعبة ذو السويقتين[(٤)] من الحبشة»

وخراب الكعبة يحدث فى آخر الزمان حين لايبقى فى الأرض أحد يقول الله الله فالحرم آمن إلى قرب قيام الساعة ومالم يستحله أهله .

---

(١) رواه الطبراني وقال ابن حجر: سنده صحيح.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه أحمد، وقال ابن كثير هذا إسناد جيد قوي، وصحح الألباني إسناده.
(٤) سميب ذلك لصغر ساقيه لأن الغالب علي سوق الحبشة الدقة والحموشة.

الأشـــراط تتتــابع ونحـــن فــي غفلــة

هناك علامات للساعة ظهرت وانقضت كانشقاق القمر وبعثة النبى ﷺ وموته ومن الأمارات مالم يحـدث بعد ـ حتى الآن ـ كظهور الدجال ونزول عـيسى عليه السلام وخروج يأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها .

وهناك عـلامات ظهـرت منذ زمن طويل وهى فى ازديـاد ثم صارت تكثـر فى بعض الأمـاكن دون بعض، ولكن نتيـجة الغفـلة والإعراض عن ذكر اللـه وغربة الدين وسط أهله وبنيـه، اعـتـبرنا ذلك مـن جملة الأشـيـاء العـادية التى لايؤبه ولايُلتفت لها، وهى من العلامات التى تدل على قرب قيام الساعة، والتى توجب علينا أهمية الإستعداد والتأهب للقاء الله .

والساعة لن تقوم بإذن الله حتى تستـوفى جميع الأمارات ـ الصغرى والكبرى ـ فتفجأ الناس فى ساعة فيموت الخلق كلهم بصيحة واحدة.

والذى يعقبه قـيام الساعة هو استحكام الأمارة والعلامـة كما فى قبض العلم وبسط الجهل بحيث تصير هذه سمة غالب أهل الوقت.

ولا يشترط أن تكون عـلامات الساعة محـرمة وممنوعة ومذمـومة بل قد تكون مباحة مـثل تطاول الناس فى البنيان وفشو المال ومشاركـة المرأة للرجل فى التجارة وتقارب الأسواق وكون خمسين امرأة لهن قيم واحد .

فالأمارات تكون بالخـير والشر والمباح والمحرم والواجب وغـيره والواجب علينا أن نتعامـل مع كل مسألة وفق الضوابط الشـرعية وأن نكون على بصيـرة من أمرنا وأمر الناس .

المدنية والتطور يتلاشى قرب قيام الساعة

من تابع أخبار الدجال ويأجوج ومأجوج وغيرها من علامات الساعة يلمس بوضوح أن الحالة قرب قيام الساعة ستختلف عن أوضاع التطور المادى الذى نعيشه اليوم فالبشرية ستعود مرة أخرى إلى القتال على الخيول واستعمال النشاب والرماح والسيوف .

ومما يدل على ذلك ما رواه مسلم بشأن يأجوج ومأجوج : «ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر وهو جبل بيت المقدس، فيقولون : لقد قتلنا من فى الأرض، هلم فلنقتل من فى السماء فيرمون بنشابهم (سهامهم) إلى السماء، فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دماً» .

وفى الحديث : «سيوقد المسلمون من قس يأجوج ومأجوج ونشابهم وأسلحتهم وأترستهم سبع سنين» [١] .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن يأجوج ومأجوج يحفرون كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذى عليهم : ارجعوا فسنحفره غداً، فيعيده الله أشد ماكان، حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذى عليهم : ارجعوا فسنحفره غداً إن شاء الله تعالى واستثنوا، فيعودون إليه، وهو كهيئته يوم تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس، فينشفون الماء ويتحصن الناس منهم فى حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع عليها الدم الذى احفظ[٢] ، فيقولون قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء فيبعث الله عليهم نغفاً فى أقفائهم فيقتلون بها، قال رسول الله ﷺ : «والذى نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن، وتشكر شكراً من لحومهم»[٣] .

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه وصححه الألباني.
(٢) اي ممتلئة دماً.
(٣) رواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه الألباني.

وفى سنن ابن ماجة، وصحيح ابن حبان، ومستدرك الحاكم، ومسند أحمد عن أبى سعيد الخدرى، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يفتح يأجوج ومأجوج، يخرجون على الناس كما قال الله عز وجل : ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾[الأنبياء:٩٦]، فيغشون الأرض وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، ويشربون مياه الأرض، حتى أن بعضهم ليمر بالنهر، فيشربون مافيه حتى يتركوه يبساً، حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر، فيقول : قد كان هنا مرة ماء، حتى إذا لم يبق من الناس إلا أحد فى حصن أو مدينة، قال قائلهم : هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم، بقى أهل السماء، قال : ثم يهز أحدهم حربته، ثم يرمى بها إلى السماء، فترجع مخضبة دماً للبلاء والفتنة، فبينما هم على ذلك، إذ بعث الله دوداً فى أعناقهم كنغف الجراد الذى يخرج فى أعناقهم، فيصبحون موتى لا يُسمع لهم حس، فيقول المسلمون: ألا رجل يشرى نفسه، فينظر ما فعل هذا العدو، قال: فيتجرد منهم محتسباً لنفسه، قد أظنها على أنه مقتول، فينزل فيجدهم موتي، بعضهم على بعض، فينادى: يامعشر المسلمين: ألاأبشروا، فإن الله قد كفاكم عدوكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم، ويسرحون مواشيهم، فما يكون لها رعى إلا لحومهم، فتشكر عنه كأحسن ما تشكر عن شئ من النبات أصابته قط».

وورد فى حديث قتال الروم : «فبينما هم كذلك إذ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك فجاءهم الصريخ : ان الدجال قد خلفهم فى زراريهم فيرفضون ما فى أيديهم، ويقبلون فيبعثون عشرة فوارس طليعة . قال رسول الله ﷺ : أنى لأعرف أسماءهم وأسماء آباءهم وألوان خيولهم، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ، أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ»(١) .

وورد أيضاًفى حديث انتصار المسلمين على الروم : «ويفتح الثلث لايفتنون أبداً، فيفتحون قسطنطينية، فبينما هم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون»(٢) .

(١ ، ٢) رواه مسلم.

والشاهد من هذا كله أن الحياة تعود بدائية، فلا قنابل ولا صواريخ ولا أسلحة فتاكة فى الحروب وذلك قرب قيام الساعة، وهذا هو القدر المتيقن الذى نطقت به النصوص كما مر بك، أما كيف يحدث ذلك، فلعل البشرية تدمر نفسها بنفسها وتعود إلى القتال بالسيوف وركوب الخيول مرة ثانية والعلم عند الله تعالي.

قول الذى عليهم ارجعوا فستخرقونه غداً إن شاء الله

ورد عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىﷺ فى السد قال : «يحفرونه كل يوم حتى إذا كادوا يخرقونه قال الذى عليهم ارجعوا فستخرقونه غداً، قال : فيعيده الله عز وجل كأشد ماكان، حتى إذا بلغوا مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس، قال الذى عليهم :

ارجعوا فستخرقونه غداً إن شاء الله تعالى واستثني، قال: فيرجعون وهو كهيئته حين تركوه فيخرقونه ويخرجون على الناس، فيستقون المياه ويفر الناس منهم»[(١)] .

وواضح من هذا أن الإستثناء (وهو قول الإنسان إن شاء الله) أرجى لصاحبه فى تحصيل مقصوده، حتى وإن كان فاسداً مفسداً كيأجوج ومأجوج ولايبعد حتى على الكافر أن ينطق بكلمة إيمانية ككلمة إن شاء الله.

وقد ذكر لنا سبحانه ماكان من بني إسرائيل حينما أمروا بذبح البقرة فقالوا : ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾[البقرة: ٧٠] وهذا استثناء منهم، وفى استثنائهم فى هذا السؤال الأخير إنابة ما وانقياد ودليل ندم على عدم موافقة الأمر .

وروى عن النبىﷺ أنه قال : «لوما استثنوا ما اهتدوا إليها أبداً»، وورد : «لو لم يستثنوا لما بيِّنت لهم آخر الأبد»[(٢)]

(١) رواه الترمذي وابن ماجة والحاكم.

(٢) أخرجه الطبري بإسناد منقطع عن ابن جريج وقتاده السدوسي عن النبيﷺ ، وروي متصلاً.

وهذه القصة دليل على أن السنن لاتعرف المحاباه ولا المجاملة، فقد ينسى المسلم أن يستثنى فتفوت المصلحة، ففى الحديث: «قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على مائة امرأة، تلد كل واحدة منهن غلاماً يقاتل فى سبيل الله ـ ولم يقل إن شاء الله ـ فما ولدت إلا واحدة منهن بشق إنسان، وقال رسول الله : لو قال إن شاء الله لولدت كل امرأة منهن غلاماً يقاتل فى سبيل الله عز وجل»[١].

وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «من حلف على يمين فقال : إن شاء الله فلا حنث عليه»[٢].

٥٥٥٥٥

(١) رواه البخاري وأحمد بلفظ متقارب.

(٢) رواه أحمد وغيره وصححه ابن حبان، وحنث في يمينه إذ لم يبر لها.

الخاتمة

قرون متطاولة مرت على بناء ذى القرنين للسد، سارت فيها الأيام والليالى بأمم كثيرة فأسلمتهم إلى ربهم وقدمت بهم على أعمالهم فهل تحس منهم من أحد أوتسمع له ركزاً، وسيأتى اليوم - بإذن الله - الذى يندك فيه السد فتخرج يأجوج ومأجوج، وكل ماهو آت فهو قريب والبعيد ماليس بآت .

قال عبد الله بن مسعود : ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾[البقرة: ٣] فهم يؤمنون أن لهم رباً قادراً يجازى على الأعمال ، فهم يخشونه فى سرائرهم وخلواتهم التى يغيبون فيها عن الناس لعلمهم باطلاعه عليهم، والغيب يدخل فيه كل ما أخبربه الرسول ﷺ مما لا تهتدى إليه العقول من أشراط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار، أى أنهم آمنوا بالقرآن ومافيه من الغيوب .

ولما كانت هذه الأمة هى آخر الأمم ومحمد ﷺ هو خاتم الأنبياء، خص الله تعالى أمته بظهور أشراط الساعة فيها، وبينها لهم على لسان نبيه ﷺ أكمل بيان وأتمه، فمن علم يقيناً أن الساعة آتية لاريب فيها فالواجب عليه أن يعملْ ويتزود بالصالحات قبل فوات الآوان وانقضاء الأجل المحدود : ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ۝٥٦ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[الزمر: ٥٦-٥٨] .

وقد أشفق الصحابة رضى الله عنهم من قيام الساعة عليهم كما جاء فى حديث النواس بن سمعان رضى الله عنه قال : «ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع، حتى ظنناه فى طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا فقال : ماشأنكم ؟» .

وقد ظهر كثير من أشراط الساعة وتحقق ما أخبر به النبي ﷺ وهذا كله من دلائل نبوته وآيات صدقه ﷺ وزيادة الإيمان واليقين الحاصلة لابد وأن تكون دافعة لمزيد من العمل الصالح والإستعداد للقاء الله، فالدنيا والآخرة حسبة واحدة وطريق واحد، ولذلك لا عجب أن ختمت قصة بناء السد بقوله تعالي: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ [الكهف: ٩٩-١٠٠] وكانوا يقولون : من لم يردعه ذكر الموت والقبور والآخرة فلو تناطحت الجبال بين يديه لم يرتدع، فقصروا آمالكم وأثبتوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء واعلموا أن من كان قبلكم كانوا يجمعون كثيراً ويبنون شديداً ويأملون بعيداً فأصبح جمعهم بوراً وبنيانهم قبوراً وأملهم غروراً .

اللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أعمارنا أواخرها وخير أيامنا يوم نلقاك.

وسبحانك اللهم ربنا وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

✪✪✪✪✪

أخي الكريم :

احرص على متابعة سلسلة قصص القرآن عظات وعبر، ففيها القدوة فى الصالحين وطريق الدعوة القويم وفيه الصبر فى الشدائد ومنها نستلهم الواقع.

هذه القصص التي قصها الله سبحانه على نبيه الكريم ليثبت بها فؤاده فى طريقه في الدعوة إلى الله، فما احوجنا نحن فى هذه الأيام إلى تلك القصص بعظاتها الشاملة.

قصة أهل الكهف

قصة صاحب الجنتين

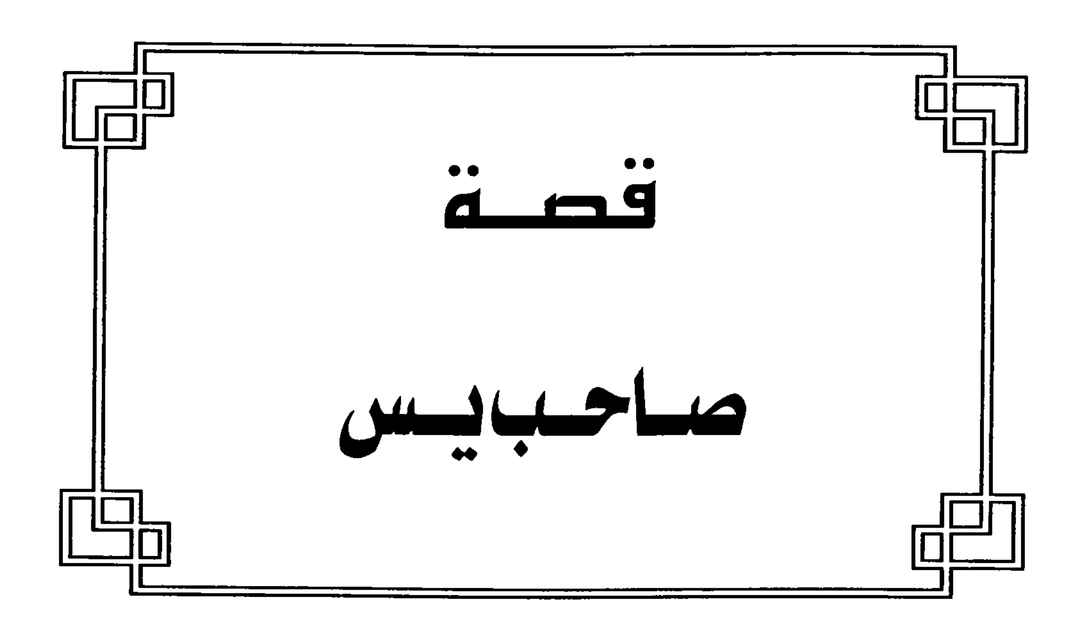
قصة موسي والخضر

قصة ذي القرنين

قصة صاحب يس

قصة مؤمن آل فرعون

قصة أصحاب الأخدود



قصة

صاحب يس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُون ﴾

مقدمة :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرورأنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

[آل عمران: ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء: ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[الأحزاب: ٧٠-٧١] .

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة؛ وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار.

وبعد، فقصة صاحب يس توضح حقيقة الإيمان وقيمة اليقين وكيف تكون الاستجابة لداعى الحق وفعل الله بأوليائه وتصور الصراع بين الحق والباطل والإيمان والكفر.

إن صاحب يس وهو الذى تعرضت السورة لقصته تنويهاً بذكره وإعلاء لشأنه... لم يذكر القرآن اسمه ولا لونه ولا طوله ولا سنه ولا بلده ... وكل ذلك طواه القرآن؛ لأنه لا فائدة ترجى من البحث فيه؛ وأسماء الأشخاص وتحديد الزمان وتعيين المكان ليست هى الهدف من قصص القرآن وإنما الهدف إظهار العلاقة بين

الخير والشر وعاقبة كل منهما، الأمر الذى يدعو العباد إلى الإيمان وفعل الخيرات ويخوفهم من الكفر وفعل المنكرات.

إن قصة صاحب يس دعوة للاستقامة على منهج الله ومتابعة طريق الأنبياء والمرسلين. لقد وقعت أحداثها فى زمن مضى؛ وتكررت هنا وهناك؛ إنها قصة الإيمان على مر العصور وكر الدهور؛ ولايمنع أن تكون أنت صاحبها الآن؛ وممن يشارك فى أحداثها؛ وإلا فالزمان والمكان والأشخاص ليسوا غرضاً ولا هدفاً من وراء ذكر القصة؛ و إنما الغرض والهدف؛ هو إقامة واجب العبودية فى كل عصر ووقت؛ ودعوة الخلائق لإسلام الوجه لله جل وعلا؛ وإبلاغ الحق للخلق ليحيىَ مَن حيَّ عن بينة ويهلك من هلك أيضاً عن بينة .

إنها تذكرة سيقت مساق القصة فى بساطة أسلوب وسلاسة عرض؛ تصل إلى شغاف القلوب من أيسر وأقصر طريق لتحقق هدفها وتبلغ مرامها بإذن الله؛ فلا يبقى بعد ذلك الأمر إلا التأسى وعلو الهمة؛ وتجديد ما اندرس من الدين عملاً بالإسلام وللإسلام؛ حتى لو فعلوا بك مافعلوا بصاحب يس، فذلك هوالفضل العظيم .

والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

وكتبه

سعيد عبد العظيم

القصه كما ذكرت في القرآن

قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾[يس: ٢٠-٢٩] .

أقوال المفسرين :

قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾[يس: ٢٠]: هوحبيب بن مرى وكان نجاراً وقيل إسكافياً؛وقيل قصاراً وقال ابن عباس ومجاهد ومقاتل: هو حبيب بن اسرائيل النجار وكان ينحت الأصنام .

وهو ممن آمن بالنبى ﷺ وبينهما ستمائة سنة كما آمن به تُبعٌ الأكبر وورقة بن نوفل وغيرهما ؛ ولم يؤمن بنبى أحدٌ إلا بعد ظهوره .

قال وهب : وكان حبيب مجذوماً، ومنزله عند أقصى باب من أبواب المدينة ؛ وكان يعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم لعلهم يرحمونه ويكشفون ضُرَّه فما استجابوا له ؛ فلما أبصر الرسل دعوه إلى عبادة الله فقال إن هذا لعجب لى، أدعو هذه الآلهه سبعين سنه تفرج عنى فلم تستطع ؛ فكيف يفرجه ربكم فى غداة واحدة ؟ قالوا نعم ربنا على ما يشاء قدير؛ وهذه لا تنفع شيئاً ولا تضر فآمن ودعوا ربهم فكشف الله ما به كأن لم يكن به بأس؛ فحينئذ أقبل على التكسب فإذا أمسى تصدق بكسبه، فأطعم عياله نصفاً وتصدق بنصف؛ فلما همّ قومه بقتل الرسل جاءهم ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾[يس: ٢٠] الآية .

وقال قتادة :كان يعبد الله فى غار، فلما سمع بخبر المرسلين جاء يسعي، فقال للمرسلين : أتطلبون على ماجئتم به أجر؟ قالوا: لا ما أجرنا إلاعلى الله.

قال أبوالعالية: فاعتقد صدقهم وآمن بهم وأقبل على قومه ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾[يس: ٢٠-٢١] أي: لوكانوا متهمين لطلبوا منكم المال. ﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[يس: ٢١] : فاهتدوا بهم .

﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾[يس: ٢٢] قال قتادة : قال له قومه أنت على دينهم؟ فقال : ﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾[يس: ٢٢]: أى خلقنى .

﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[يس: ٢٢]: وهذا احتجاج منه عليهم . وأضاف الفطرة إلى نفسه لأن ذلك نعمة عليه توجب الشكر؛ والبعث إليهم: لأن ذلك وعيد يقتضى الزجر، فكأن إضافة النعمة إلى نفسه أظهر شكراً؛ وإضافة البعث إلى الكافر أبلغ أثراً.

﴿ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾[يس: ٢٣]: يعنى أصناماً .

﴿ إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ ﴾[يس: ٢٣] يعنى ما أصابه من السقم. ﴿ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ ﴾[يس: ٢٣] يخلصونى مماً أنا فيه من البلاء يعنى إن فعلت ذلك . ﴿ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾[يس: ٢٤] أى خسران ظاهر . ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾[يس: ٢٥].

قال ابن مسعود: خاطب الرسل بأنه مؤمن بالله ربهم. ومعنى ﴿ فَاسْمَعُونِ ﴾: أى فاشهدوا أى كونوا شهودى بالإيمان. وقال كعب ووهب: إنما قال ذلك لقومه إنى آمنت بربكم الذى كفرتم به .

وقيل : إنه لما قال لقومه: ﴿ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾[يس: ٢٠-٢١]، رفعوه إلى الملك وقالوا: قد تبعت عدونا فطول معهم الكلام ليشغلهم بذلك عن قتل الرسل؛ إلى أن قال: ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴾[يس: ٢٥] فوثبوا عليه فقتلوه .

قال ابن مسعود : وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُه [أمعاؤه] من دبره وألقى فى بئر وهى الرَّسُّ وهم أصحاب الرس ،وفى رواية أنهم قتلوا الرسل الثلاثة. وقال السدى رموه بالحجارة وهو يقول : اللهم اهد قومى حتى قتلوه .

﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾[يس: ٢٦]، وذلك لما قُتل .

قال قتادة: أدخله الله الجنة وهو فيها حي يرزق؛ أراد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[آل عمران: ١٦٩]

﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾[يس: ٢٦-٢٧] تمنى أن يعلموا بحاله ليعلموا حسن مآله وحميد عاقبته، وليؤمنوا مثل إيمانه فيصيروا إلى مثل حاله .

قال ابن عباس : نصح قومه حياً و ميتاً . فلما قُتل حبيب غضب الله له وعجل النقمة على قومه فأمر جبريل فصاح بهم صيحة فماتوا عن آخرهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾[يس: ٢٨]: أى ما أنزلنا عليهم من رسالة ولا نبى بعد قتله .

قال قتادة ومجاهد والحسن: أى لم أحتاج فى هلاكهم إلى إرسال جنود ولا جيوش ولاعساكر بل أهلكتهم بصيحة واحدة؛ قال معناه ابن مسعود وغيره ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ تصغير لأمرهم ؛ أى أهلكناهم بصيحة واحدة من بعد ذلك الرجل.

التناسب بين الآيات

سورة يس مكية بالإجماع . وهى ثلاث وثمانون آية، إلا أن فرقة قالت : أن قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾[يس: ١٢]نزلت فى بنى سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسول ﷺ وقد تناولت السورة مواضيع أساسية ثلاثة وهى الإيمان بالبعث والنشور، وقصة أهل القرية، والأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين .

ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن العظيم على صحة الوحى وصدق رسالة محمد ﷺ ثم تحدثت عن كفار قريش الذين تمادوا فى الغى والضلال وكذبوا سيد الرسل صلوات الله وسلامه عليه؛ فحق عليهم عذاب الله وانتقامه.

ثم ساقت قصة أهل القرية «أنطاكية» الذين كذبوا الرسل؛ لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحى والرسالة، على طريقة القرآن فى استخدام القصص للعظة والاعتبار.

قال تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ⑬ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ⑭ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ⑮ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ⑯ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ⑰ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ⑱ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾[يس: ١٣-١٩] .

ثم تعرضت السورة لموقف الداعية المؤمن «حبيب النجار ـ صاحب يس» الذى نصح قومه فقتلوه، فأدخله الله الجنة ولم يمهل المجرمين بل أخذهم بصيحة الهلاك والدمار.

وتحدثت السورة بعد ذلك عن دلائل الوحدانية والقدرة؛ وانتقلت للحديث عن القيامة وأهوالها لتختم بالحديث عن الموضوع الأساسى وهو موضوع :

« البعث والجزاء »

﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

وأنت لوتأملت لوجدت تناسباً بين الآيات التى تعرضت لقصة صاحب يس والآيات قبلها وبعدها . . فقبلها تحدثت الآيات عن قصة المرسلين مع أصحاب القرية وكيف واجهوا دعوة الهداية والخير بتشاؤم وتكذيب ؛ ثم قتل المرسلين الثلاثة ولكن الدعوة لم تنته، إذ جاء صاحب يس متابعاً للمرسلين وداعياً أهل القرية للدخول فى دين رب العالمين ؛ ولذلك تواصلت الآيات وتناسبت. فلما أخذوا وقتلوا، أهلكهم ربنا جل وعلا بالصيحة وأعقب ربنا القصة بقوله: ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[يس: ٣٠] .

فالتكذيب هو هو مع المرسلين وأبنائهم ويا لها من حسرة وخيبة على هؤلاء المستهزئين الذين بدلوا الإيمان بالكفر والسعادة بالشقاوة وأوردوا أنفسهم موارد الهلكة قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾[يس: ٣١] .

وقد تناسبت القصة أيضاً مع بداية السورة ففيها تعريض بكفار قريش حيث كذبوا سيد المرسلين ولم يتعظ هؤلاء المشركون بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل، فدعوة المرسلين وصاحب يس لم تختلف عن دعوة الرسول ﷺ .

كما ارتبطت القصة بخاتمة السورة ارتباطاً واضحاً، فالخلق خلقه والعبد عبده وليس شئ يخرج عن سلطانه وقهره، خلق الخلق وأحصى كل شئ عدداً وهو المبدئ المعيد قال تعالي : ﴿ **أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ** ﴾[يس: ٨١]، فكيف نستنكف عن عبادته ونكذب رسله وأولياءه .

قال تعالي: ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾[يس: ٨٢]، له الخلق والأمر سبحانه . أحيا صاحب يس حياة الكرامة بعد موته، وأهلك أعداءه بصيحة لم تُشفع بثانيةً قال تعالي: ﴿ **فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾[يس: ٨٣] فاحذروا سخطه وأليم عقابه وأقيموا حياتكم وفق منهجه سبحانه.

والسورة سُميت «سورة يس » لأن الله تعالى افتتح السورة الكريمة بهذين الحرفين «الياء والسين» للتنبيه على إعجاز القرآن؛ وقد ارتبطت قصة الداعية المؤمن باسم السورة فأطلق عليه اسم «صاحب يس» .

هل القصة والسورة بضاعة للموتى؟!!!

لقد صار كثير ممن ينتسب لدين الله وكأن القرآن يناديهم من مكان بعيد ،من يوم بدر وأحد .

قال تعالى : ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾[آل عمران: ١٤٤] .

« **سورة يس**» لايقرأ بها إلا على الموتى وفى المقابر. والقرآن لا يُحرص عليه إلا فى الأربعين والسنوية!! وعمل الختمة للميت؛ والمصاحف على كثرتها لتزيين المنازل والمكاتب والسيارات، إلى غير ذلك من صور الإهمال والهجران لكتاب الله ولآياته البينات .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾
[الفرقان : ٣٠]

أين الحرص على إقامة حياتنا الخاصة والعامة وفق شرع الله؟ أين تطبيق هذة الآيات فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق، والبيت والسوق والحرب والسلم والبيع والشراء . . . آية واحدة تكفى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد؛ سورة واحدة كسورة يس أوغيرها فيها من العظات والعبر والدعوة لتوحيد الله جل وعلا؛ ما يجعلنا نرتدع ونيب لخالق الأرض والسموات . قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[القمر:١٧] .

طالع قوله سبحانه فى بدايه سورة يس : ﴿ يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ ، فهل انتفعنا بهذه النذارة ؟

ثم بعد آيات تقرأ قوله سبحانه :﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾[يس: ١١]، فهل انتفعنا بالبشارة؟

ثم يأتى قوله جل وعلا : ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[يس: ٧٠]، أى لينذر بهذا القرآن من كان حى القلب مستنير البصيرة وهم المؤمنون لأنهم المنتفعون به ﴿ وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ، أى وتجب كلمة العذاب على الكافرين لأنهم كالأموات لا يعقلون ما يُخاطبون به، أين ذلك كله ممن لايعرف عن سورة يس أو [عدية يس] إلا أنها يُستخرج بها الأشياء المسروقة!!

ما أعظم الفرق بين أمسنا ويومنا وما أشد غربة أمتنا وبُعْد المسلمين عن دينهم وكتاب ربهم .

تمييز الغث من السمين فيما ورد بشأن سورة يس

حديث : «من دخل المقابر فقرأ سورة « **يس**» خفف الله عنهم وكان لهم بعدد من فيها حسنات» قال عنه الألباني: لا أصل له فى شئ من كتب السنة.

والسيوطى لما أورده فى شرح الصدور لم يزد فى تخريجه على قوله : أخرجه عبد العزيز صاحب الخلال بسنده عن أنس! وعد قراءة « **يس**» على المقابر من جملة البدع ». كما ذكر الشيخ الألبانى فى كتابه أحكام الجنائز ص١١ : «أن قراءة سورة يس عند المحتضر لم يصح فيه حديث» . وقد نقل كثير من المفسرين كالقرطبى وابن كثير والشوكانى. . . أحاديث كثيرة فى فضائل هذه السورة؛ ومن ذلك :

ما رواه أبوهريرة قال : قال ﷺ : «من قرأ يس فى ليلة أصبح مغفوراً له، ومن قرأ حم التى يُذكر فيها الدخان أصبح مغفوراً له» قال ابن كثير : إسناده جيد وحديث: «اقرءوها على موتاكم» يعنى يس. رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائى فى اليوم والليلة وابن ماجه .

قال الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ : ولهذا قال بعض العلماء من خصائص هذه السورة أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسره الله، وكأن قراءتها عند الميت لتنزل الرحمة والبركة وليسهل عليه خروج الروح والله تعالى أعلم .

قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان قال : كان المشيخة يقولون إذا قرئت يعنى يس عند الميت خفف الله عنه بها .

وقال البزار: حدثنا سلمة بن شبيب حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال النبى ﷺ : «لوددت أنها فى قلب كل إنسان من أمتى» (يعنى يس) أهـ .

وقد ساق الترمذى حديث أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن لكل شئ قلباً وقلب القرآن يس؛ ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشرة مرات» ثم قال : هذا حديث غريب لانعرفه إلامن حديث حميد بن عبد الرحمن، وهارون أبو محمد شيخ مجهول.

وفى الباب عن أبى بكر الصديق ﷺ ولايصح لضعف إسناده؛ وأخرج الطبرانى وابن مردويه قال السيوطى بسند ضعيف عن أنس قال: قال الرسول ﷺ : «من داوم على قراءة يس كل ليلة ثم مات مات شهيداً».

القصة فى القرآن

قصص القرآن هى الآيات البينات التى صورت الوقائع وسجلت الأحداث وظروفها وملابساتها ونزل فيها وحى السماء ببيان أمر الله وحكمه وهداية وشفاءً وإعجازاً وتثبيتاً وتبشيراً وإنذاراً وعقيدة وشريعة وتفصيلاً لكل شئ وفى ذلك

يقول تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[يوسف: ١٠٩-١١١] .

وقد حكى لنا القرآن قصصاً كثيراً منه ما كانت أحداثه على عهد النبى ﷺ كقصة بدر وأحد والأحزاب وحديث الإفك وقصة المجادلة؛ ومنه ما حدث فى الأمم السابقة؛ فقد ذكر لنا القرآن قصص الأنبياء وما كان من شأنهم مع أممهم وتتبع آثار كل قوم وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه، ومنه ماهو مفرد لم يتكرر كقصة أصحاب الكهف وصاحب يس وقصة أصحاب الجنة ووصايا لقمان لابنه؛ أما القصص المكرر فهو مستفيض؛ فقد وردت قصة إبراهيم ونوح وعاد وثمود ولوط وشعيب وموسى وهارون وعيسى فى أكثر من موضع من كتاب الله، ثم القصص القرآنى بنوعيه الإسلامى وقصص الأولين مستمر بطول القرآن وعرضه، من أوائل البقرة إلى آخر ورقة فى المصحف الشريف .

ولو تتبعنا ما صح ورجح من أسباب النزول لوجدنا صبغة القصص غالبة وراء أكثر الآيات؛ وكأن معظم القرآن قصصاً؛ إما بالنص أو بسبب النزول؛ فإذا كان لابد من إبلاغ الحق للخلق؛ فإن الأسلوب القصصى من أنفع الأساليب؛ والقصص القرآنى . . . ومنه قصة صاحب يس تصل إلى شغاف القلوب من أيسر طريق .

القصص القرآنى كله حق لا خيال فيه

القصص مأخوذ من القص، وهـو تتبع الأثر قال تعالى : ﴿ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾[الكهف: ٦٤] أى رجعا يقصان الأثر الذى جاءا به .

وقال سبحانه على لسان أم موسي: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾[القصص: ١١]، أى تتبعى أثره حتى تنظرى من أخذه . والقصص كذلك الأخبار المتتابعة، قال تعالي: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾[آل عمران: ٦٢] .

وقال سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ ﴾ [يوسف: ١١١]. والقصة: الأمر والخبر، والشأن والحال.

وقصص القرآن كله حق لا خيـال فيه، قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾[الكهف: ١٣]. وقـال سبـحـانه : ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ﴾[القصص: ٣] .

ويقـول سبـحـانه: ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾[الإسراء: ١٠٥]. وهذا مما يفترق به القـصص القرآنى عن هذا القصص الذى يؤلفه الناس مـن بنات عقولهم ويتخـيلون وقائعه وأحـداثه، ولسنا فى حاجـة إلي القصص الخيـالي المكذب قال تعالي: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾[المائدة: ٣] .

وقد كان على بن أبى طالب رضى الله عنه يأمر بإخراج القُصّاص من المساجد، وهم الذين كانوا يروون الأقاصيص المكذوبة لترغيب الناس أو لترهيبهم.

ولايجوز تربية أبناء المسلمـين على الخرافات والشعوذة والخزعـبلات الموجودة فى القصص الخـيالى مـثل ميكى ماوس وبطوط. . . فـهذا القـصص من شأنه أن ينحرف بعـقائد الصـغار ويعودهم على الكذب والخـيالية، والـبعض يبرر لنفـسه ولأولاده بزعم الترويح والتسلية ولو تأمل لوجد أن الترويح لا يجوز أن يتم بمحرم ولا بما يستـدخل الشر والفسـاد ويطمس الفطر، وقد كـان رسول الله ﷺ يمزح ولايقول إلاحقاً وصدقاً . لقد أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم .

ومن الملاحظ أن الدروس التلقينية والإلقائية تورث الملل ولا تستطيع الناشئة أن تتابعها و تستوعب عناصرها إلا بصعوبة شديدة وإلى أمد قصير ولذا كان الأسلوب القصصى أجدى نفعاً وأكثر فائدة؛ والطفل بصفة خاصة يميل إلى سماع الحكاية ويصغى إلى رواية القصة، بل وتستوعب ذاكرته ما يُحكى له، فيحاكيه. ولذلك لاينبغى أن يغيب عنا هذا المسلك فى التربية والتعليم ومن طالع صفحة من كتاب الله فسيجد كيف اختلطت الرغبة بالرهبة والوعد بالوعيد والقصة بالموعظة، والأحكام الشرعية فى ثنايا ذلك كله .

أهداف القصص القرآني

القصص القرآنى له أهداف كبار، كل هدف منها يلح فى التكرار والمزيد من التكرار، فليس هو حكايات للتسلية، وليس مغامرات مثيرة لسد الفراغ فى النفس أو قتل فراغ الزمن ،

ومن بين هذه الأهداف :

١ - إظهار صدق النبى ﷺ فى دعوته الأمم بما أخبر به عن الأحوال الماضية عبر القرون والأجيال وقيام التحدى بذلك؛ وهذا فى حد ذاته إعجاز، فالنبى ﷺ كان أمياً وقد جاء بكتاب فيه نبأ من قبلنا وخبر من بعدنا وحكم ما بيننا. قال تعالي: ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾[العنكبوت: ٤٨]. ويقول جل وعلا: ﴿ **تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾[هود: ٤٩] .

والآيات فى هذا المعنى كثيرة تحمل فى طياتها معنى التسلية للنبى ﷺ وللعصبة المؤمنة فى دعوة لاقوا فيها التكذيب والتعذيب ومن أجلها هاجروا وفى سبيلها حاربوا وجاهدوا ،فاحتاج الأمر لتثبيت متكرر، ولذلك تكرر بعض القصص بما يتكافأ مع حجم الرسالة وعظم الأمانة ومشقة الدعوة وقسوة العناد ومرارة الجهاد، فى رحلة طويلة امتدت ثلاثة وعشرين سنة من حياة رسول الله ﷺ .

قال تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[الحج: ٤٠]، وفى بيان هذا الهدف يقول ربنا جل وعلا: ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[هود: ١٢٠] .

٢ ـ زجر الكفار وإنذارهم وتخويفهم وهو كثير فى كتاب الله تعالى ومن ذلك ما جاء فى سورة العنكبوت؛ فبعد أن قص علينا سبحانه قصصها .

قال تعالى: ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٠].

وقوله : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[فصلت: ١٣]

وقوله :﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ ﴾[القمر: ٤٣].

٣ ـ بيان أسس الدعوة، وأن الدين واحد، هو الإسلام وإنما تعددت الشرائع وشريعة الإسلام حاكمة ومهيمنة على سائر الشرائع .

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء: ٢٥] .

وما من نبى إلا وقال لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾[الأعراف: ٦٥] وسار الأتباع على خطى الأنبياء دون تبديل أو تغيير .

٤ ـ إعجاز فى إيجاز، فمن بين صور الإعجاز التى وردت فى كتاب الله تعالى الإعجاز اللغوى والبيانى.

وتكرار القصة فى القرآن يدل على هذا المعنى بكل وضوح كما فى قصة موسى وفرعون؛ فهى فى كل موضع تأتى بأسلوب يتمايز عن الآخر؛ ولا يمل الإنسان من تكرارها، وهى قصة تمثل الصراع بين الحق والباطل أتم تمثيل وقد يُذكر بعض معانيها الوافية بالغرض فى مقام وتبرز معان أخرى فى سائر المقامات؛ حسب اختلاف الأحوال بالإضافة إلى أن إيراد المعنى الواحد فى صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ فى التحدى.

ومن المعلوم أن القرآن نزل منجماً مفرقاً وعلى مكث، وبين القصة والقصة زمن؛ وكل هذا تصديق وتأكيد للإعجاز وأنه من عند الله تعالي: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[هود: ١] .

وقال تعالى : ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾[النساء: ٨٢] .

٥- الحث على مكارم الأخلاق كما فى قصة موسى مع شعيب وابنته، عندما ورد ماء مدين. فإذا لم نجد أدباً ولاتربية بعد ذلك دل هذا على أن هؤلاء قد اتخذوا القرآن مهجوراً، وأنهم لم ينتفعوا بهدى القرآن ولا قصصه.

إن هذه الأهداف التى ذكرناها تتجلى بوضوح من خلال التعرف على قصة صاحب يس .

قواعد هامة فى عرض الحوادث التاريخية

لما كان التاريخ أداة من أدوات الدعوة إلى الله وتحقيق عبوديته، وكان عبارة عن حلقات متصلة قال تعالي: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[فاطر: ٢٤]، لم ينفصل مثل هذا الفصل المريب إلى تاريخ قديم ووسيط وحديث، إذ أن البشرية ابتدأت بمرتبة هى من أعلى مراتب الهداية، فالبداية كانت بنبى الله آدم، وكان نبياً مكلماً.

ولما كانت الغاية من خلق الخلق إقامة واجب العبودية قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[الذاريات: ٥٦-٥٨] كان لابد من ربط الماضى بالحاضر، والسنن الشرعية بالسنن الكونية، والأرض بالسماء والدنيا بالآخرة. . . وبالتالى فدراسة التاريخ ترتبط ارتباطا وثيقاً بعقيدة المسلم، ومن هنا يتوجب عليه ملاحظة هذه القواعد فى الأسلوب والعرض :

(١) العقيدة الإسلامية هى الأصل والأساس الذى يرتكز عليه الحدث .

إن التركيز على معنى العقيدة لا يعنى الإخلال بالوقائع التاريخية، كما لايعنى

أيضاً أننا سنقتحم أمراً لاوجود له فالملك له مالك والخلق له خالق والعبد عبده والأمر أمره، والحلال ما أحل، والحرام ما حرم والدين ما شرع، والكون من حولنا يسير وفق نظام محكم دقيق . والناظر فى أسلوب القرآن وطريقته فى عرضه لتاريخ الأنبياء وأتباعهم سيجد تركيزاً على الوحدانية وإخلاص العبودية لله، ونبذ الشرك والمشركين وبيان تناقضهم، ويجعل القصص ونتائجه مرتبط بذلك.

إن المتابع لأحداث التاريخ سيجد أن السعادة والتمكين والأمن والأمان والنصر والرخاء مرتبط بطاعة الله والاستقامة على أمره، وأن التعاسة والشقاء والظلم والجور فى الانحراف عن منهجه سبحانه وشرعه .

قال تعالي: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴾[سبأ: ١٥-١٧] .

نظرة سريعة على دعوة صاحب يس والمرسلين من قبله ستجد تركيزاً على جانب العقيدة؛ وكما يقرر العلماء؛ فإن تقديم الأهم على المهم أمر واجب فى العلم والعمل والدعوة إلى الله . وأعظم ما اهتم به العباد هو قضية العقيدة. فالتوحيد أولاً لو كانوا يعلمون .

(٢) التركيز فى العرض على الأهداف والغايات ينبغى أن لا تشغلنا الدقائق التفصيلية فى حوادث التاريخ عن العبرة من الحدث والرؤية الشاملة له والمسلم له هدف محدد فى هذه الحياة وغاية يسعى إليها؛ ويعلم أنه مأخوذ عليه فى سمعه وبصره وسائر جوارحه ولذلك لايسمح لنفسه أن يبدد وقته فيما لا طائل تحته؛ كما لايوافق غيره على أن يعبث بعمره فيما لافائدة فيه؛ إلا أن يكون البحث فى التفصيلات متعلق به مقصد شرعى فلا بأس حينئذ، ومن أدل ما يلفت الأنظار لهذا المعنى قوله تعالي:

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٢].

يستوى فى أخـذ العبرة أن يكون عددهم ثلاثة أو خمسـة أو أقل أو أكثر، وسنهم ٢٠ أو ٢٥ سنة أو أكثـر أو أقل، ولون كلبهم أسـود أو أحمـر أوغيـر ذلك وكذلك الأمر فى قصـة صاحب يس؛ فالعبرة حـاصلة سواء كان طويلاً أوقصيـراً، أبيضاً أو أسوداً، بديناً أو نحيفاً؛ كبيراً أو صغـيراً، شريفاً أو وضيعاً، وجد هنا أو هناك فالذى يجب على المسلم هو التركيز على الأهداف والغايات و التذكير بها فى كل مناسبة.

(٣) أن يكون العرض موحياً بتحبيب الخير وتبغيض الشر .

المسلم صاحب رسالة وميزانه هو شرع الله، والشرع له حكمه على كل قول أو فعل وهو شرع شامل لكل زمان ومكان أو لكل ناحية من نواحى الحياة .

وعرض الأحداث التاريخية بأمانة والفحص والـتدقيق والنقد والتثبت لا يتعارض بحال مع الحكم على الأشيـاء بشرع الله، لابما تعارف عليه الناس أو قـررته هيئة أو استحسنه طائفـة من المؤرخين، فالحق حق مهما كان فاعله والباطل بـاطل مهما كان قائله، ولنحذر فى ذلك التفسير المادى للتـاريخ، هذا التفسير الذى يفصل الدنيا عن قضية الإيمان . فالصراع فيه لطلب الدنيا والبطولة عنده لتحقيق الوطنية والقومية. .

إن تحبيب الناس فى الخير وتبغيض الشر لهم من خلال العرض التاريخى يُعد من أعظم غايات دراسة التاريخ وثمراته، وهذا المعنى واضح كل الوضوح فى قصة صاحب يس.

(٤) إبراز دور الأنبياء وأتباعهم فى تاريخ البشرية .

الإسلام هو الدين الذى ارتضـاه ربنا للعالمين قـال تعالى : ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾[آل عمران]، ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[آل عمـران: ٨٥]. وهذا الدين هو دين آدم ونوح وإبراهيم ومـوسى وعيسى ورسول الله ﷺ ، لايقبل ربنا جل وعـلا من مخلوق سواه، ثم الأنبياء وأتباعهم فى هذه الحياة يمثلون خط الاستـقامة، وتقف بإزائه الجاهليات على تعدد أنواعها واختلاف عصورها.

والتاريخ البشرى يمثل صراعاً بين الحق والباطل، والغلبة فى النهاية والعاقبة إنما هى لحزب الرحـمن فى مواجهـة حزب الشيطان قـال تعالي: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[القصص: ٨٣].

لقد قتل المرسلون وهم يبلغون أمر الله لأصحاب القرية، ثم جاء صاحب يس يكرر لهم نفس الدعوة فقتلوه هو الآخر فماذا كانت عاقبة هؤلاء وأولئك ؟

قال تعالى عن صاحب يس: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ [يس: ٢٦]. وقال عن أصحاب القرية: ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾[يس: ٢٩] .

إن لدعوة المرسلين وأتباعهم أعظم الأثر فى تاريخ البشرية، إن كلمة الحق لا تضيع هباء ولا بد أن تترك أثرا، فلكل مقدمة نتيجة ولكل عقيدة تأثير. قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾

[آل عمران: ١٦٤].

إن دعاة الحق يريدون تطبيق شرع الله وإسلام الوجه لخالق الأرض والسموات وأعداؤهم يبغونها عوجا .

قال تعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[التوبة: ٣٢].

(٥) تحرى استعمال المصطلحات الإسلامية .

كل لفظ له مدلوله وكل مصطلح له معناه كالديمقراطية والاشتراكية و السلام العالمى والحرية والإخاء واليمين واليسار والتاريخ الحديث والشرق الأوسط . . . والمعنى الذى اشتهر لكلمة أو تعارف الناس عليه ليس بالحتم أن يكون موافقاً لشرع الله . فإذا علمنا أن كل كلمة لها وقع وتأثير واستحضرنا صورة الصراع بين الحق والباطل ومحاولة كل صاحب عقيدة أن يروج لعقيدته، وأن يستخدم أساليبه ومفاهيمه ويبث مصطلحاته وأفكاره رجاء أن تسود وتعلو ويدين الناس بها، علمنا أهمية تحرى استعمال المصطلحات الإسلامية وخصوصاً في وقت ازداد فيه ضحايا الفكر العلمانى الوافد، واشتدت فيه وطأة التغريب.

إن للمسلم لسانه الذى يصوغ به الحقائق التاريخية، قال تعالي: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾[ق:١٨] وهذه الصياغة الإيمانية تفترق كثيراً عن الصياغة الكفرية، وحتى لو قلنا إن العلم والحقائق عالمية فاللسان الذى تصاغ به ليس كذلك، وعلينا أن نضبط كل لفظ نقوله أو نسمعه بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ .

(٦) الابتعاد عن أسلوب التعميم قبل حصول الاستقراء.

عرض الحدث التاريخي يستلزم الدقة وأن تكون العبارات محددة الدلالة واضحة المعنى وأن لا نطلق حكماً عاماً على أهل بلد أوعلى أهل زمان أو على جنس من الأجناس، أو تنفى حدوث واقعة معينة، قبل حدوث الاستقراء التام؛ فصاحب يس كان رجل مغموراً لا يلتفت لمثله؛ لو وُجد فى عصرنا وخصوصاً مع الانبهار والإعجاب بالدنيا وزخرفها والانخداع بالتيسيرات المادية وغلبة الباطل والضلال وفقدان الموازين الشرعية . ولكن من ينفى وجود صاحب يس وأن قتله ترتب عليه إهلاك أصحاب القرية لتمردهم وكفرهم وشدة بغيهم وعدم ارتداعهم؟ .

إن كثرة الباطل لم تنفى وجود الخير والصلاح وإن كان المرسلون وصاحب يس قد قتلوا وتم إهلاك أصحاب القرية؛ أى أن الجميع قد انتقلوا إلى ربهم إلا أن الفارق كبير بين الفريقين ويا بُعد مابين العاقبتين فريق فى الجنة وفريق فى السعير ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين (٣٥) ما لكم كيف تحكمون﴾[القلم: ٣٥-٣٦].

صفات الداعية المؤمن عند صاحب يس

إن الدعوة الناجحة لابد أن ترتكز على أسس وتقوم على دعائم لابد من توافرها وقد ذكر ربنا جل وعلا دعوة صاحب يس فى معرض الثناء والمدح؛ فعلى كل من أراد حسن التأسى والاقتداء بأن ينظر بعين الاعتبار لهذه الصفات التى تحلى بها فى دعوته .

ومن أهم هذه الصفات :

(١) الفهم الدقيق :

الفهم فضل من الله ومرتبة من مراتب الهداية .

قال تعالي: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[الأنبياء: ٧٩] .

لقد فهم صاحب يس غايته فى الحياة، وأن له رسالة لابد من تأديتها؛ فتجافى عن دار الغرور وتعلق بالآخرة وأتى من أقصى المدينة يسعى لمواصلة مسيرة الدعوة إلى الله، فما ينبغى لهذا الخير بأن يتوقف؛ وبلغ قومه هذه الدعوة الإيمانية فما ترك هدى إلا وحثهم عليه؛ ولا شبهة تتعلق بها نفوسهم إلا وحرص على إزالتها.

﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[يس: ٢٠-٢٢].

إن حسن موازنته وتقديره؛ وقيامه بطاعة الوقت وثباته على الأمر حتى لقى ربه؛ يدل على فهم دقيق؛ إذ من المعلوم أن القلوب تضطرب وقت الشدة، وتطيش العقول وقت الفتنة؛ ولا يمسك الإيمان فى القلب إلا الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده؛ وحتى يكون الإنسان على بصيرة من أمره وأمر الناس فهو يحتاج لتوفيق وفضل ونور وهداية حتى يُلهم رشده ويسلك صراطاً مستقيماً؛ صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحُسن أولئك رفيقاً .

إن الفهم الدقيق لابد فيه من علم بمواضع الأقدام، والنفس والأعداء والأصدقاء؛ علم بشرع الله وبالحلال والحرام وبما يجوز وما لايجوز وبما يسوغ فيه الاجتهاد ومالا يسوغ، فعلى المسلم أن يستزيد من هذا العلم الشرعى النافع ليعرف موضوع دعوته وليكون فيها على بصيرة وبينة فلا يأمر إلا بالحق ولا ينهى إلا عن باطل ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[طه: ١١٤].

قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[المجادلة: ١١]، وعليه أن يتزود لرحيله ويستشعر غربته فى الدنيا ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[البقرة١٩٧]، وأن يكون دائماً بين الخوف والرجاء؛ فإذا تمكنت هذه المعانى من النفوس هيجتها لطلب الآخرة فتنشط الجوارح فى العبادة، والجهاد فى سبيل الله والدعوة إليه؛ حتى لو تطلب الأمر بذل الغالى والرخيص والنفس والنفيس .

(٢) الصدق :

الصدق خُلق فاضل تمتنع به النفس من فعل مالا يحسن ولايجمل، به تبين معادن الرجال وخصوصاً وقت الشدة، وهو من الدرجات العلي؛ قال تعالي: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣)﴾[الأحزاب].

وقال النبى ﷺ : «إن الصدق يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يُكتب عند الله صديقاً؛ وإن الكذب يهدى إلى الفجور والفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً» أخرجه الشيخان.

إن صاحب يس كان صادقاً مع ربه؛ صادقاً مع المرسلين؛ صادقاً مع نفسه؛ وصادقاً أيضاً مع أصحاب القرية الكافرين؛ لقد عَلمَ أن الإيمان بالله يترتب عليه تبعات؛ فحمل الرسالة وأدى الأمانة؛ صدق الله فصدقه؛ وتابع المرسلين ليس فقط حال حياتهم بل أيضاً بعد وفاتهم؛ ووفاء العهد من الدين، وهو أمارة صدق عظيمة وتكاد تلمح من قصة صاحب يس صدق النية والإرادة؛ فالحركات والسكنات لله جل وعلا؛ وصدق العزم فى أخذه الأمر بقوة وبلا ضعف وتردد ولذلك أثنى عليه سبحانه هذا الثناء العطر .

إن المعانى الطيبة عندما تستقر بالنفس وتتمكن من القلب؛ تأبى إلاأن تولد مثل هذا الصدق فى الأقوال والأفعال؛ لقد أتى من أقصى المدينة يسعي؛ فلم يضن بالخطوات ولم يتكاسل أو يتباطأ فى دعوة الخلق وطلب الآخرة، وكأنه كان يستعجل نهايته المحتومة ويقابل الموت غير هياب، ما أعظم الشبه بين صدق صاحب يس وصدق صحابة رسول الله ﷺ .

روى أنس أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدراً مع رسول الله ﷺ فشق ذلك على قلبه وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه أما والله لئن أرانى الله مشهداً مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع، قال فشهد أحداً فى العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال: إلى أين؟ فقال : واها لريح الجنة إنى أجد ريحها دون أحد، فقاتل حتى قتل فوجد فى جسده بضع وثمانون مابين رمية و ضربة فقالت اخته: ما عرفت أخى إلا ببنانه فنزلت تلك الآية : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[الأحزاب: ٢٣]. والحديث رواه البخارى وغيره .

(٣) أمارات الإخلاص فى دعوته

إخلاص العبد لا يعلمه إلا الله، والكل مطالب بمجاهدة نفسه حتى يكون عمله لله، فجهاده وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر . . . ينبغى أن تكون ابتغاء مرضات الله، لا عملاً لنفسه، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[البينة: ٥] .

وقال تعالي: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف: ١١٠] .

وقد حكى النبى ﷺ لأمته قصة الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة، ومنهم الذى قاتل حتى قتل؛ وكيف يؤتى به ويعرفه الله نعمه فيعرفها ويسأل ما فعلت فيها؟ فيقول: يارب قاتلت فى سبيلك حتى قتلت؛ فيقال له: كذبت ولكن ليقال عنك شهيد وقد قيل ويؤمر ويسحب على وجهه فى النار؛ وكذلك العالم والمرائى؛ وقد كان من دعاء رسول الله ﷺ : «اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً أعلمه وأستغفرك لم لا أعلمه» .

إن الإخلاص عزيز، وهو فقد رؤية الإخلاص، ومن آحس فى إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص؛ فلابد من الاستعانة بالله؛ وأن يكون عملك هنا ونظرك فى السماء؛ ولتعلم أن ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك و الإخلاص أن يعافيك الله منهما، والنفس فى سيرها إلى الله لاتتخلص من كيد الشيطان إلا إذا أخلصت، ولذلك كان بعض الصالحين يقول لنفسه: يانفس أخلصى تتخلصي، وذلك لقوله تعالي: ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** ﴾[الحجر: ٤٢] .

والإخلاص وإن كان أمراً بين العبد وربه؛ إلا أن له أمارات وعلامات؛ فما أسر عبد سريرة إلا أظهرها الله علي صفحات وجهه وفلتات لسانه، قال تعالي: ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ** ﴾ [محمد: ٣٠].

والأمارات كثيرة فى دعوة صاحب يس؛ ذلك الرجل المغمور الذى رفعه ربنا مكاناً علياً؛ وأدخله الجنة بمنه وكرمه. لقد أثنى عليه سبحانه فى مجيئه لأصحاب القرية ودعوته لهم؛ وذكر عنه قوله تعالى :

﴿ **وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ** ﴾[يس: ٢٢-٢٣] .

وقبلها ذكر لهؤلاء القوم دعوة المرسلين، وكيف أنها كانت دعوة لوجه الله ﴿ **اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾[يس: ٢١] إن العلم والإخلاص واليقين رحم موصولة بين المؤمنين فى كل عصر ووقت .

حاصر «مسلمة» حصنا فندب الناس إلى نقب منه فما دخله أحد، فجاء رجل من عرض الجيش فدخله ففتحه الله عليهم فنادى «مسلمة»: أين صاحب النقب؟ فما جاء أحد؛فنادى إنى قد أمرت الإذن بإدخاله ساعة يأتي؛ فعزمت عليه إلاجاء، فجاء رجل فقال: استأذن لى على الأمير فقال له: أنت صاحب النقب؟ قال : أنا أخبركم عنه؛ فأتى «مسلمة» فأخبره عنه؛ فأذن له فقال: إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثاً:

- ألا تسودوا اسمه فى صحيفة الخليفة .

- ولا تأمروا له بشئ.

- ولاتسألوه ممن هو.

قال: فذاك له، قال: أنا هو . فكان «مسلـمة» لايصلى بعدها صلاة إلا قال: اللهم اجعلنى مع صاحب النقب.

ما أعظم التعامل مع الله؛ وإخلاص الأمـر له؛ ونفض اليدين ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولاضراً ولاموتاً ولاحياة ولا نشوراً. فالنظر للمخلوق والتطلع له ومراءاته محبط للعمل مسـخط لله جل وعلا. وما أقرب الشبه بين صـاحب يس وأصحاب الكهف ومؤمن آل فـرعون وصاحب النقب؛ فاحـرص على التجرد لله فى قـولك وفعلك؛ وأحسن التأسي؛ وسل الله من فـضله فمن سأل الله الشهـادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مـات على فراشه كما صح بذلك الخبـر عن الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه.

ففى الحديث: «إن بالمدينة أقواماً ماقطعنا وادياً ولاوطئنا موطئاً يغيظ الكفار ولا أنفقنا نفقة ولا أصـابتنا مخمصة إلا شركـونا فى ذلك وهم بالمدينة» قالوا : وكيف ذلك يارسول الله وليسوا معنا؟ قال: «حبسهم العذر» والحديث رواه مسلم وغيره.

(٤) متـابعتـه

الدعوة النـاجحة المبـاركة، هى التى يسـتقيم فـيهـا الأتباع على هدى الأنبـياء والمرسلين فمن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم، قال تعالي :

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[الأنعام: ٩٠] وقـال سبـحانه : ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء: ٦٥]. وقال سبحانه : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾[الأحزاب: ٣٦].

ولا ينال العـبد درجة المحـبة إلا بالاتبـاع الصادق، قـال تعالي: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[آل عمران: ٣١] قال الحسن: ادعى قوم محبة الله فابتلاهم الله بهذه الآية .

فالإيمان ليس بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل وأن قوماً غرتهم أمانى المغفرة، ذهبوا ولا حسنة لهم وقالوا نحسن الظن بالله وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل.

أتى رجل للإمام مالك يقول: يا إمام إنى أريد أن أحرم فمن أين أحرم؟ فقال له: من حيث أحرم رسول الله ﷺ ، من ذى الحليفة، فقال الرجل : فإنى أريد أن أحرم من أبعد منه، فقال الإمام : لا تفعل، قال الرجل : ولما؟ قال الإمام : أخاف عليك الفتنة، فقال الرجل: وأى فتنة في ازدياد الخير، قال له الإمام : ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[النور: ٦٣] .

وقد نزلت سورة الحجرات تحض على المكارم ورعاية حقوق الأدب، فلا يجوز أن نتقدم بين يدى الله ورسوله بقول أو فعل، ولا أن نرفع أصواتنا فوق صوت رسول الله ﷺ حال حياته، ولا على سنته بعد مماته،كما لا يحل أن نجهر له بالقول كجهر بعضنا لبعض . . . والنصوص الشرعية فى هذا المعنى كثيرة وكلها تحض على الاتباع وتزجر وتنهى عن الابتداع، وعلى هذه النصوص تربى صحابة رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان، فكان عمر رضي الله عنه يقول: كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس، وقال ابن مسعود رضى الله عنه: اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم، عليكم بالأمر العتيق، وعلى هذا المنهج تربى التابعون ومن تبعهم بإحسان ، فكان الشافعى رحمه الله يقول من استحسن فقد شرع. ولذلك كان لسان حال ومقال المسلمين فى كل عصر ووقت يردد ، إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، وهذا شأن صاحب يس ، فمجيئه وإسراعه وحرصه على إبلاغ الحق للخلق وقوله: ﴿**اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾[يس: ٢٠-٢٢] لآيات تدل على متابعة صادقة لا ابتداع فيها.

(٥) الرحمة والرفق والشفقة

ينبغى على المسلم فى دعوته إلى الله أن يكون رحيماً بالخلق، رفيقاً بالمدعوين، شغوفاً عليهم ، حريصاً كل الحرص على هدايتهم، مع معرفته أن قلبه وقلوبهم بيد الله، وقد بلغ من حرص صاحب يس على نجاة أصحاب القرية أن نصحهم حياً وميتاً .

﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾

[يس: ٢٦-٢٧].

ومحبة الخير للناس تجرى من المؤمن مجرى الدم من العروق تجعله يبذل حياته ويحمل روحه على كفه، ويترك راحة بدنه، بل قد يرتحل تاركاً المال، والأهل، والوطن فى سبيل نجاته، ونجاة الناس، فهل هناك شفقة، ورحمة أعظم من دعوة تقرب من الله، وتدل على طريق الله، ويتخلص بها العبد من الكفر ، والباطل والضلال، وينجو بها من عذاب الله، ثم هو وجه كلمات هادية حانية بلا سب ولا شتم ولا ضرب . . . . بل كان رفيقاً حليماً، وما كان الرفق فى شئ إلا زانه وما نزع من شئ إلا شانه، وربنا جل وعلا رفيق ، ويحب الرفق فى الأمر كله ، ويعطى على الرفق ما لا يعطى على غيره .

للأسف لقد تغيرت المعانى وتبدلت فى حياتنا وحياة الناس فأصبحت الرحمة والشفقة بالأولاد تكمن فى شراء الفيديو، والتلفزيون لمشاهدة أفلام العنف والجنس والجريمة !!! وإقرار الفتيات على التبرج والاختلاط . . . بزعم أن كل إنسان معلق من عرقوبه !!! وبدعوى الاستمتاع بشبابهن !!! ومواجهة الإلحاد والكفر بأنها حرية شخصية وحرية فكر ورأى . . . ونصطنع الابتسامة الهادئة والدبلوماسية الفاجرة، حتى عدنا لا نغير منكراً لا بألسنتنا ولا بأيدينا، بل ألفت القلوب الضلالات واعتادت النفوس مشاهدة المنكرات .

إن الرحمة لا تتحقق إلا بالحرص على من تدعو، والشفقة الحقيقية لاتتم إلابمحبة الخير للناس فى العاجل والآجل ولذلك وصف ربنا جل وعلا نبيهﷺ بقوله : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ١٢٨] .

ومن الرحمة القول الحسن الذى لامخالفة فيه لأمر الله تعالى : ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[البقرة: ٨٣] وهذا القول متأكد فى الغضب والرضا، وقد كان أويس بن عامر القرني ﷺ يقول: نأمرهم بالمعروف وننهاهم عن المنكر فيشتموا آباءنا ويسبوا أعراضنا فوالله لا ندعهم حتى نقوم بحق الله فيهم .

(٦) الصبر والحلم

الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر، والعبد لا ينفك عن نعمة يجب عليه أن يؤدى شكرها وابتلاء يجب عليه أن يواجهه بصبر، وقد خص سبحانه فى الانتفاع بآياته، أهل الصبر، وأهل الشكر، فقال فى أربع مواضع من كتابه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[سبأ: ١٩] .

والناظر فى قصة صاحب يس يلمس فيه إيماناً صادقاً وتحلياً بمعاني الصبر واليقين ولذلك كان إماماً فى الدين، قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجده: ٢٤].

وإذا كان فعل الواجبات والانتهاء عن المحرمات والرضى بالقضاء لايتم إلا بصبر، فدعوة صاحب يس وسيرته خير شاهدعلى ذلك ، فلم يتخل عن الدعوة، وتباعد بنفسه عن أدران الشرك ، ولم يواجه الأذى بجزع أو تشكي، ولم يثبت أنه لطم خداً أوشق جيباً، بل كانت قوة إقدام نفسه مصروفة إلى ما ينفعه ، وقوة إحجامها إمساكاً عما يضره ، ولم يكن صبره سلوكاً سلبياً كهذا السلوك الذى يعيش به كثير من الناس فتولد لهم معانى الاستسلام والخضوع والمذلة، بل كان صبراً إيجابياً فيه معانى التأسى كما قال تعالي: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[الأحقاف: ٣٥] .

إن الداعية الصابر الصادق يردد بلسان حاله قبل مقاله: «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه» .

إن صاحب يس لم يكتف بالإيمان مسرعاً حاملاً الدعوة إليهم، بل واجه جهلهم بصبر عظيم، وحلم كبير، ولم يرد الانتقام منهم بعد ما قتلوه ، بل قال:

﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾

[يس: ٢٦-٢٧]

ما أعظم حظه مما كان عليه رسول الله ﷺ من صبر وحلم. فقد روى عن عبد الله بن سلام من قصة زيد بن سعنة قال : إن الله عز وجل لما أراد هدى زيد بن سعنة قال زيد: مامن علامات النبوة شئ إلا وقد عرفتها فى وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتان لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل إلا حلماً. فكنت أنطلق إليه لأخالطه فأعرف حلمه من جهله، فخرج يوماً من الحجرات - يريد النبى ﷺ - ومعه على بن أبى طالب رضي الله عنه . . . فجاءه رجل يسير على راحلته كالبدوى فقال: يارسول الله إن قرية بنى فلان أسلموا، ودخلوا فى الإسلام، وحدثتهم أنهم إن أسلموا أتتهم أرزاقهم رغداً، وقد أصابتهم سنة وشدة وقحطاً من العيش . . . وإنى مشفق أن يخرجوا من الإسلام طمعاً كما دخلوا فيه طمعاً فإن رأيت أن ترسل إليهم بشئ تعينهم به فعلت . . . فقال زيد بن سعنة : فقلت : أنا أبتاع منك بكذا أوكذا وسقاً فباعني، وأطلقت همياني وأعطيته ثمانين ديناراً فدفعها إلى الرجل وقال : أعجل عليهم وأغثهم، فلما كان قبل المحل بيوم أو يومين أو ثلاثة فخرج رسول الله ﷺ إلى جنازة بالبقيع ومعه أبو بكر وعمر فى نفر من أصحابه، فلما صلى على الجنازة ودنا من الجدار جبذت برديه جبذة شديدة حتى سقط عن عاتقة، ثم أقبلت بوجه جهم غليظ فقلت ألا تقضينى يا محمد؟ . . . فوالله ما علمتكم يا بنى عبد المطلب إلا مطل، وقد كان لى بمخالطتكم علم، قال زيد : فارتعدت فرائص عمر بن الخطاب رضي الله عنه كالفلك المستدير ، ثم رمى ببصره ثم قال: أى عدو الله أتقول هذا لرسول اللهﷺ؟ وتصنع ما أري؟ وتقول ما أسمع؟ فوالذى بعثه بالحق لولا ما أخاف فوته لسبقنى رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر فى تؤدة وسكون ثم تبسم ثم قال : لأنا وهو أحوج إلى غير هذا منك، أن تأمرنى بحسن الأداء وتأمره بحسن الاقتضاء . . . اذهب به يا عمر فاقض حقه، وزده عشرين صاعاً من تمر مكان ما روعته، فقلت: أتعرفنى يا عمر؟ قال: لا، فمن أنت، قلت : أنا زيد بن سعنة ، قال: الحبر؟ قلت: الحبر ، قال فما دعاك إلى أن تفعل برسول الله ﷺ ما فعلت؟ وتقول له ما قلت؟ قلت : ياعمر إنه لم يبق من علامات النبوة شئ إلا وقد عرفتها فى وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتان لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلاحلماً ، فقد اختبرته منه ، فأشهدك يا عمر

أننى قد رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً، وأشهدك أن شطر مالي، فإنى أكثرها مالاً ، صدقة على أمه محمد ﷺ . فقال عمر : أو على بعضهم ، فإنك لا تسعهم كلهم؟ قلت أو على بعضهم ، قال: فرجع عمر وزيد بن سعنة إلى رسول الله ﷺ فقال زيد: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فآمن به وصدقه وبايعه وشهد معه مشاهد كثيرة.

تجفيف المنابع سياسة قديمة

حرص الباطل والكفر على وأد دعوة الإسلام، وتجفيف منابع الخير، حرص قديم، لايقتصر على قتل المرسلين، ثم من بعدهم صاحب يس، حتى يسكتوا صوت الحق والهدى إلى الأبد فمن قبل استهزءوا بنبى الله نوح وكذبوه وقالوا :

﴿ **وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ** ﴾[هود: ٢٧] ووضعوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا .

وحاولوا إحراق نبى الله ابراهيم بالنار وتهدده والده بالرجم والطرد والإبعاد ﴿ **لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا** ﴾[مريم: ٤٦].

وتنادى قوم لوط : ﴿ **أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ** ﴾

[النمل: ٥٦].

كما حذر الملأ فرعون من دعوة نبى الله موسى وقالوا: ﴿ **أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ** ﴾[الأعراف: ١٢٧] .

لقد قتلوا نبى الله زكريا وابنه يحيي، وحاولوا قتل المسيح فأنجاه الله ورفعه إلى السماء. ومحاولات قريش مع رسول الله ﷺ لمنع دعوته بالترغيب والترهيب تارة أو المقاطعة الاقتصادية ثم الاستهزاء والسخرية تارة أخرى ، ثم تآمرهم على قتله تارة ثالثة ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾[الأنفال: ٣٠].

ثم لما انتقل إلى المدينة، لم ينته الصراع بل شنوا الحرب تلو الأخرى وانضاف إليهم اليهود، والمنافقون، كل ذلك رجاء منع كلمة الحق من الوصول إلى الناس .

فحرص الكفار على تجفيف منابع الإسلام حرص قديم يأخذ أشكالاً وصوراً متعددة قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾[إبراهيم: ١٣].

وشبيه بما حدث مع الأنبياء والمرسلين، يحدث مع أتباعهم كصاحب يس وأصحاب الأخدود . . . ولو انتقلنا إلى الآونة الأخيرة لوجدنا أن الحكومة السوفيتية حين هاجمت الإسلام سلكت طريقاً غير مباشر فى بداية الأمر وذلك بالقضاء على المؤسسات الإسلامية الثلاث وهي: أولاً: الأوقاف، ثانياً : المحاكم الشرعية، ثالثاً: التعليم الدينى الإسلامي.

وكانت هذه التجربة الرائدة التى سار عليها الشياطين هنا وهناك فى محاولتهم تجفيف منابع الإسلام، فمن الدعوة إلى جعل الإسلام (عصرياً) إلى الدعوة إلى العلمانية (أى فصل الدين عن الدولة) وأخيراً محاولة الإجهاز على منابع الإسلام الاقتصادية والتعليمية والتشريعية والسعي في إنهاء الكثير من شعائر الإسلام الظاهرة فهذا هو سعيهم قديماً وحديثاً ﴿ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[البقرة: ١١٨]. وهذا هو حرصهم ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾[الصف: ٨] .

انتصر صاحب يس رغم مصرعه

قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾[غافر: ٥١]، وقال سبحانه : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[الروم: ٤٧] وقال ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد: ٧]، وقال جل وعلا: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾[الصافات: ١٧١-١٧٣].

ومن المعلوم أن وعد الله لا يتخلف، والنصر حاصل حتى وإن طرد دعاة الحق أو قتلوا أو عذبوا ، وهذا النصر لا يقتصر على صورة واحدة، فمن الأنبياء من آذاه قومه، فنصره الله عليهم فأهلكهم وأقام الدين فى حياته، كموسى ومحمد عليهما

أفضل الصلاة والسلام ، ومنهم من ولاه الله الملك، وهو نصر عظيم . . . كداود، وسليمان عليهما السلام، ومنهم من آذاه قومه ، ولم يؤمنوا به سوى قليل منهم فنجاه الله ومن معه وأهلك عدوه كنوح، وهود، وصالح ، ولوط، ومنهم من قتله قومه، أو حاولوا قتله فانتقم الله له بعد حين، كيحيي، وعيسي، ومنهم من يئس من قومه فتركهم فعاقبه الله ثم عفا عنه، ولما عاد إليهم، نصره الله نصراً مؤزراً، وظهر الدين وهو يونس عليه السلام .

ومن الدعاة من قتله قومه فآمن به بعض قومه فقتلوا وحرقوا وهؤلاء هم أصحاب الأخدود الذين ثبتوا على معانى العقيدة وفهموا حقيقة الانتصار ويتضح منها كيف انتصر الغلام عندما فاز بالشهادة فى سبيل الله وانتصرت إرادته وعقيدته وفهمه وقراره عندما تحقق ما كان يتوقعه وقدم نفسه من أجله، فآمن الناس وقالوا : آمنا بالله رب الغلام، وانتصر أخيراً عندما خلد الله ذكره قدوة لمن بعده وذكراً حسناً على لسان المؤمنين حيث جعل الله له لسان صدق فى الآخرين، وكذلك الأمر بالنسبة للمرسلين الثلاثة ولصاحب يس فقد نصروا نصراً مؤزراً على الرغم من مصرعهم.

ويتمثل النصر فى الحقائق التالية :

(١) أن هؤلاء الرسل قد بلغوا رسالة الله ولم يستسلموا لشبه أهل القرية أولاً وتهديدهم ثانياً، وهذه هى مهمتهم ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[يس:١٧]، ومن أدى ماعليه فقد انتصر وفاز .

(٢) إيمان رجل من أهل القرية بهم ، وتأييده لهم علانية ، يعد نصراً وانتصاراً له ولهم .

(٣) أن قتل الداعية نصرله ولمنهجه ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾[التوبة:٥٢]، ولذلك ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾[يس:٢٦]، فتمنى أن يعلن عن فوزه وانتصاره : ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾[يس:٢٦-٢٧].

(٤) وتتويجاً لانتصارات هؤلاء الرسل وهذا الداعية جاءت النهاية المحققة ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾[يس:٢٨-٢٩] .

(٥) انتصاره على نفسه ، كما ورد عند الطبرى فقد كان يقول أثناء قتل قومه له: ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾[يس: ٢٦] وهذا من حرصه على هداية قومه ، وهكذا يكون الداعية محباً لهداية الناس ، لايحمل الحقد ولا الضغينة، ومن حرم الانتصار على نفسه فلن ينتصر على غيره .

استدراج الله العباد وإملاؤه لهم

عن أبى موسي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[هود: ١٠٢]، رواه الشيخان وغيرهما .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا ـ على معاصيه ـ ما يحب فإنما هو استدراج ثم تلا : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[الأنعام: ٤٤] .

وفى تفسير قوله تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾[القلم: ٤٤-٤٥] .

قال العلماء : يسبغ عليهم نعمه ويمنعهم شكره ، وقالوا : كلما أحدثوا ذنباً أحدث الله لهم نعمة.

إن أصحاب القرية واجهوا نعمة الله بكفر وجحود ، فلم يقيموا واجب العبودية فلما بعث فيهم المرسلون قتلوهم ، وبدلاً من أن يتوبوا تمادوا فى غيهم وضلالهم ظانين أن الأمر سيدوم لهم ، فصرعوا صاحب يس ، فكانت نهايتهم المحتومة ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾[يس: ٢٩]، ولعذاب الآخرة أشد ، وماربك بظلام للعبيد، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .

الشرع لايفرق بين المتماثلين ولايساوي بين المختلفين

من رحمة الله وعدله، أنه لم يجعل المسلم كالكافر، لا فى الحياة ولا فى الممات، قال تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[القلم: ٣٥-٣٦]، فإن تساوينا نحن وهم استحققنا من العذاب ما استحقوه ، قال تعالى بعد ما ذكر عذاب قوم لوط : ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾[هود: ٨٣]. وقد ذكرت قصة أصحاب القرية مع المرسلين وصاحب يس تسلية لرسول الله ﷺ وصحابته الكرام من جهة، وردعاً لكفار قريش ومن كان على شاكلتهم من جهة أخري، وختمت القصة ببيان هلاك أصحاب القرية ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾[يس: ٢٩] ثم أعقبها ربنا جل وعلا بقوله: ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[يس: ٣٠].

إن الذنوب التى أهلك الله بها الأمم قسمان :

معاندة الرسل وجحد رسالاتهم والإسراع فى الفجور والذنوب ، فالقسم الأول يهلك الله تعالى أصحابها ويعذبهم عذاب استئصال وإبادة، كما فعل بقوم نوح، وعاد، وثمود، ولوط، وشعيب .

أما القسم الثانى فيصابون بالمجاعات، والجوائح والأمراض، والاختلاف، والزلازل . . . . وقد يكون مع ذلك موت وقد لايكون، وعذاب الأمة المسلمة من هذا القبيل، فإن الله لايستأصلها ولايهلكها بسنة عامة كما يفعل مع الأمم السابقة ولكنه يعذبهم بأنواع عديدة متنوعة من البلاء كما وردت بذلك الأخبار.

وعموماً فالبلاء الذى يتنزل بالكافر نقمة، أما البلاء الذى يتنزل بالمؤمن فهو رحمة، إذ فيه تمحيص الخطايا والذنوب ورفع الدرجات كما يدعوه للإنابة والتوبة بعكس الكافر الذى ينزل به البلاء فشأنه كشأن البعير عقله أهله ثم حلوه فلم يدر لما عقلوه ولما حلوه، نسأل الله السلامة والعافية .

علـو الهمـة

أى همة أعلى من أن يحيا الإنسان بالحق وللحق، ويسعى جاهداً لإظهاره، ويبذل عمره وحياته فى سبيله، أى همة أعظم من تلك التى تابعت المرسلين، وسلكت طريقهم، ولم تنكص على عقبها القهقرى بعد أن رأت مصرعهم، بل أتت من أقصى المدينة تسعي، لتواجه مصيرها المحتوم .

لقد علم صاحب يس الغاية من خلق الخلق، فرأى أنه لابد من الإرتفاع لمستوى الإسلام، ولذلك كان توحيد الله جل وعلا هو بداية الأمر ونهايته ، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء: ٢٥]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل: ٣٦].

وما من نبى إلاقال لقومه : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[الأعراف: ٦٥].

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه عندما وجهه لليمن: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ماتدعوهم إليه أن يعبدوا الله ، فإذا هم عرفوا الله فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى اليوم والليلة». الحديث .

ومن المعلوم أن الكلمة التى تدخل بها فى الإسلام هى شهادة أن **لا إله إلا الله محمد رسول الله**. أى لامعبود بحق إلا الله، والتوحيد توحيدان : توحيد المرسل جل وعلا وتوحيد متابعة الرسول ﷺ ، وإذا كان رأس المعروف توحيد الله تبارك وتعالي، فإن أحط دركات المنكر ، الكفر بخالق الأرض والسموات ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[الزمر: ٦٥]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[النساء: ١١٦] .

فدعوة صاحب يس ومجيئه، ومظهره ومخبره تدل على همة عالية، بل هو العلو فى الحياة وعند الممات، إن صاحب يس لم يكن دبلوماسياً مراوغاً يعيش حياة الثعالب، ويستبيح الكذب، والغش، والخداع، ويبرر لنفسه الوسائل المنحطة من أجل غايات الوصول والكسب .

أين مثل صاحب يس الآن ؟

للأسف لقد غابت معانى القدوة والقيادة الحقة فى حث الكثيرين، وأصبحت الطموحات لكسب الدرهم والدينار، أو الهجرة إلى أمريكا وكندا !! أى لدنيا يصيبها وامرأة يتزوجها، إن أمنية الشباب الآن أن يكون لاعب كرة أو مذيعاً أو فناناً أن يكون طبيباً أو مهندساً . . . . والفتاة تريد أن تكون راقصة أو مغنية أو عارضة أزياء ولو أتى ذلك على حساب الدين وصار به ملحداً زنديقاً.

أين الآن من يهاجر لله ورسوله؟!

أين من يأتى من أقصى المدينة يسعى لدعوة الخلق باذلاً مهجته فى سبيل الله، تاركاً المال والأهل والوطن استجابة لأمر الله؟!

لا نغالى لو قلنا: إننا بحاجة لإعادة صياغة سواء أكنا رجالاً أونساءاً، كباراً أو صغاراً ، حتى نرتفع لمستوى إسلامنا فقد علمنا القرآن أن ندعو ونقول: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[الفرقان: ٧٤].

فالمؤمن إذا دعا ربه قال: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[الفرقان: ٧٤]، ولم يكتف أن يكون من جملة المتقين .

إنه علو الهمة الذى ربت عليه هند بنت عتبة ابنها معاوية رضي الله عنهما، فقد دخل عليهما يوماً أحد أقاربها وهى تحمله، فقال لها: إن عاش معاوية ساد قومه، فقالت: ثكلته إن لم يسد إلا قومه .

إن الحياة الذليلة لا قيمة لها، والعلو فى الأرض إن لم يتم علي أساس من الإيمان والعمل الصالح لا خير فيه ولذلك قال سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٩] .

إن موتى الأحياء كثيرون وكم من ميت يحيى بذكره القلوب .

أسباب للهلاك فاعتبروا يا أولي الألباب

من أهم وأعظم أسباب الهلاك: الكفر بالله، والجحود لوحدانيته، ورد دعوة رسله، والاستهزاء، والسخرية بآياته، وتعطيل شريعته، والصد عن سبيله وقتل الداعين إليه من الأنبياء وأتباعهم .

وقد وردت النصوص بتفصيل هذه الأسباب؛ ومنها:

(١) كثرة الخبث :

لما روته زينب بنت جحش رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوماً فزعاً يقول: لا إله إلا الله ويلٌ للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق باصبعه الإبهام والتى تليها؛ قالت زينب: فقلت: يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث» رواه البخارى ومسلم .

(٢) الاختلاف فى كتاب الله :

فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: هجرت (جئت مبكراً) إلى رسول الله ﷺ يوماً فسمع أصوات رجلين اختلفا فى آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ يُعرف فى وجهه الغضب؛ فقال : «إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم فى هذا الكتاب» رواه أحمد ومسلم .

(٣) كثرة السؤال والاختلاف على الأنبياء :

لحديث أبى هريرة رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : «يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجُوا؛ فقال رجلٌ : أكلّ عام يارسول الله؛ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال : لو قلتُ نعم لوجبت ولما استطعتم. ثم قال : ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشئ فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شئ فدعوه» رواه مسلم.

(٤) الغلو فى الدين:

لحديث: «إياكم والغلو فى الدين». والغلو فى الدين: هو مجاوزة الحد . وفى الحديث أيضاً: «هلك المتنطعون ثلاثاً» رواه أحمد ومسلم. والتنطع هو التعمق فى الشئ ومنه التغالى فى العبادات حتى تخرج عن قوانين الشريعة.

(٥) التنافس فى الدنيا :

لقول رسول الله ﷺ : «والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم» رواه البخارى .

(٦)الشح :

لما رواه جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة؛ واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم» رواه البخارى ومسلم .

وورد : «إياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا» رواه أبو داود والحاكم .

(٧) ظهور الربا والزنى وتعاطى الرشوة :

لحديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «ما ظهر فى قوم الربا والزنا إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله عز وجل» رواه أحمد بسند صحيح .

وفى الحديث: «ما من قوم يظهر فيهم الربا إلا أخذوا بالسنة (الجدب والقحط) وما من قوم يظهر فيهم الرّشا إلا أخذوا بالرعب» رواه أحمد .

(٨) البَخس فى الكيل والميزان ومنع الزكاة ونقض العهود وعدم تنفيذ أحكام الله :

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «يا معشر المهاجرين؛ خمس إذا ابتليتم بهن؛ وأعوذ بالله أن تدركوهن؛ لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا؛ ولم ينقصواالكيل والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم؛ ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر (المطر) من السماء ولولا البهائم لم يمطروا؛ ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله ﷺ إلا سلط الله عليهم عدوهم من غيرهم فأخذوا بعض ما كان فى أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجل ويتحروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم» رواه ابن ماجه والحاكم وسنده صحيح .

(٩) ظهـور المعاصي وعدم تغييرها :

لقوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[الأنفال: ٢٥].

وفي الحديث: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذاباً منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم» رواه أحمد والترمذي بسند صحيح.

(١٠) إقامة الحد على الضعيف وترك الشريف:

لقول رسول الله ﷺ : «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهـم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» رواه البخاري .

(١١) إتخاذ القَصَّة ووصل الشعر بغيره :

لقول معاوية وهو على المنبر وتناول قصة من شعر كانت في يد حرس : يا أهل المدينة أين علمـاءكم؛ سمعت رسـول الله ﷺ نهى عن مثل هـذه ويقول: «إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذ هذه نساؤهم» رواه البخاري ومسلم .

(١٢) مخالفة أمر رسول الله ﷺ :

لقوله تعالى : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور: ٦٣] .

وفي الحديث : «بعثت بين يدي السـاعة بالسيف حتى يعبـد الله وحده لا شريك له؛ وجعل رزقي تحت ظل رمـحي؛ وجعل الذل والصغار على من خـالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم» رواه أحمد بسند حسن، والبخاري تعليقاً.

(١٣) ترك الجهاد والإخلاد إلى الدنيا :

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا ضن الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة واتبعوا أذناب البقر وتركوا الجهاد في سبيل الله أنزل الله بهم بلاء فلم يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم» رواه أحمد.

(١٤) استحلال العرب لبيت الله الحرام :

لحديث : «يبـايع لرجل بين الركن والمقام، ولن يستـحل هذا البيت إلا أهله، فإذا استحلوه فلا تسأل عن هلكة العرب، ثم تظهر الحبشة فيخربونه خراباً لا يعمر بعده أبداً وهم الذين يستخرجون كنزه» رواه أحمد وأبو داود والحاكم.

(١٥) ولاية غلمان قريش وإمارتهم على الناس :

لحديث : «هلكة أمـتى على يد غلمة من قريش» رواه البخـاري، ورواه أحمد والنسائى بلفظ : «إن فساد أمتى على يد غلمة سفهاء من قريش».

(١٦) إذا ظهرت المعازف والمغنيات :

لحديث : «ليـشربن ناس من أمـتى الخمر يسـمونهـا بغير اسـمهـا يعزف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات؛ يخـسف بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير» رواه البخارى وأبو داود وابن ماجه .

(١٧) التكذيب بالقدر :

لحديث : «**فى هذه الأمة أو فى أمتى خسفٌ أو مسخٌ أو قذف فى أهل القدر**» رواه أحمد وابن ماجه والترمذى وقال حديث صحيح غريب.

الحق لا يعرف بكثرة ولا بقلة ولا بغنى ولا بفقر ...

على الحق نور؛ وهو أبلج؛ يقبل من كل من جاء به؛ وهو ما وافق الكتاب والسنة؛ والباطل بضـد ذلك؛ فاعرف الحق تعرف أهله واعرف الـباطل تعرف من أتاه؛ واسلك طريق الهدى ولا يضرك قلة السالكين .

ومن نظر فى دعوات الأنبياء والمرسلين؛ يجد أن الضعفاء والمساكين هم أنصار الرسل فى كل زمان ومكان؛ وهم الأسعدون بالانقياد لله تعالى ودعاته وخصوصا فى بداية الأمر؛ ولذلك قـال قوم نوح له : ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧]، وقالوا له: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] وقال كفار قريش : ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] يعنون ضعفاء المسلمين .

وساق الإمام البخارى - رحمه الله - فى كتاب بدء الوحى حديث ابن عباس من إرسال هرقل إلى أبى سفيان وسؤاله إياه عن النبىﷺ وأنه قال له : «فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؛ فقال له: بل ضعفاؤهم، قال هرقل : وهم أتباع الرسل؛ وكان هرقل حذاءً ينظر فى النجوم وعلى معرفة بالكتاب الأول». ولما جاء المشركون لرسول اللهﷺ يطلبون منه أن يطرد الضعفاء من مجلسه حتى يجالسوه هم نزل قوله تعالى : ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[الأنعام: ٥٢].

وقصتهﷺ مع ابن أم مكتوم الأعمى مشهورة. وجاء فى السنة الصحيحة أن الضعفاء والفقراء سيدخلون الجنة قبل أغنياء المسلمين بخمسمائة سنة .

فالإعتبار إنما هو بموافقة الحق لا بقوة هذا وضعف ذاك، ولا بشرف الأول ووضاعة الثانى .

قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[سبأ: ٣٤].

وقال سبحانه : ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا﴾[الأعراف: ٨٨] وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[المؤمنون: ٣٣] والملأ هم السادة والعظماء والوجهاء، ولا يكونون إلا من المترفين الأغنياء .

كما أن الحق لا يعرف بكثرة ولا بقلة لقوله سبحانه: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[الأنعام: ١١٦]، ولقوله تعالى : ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[يوسف: ١٠٣] ،ولقوله جل وعلا : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[يوسف: ١٠٣].

وقصة صاحب يس مع أهل القرية خير شاهد على ذلك .

وماكنا معذبين حتي نبعث رسولاً

لقد أهلك ربنا أصحاب القرية، وهو غير ظالم لهم وكان إهلاكهم بعد تتابع النذارة فيهم .

قال تعالي: ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾[يس: ١٤-١٧] .

فلما قتلوا المرسلين الثلاثة، أتى صاحب يس من أقصى المدينة يسعي، يواصل المسيرة، ويبشر من آمن بالجنة وينذر من كفر بالعذاب، وهذا من رحمة الله بخلقه ومن سنته فى عباده، أنه لا يعذب ولايهلك أحداً إلا إذا ذكّرهم وأنذرهم .

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾[الشعراء: ٢٠٨-٢٠٩] .

وقال تعالي: ﴿ وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[فاطر: ٢٤].

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾[القصص: ٥٩] .

لقد أخذ ربنا على الخلق العهد والميثاق أنه ربهم ومليكهم لارب غيره ولا معبود بحق سواه .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾[الأعراف: ٥٩].

ولم يكتف سبحانه بإن ركب فى العباد عقولا وأودع فيها فطراً، بل أنزل لهم الكتب وأرسل لهم الرسل ليحيى من حى عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة.

قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾

[الانعام: ١٣١] .

وفى الحديث: «لا أحد أغير من الله ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحبُ إليه المدح من الله ولذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل» رواه البخارى ومسلم والترمذى عن ابن مسعود رضي الله عنه .

وهؤلاء الرسل والدعاة على دربهم يقيمون حجج الله وبيناته على العباد، فإذا نسوا ما ذكروا به أهلكهم حينئذ بغتة وكان البأس الشديد الذى لا يُرد عن القوم المجرمين جزاءاً وفاقاً .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الأنعام: ٤٤-٤٥].

لماذا كان إهلاكهم بعد مصرع صاحب يس ولم يكن بعد قتلهم المرسلين؟!

قد يمهل الله أقواماً ويرجئ عذابهم إلى وقت ما، ويمدهم مع ذلك بالأموال والبنين ويوسع عليهم فى حياتهم؛ ويمهد لهم سبل المعاش، فيظن الجهال منهم بسنة الله أنهم على خير وأنهم ناجون غير معاقبين؛ وأن حالتهم تلك لاتوجب لهم نقمة ولا يستحقون بها بأساً، فيتمادون فى غيهم وعتوهم ولا يرفعون بأمر الله رأساً كحالة أصحاب القرية؛ وهذا من الاغترار .

قال تعالي: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[المؤمنون: ٥٥-٥٦] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾[الحج: ٤٨]

وقال تعالي: ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾[آل عمران: ١٧٨] .

وفى تفسير قوله سبحانه : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأنعام: ٤٤-٤٥] ذكر العلماء: أنه كان بين تذكيرهم

ومواجهتهم له بالإعراض والتكذيب وبين انتقام الله منهم أكثر من عشرين سنة . وقد وردت الآيات توضح أن الله تعالى قد يرفع بعض الشدائد عن هؤلاء المجرمين ليرجعوا عما هم فيه ويتوبوا إليه ويكفوا عن كفرهم وضلالهم ولكنهم كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[المؤمنون: ٧٥] . وقال تعالى في قوم موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾[الأعراف: ١٣٥] .

فمن رحمة الله بخلقه تنويع أسباب الهداية بالخير والشر كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾[الأعراف: ٩٥]

وقال تعالى: ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

[الأعراف: ١٦٨].

والحسنات هى الرخاء والخصب والعافية، والسيئات هى الجدب والبلاء والعقوبة؛ وهذا التنوع لا يجدى نفعاً مع من انطمست بصيرته، وران على قلبه، بسبب إسرافه على نفسه فى الكفر والذنوب والمعاصي؛ فهو ينظر له على أنه أمر عادى طبيعى لادخل للإيمان ولا للكفر به؛ فهم لا بالعذاب والعقاب يتأدبون ولا بالخير والرخاء يتهذبون؛ فهم فى كل أحوالهم كافرون ظالمون وبنعم الله يبطرون.

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[الأنعام: ٤٢-٤٣] .

ما أعظم حلم الله على عباده؛ وما أكثر نعمه عليهم؛ فاللهم اجعلنا من الشاكرين لنعمك المثنين بها عليك؛ وثبت قلوبنا على دينك وتوفنا مسلمين غير خزايا ولامفتونين ولا تجعلنا اللهم من هؤلاء الذين قلت فيهم: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[الأعراف: ١٧٩] .

ولاتجعلنا اللهم من هذا الصنف الذى عنيته بقولك سبحانك : ﴿وإن يروا كل آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾[الأعراف: ١٤٦] . . . . اللهم آمين.

الدنيا والآخرة حسبة واحدة

إنتقالة سريعة من حياة إلى حياة، والفارق بينهما لحظة خروج الروح، ونقلة عجيبة من دار هى سجن المؤمن إلى حياة أوسع وأرحب، تحكيها قصة صاحب يس.

هذه القصة التى تضمنت الكثير من الفوائد على الرغم من إختصارها وإيجازها فقد ذكرت فى بضع آيات بينات سريعة الإيقاع، وصفت لنا دعوة صاحب يس المباركة ومجيئه ونهايته، وكأنه كان يستحث الخطوات ليلقى حتفه كما ذكر سبحانه وتعالي: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾[يس: ٢٠]، وكأن الآيات تذكرنا بأن الأنفاس تعد والرحال تشد والعارية ترد والتراب ينتظر الخد، وعلى أثر من سلف يمشى من خلف، وما ثم إلا أمل مكذوب وأجل مكتوب، وكل نفس ذائقة الموت فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلامتاع الغرور .

من كان يتصور أن صاحب يس وهو فى الحياة والحيوية سيصير جثة هامدة بعد لحظات، وهل فات الآيات أن توضح لنا كيفية قتله ؟

كلا فالموت نهاية كل حي، ومن لم يمت بالسيف مات بغيره، ولذلك كان حرص الأفاضل على طلب معالى الأمور حتى فى الموت، ولذلك قال خالد بن الوليد رضي الله عنه : «لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى جسدى إلا ضربة سيف أو طعنة رمح وها أناذا أموت كما يموت البعير فلانامت أعين الجبناء» وقتل ابن الزبير وعلق على الخشب بعد أن خلع أذراعه نزولاً على أمر أمه أسماء رضي الله عنهم أجمعين، إنها الرفعة فى الحياة وعند الممات .

لقد قتل صاحب يس، فانتقل إلى دار الكرامة، وآن له أن يطمئن على نفسه فقال تعالي: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾[يس: ٢٦-٢٧] .

إن الحياة تمتد زمانا ومكاناً فى نظر المؤمـن، زماناً لأبد الآبدين ومكاناً لجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولاخطر على قلب بشر، ونحن فى واقع الأمر ننتقل من حياة دنيوية إلى حياة برزخية إلى حياة أخروية وكل صورة أرحب وأوسع من سابقتـها، والمؤمن فى طلبه الدار الآخرة قد يتنسم عبـير الجنة وهو مازال على ظهر هذه الأرض كأنس بـن النضرﷺ يوم أحد عندما انكشف الصـحابة وسمع أن رسول الله ﷺ قـد مات ـ وما كـان مات ـ قال : علام الحـياة بعده قـوموا فموتوا على مثل ما مات عليه ثم تبرأ إلى الله مما جاء به المشركون واعتذر إلى الله مما فعله أصحـابه وقال : واهاً لريح الجنة إنى لأجد ريحـها من دون أحد، ودخل يقاتل حتى قتلﷺ وما عرفته إلا أخته ببنانه.

ولما سمع عـمير بن الحـمام رسول اللهﷺ يقول: قـوموا إلى جنة عرضـها السموات والأرض، قال : بخ بخ فـقال له رسول اللهﷺ : علام قلت بخ بخ، فقال: لا والله يارسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال له: فإنك من أهلها وأخرج تمرات من قرنه يأكل منها ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحيـاة طويلة، فألقى بهـا ثم دخل يقاتل فـقتل رضى الله عنـه. إن صاحب يس وأنس بن النضر وعمـير بن الحمامﷺ أجمعين، إخوة بعـضهم على شاكلة بعض كانت الدنيا والآخرة فى حسهم حسبة واحدة وطريق واحد .

بل الكـل ممتحن

عندما نتأمل امتحانات الدنيا وما يحدث فيها من نجاح ورسوب وما يستتبع ذلك من فرحة وحزن وتفاوت هنا وهناك ومايسبق هذه الامتحانات من تأهب واستعداد وتهيئة وما يصاحبها من اضطراب وتخـوف . . . نجد أنها بمثابة التذكرة بالامتحان الأكبر .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾

[الكهف: ٧] .

وقال سبحانه : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[الملك: ١-٢] .

والفارق كبير بين امتحان الدنيا وامتحان الآخرة، فمعرفة العبد أنه سيقف بين يدى من لا تخفى عليه خافية يقول تعالى :

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[المجادلة: ٦] .

وأنه لن تزول قدم عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ماذا عمل فيه، وعن ماله من أين أكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسده فيما أبلاه، وأن الأمر إما جنة وإما نار

﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾[الشورى: ٧]

وهنا وهناك خلود فلا موت .

قال تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾[مريم: ٣٩-٤٠] .

وشتان بين من يؤتى كتابه بيمينه وبين من يؤتى كتابه بشماله .

قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾[الحاقة: ١٩-٢٩].

ثم لا سبيل للرجوع إلى الدنيا للإيمان والعمل الصالح كما يستدرك الطلبة فى امتحانات الدنيا بإعادة السنة أو بالدور الثانى . . . بل تأتى نفس تقول : ﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾[غافر: ١١]، وتقول الثانية كما حكى القرآن : ﴿ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾[فاطر: ٣٧]، وتأتى الثالثة تقول : ﴿ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾[الزمر: ٥٦]، وتقول رابعة : ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾[المؤمنون: ٩٩-١٠٠] .

فتأتى الإجابة : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[المؤمنون: ١٠٠] .

وكانى بصاحب يس قد علـم أنه مأخوذ عليه. وأنه موقوف ومسـئول ولاسبيل للنجاة إلا بالصـدق فأتى من أقصى المدينة يسعى . . . يسـابق الريح فى مرضات الله ويقول: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾[طه: ٨٤]، وسرعان ما انكشف الغطاء وظهرت نتيجة الامتحان فقيل له : ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾[يس: ٢٦-٢٧] ولما افـترق السعـي، وكان البون شاسعاً بين الإيمان والكفر اختلفت النهايات ونتائج الامتحانات .

قال تعالى : ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾[يس: ٢٩].

ياليتنا نعى حقائق الأشياء ونأخذ عظة وعبرة ودرساً وتذكرة من كل شئ يحدث حولنا ونطلق أبصارنا وبصائرنا فى الكون من حولنا، ياليتنا ونحن نهتم بامتحانات آخر العام نضع الموت نصب أعيننا ونتذكر السؤال فى القبر وحالة العباد عند الميزان وتطاير الصحف عند الصراط .

وياليتنا أيضا ونحن نهتم بأولادنا ونعـدهم ليكونوا أطباء ومهندسين . . . ونتعاهد أجسـادهم ونبدى النصـيحة لهـم حتى يهتـموا بدراسـتهم ونحزن لإهمـالهم فيـها ورسوبهم . . . لا يفوتـنا أن نذكرهم بأمر الآخرة وأن يكونوا عـباداً صالحين يحرصـون على طاعة ربهم ويؤدون الصـلاة فى وقتهـا ويطالعون كـتاب ربهم . . . حتى يفـوزوا بسعادة الدارين، فـإن لكل مقام مـقالاً . . . شئ من الاهتـمام بقلوبهم وقلوبنا حتى نخرج من الامتحان بسلام إلى دار السلام .

قال تعالي : ﴿الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[العنكبوت: ١-٤] .

اللهم اجعل صمتنا فكراً ونطقنا ذكراً ونظرنا عبراً .

رجل والرجال قليل

الرجولة الحقة عملة نادرة، كثيراً ما يُذكر أهلها في كتاب الله تعالى في معرض الثناء والمدح، كما في قوله تعالي: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾[الأحزاب: ٢٣].

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾[التوبة: ١٠٨]، ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾[النور: ٣٧] .

ولقد كان صاحب يس رجلاً بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان ،وبغض النظر عن اسمه ورسمه وسنه، رجل عرف غايته فلم ينشغل عنها، وأدى مهمته وأمانته بلا تفريط أو تقصير، آثر ما عند الله على مُتع الدنيا الزائلة، ارتسم الصدق على كلماته وفي أفعاله، نصح قومه حياً وميتاً وتمنى الخير لقتلته، تطهر من الأدناس، وعلم أن التوحيد طهارة لأنه اعتراف بالحق، فعمل به ودعا الناس إليه ،وأن الشرك نجاسة، لأنه جحد للحق، وهذة رذيلة وأي رذيلة فتباعد عنه وحذر الناس منه وقال: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ﴾[يس: ٢٢-٢٣] .

لقد غابت معاني الأسوة الحسنة واضمحلت معاني القدوة الطيبة، وفُرغت الكلمات من رصيدها ومحتواها، فصار الإنسان يوصف باللطف والظرف والوسامة وليس في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، وظهر شباب قُنع لاخير فيهم لا يعرفون إلا الرقص والغناء والفيلم والمسرحية والأزياء والتسريحات . . . وحدث انقسام مريب بين بعض الرجال وبعض، فهؤلاء هم رجال الدين، وأولئك هم رجال الدولة، وانفصل الدين عن الدولة وأصبح الإسلام وكأنه ينادينا من مكان بعيد من يوم بدر وأحد : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٤].

آيات بينات رددها مصعب بن عمير رضي الله عنه لحظة مصرعه يوم أحد، وذكر بها أبو بكر الصديق الصحابة رضي الله عنهم أجمعين يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونحن اليوم ما أحوجنا أن نتذكرها حتى نخلص أمرنا لله ونعمل بالإسلام وللإسلام، فيا له من دين لو أن له رجالاً، يبذلون الغالى والرخيص فى سبيله ويجددون سيرة الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم بإحسان كصاحب يس، ويعيشون حياة الرجولة الحقة، فلا يهدأ لهم بال ولا يقر لهم قرار حتى يقيمون أمر الله ويبلغون الحق للخلق، وعندهم من علو الهمة ما يرتفعون به عن السفاسف والدنايا ومايصلحون معه أن يكونوا قادة وسادة.

إن الراقصين والمغنين والزنادقة والملحدين واللاهين والعابثين . . . لايُذكرون إلا فى معرض الذم، فالقرآن لا يخلد الا ذكرى أمثال صاحب يس بينما ضرب الذكر صفحاً عن كثيرين ممن يوصفون بالرجولة ولا رجال، فقد ذهب الناس وبقى النسناس، ناس يشبهون الناس، همتهم فى تحصيل شهوات البطون والفروج، قد تركوا دينهم ورائهم ظهرياً فضلوا وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل. فاحذرهم، واسلك طريق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة ولاتغتر بكثرة الهالكين، واعرف الحق تعرف أهله واعرف الباطل تعرف من آتاه .

قال تعالى : ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[محمد: ٣٨]، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾[المدثر: ٣١] .

إيمان عمره لحظات صنع الأعاجيب

لقد سمع صاحب يس دعوة المرسلين فخالطت بشاشتها قلبه وجرت منه مجرى الدم من العروق. واستحالت الآيات سلوكاً جعلته يأتى من أقصى المدينة يسعى لدعوة هؤلاء القوم، فهل قضى عمره فى التدين والالتزام حتى استطاع أن يقف هذا الموقف الإيمانى فى مواجهة أصحاب القرية؟! وهل كان هناك فاصل بين العلم النافع والعمل الصالح فى حياته كما هى حالة الكثيرين؟ أو بمعنى آخر ما شأن من قرأ المجلدات والكتب المنهجية فى التوحيد والتفسير والفقه والسيرة . . . هل يكون أقل تديناً والتزاماً من صاحب يس؟! و متى انفصل العلم عن العمل والدعوة إلى الله؟!

إن البعض موفق ومسدد، تكفيه الآية من كتاب الله أو الحديث من أحاديث رسول الله ﷺ ومن هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ مثل أبى ذر الذى أسلم وقام يجهر بكلمة التوحيد فاجتمع عليه المشركون يضربونه حتى كادوا يقتلونه، ومثل ابن مسعود عندما سمع آيات من رسول الله ﷺ فخرج يصدع بها فى مسامع المشركين. وهكذا كان الأمر بالنسبة إلى سحرة فرعون عندما رأوا الآيات وآمنوا بنبى الله موسى صلوات الله وسلامه عليه، تهددهم فرعون وقال لهم: ﴿ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾[طه: ٧١] فقالوا له: ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾[طه: ٧٢] .

قال عبد الواحد بن زيد: عصفت بنا الريح على جزيرة فى البحر فإذا برجل يعبد صنماً، فقلنا له : أيها الرجل من تعبد؟ فأومأ بيده إلى الصنم فقلنا له : إن معنا فى المركب من يعمل هذا، قال: وأنتم من تعبدون ؟ قلنا نعبد الله تعالي، قال : ومن هو؟ قلنا : الذى فى السماء عرشه وفى الأرض سلطانه وفى الأحياء والأموات قضاؤه قال: كيف علمتم هذا ؟ قلنا: وجه إلينا رسولاً أعلمنا به، قال: فما فعل الرسول ؟ قلنا: قبضه الله إليه، قال: فهل ترك عندكم علامة ؟ قلنا : ترك عندنا كتاب الملك، قال: أرونيه؟ فأتيناه بالمصحف فقال: ما أعرف هذا؟ فقرأنا له سورة وهو يبكي، ثم قال : ينبغى لصاحب هذا الكلام ألا يعصي، فأسلم وحملناه معنا وعلمناه شرائع الإسلام وسوراً من القرآن فلما جن عليه الليل، صلينا وأخذنا مضاجعنا، فقال ياقوم الإله الذى دللتمونى عليه أينام إذا جنه الليل؟ قلنا: لايا عبد الله، هو حى لا ينام، فقال : بئس العبيد أنتم تنامون ومولاكم لاينام؟ فعجبنا من كلامه، فلما قدمنا عبدان جمعنا له دراهم وأعطيناها له، وقلنا له : أنفقها، قال: لا إله الا الله دللتمونى على طريق لم تسلكوه إنى كنت فى جزيرة فى البحر أعبد صنماً من دونه فلم يضيعني، فكيف الآن وقد عرفته، فلما كان بعد أيام أتانى آت، فقال لى إنه يعالج سكرات الموت، فجئته وقلت له: ألك حاجة؟ فقال : قد قضى حوائجى من عرفتنى به، ثم رأيته فى المنام فى القبة والجارية إلى جانبه وهو يتلو:

﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾[الرعد: ٢٤].

وقد روى لنا النبى ﷺ قصة المهدي، وفيها أن الله يصلحه فى ليلة، يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً .

ويُحكى أن الإمام البغوى ـ رحمه الله ـ عندما أراد طبع تفسيره المشهور . . . سمع برجل ببلاد الهند، توسم فيه أن يساعده على ذلك، فاستأجر سفينة ليرحل إليه وبينما هو يسير بمحاذاة شاطئ دجلة إذ رأى رجلاً يمشي، فطلب من قائد السفينة أن يحمله معه، ففعل، فسأله الرجل من أنت؟ قال : البغوي، قال: المفسر قال: نعم، فسأله عن وجهته، فقال له الرجل: ماذا قلت فى تفسير قوله تعالي: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾[الفاتحة: ٥]، فقال الإمام : قلت فيها كذا وكذا، ثم انتبه، فالسؤال لم يكن على عواهنه، بل لتوضيح أن سفر الإمام وارتحاله لهذا الغرض لا يتناسب مع علمه وتوكله ومعرفته بهذه الآية، فطلب الإمام من قائد السفينة أن يرجع . و يذكرون أنه ما مكث إلا أياماً حتى جاءه رسول الرجل الغنى يقول له إن فلاناً قد سمع بكتابك وهو يريد طبعه، فأخذه ووزنه ذهباً وأعطى الذهب للإمام البغوى وطبع الكتاب .

آية واحدة اكتفى بها هؤلاء الأفاضل وهى تكفينا بإذن الله . فإذا انضافت الآية إلى الآية، ازددنا إيماناً على إيماننا وقلنا : ﴿ **وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ** ﴾[طه: ٨٤].

غداً عند الله تجتمع الخصوم

سيعلم الظالمون حظ من نقصوا، إن الظالم ينتظر العقوبة وإن المظلوم ينتظر النصر قال تعالى : ﴿ **وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا** ﴾[الإسراء: ٣٣] .

غداً يقتص للمظلوم من الظالم، وتحيط بالظالم المظالم، وليس لمن لايرحمه الإله من عاصم قال تعالي: ﴿ **وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً** ﴾[الفرقان: ٢٧-٢٩] .

غداً يقتص ربنا من الشاة القرناء للشاة الجماء، ثم يقول: كونى تراباً ، فيومئذ يتمنى الكافر أن لوكان تراباً، ولا يظلم ربك أحداً. فهل يضيع حق صاحب يس؟ وهل لايقتص ولا ينتقم له ممن قتله ؟!

قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾[الأنبياء: ٤٧] .

بل يحبس المؤمنون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة .

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾[آل عمران: ٣٠]، وقال سبحانه: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[الإسراء: ١٣-١٤] .

يوم عظيم يقال للإنسان فيه: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً وبالكرام الكاتبين شهوداً وتستنطق فيه الجوارح، فيقول الإنسان لأعضائه بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أدافع، فلا نجاة إلا لمن رد الحقوق لأصحابها، وإن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً فاعط لكل ذى حق حقه، وتوبوا إلى الله توبة نصوحاً لعلكم تفلحون، توبة تندمون بها على ما مضى وتعزمون على عدم العودة فيه مرة أخري، تندمون بالقلب وتستغفرون باللسان وتقلعون بالجوارح، ومن كانت لأخيه عنده مظلمة من مال فليتحلل منه اليوم قبل أن لايكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات.

احذروا الظلم على أنفسكم، فالظلم ظلمات، ومن أجل ذلك حرمه الله على نفسه وجعله محرماً بين العباد فلا تظالموا قال تعالي: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

[فصلت: ٤٦] .

إن الويل غدا لمن أتى ربه كفاراً أثيماً وملحداً لئيماً، الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل الناركما قال سعيد بن جبير للحجاج بن يوسف الثقفى . بل قد يأتى العبد بصلاة وصيام وزكاة وحج ويأتى وقد سفك دم هذا وقذف هذا و وسلب مال هذا وشتم هذا فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته حتى إذا فنيت حسناته أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه ثم ألقى فى النار، وهذا هو المفلس بحق من هذه الأمة .

والمظلمة إذا كانت بين العبد وربه فهى إلى العفو أقرب، أما بين العباد فلابد من القصاص إلا أن يعفوا العبد عن حقه. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[المجادلة: ٦] كيف ينجوا من عذاب الله غداً من قتل صاحب يس والمرسلين الثلاثة من قبل، وكفر بخالق الأرض والسماوات ياحسرة على العباد وعلى كل من أضاع آخرته بدنيا لا بقاء لها ولا وفاء .

بكى عمر بن عبد العزيز ليلة فأطال البكاء فسئل عن بكائه فقال: ذكرت مصير القوم بين يدى الله .

﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[الشوري: ٧] .

وقال عبد الملك بن مروان ـ رحمه الله ـ: وددت أنى عبد لرجل من تهامة أرعى غنيمات فى جبالها وأنى لم آل من هذا الأمر شيئاً.

وأمر هارون الرشيد ـ رحمه الله ـ بحفر قبره ثم حمل إليه فاطلع فيه فبكى حتى رحم ثم قال : يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه .

قال أحد الحكام لمالك بن دينار : ادع الله لى فقال: ألف مظلوم بالباب يدعون عليك أفيستجاب لواحد ولا يستجاب لألف .

ستنطق الأعضاء بالخصال وتظهر القبائح ويخسر العاصى ويربح الطائع ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[مريم: ٣٨] .

يوم عظيم يجتمع فيه عثمان رضي الله عنه مع قاتليه وعلي رضي الله عنه مع ابن ملجم الخارجى والإمام أحمد مع المأمون، وسعيد بن جبير مع الحجاج، وعند الله تجتمع الخصوم، يُقتص فيه للحجاج كما يُقتص منه.

لقد أشفق عمر على نفسه من أن تتعثر شاة بوادى الفرات فُيسئل عنها لَمِ لم يمهد لها الطريق، ورفض تولية ابنه من بعده، فلا تكثر خصومك ورد الحقوق لأصحابها من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله، يوم تمور السماء موراً وتسير الجبال سيراً، واحذر أن تكون خصومتك مع رسول الله ﷺ ، فيقول فيك عندما ترد حوضه الشريف فيزاد بك جهة الشمال لانحرافك عن شريعته وهديه سحقاً سحقاً لمن بدل بعدى .

ما أهون الخلق على الله إن هم عصوه

عن جبير بن نفير : «لما فتحت قبرص فُرِّقَ بين أهلها فبكى بعضهم إلى بعض، فرأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكي، فقلت يا أبا الدرداء: ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله، فقال: ويحك يا جبير ما أهون الخلق على الله إذا أضاعوا أمره بينما هى أمة قاهرة ظاهرة، لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا إلى ماتري».

وقال عمر رضي الله عنه : «توشك القرى أن تخرب وهى عامرة، قيل : وكيف تخرب وهى عامرة، قال: إذا علا فجارها أبرارها وساد القبيلة منافقوها» .

وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: «أقلوا الذنوب فإنكم لن تلقوا الله بشئ أفضل من قلة الذنوب».

وكان بعضهم يقول: «رأيت المعاصى نذالة فتركتها مروءة فاستحالت ديانة» .

وقال الحسن: «هانوا على الله فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم». وقال الفضيل: «أوحى الله إلى بعض الأنبياء إذا عصانى من يعرفنى سلطت عليه من لا يعرفني».

فاحذروا الذنوب دقها وجلها، واعلم أن أعظم الذنب والظلم أن تجعل لله نداً وهو خلقك، ولزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم، وكان ابن عباس رضي الله عنهما ينظر إلى الكعبة ويقول : إن الله عظمك وشرفك وكرمك وإن المؤمن أعظم حرمة عند الله منك.

فعظموا حرمات الله وشعائر الله قال تعالي: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[الحج: ٣٢] .

قال الحسن: عملوا لله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إيماناً وخشية، والمنافق جمع إساءة ومناً .

ولقد توجه الخطاب لرسول الله ﷺ قال تعالي: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[الأنعام: ١٥]، فكيف تكون حالة من هو دونه إذا كفر بالله، ولذلك لا عجب أن هان أصحاب القرية على ربهم بسبب كفرهم وصدهم عن سبيل الله وقتلهم المرسلين وصاحب يس دون وجه حق.

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾[يس: ٢٨-٢٩] .

فيا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به، واحذروا طريق قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً و ضلوا عن سواء السبيل، فلا تصدوا عن سبيل الله تبغونها عوجاً، ولا تنفروا من طاعة الله، فمن زرع خيراً حصد الكرامة، ومن زرع شراً لم يحصد إلا الندامة ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[طه: ١٢٣-١٢٤].

ولا تنسوا ما نزل بساحة غيركم من المثلات عندما كفروا بربهم، ولم يشكروا نعمه، فقد صاروا عبرة للمعتبرين، ومثلاً سائراً للمتدبرين .

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾[سبأ: ١٥-١٧] .

يا قومنا : أكفاركم خير من أولئكم، اللهم يا ولى الإسلام وأهله مسكنا الإسلام حتى نلقاك عليه، واجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أعمارنا أواخرها وخير أيامنا يوم نلقاك .

حكمــة الابتــلاء

إن الابتلاء الذى يصيب العبد فى الله لا يخرج عن أربعة أقسام :

١- ابتلاء فى نفسه.

٢- ابتلاء فى ماله.

٣- ابتلاء فى عرضه.

٤- ابتلاء فى أهله ومن يحب.

وأشد هذه الأقسام هو المصيبة فى النفس.

ومن المعلوم أن الخلق كلهم يموتون، وغاية المؤمن أن يستشهد فى الله، وتلك أشرف الموتات وأسهلها، فإنه لا يجد الشهيد من الألم إلا مثل ألم القرصة، والفرار من مواطن القتل لا يطول به العمر، ولذلك قال سبحانه : ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[الأحزاب:١٦] .

وقد ترتب على مخالطة صاحب يس لأهل القرية أذى له، وهذا ألم يسير يعقبه لذة عظيمة دائمة وهى أولى بالاحتمال من لذة يسيرة يعقبها ألم عظيم دائم، فلا بد من حصول الألم والمحنة لكل نفس آمنت أو كفرت، لكن المؤمن يحصل له الألم فى الدنيا ابتداء، ثم تكون له عاقبة الدنيا والآخرة، والكافر والمنافق والفاجر تحصل له اللذة والنعيم ابتداءً ثم يصير إلى الألم الدائم، فهى لذة ساعة وألم دهر، وبالتالى فلا يطمع أحد أن يخلص من المحنة والألم البتة .

إن ابتلاء المؤمنين بغلبة عدوهم لهم، وقهرهم، وكسرهم لهم أحياناً فيه حكمة عظيمة لا يعلمها على التفصيل إلا الله عز وجل. فمنها :

١- استخراج عبوديتهم وذلهم لله وانكسارهم له، وافتقارهم إليه وسؤاله نصرهم على أعدائهم، فإذا غلبوا تضرعوا إلى ربهم وأنابوا إليه وخضعوا له وانكسروا له وتابوا إليه وإذا غلبوا أقاموا دينه وشعائره وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وجاهدوا عدوه ونصروا أولياءه .

٢- تمييز من يريد الله ورسوله ومن ليس له مراد إلا الدنيا والجاه .

٣- أنه سبحانه وتعالى يحب من عباده تكميل عبوديتهم على السراء والضراء وفى حالة العافية والبلاء، وفى حالة إدالتهم والإدالة عليهم، فتلك المحن والبلايا شرط فى حصول الكمال الإنسانى والاستقامة المطلوبة منه.

٤- إن امتحانهم بإدالة عدوهم عليهم يمحصهم ويخلصهم ويهذبهم، ولقد بين سبحانه أنه إنما خلق السموات والأرض وخلق الموت والحياة وزين الأرض بما عليها لابتلاء عباده وامتحانهم، وليعلم من يريده و يريد ما عنده ممن يريد الدنيا وزينتها.

قال تعالي: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[الأنبياء: ٣٥] .

وقال سبحانه : ﴿الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾

[العنكبوت: ١-٣] .

فالرخاء والشدة والبلاء والعافية، امتحان منه، ليرى صدقك وصبرك، هل أنت صادق فى مجيئك إليه، وإقبالك عليه، فتصبر على البلاء، فتكون لك العاقبة، أم أنت كاذب فترجع على عقبك فاستقم فى عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك .

وفى الحديث: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً، ويمسى كافراً، ويمسى كافراً ويصبح مؤمناً، يبيع دينه بعرض من الدنيا» رواه مسلم.

كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول : تقوى الله خلف من كل شئ وليس من تقوى الله خلف. واعلم أن الدنيا بأسرها لا تصلح عوضاً عن معنى من معانى الآخرة وأن غمسة فى جنات النعيم ستذهب عنك آلام الدنيا وكدرها .

فاللهم لا تجعل مصيبتنا فى ديننا ولاتجعل الدنيا أكبر همنا ولامبلغ علمنا ولا إلى النار مصيرنا واجعل الجنة هى دارنا ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك فينا ولا يرحمنا إنك ولى ذلك والقادر عليه .

آفة النسيان

هناك نسيان معفو عنه، هو من عوارض الأهلية، ولكل صورة منه حكمها فى الشرع كالأكل والشرب نسياناً أثناء الصيام، ونسيان ركعة أثناء الصلاة وما شابه ذلك من صور النسيان مما لا إثم فيه لقوله تعالي: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[البقرة: ٢٨٦]، قال: قد فعلت.

وهناك نسيان آخر، هو بمثابة داء وآفة من أخطر الآفات، إذا حل بقلب إنسان آل أمره إلى العطب والهلاك، وسيطرت عليه شياطين الإنس والجن.

قال تعالي: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾[المجادلة: ١٩]. ومثل هذا فى الناس لا تراه إلا غافلاً، لاهياً، غارقاً فى الضلال والفساد منصرفاً عن معالى الأمور، منشغلاً بدناياها وهذا النسيان متفاوت وقد يصل الإنسان فى نسيانه إلى أن ينسى ربه عز وجل الذى خلقه ورزقه، فتكون النتيجة أن ينسى نفسه فيرى الخير شراً والنفع ضرراً ويرى الظلم عدلاً والقسوة رحمة، وهذا وصف من عناهم الله بقوله :

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[التوبة: ٦٧].

وقال سبحانه : ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[الحشر: ١٩] .

وقد ينسون أمر الله وشرعه وحكمه ويتركون دين الله ورائهم ظهرياً ويستبدلونه بنظم وضعية وقوانين طاغوتية كفرية قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾

[طه: ١٢٤-١٢٥] .

وقد ينسى الآخرة وما فيها من بعث وحشر وحساب وجنة ونار قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾[ص: ٢٦]

وقال تعالى : ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾[الجاثية: ٣٤] .

وقدينسى الإنسان من أي شئ خُلق وكيف خُلق كما قال عز وجل : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[يس: ٧٨-٧٩] .

إن الغافل من الناس قد يجحد ربه ويكفر به وينكر عالم الآخرة بكل ما فيه ويستهزئ بآيات الله عز وجل، ويكذب الرسل فيما جاءوا به من الهدى والنور، وهذا شأن أصحاب القرية خسروا الدنيا والآخرة، وهذا هو الخسران المبين، فقد خرجوا من الدنيا بأسوأ ذكر .

﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾[يس: ٢٩]، وأتبعوا بحسرات: ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾[يس: ٣٠]، ثم هم يوم القيامة من المحضرين فى العذاب.

إن الميت بحق، هو الذى يُعرض عن ذكر ربه وينسى أمر الله. وفى الحديث: «مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر ربه مثل الحى والميت» رواه البخارى .

ومن الغريب أن يذكر الإنسان أولاده وطعامه وأهله وماله، بل قد يطعم المسكين و يعين على نوائب الحق، وينسى من فطره وخلقه ومن لاقيام لنفسه الإ به ولا غنى عنه طرفة عين كحالة ابن جدعان لما سُئل عنه رسول الله ﷺ وهل ينتفع بذلك فقال: إنه لم يقل يوماً، «رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين».

والنسيان الذى ينتاب الأفراد، يحدث مثله فى حياة الأمم والجماعات،ولذلك قص علينا سبحانه من أخبارهم. تذكرة لأولى الألباب، وعبرة للمعتبرين، وإيقاظاً لنا من غفلة ونسيان مريب. قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[يوسف: ١١١] .

الضار النافع (جل وعلا)

في قول صاحب يس لأهل القرية : ﴿ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ ﴾[يس: ٢٣]، إشارة إلى ضعف وعجز وفقر الآلهة الباطلة التى عُبدت من دون الله، وأن الله تعالى هو الضار النافع، بيده الأمر كله وإليه يُرجع الأمر كله، فلا تنبغى العبادة إلا له سبحانه وتعالي، وهذا يدل دلالة واضحة على تمكن معانى التوحيد من نفس صاحب يس، وامتلاء قلبه من محبة الله والتعلق به سبحانه فى جلب النفع ودفع الضر .

ولاشك أن معرفة العبد بأسماء الله وصفاته، وأن كلها أسماء جلال ونعوت جلال، من شأنها أن تدفع العبد إلى كل خير وتزجره عن كل شر .

وقد ذكر الإمام الخطابى فى اجتماع هذين الاسمين (الضار النافع) أنه وصف لله تعالى بالقدرة على نفع من يشاء وضُر من يشاء وذلك أن من لم يكن على النفع والضر قادراً لم يكن مرجواً ولامُتخوفاً .

وقال الحليمى : الضار هو القادر على أن ينقص عبده مما جعل له إليه الحاجة، ومعنى النافع أنه السادٍّ للخلة أو الزائد على ما إليه الحاجة . وقد يجوز أن يُدعى الله جل ثناؤه باسم النافع وحده ولايجوز أن يدعى الضار وحده حتى يجمع بين الاسمين كما ذكر فى الباسط القابض وقال الصديقي: هذا وصف بالقدرة التامة الشاملة، فهو الذى يصدر عنه النفع والضر فلا خير ولا شر ولانفع ولاضر إلا هو صادر عنه منسوب إليه كما أن الوصف بالتوحيد وهو أنه لا يحدث فى ملكه شئ إلا بإيجاده وحكمه وقضائه ومشيئته فمن استسلم لحكمه فاز بالنعمة العظمى .

قال الغزالى: هو الذى يصدر عنه النفع والضر والخير والشر، وكل ذلك منسوب إلى الله تعالى إما بواسطة الملائكة والإنس والجمادات، أو بغير واسطة، فلا تظن أن السم يقتل ويضر بنفسه، أو أن الطعام يشبع وينفع بنفسه، أو أن الملك والإنسان والشيطان أو شيئاً من المخلوقات من فلك أو كوكب أو غيرهما يقدر على خير أو شر أو نفع أو ضر بنفسه، بل كل ذلك أسباب مسخرة لا يصدر عنها إلا ما سُخرت له .

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي : يا غلام أو يابني ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ؟ قلت : بلي، قال: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله عز وجل، قد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشئ لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشئ لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه، واعمل لله بالشكر في اليقين، واعلم أن الصبر على ما تكره خير كثير، وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً» حديث صحيح .

إن قصة صاحب يس ترجمة لهذه الموعظة، وحالة ثبات تدل على إيمان راسخ بأن الله هو المحيي المميت، المبدئ المعيد، الخافض الرافع، المعز المذل سبحانه وتعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾[الأعراف: ١٨٠] [(١)] .

(١) راجع كتاب شرح أسماء الله الحسني للأستاذ محمد حسين.

الخاتمة

اللهم يا معلم إبراهيم الخير ويا مفهم سليمان فهمني.

الفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية، ومنشور الولاية النبوية، وفيه تفاوتت مراتب العلماء حتى عُدّ ألف بواحد، فانظر إلى فهم ابن عباس وقد سأله عمر: ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾[النصر: ١] وما خص به ابن عباس من فهمه منها: أنها نعى الله سبحانه نبيه إلى نفسه وإعلامه بحضور أجله، وموافقة عمر على ذلك، وخفائه عن غيرهما من الصحابة وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سناً .

وأين تجد فى هذه السورة الإعلام بأجله لولا الفهم الخاص؟ ويدق هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس، فيحتاج مع النص إلى غيره، ولا يقع الاستغناء بالنصوص فى حقه، وأما فى حق صاحب الفهم فلا يحتاج مع النصوص إلى غيرها كما يقول ابن القيم رحمه الله .

وقد أثنى سبحانه على نبيه سليمان بالفهم فقال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[الأنبياء: ٧٩].

وقال على بن أبى طالب، وقد سئل : هل خصكم رسول الله ﷺ بشئ دون الناس؟ فقال : لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهما يؤتيه الله عبدا فى كتابه، وما فى هذه الصحيفة وكان فيها العقل ،وهو الديات وفكاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر .

وفى كتاب عمر بن الخطاب لأبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما: «والفهم فيما أدلى إليك»، فالفهم نعمة من الله على عبده ونور يقذفه الله فى قلبه، فيفهم من النص ما لايفهمه غيره، مع استوائهما فى حفظه وفهم أصل معناه . فاسأل الله من فضله، وقل : اللهم يا معلم إبراهيم الخير علمنى ويامفهم سليمان فهمنى.

وليكن شأنك الخشوع والتدبر عند تلاوة القرآن، فقد بات جماعة من السلف يتلون آية واحدة يتدبرونها ويرددونها إلى الصباح.

قال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾[النساء: ٨٢] و﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾[ص: ٢٩] .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «قام النبي ﷺ بآية يرددها حتى أصبح» والآية هي ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾[المائدة: ١١٨] الآية رواه النسائي وابن ماجه .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لأن أقرأ سورة أرتلها أحب إلى من أن أقرأ القرآن كله .

وعن مجاهد أنه سئل عن رجلين قرأ أحدهما البقرة وآل عمران والآخر قرأ البقرة وحدها وزمنهما وركوعهما وسجودهما وجلوسهما واحد سواء؟ فقال: الذى قرأ البقرة وحدها أفضل .

وثبت عن ابن مسعود أن رجلاً قال: إنى أقرأ المفصل فى ركعة واحدة، فقال ابن مسعود هكذا هكذا الشعر، إن أقواماً يقرءون القرآن لايجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع فى القلب فرسخ فيه نفع» رواه البخارى ومسلم .

قال العلماء: يستحب الترتيل للعجمى الذى لا يفهم معناه، لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيراً فى القلب، فالترتيل مستحب للتدبر ولغيره .

ولقد كان الإيمان ثم القرآن هو منهج التربية عند سلفنا الصالح رضي الله عنهم، يقول جرير بن عبد الله: تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانا.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: كنا نؤتى الإيمان ثم نؤتى القرآن فنتعلم حلالها وحرامها وما ينبغى أن يوقف عنده ولقد رأيت أقواماً يؤتى أحدهم القرآن فيقرؤه من فاتحته إلى خاتمته ينثره نثر الدقل لا يدرى ما آمره ولا زاجره ولا ما ينبغى أن يوقف عنده.

إن الفرق كبير بيننا وبين من تقدمنا بإحسان فقد تجمع فيهم العلم النافع والعمل الصالح، وكانت الآية الواحدة تكفيهم، أما نحن فقد صار علمنا فى واد وعملنا فى واد آخر . وظهر فينا من يجعل للجهل مزية وفضيلة، ومن صار عنده العلم ثقافة بلا رصيد، وما هكذا كان سلفنا الصالح رضي الله عنهم أجمعين .

كان سفيان بن عيينة يقول: العلم إن لم ينفعك ضرك، وقال: إن كان نهارى نهار سفيه وليلى ليل جاهل فما أصنع بالعلم الذى كتبت، وقال أبوحازم: رضى الناس من العمل بالعلم ومن الفعل بالقول . وقال البعض: ما عرضت قولى على فعلى إلا خشيت أن أكون مكذباً، وقالوا : كثرة العلم من غير عمل مادة الذنوب، وقال حكيم لرجل يستكثر من العمل : يا هذا إذا أفنيت عمرك فى جمع السلاح فمتى تقاتل به، وقيل العلم أسس والعمل بناء والأسس بلا بناء باطل.

إن الخيركله فى حسن التأسى والاقتداء بمن تقدمنا بفضل وسبقنا بإحسان وذلك يتطلب منا متابعة العلم النافع بعمل صالح وأن نسأل ربنا من فضله أن يرزقنا علماً نافعاً ورزقاً واسعاً وديناً قيماً وشفاء من كل داء، إنه سبحانه ولى ذلك والقادر عليه . وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

سعيد عبد العظيم

أخي الكريم :

احـرص على متـابعة سلسـلة قصص القـرآن عظات وعبـر، ففيهـا القدوة فى الصالحين وطريق الدعوة القويم وفـيه الصبر فى الشدائد ومنها نستلهم الواقع.

هذه القصص التي قصها الله سبحانه على نبيه الكريم ليثبت بها فؤاده فـى طريقه في الدعوة إلى الله، فمـا أحوجنا نحن فى هذه الأيام إلى تلك القصص بعظاتها الشاملة.

قصة أهل الكهف

قصة صاحب الجنتين

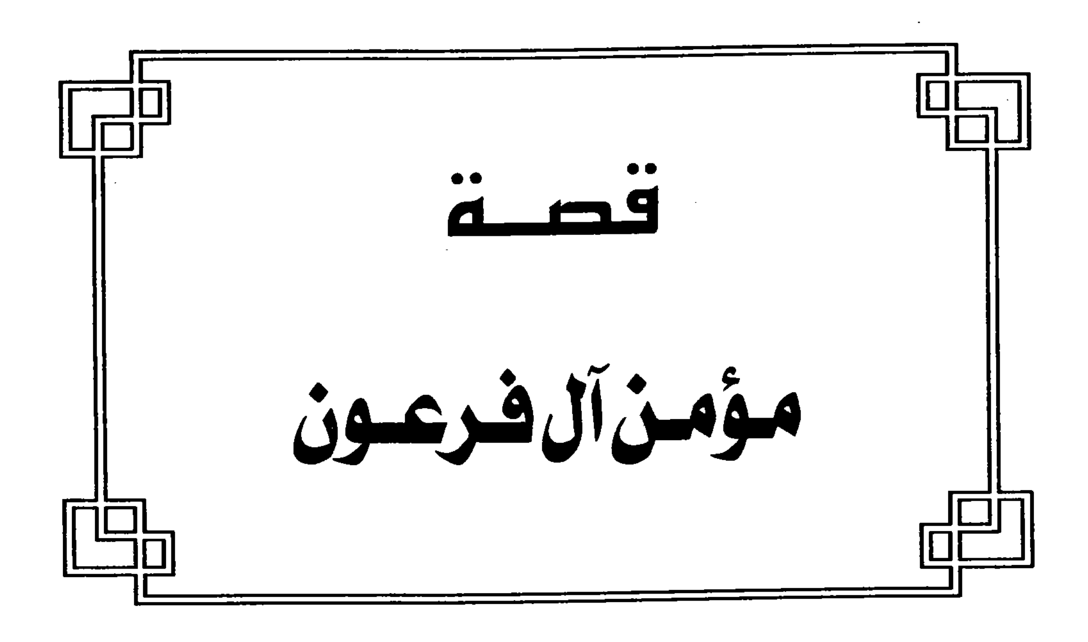
قصة موسى والخضر

قصة ذي القرنين

قصة صاحب يس

قصة مؤمن آل فرعون

قصة أصحاب الأخدود



قصــة

مؤمن آل فرعون



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلاله وكل ضلالة فى النار .

ذكر الله تعالى أهل الجنة وأهل النار، فذكر أهل الجنة بأحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئه، وذكر أهل النار بأسوأ ما عملوا وتجاوز عن أحسنه، ولم يسو سبحانه بين المؤمنين والكافرين، فى الحياة وعند الممات وقال: ﴿ **أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** ﴾[القلم: ٣٦] فقام البعض ممن وفقهم الله وسددهم يجددون ما اندرس من الدين يحيون ما أمات الناس من السنن، ويدلون الخلق على الخالق، ويسلكون فى ذلك مسالك الأنبياء والمرسلين، فرفعهم الله مكاناً علياً، وذكرهم الله فى كتابه بأحسن وصف: ﴿ **وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ** ﴾[غافر: ٢٨].

فما من إنسان قد علم الغاية التى من أجلها خُلق إلا ويتمنى أن يوصف بوصف الإيمان، وعندما تأتى هذه الشهادة من خالق الأرض والسموات، ممن يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وممن أحاط بكل شئ علماً، ولا يعزب عنه شئ فى الأرض ولافى السماء، فأنعم بهذا الوصف والثناء .

لقد اصطفاه سبحانه واجتباه من وسط ركام الكفر والضياع، فهو من آل فرعون، وما أعظم الفارق بينه وبين فرعون وآله، إنه رجل أطلق الله بصيرته، فلم ترهبه صولة الباطل ولا كثرة الانحراف، وتابع نبى الله موسى صلوات الله وسلامه عليه معتصماً بالله، مؤثراً ما عنده سبحانه .

وكـعادة القـرآن الكريم، فـقد طوى عنا اسـمه ورسـمـه وسنه وطوله وشكله مما لا طائل تحتـه ولا فائدة من وراء معـرفته، لتبـقى قصتـه درساً فى إخلاص الأمر لله، وعبرة لكل من أراد أن يتاجر مع الله، وعظة لكل من أراد أن يقيم واجب العبـودية، حتى لو خفى اسمه على أهل الأرض يكفـيه أن يُعرف فى أهل السـماء، ويكون من جمـلة الأتقياء الأخـفيـاء . فإذا مـا زمجر البـاطل من حولك، واشـتد الظلم والظلام، فانهـض على ساق عزمك، أحـسن التأسى بمن تقدمك بإحسان .

وهذا أوان الشـروع فى المقصود، والـله المستعـان، وعليه التـكلان، ولا حول ولاقوة إلا بالله . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنبت .

وكتبـه

سعيد عبد العظيم

وقفات بين يدى القصة

الأولى : الإرهاب بالباطل سلاح من لاحجة له

أيد الله تعالى أنبيائه بالمعجزات الباهرات، والآيات البينات، وقال عن نبيه موسى صلوات الله وسلامه عليه : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ وهى التسع الآيات المذكورة فى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾.

﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [غافر: ٢٣] أى بحجة واضحة بينة.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ ﴾ [غافر: ٢٤] خصهم بالذكر لأن مدار التدبير فى عداوة موسى كان عليهم، فـفرعون الملك، وهامان الوزير، وقارون صاحب الأموال والكنوز فجمعه الله معهما، لأن عمله فى الكفر والتكذيب كأعمالهما.

﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾[غافر: ٢٤] لما عجزوا عن معارضته حملوا المعجزات على السحر . فهم لم ينقادوا للحق على الرغم من ظهوره ووضوحه، ثم هم لم يتركوا موسى وشأنه، بل كادوا له ولمن آمن به، يقول تعالي: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا ﴾[غافر: ٢٥] وهى المعجزة الظاهرة .

﴿ قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾[غافر: ٢٥].

وهذا قول الملأ الذين أحاطوا بفرعون وكانوا على شاكلته، كفراً وضلالاً، فقد ضاقت صدورهم بالحق وأهله، وعجزوا عن مواجهة الحجة بالحجة، فلجئوا إلى سلاح الإرهاب بالباطل، عساهم يستطيعون إخماد صوت الحق، ووأد البراعم التى تنطق به فى وقت من الأوقات، وإلا فما ذنب أبناء الذين آمنوا مع موسي؟! إنه مسلك الباطل فى كل عصر ووقت .

وخرج فرعون بدوره ـ وبنفس عقلية البطش والإرهاب ـ يقول: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾[غافر: ٢٦] ولعله قيل لفرعون: إنا نخاف أن يدعو عليك، فقال: لايهولنكم ما يذكر من ربه فإنه لا حقيقة له وأنا ربكم الأعلى .

وقال سيد قطب فى تفسيره: ويبدو من قوله: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٢٦] أن رأيه هذا كان يجد ممانعة ومعارضة ـ من ناحية الرأى ـ كأن يقال

مثلاً: إن قتل موسى لاينهى الإشكال فقد يوحى هذا للجماهير بتقديسه واعتباره شهيداً، والحماسة الشعورية له وللدين الذى جاء به، وبخاصة بعد إيمان السحرة فى مشهد شعبى جامع، وإعلانهم سبب إيمانهم، وهم الذين جئ بهم ليبطلوا عمله ويناوئوه .... وقد يكون بعض مستشارى الملك أحس فى نفسه رهبة أن ينتقم إله موسى له، ويبطش بهم، وليس هذا ببعيد، فقد كان الوثنيون يعتقدون بتعدد الآلهة، ويتصورون بسهولة أن يكون لموسى إله ينتقم له ممن يعتدون عليه !

ويكون قول فرعون: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾[غافر:٢٦] رداً على هذا التلويح وإن كان لا يبعد أن هذه الكلمة الفاجرة من فرعون، كانت تبجحاً واستهتاراً، لقى جزاءه فى نهاية المطاف كما سيجئ أهـ .

إن الطيور على أشكالها تقع، فما أعجب التناسب بين الحاكم والمحكومين وما أعظم الشبه بين موقف فرعون والملأ، إنهم كما قال تعالي: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[الصف:٨] .

ثانياً: لا ديمقراطية لأعداء الديمقراطية

الديمقراطية دين عند أهلها، كما أن الإسلام دين عند أهله، وقد صارت الديمقراطية صنماً يعبد من دون الله، وهى كلمة تعنى حكم الشعب نفسه بنفسه لنفسه، وتشتمل على حريات واسعة ـ كما يقولون ـ كالحرية الشخصية وحرية الرأى والفكر وحرية التملك، وكلها أشبه بالسيارات التى تنطلق بلا فرامل ـ أى بلا ضابط ولارابط ـ، فالحبل فيها على الغارب، وانحرافها عن الكتاب والسنة واضح بيّن[١]

وهذه الحريات عند من ينادى بالديمقراطية، لايُسمح بشئ منها لمن يؤمن بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، وخصوصاً إذا طالب بأن تنصبغ الدنيا بدين الله، وسعى فى تطبيق شرع الله، وإظهار شعائر الإسلام، واستشعروا منه أنه قد يصل إلى قلب وعقل الجماهير، حينئذ لابد من المواجهة، وتطبيق شعار لا ديمقراطية لأعداء الديمقراطية، وقد تم استخدام هذا الشعار، هنا وهناك

---

(١) راجع كتابنا الديمقراطية في الميزان.

وخصوصاً مع من انخرط فى المجالس النيابية وخيف منه الوصول إلى الحكم عن طريقها .

ما أشبه هذه الديمقراطية بصنم العجوة، الذى كان يصنعه المشركون، فإذا جاعوا أكلوه، ومن عجيب الأمر أنه بينما يُسمح للملاحدة، والزنادقة بالوصول إلى قمة المسئولية والتسلط على رقاب البلاد والعباد، بل ولاحرج على من يزنى ويُزنى به، ويعلن ردته وكفره ويرقص ويتعامل بالربا. . . فى ظل النظام الديمقراطى، والحرج كل الحرج على من طالب بإقامة خلافة على منهاج النبوة!! ونادى بأن الخلافة موضوعة لإقامة الدين وسياسة الدنيا به !! فمثل هذا لايؤمن عليه المضرة والأذي! وقد يستحق الطرد والإبعاد، أو الحبس والقتل،كما حاول فرعون مع نبى الله موسى ومن آمن به .

ثالثاً : الباطل قد ينشغل عن مطاردة الحق فترة

الصراع دائر بين الحق والباطل، منذ قديم ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ** ﴾[البقرة: ٢٥١].

﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ** ﴾[الحج: ٤٠] .

وهذا الصراع قد يخبو حيناً ويشتد حيناً آخر، فقد ينشغل الباطل بنفسه أو بغير ذلك من الأسباب التى يسلطها الله على من كفر به، فالواجب على دعاة الحق أن لاييأسوا، وأن يعملوا لدينهم فى عسرهم ويسرهم ومنشطهم ومكرهم، وأن يتربصوا بالباطل، فما أكثر لحظات الضعف التى يمر بها، وإذا كنا لا نخلق الفرص فلا يليق بنا إضاعتها .

يقول قتادة فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ** ﴾ [غافر: ٢٥] هذا قتل غير القتل الأول، لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان بعد ولادة موسي، فلما بعث الله موسى أعاد القتل على بنى إسرائيل عقوبة لهم فيمتنع الإنسان من الإيمان، ولئلا يكثر جمعهم فيعتضدوا بالذكور من أولادهم، فشغلهم الله عن ذلك بما أنزل عليهم من أنواع العذاب، كالضفادع والقُمَّل والدم والطوفان إلى أن خرجوا من مصر، فأغرقهم الله، وهذا معنى قوله

تعالي: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾[غافر: ٢٥] أى فى خسران وهلاك . وأن الناس لا يمتنعون من الإيمان وإن فعل بهم مثل هذا فكيده يذهب باطلاً .

إن هناك احتمالات فيما حدث بعد ذلك الأمر الأول، ومنها أن فرعون الذى أصدر ذلك الأمر كان قد مات وخلفه ابنه أو ولى عهده، ولم يكن الأمر منفذاً فى العهد الجديد حتى حدثت المواجهة بين نبى الله موسى وفرعون الجديد فأشارت الحاشية بما أشارت به، أو أن فرعون الذى تبنى موسى تراخى فى تنفيذ الأمرالأول بعد فترة، فكانت الإشارة بتجديده وتخصيصه بالذين آمنوا مع موسى وحدهم للإرهاب والتخويف وعلي كل حال فهذا من عجائب التدبير قال تعالي: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥-١٧]

وقال سبحانه: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[الأنفال: ٣٠] . وقال جل وعلا: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾[فاطر: ٤٣].

فتدبير الكفرة تدميرهم، وكيدهم دائماً يرتد إلى نحورهم ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

رابعاً : موازين الباطل معكوسة

ذكر فرعون السبب الموجب لقتل نبى الله موسي، وهو أن وجوده يوجب إما فساد الدين أو فساد الدنيا، كما ذكر الرازى فى تفسيره، أما فساد الدين فلأن القوم اعتقدوا أن الدين الصحيح هو الذى كانوا عليه، فلما كان موسى ساعياً فى إفساده كان فى اعتقادهم أنه ساع فى إفساد الدين الحق، وأما فساد الدنيا فهو أنه لا بد وأن يجتمع عليه قوم ويصير ذلك سبباً لوقوع الخصومات وإثارة الفتن، ولما كان حب الناس لأديانهم فوق حبهم لأموالهم لا جرم بدأ فرعون بذكر الدين فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾[غافر: ٢٦] ثم أتبعه بذكر فساد الدنيا فقال: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[غافر: ٢٦] .

وهذه الكلمات التى ذكرها فرعون، هى بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح ؟ هى بعينها ـ كما يقول سيد قطب ـ كلمة الباطل الكالح فى وجه الحق الجميل ؟ أليست هى بعينها ـ كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر فى وجه الإيمان الهادئ؟ إنه منطق واحد، يتكرر كلما إلتقى الحق والباطل، والإيمان والكفر،

والصلاح والطغيان على توالى الزمان واختلاف المكان . والقصة قديمة مكررة تعرض بين الحين والحين . ولنا أن نتعجب من هذه الموازين المعكوسة، كيف يصير الإيمان كفراً والكفر إيماناً، والإفساد فى الأرض صلاحاً، والصلاح إفساداً؟!

بل كيف يخالف الإنسان مقتضى العقل والفطرة، والكتب المنزلة والرسل المرسلة ؟! نعوذ بالله من طمس البصر والبصيرة .

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : ٧٢].

﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك : ٢٢] .

وقد ذكر سبحانه عن المبطلين أنهم: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ [الأعراف : ١٤٦].

وقال سبحانه: ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦].

وسبب ذلك ما حكاه حذيفة بن اليمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «تُعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عوداً عوداً، فأى قلب أشربها نُكتت فيه نكتة سوداء، وأى قلب أنكرها نُكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تعود القلوب على قلبين قلب أسود مرباداً كالكوز مُجخيا ،لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ماأشرب من هواه ،وقلب أبيض لاتضره فتنة ما دامت السموات والأرض»[1] .

لقد دعا فرعون الناس إلى عبادته من دون الله، وقال لهم: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٤] وقال: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : ٣٨] وهذا إستخفاف منه بعقولهم، لما وجد منهم سفاهة ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٤] وكان فى قرارة نفسه يعلم أن ماجاء به موسى هو

---

(١) رواه مسلم .

الحق ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤].

وهذا شبيه بموقف أبى جهل مع رسول الله ﷺ ، ولذلك قال سبحانه لنبيه: ﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[الأنعام: ٣٣].

وهكذا يصنع الاستكبار فى الأرض بغير الحق ومكر السيئ نعوذ بالله من الخذلان، ومن أن نقول زوراً، أو أن نغشى فجوراً، أو أن نكون بك من المغرورين.

خامساً : قلوب معلقة بالله فى أحرج اللحظات

لما هدد فرعون موسى بالقتل استعاذ موسى بالله وقال موسى: ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾[غافر: ٢٧] .

لقد سلم أمره إلى المستعلى على كل متكبر، القاهر لكل متجبر، القادر على حماية العائذين به من المستكبرين، وأشار إلى وحدانية الله ربه وربهم لم ينسها أو يتركها أمام التهديد والوعيد، يكفيه أنه استجار بالله وتعوذ به من شره وشر أمثاله، من المتكبرين الذين لا يؤمنون بيوم الحساب، ولهذا جاء فى الحديث عن أبى موسى رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: «اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم وندرأ بك فى نحورهم».

وقد ذكر الرازى فى تفسيره لهذه الآية فوائد كثيرة فقال ما نصه: «المعنى أنه لم يأت فى دفع شره إلا بأن استعاذ بالله واعتمد على فضل الله، لا جرم صانه الله عن كل بلية وأوصله إلى كل أمنية .

واعلم أن هذه الكلمات التى ذكرها موسى عليه السلام تشتمل على فوائد:

الفائدة الأولى: أن لفظة ﴿ إِنِّي ﴾[غافر: ٢٧] تدل على التأكيد فهذا يدل على أن الطريق المؤكد المعتبر فى دفع الشرور والآفات عن النفس الاعتماد على الله والتوكل على عصمة الله تعالى .

الفائدة الثانية : أنه قال: ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ فكما أن عند القراءة يقول المسلم: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فالله تعالى يصون دينه وإخلاصه عن وساوس شياطين الجن، فكذلك عند توجه الآفات والمخافات من شياطين الإنس إذا قال المسلم: أعوذ بالله، فالله يصونه عن كل الآفات والمخافات .

الفائدة الثالثة: قوله: ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ والمعنى كأن العبد يقول: إن الله سبحانه هو الذى ربانى وإلى درجات الخير رقانى، ومن الآفات وقانى، وأعطانى نعماً لا حد لها ولا حصر، فلما كان المولى ليس إلا الله وجب أن لا يرجع العاقل فى دفع كل الآفات إلا إلى حفظ الله تعالى .

الفائدة الرابعة: أن قوله: ﴿ رَبِّكُم﴾ فيه بعث لقوم موسى عليه السلام على أن يقتدوا به فى الاستعاذة بالله، والمعنى فيه أن الأرواح الطاهرة القوية إذا تطابقت على همة واحدة قوى ذلك التأثير جداً، وذلك هو السبب الأصلى فى أداء الصلوات فى الجماعات .

الفائدة الخامسة: أنه لم يذكر فرعون فى هذا الدعاء، لأنه كان قد سبق له حق تربية على موسى من بعض الوجوه، فترك التعيين رعاية لذلك الحق .

الفائدة السادسة: أن فرعون وإن كان أظهر ذلك الفعل إلا أنه لا فائدة فى الدعاء على فرعون بعينه، بل الأولى الاستعاذة بالله فى دفع كل من كان موصوفاً بتلك الصفة، حتى يدخل فيه كل من كان عدواً سواء كان مظهراً لتلك العداوة أو كان مخفياً لها .

الفائدة السابعة: أن الموجب للإقدام على إيذاء الناس أمران:

أحدهما: كون الإنسان متكبراً قاس القلب .

والثانى: كونه منكراً للبعث والقيامة وذلك لأن المتكبر القاسى قد يحمله طبعه على إيذاء الناس إلا أنه إذا كان مقراً بالبعث والحساب صار خوفه من الحساب مانعاً له من الجرى على موجب تكبره، فإذا لم يحصل عنده الإيمان بالبعث والقيامة كانت الطبيعة داعية له إلى الإيذاء، والمانع وهو الخوف من السؤال والحساب زائلاً، وإذا كان الخوف من السؤال والحساب زائلاً فلا جرم تحصل القسوة والإيذاء.

الفائدة الثامنة: أن فرعون لما قال: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٢٦] قال على سبيل الاستهزاء: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾[غافر: ٢٦] فقال موسي: إن الذى ذكرته يافرعون بطريق الاستهزاء هو الدين المبين والحق المنير، وأنا أدعو ربى وأطلب منه أن يدفع شرك عنى، وسترى أن ربى كيف يقهرك، وكيف يسلطنى عليك . واعلم أن من

أحاط بهذه الفوائد علم أنه لاطريق أصلح ولا أصوب فى دفع كيد الأعداء وإبطال مكرهم إلا الاستعاذة بالله والرجوع إلى حفظ الله والله أعلم أهـ.

لقد تعلقت قلوب الأنبياء والصالحين بالله فى جلب النفع ودفع الضر، فلم يلتفتوا لأحد سواه، فلما حققوا معانى الإيمان واليقين وتحققوا بالتوكل والإنابة فى عسرهم ويسرهم ورخائهم وشدتهم، ما ضاعوا ولا خابوا، بل كان الله معهم بنصره وتأييده ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[النحل: ١٢٨] . هذا هو فعل نبيه إبراهيم عندما أضرموا له النيزان، فقال: حسبى الله ونعم الوكيل، فكانت النار برداً وسلاماً عليه، وفعله بنبيه موسى عندما قالت له بنو اسرائيل: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢] فما فرغ من قولته حتى أمر ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾

[الشعراء: ٦٣].

وفعله برسول الله ﷺ يوم الهجرة

﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: ٤٠]

ولو نظر أحد المشركين تحت قدمه لرآهما كما قال أبو بكر الصديق ﷺ، وشواهد ذلك كثيرة فما خاب من استعاذ به سبحانه وتوكل عليه وأناب إليه وفوض الأمر له.

لا حَجرْ على سعة رحمة الله

إن قلوبنا وقلوب العباد بيد الله، يصرفها كيف يشاء، فضلاً وعدلاً، ولا حَجرْ على سعة رحمة الله، فعلى الدعاة إلى الله أن ينهضوا بواجب الدعوة، وأن يعمموا بها الخلائق وليس لهم أن ييأسوا أو يقنطوا من رحمة الله، أو أن يستبعدوا وصول معانى الهداية إلى القلوب والنفوس، وعلى كل داعية أن يقول لنفسه إن لم يستجيبوا اليوم فلربما استجابوا غداً، وإن لم يستجيبوا بهذه الكلمة، فلربما استجابوا بكلمة خير أخرى . ولن نعدم بدعوتنا إقامة الحجة لله على الخلائق وإعذار النفس بين يدى الله بالبلاغ، حتى وإن فاتنا هداية الناس على أيدينا وإقامة المجتمع المسلم حال حياتنا.

وقد أمر سبحانه نبيه بالدعوة والبلاغ فقال سبحانه: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾[الشورى: ٤٨] وقال: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[القصص: ٨٧] وقال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١] والتذكرة مطلوبه حتى وإن غلب على الظن عدم استجابة المدعوين، قال تعالي: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾[الأعلى: ٩] أى وإن لم تنفع فذكر مثل ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾[النحل: ٨١] ومن المعلوم أنها تقى البرد أيضاً .

وعموماً فالكلمات الصالحات الطيبات لا تضيع سدي، وقد ينفع الله بها، من لم يكن فى الحُسبان وصولها إليه ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[الفتح: ٤٠] .

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾[المدثر: ٣١].

لقد وقع الحق فى قلب مؤمن آل فرعون، عندما سمع دعوة نبى الله موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وقيل كان ابن عم فرعون كما ذكر السدى .

وقال بن جرير عن بن عباس رضي الله عنهما[1]: لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون والذى قال: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠].

إذا فمؤمن آل فرعون كان من جملة الملأ -الأشراف والسادة- وهذا من عجائب التدبير، أن تصل الدعوة إلى أمثاله، ولربما لو آمن رجل منهم لأسلم بإسلامه خلق كثير، فكيف يبخل الإنسان على نفسه بمثل هذا الأجر، والدال على خير كفاعله، وقد أسلم ستة من العشرة المبشرين بالجنة على يد أبى بكر رضي الله عنه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم .

يكفيه أنه رجل مؤمن

الألفاظ فى كتاب الله، لها دلالاتها، فمؤمن آل فرعون ، رجل مؤمن كما وصفه سبحانه: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾[غافر: ٢٨] .

فهو رجل والرجال بحق قليل، عناهم سبحانه بقوله:

﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾[الأحزاب: ٢٣] .

﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ﴾ ﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾[النور: ٣٧] .

أما الرجال كجنس يذكر فى مقابلة النساء، فهؤلاء عددهم كثير . وهذا الرجل المذكور وصفه العليم الخبير بوصف الإيمان، وهى كلمة تُذكر فى مقابلة الكفر، وكان متابعاً لموسى ـ ودين الأنبياء جميعاً هو الإسلام:

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾[آل عمران: ١٩] وأصل الإيمان التصديق، وأصل الإسلام الإستسلام والإنقياد . فقد يكون المرء مستسلماً فى الظاهر غير منقاد فى الباطن، وقد يكون مصدقاً فى الباطن غير منقاد فى الظاهر . والتزام الدين الذى يكون به النجاة من خزى الدنيا وعذاب الآخرة وبه يفوز العبد بالجنة ويزحزح عن النار إنما هو ماكان على الحقيقة، ومالم يكن منه على الحقيقة ولم يظهر منه مايناقضه أجريت عليه أحكام المسلمين فى الدنيا ووكلت سريرته إلى الله تعالى .

قال تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾[البقرة: ٢٥٧].

وقال تعالى: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[إبراهيم: ١١] وقال ﷺ: «لايدخل الجنة إلا نفس مؤمنة». ولهذا حصر الله الإيمان فيمن التزم الدين كله باطناً وظاهراً فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ② الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ③ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[الأنفال: ٢-٤].

والإنسان لايكون مـؤمناً إلا إذا آمن بالله وملائكته وكـتبه ورسله واليـوم الآخر والقدر خيره وشره، وهذا الإيمان يستلزم الكفر بالطاغوت قال تعالي: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦] والطاغوت كما قال ابن القيم: «هو كل ماتجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه بغير الله ورسوله أو يعبدونه من دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة من الله أو يطيعونه فيما لايعلمون أنه طاعة لله» أهـ.

وقد كان فـرعون طاغوتاً، يُعـبد من دون الله، فخرج نبي الله مـوسي يدعوه ويدعـو قـومـه لعـبـادة الله وحـده ويقـول لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[المؤمنون: ٢٣] فآمن به من أراد الله سعادته ومنهم مؤمن آل فرعون .

كتمـــان الإيمـــان

يدخل الإنسان فـي الإسلام بنطقه بالشـهادتين، بإتفـاق العلماء، وتجـرى عليه أحكام الإسلام، ولايخرج منه إلابمناقضتهما، إمـا بجحود لما دلتا عليه أو باستكبار عما استلزمتاه .

ومؤمن آل فـرعون كـان يكتم إيمانه بعد أن وقع الحـق فى قلبه، ولهـذا انتدب يدفع عن مـوسى ويحـتال لدفع الـقوم عنه، ويسلـك فى خطابه لفـرعون وملئـه مسالك شتى . فهل من الممكن أن يكتم الإنسان إيمانه ولايتلفظ به بلسانه ؟

يقول القاضى أبو بكر بن العربى: «ظـن بعضهم أن المكلف إذا كتم إيمانه، ولم يتلفظ بلسـانه لايكون مؤمناً باعـتقاده، وقـد قال مالك: إن الرجل إذا نـوى بقلبه طلاق زوجته أنه يلزمه، كما يكون مؤمناً بقلبه وكافراً بقلبه .

فجعل مدار الإيمان على الـقلب وأنه كذلك، لكن ليس على الإطلاق وقد بيناه فى أصول الفقه، بما لبابه أن المكلف إذا نوى الكفر بقلبه كان كافراً وإن لم يتلفظ بلسـانه، وأما إذا نوى الإيمان بقلبـه فلا يكون مـؤمناً بحـال حتى يتلفظ بلسـانه، ولاتمنعه التـقية والخوف من أن يتلفظ بلسـانه فيما بينه وبين الله تعـالي، إنما تمنعه التقية من أن يسمعه غيره، وليس من شـرط الإيمان أن يسمعه الغير فى صحته من التكليف، وإنما يشترط سماع الغير له ليكف عن نفسه وماله» أ.هـ.

إن المؤمن قد يُستكره على النطق بكلمة الكفر الخبيثة، ولايزول عنه وصف الإيمان، طالما أن قلبه مطمئن بالإيمان، قال تعالي: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾[النحل: ١٠٦] .

كما فى قصة عمار بن ياسر رضي الله عنهما، وقول النبى صلى الله عليه وسلم له: «إن عادوا فعد» أى إن عادوا لاستكراهك ولإيذائك، فعد إلى النطق بها بلا إثم عليك فإن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه، والاستكراه يلغى الاختيار ويرفع الإثم، كما فى الحديث: «رفع لى عن أمتى الخطأ والنسيان وماااستكرهوا عليه».

وقد يكون كتمان الإيمان وإخفاء الشعائر سياسة شرعية، واجبة الأخذ والانتشار، يمليها النظر الشرعى، وليس غيرها أفضل منها، كما فى حديث حذيفة رضي الله عنه: «احصوا لى كل من تلفظ بالإسلام، فقلنا أتخاف علينا ونحن مابين الستمائة إلى السبعمائة»، يقول حذيفة: فابتلينا حتى ما جعل الرجل منا ما يصلى إلاسراً.

إن هذا الرجل كتم إيمانه فى أول أمره، فأثنى الله عليه فى كتابه، وقد صرح القرآن بأن مؤمن آل فرعون أظهر إيمانه لما أرادوا قتل موسى عليه السلام .

أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله ؟!

أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر كما ثبت بذلك الحديث، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون، وهى قول مؤمن آل فرعون: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾[غافر: ٢٨] اللهم إلاما رواه البخارى عن عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أخبرنى بأشد شئ صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصل بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو ثوبه فى عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه فأخذ بمنكبه ودفعه عن النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال «أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟» .

وخرج الترمذى الحكيم فى [نوادر الأصول] عن أسماء بنت أبى بكر رضي الله عنهما قالوا لها: ما أشد شئ رأيت المشركين بلغوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت: كان المشركون قعوداً فى المسجد، ويتذاكرون رسول الله صلى الله عليه وسلم مايقول فى آلهتهم، فبينا

هم كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ، فقاموا إليـه بأجمعهم، وكانوا إذا سألوه عن شئ صدقهم، فقالوا: ألست تقول كذا فى آلهتنا قال: «بلي»فتشبثوا فيه بأجمعهم، فأتى الـصريخ إلى أبى بكر فـقال له: أدرك صاحـبك . فخـرج من عندنا وإن له غدائر، فدخل المسـجد وهو يقول: ويلكم: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾[غافر:٢٨] فلهـوا عن رسول الله ﷺ وأقبلوا على أبى بكر، فرجع إلينا أبو بكر فـجعل لايمس شيئـا من غدائره إلاجاء معـه، وهو يقول: تباركت ياذا الجلال والإكرام، إكرام إكرام. فـقال على: والله ليوم أبى بكر خير من مؤمن آل فرعـون، إن ذلك رجل كتم إيمانه فأثنى الله عليه فى كـتابه، وهذا أبو بكر أظهر إيمانه وبذل ماله ودمه لله عز وجل .

لم يتمكن الكافـرون من قتل رسول الله ﷺ ولانبى الله موسي، بيـنما قتل آخـرون انتـقلوا إلى ربهم شـهـداء ﴿وَمَا نَقَـمُـوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَـزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[البروج:٨] .

قُتل زكريا ويحـيى وقتل أصحاب الأخـدود والغلام وصاحب يس . . . . طابور طويل، جريمة أصحابه الوحيدة أنهم آمنوا بالله وصدقوا المرسلين !!!

الواجـب إبقـاء مـوسى حيـاً لاعتبـارات كثيـرة

خرج الـكلام من مؤمن آل فـرعون على سـبيل الإسـتفـهام الإنكارى فـقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾[غافر:٢٨] وقـد ذكر فى هذا الكلام مايدل على حـسن الإستنكار، وذلـك لأنه مازاد على أن قـال: ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ وجاء بالبـينات وذلك لايوجب القتل البـتة وقوله: ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾[غافر: ٢٨] يحتمل وجهين :

الأول : أن قوله :﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ إشاره إلى التـوحيـد، وقوله: ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ إشارة إلى الدلائل الدالة على التوحـيد وهو قوله فى سورة طه: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه: ٥٠].

وقـوله فى سـورة الشـعـراء: ﴿رَبِّ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُـمَـا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾[الدخان:٧] إلى آخر الآيات .

ثم ذكر المؤمن حجـة ثانية فى أن الإقدام على قتله غـيرجائز وهى حجـة مذكورة على طريقة التقـسيم، فقال: إن كان هذا الرجل كاذباً كان وبال كـذبه عائداً عليه فاتركوه وإن كان صادقاً يصيبكم بعض الذى يعدكم، فثبت أن على كلا التقديرين كان الأولى إبقاؤه حياً .

وقد يُستشكل قول المؤمن: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾[غافر:٢٨] مقصوراً عليه، لأنه يدعوا الناس إلى ذلك الدين البـاطل، فيغتر به جمـاعة منهم، ويقعون فى المذهب البـاطل والاعتـقاد الفـاسد، ثم يقع بينهـم وبين غيـرهم الخصـومات الكثيـرة، فثبت أن بتقـدير كونه كاذباً لم يكن ضرر كـذبه مقصوراً عليـه بل كان متعدياً إلى الكل، ولهذا السبب العلماء أجمعوا على أن الزنديق الذى يدعوا الناس إلى زندقته يجب قتله .

وثانيها : أنه إن كان الكلام حـجة له، فلاكذاب إلا ويمكنه أن يتـمسك بهذه الطريقة، فوجب تمكن جميع الزنادقة والمبطلين من تقرير أديانهم الباطلة .

وثالثها : أن الكفار الذين أنكروا نبـوة موسى عليه السـلام وجب أن لا يجوز الإنكار عليهم، لأنه يقـال: إن كان ذلك المنكر كاذباً فى ذلك الإنكار فعـليه كذبه وإن يكَ صادقاً انتفعتم بصدقه، فثبت أن هذا الطريق يوجب تصويب ضده.

والجواب عن الأسـئلة الثلاثة بحرف واحـد كما يقـول الرازى، وهو أن تقدير الكلام أن يقال: إنه لا حاجة بكم فى دفع شره إلى قتله بل يكفيكم أن تمنعوه عن إظهار هذه المقالة ثم تتركـوا قتله، فإن كان كاذباً فحينئـذ لا يعود ضرره إلا إليه، وإن يكَ صادقـاً انتفعتم بـه والحاصل أن المقصود من ذكـر ذلك التقسـيم بيان أنه لاحاجـة إلى قتله بل يكفيكـم أن تُعرضوا عنه وأن تمنعـوه عن إظهار دينه فبـهذا الطريق تكون الأسئلة الثلاثة مدفوعة .

لمـاذا لـم يقـل يصبـكم كـل الـذى يعـدكم ؟

لقد دافع مؤمـن آل فرعون عن نبى الله موسى فـما سب ولا لعن، لكنه تسلل إلى قلوبهم بالنصيحة الرقيقة المزوجة بالتخويف والاقناع :﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر:٢٨] .

تأمل ذكاء هذا الرجل وبعد نظره، تأمل الألفاظ التى اختارها، والكلمات التى تكلم بها، والأسلوب الحكيم الذى يقنع به من يخاطبهم - أسلوب استدراج المخاطب - وذلك أنه لما رأى فرعون قد عزم على قتل موسى أراد الانتصار له بطريق يخفى عليهم بها أنه متعصب له، وأنه من أتباعه، فجاءهم بطريق النصح والملاطفة فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً﴾ولم يذكر اسمه، بل قال رجلاً ليوهم أنه لايعرفه ثم قال: ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ ولم يقل: رجلاً مؤمناً بالله أو هو نبى الله، إذ لو قال ذلك لعلموا أنه متعصب ولم يقبلوا قوله، ثم أتبعه بقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا﴾ فقدم الكذب على الصدق موافقة لرأيهم فيه ثم تلا بقوله :﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ ولم يقل هو صادق وكذلك قال: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾[غافر:٢٨] .

فكان مدار هذا الإستدلال على إظهار الإنصاف وترك اللجاج لأن المقصود منه إن كان كاذباً كان ضرر كذبه مقصوراً عليه، وإن كان صادقاً فلا أقل من أن يصل إليكم بعض ما يعدكم، وإن كان المقصود من هذا الكلام ما ذكر صح، ونظيره قوله تعالي: ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[سبأ: ٢٤] .

ولعله لم يقل: يصبكم كل الذى يعدكم به موسى لأنه عليه السلام كان يتوعدهم بعذاب الدنيا وبعذاب الآخرة، فإذا وصل إليهم فى الدنيا عذاب الدنيا فقد أصابهم بعض الذى يعدهم به، وُحكى عن أبى عبيدة أن ورود لفظ البعض بمعنى الكل جائز .

وقد ختم المؤمن كلامه بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[غافر:٢٨] إشارة إلى علو شأن موسى عليه السلام على طريق الرمز والتعريض، لأن الله تعالى هدى موسى إلى الإتيان بهذه المعجزات الباهرة، ومن هداه الله إلى الإتيان بالمعجزات لايكون مسرفاً كذاباً فهذا يدل على أن موسى يريد السلام وليس من الكاذبين، ويحتمل أيضاً أن يكون المراد أن فرعون مسرف فى عزمه على قتل موسي، كذاب فى إقدامه على إدعاء الإلهية، والله لايهدى من هذا شأنه وصفته بل يبطله ويهدم أمره.

التخوف من قتل موسى والنصح له بالخروج

لم يدخر مؤمن آل فرعون وسعاً فى دفع الأذى عن نبى الله موسى من جهة، وفى نصح قومه من جهة أخرى على الرغم من تكتم إيمانه، وكأنه لما علم إصرارهم على قتل نبى الله موسى عليه السلام، لم يكتف بتفنيد شبهاتهم وبيان الحق لهم، بل سعى وتحرك لاستنقاذ نبى الله موسى، قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾[القصص: ٢٠] .

قال أكثر أهل التفسير: هذا الرجل هو حزقيل بن صبورا مؤمن آل فرعون، وكان ابن عم فرعون . ذكره الثعلبى وقيل غيره، وروى أن فرعون أمر بقتل موسى فسبق ذلك الرجل بالخير فى ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أى يتشاورون فى قتلك بالقبطى الذى قتله بالأمس، وقيل: يأمر بعضهم بعضاً . فاستجاب نبى الله موسى لنصح هذا المؤمن﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[القصص: ٢١].

إن خوف المؤمن على أخيه ومحبته الخير له، تدفعه دفعاً طلباً لسلامته ودرءاً للمكروه عنه، وذلك لأن المؤمن مرآة أخيه ويحب لأخيه ما يحب لنفسه، وهذا السعى الذى يحتسبه عند الله، قد يجر عليه نوعاً من الأذي، فلابأس بذلك طالما كان فى سبيل الله، وهذا الحرص متأكد مع الدعاة إلى الله وخصوصاً الأنبياء والمرسلين ولاأدل على ذلك من موقف أبى بكر الصديق رضي الله عنه يوم الهجرة، فقد كان يتحول عن يمين رسول الله ﷺ تارة وعن يساره آخري، ويتذكر الرصد والطلب فيسير من أمام رسول الله ﷺ تارة ومن خلفه تارة أخرى، ويسد جحور غار ثور ولو بجسده، ويقول لرسول الله ﷺ إن أهلك أهلك وحدى، وإن تهلك تهلك معك الدعوة .

إنه الحرص على حياة رسول الله ﷺ وعلى استمرارية الدعوة، ماوسعه الأمر، فلما انتقل النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلي، وتيقن أبو بكر رضي الله عنه وفاته، واضطرب من اضطرب بسبب ذلك، صعد على المنبر وقال قولته المشهورة: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت

وتلا قوله تعالي: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾

[آل عمران: ١٤٤].

لا ينبغي للدعوة أن تموت بموت حاملها ولا أن تمرض بمرضه ولا أن تتوقف بتوقفه ولا أن تسافر بسفره، فالأخذ بأسباب استمراريتها وقوتها مطلب واجب يحرص عليه الدعاة والمدعوون.

لا منافسة على الملك بل احكموا أنتم بشرع الله

اعلم أن مؤمن آل فرعون لما أقام أنواع الدلائل على أنه لايجوز الإقدام على قتل موسى خوفهم بعد ذلك بعذاب الله فقال: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾[غافر: ٢٩] وهذا دليل على أنه قبطي، ولذلك أضافهم إلى نفسه، فقال: ﴿يَا قَوْمِ﴾ ليكونوا أقرب إلى قبول وعظه ﴿لَكُمُ الْمُلْكُ﴾ فشكروا الله على ذلك ﴿ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ﴾[غافر: ٢٩] يعنى قد علوتم الناس وقهرتموهم، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم، ولاتتعرضوا لبأس الله وعذابه، فإنه لا قبل لكم به، والمراد بالأرض أرض مصر فى قول السدى وغيره، كقوله : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ﴾[يوسف: ٢١] أى فى أرض مصر، وإنما قال هذا المؤمن: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾[غافر: ٢٩] لأنه كان يظهر من نفسه أنه منهم وأن الذى ينصحهم به هو مشارك لهم فيه فهو واحد منهم ينتظر مصيره معهم، فهو إذن ناصح لهم مشفق عليهم، وهم قومه، لعلهم يأخذون تحذيره بإهتمام، فهم أحق الناس أن يحذروا بأس الله لأنهم أصحاب الملك والسلطان وأجدر الناس أن يتجنبوا سخطه سبحانه وأليم عقابه، وأن يبيتوا منه على وجل وكأن مؤمن آل فرعون بهذه الدعوة، وهذه الكلمات، قد أثبت لهم أنه لا ينازعهم الملك ولا ينافسهم فيه، بل هو الحريص على أن يستمروا فى ملكهم وحكمهم، ولا سبيل لذلك إلا بإقامة الحق والعدل، وإخضاع الدنيا لدين الله، بما ملكهم من سلطان وجاه، هذا هو الحرص الحقيقى المستبصر، بلا تزييف أو غش أو خداع ، فما قيمة دنيا بلا دين، وكيف تقوم للدنيا قائمة، إذا عصت ربها ولم تقيم واجب العبودية على أرضها فما أهون الخلق على الله إن هم عصوه .

إن طمأنة الملك على ملكه والحاكم على حكمه مطلوب، فلسنا طلاب دنيا، ولا ممن يبتغى الرئاسة والوجاهة وما نسعى إلا لمرضاة الله، وأن تُحكَم الدنيا بدين الله، فلو تمكن عبد حبشى وقهر الناس لسلطانه، وأقام فيهم الشرع والدين، فلن ننازعه الأمر وسنقول: سمعاً وطاعاً .

ولنا فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقد عرض عليه المشركون، فى بداية الدعوة أن يكون له الملك عليهم، وأن يكون أغناهم مالاً. . . . فرفض ذلك كله، وقال لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[المؤمنون: ٢٣] .

ليس المهم من يحكم؟، ولكنه بماذا يحكم ؟ فالخلافة موضوعة لإقامة الدين وسياسة الدنيا به .

قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤١] فلايجوز للكافر أن يتولى إمرة المسلمين، وأى سبيل أعظم من الحكم والإمامة .

وفى الحديث الذى رواه عبادة بن الصامت قال: «بايعنا -أى رسول الله ﷺ- علي السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحا عندكم من الله فيه برهان»[١] .

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله»[٢] .

عزة بالإثم وتسمية الأشياء بغير اسمها

ذكر المؤمن وحذر، فعلم فرعون ظهور حجته فقال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ﴾ [غافر: ٢٩].

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ماأشير عليكم إلا ماأرى لنفسى ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] فى تكذيب موسى والإيمان بى .

لقد أخذ فرعون ما يأخذ كل طاغية توجه إليه النصيحة، تأخذه العزة بالإثم، ويرى فى النصح الخالص افتياتاً على سلطانه، ونقصاً من نفوذه ،ومشاركة له فى النفوذ والسلطان .

---

(١) متفق عليه . . (٢) رواه البخاري .

يقول ابن كثير فى تفسيره: «﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾[غافر: ٢٩] لقومه راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذى كان أحق بالملك من فرعون ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ﴾[غافر: ٢٩] أى ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسى. وقد كذب فرعون فإنه كان يتحقق صدق موسى عليه السلام فيما جاء به من الرسالة ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾[الإسراء: ١٠٢] . وقال الله تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل: ١٤] فقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ﴾ [غافر: ٢٩] كذب فيه وافترى وخان الله تبارك وتعالى ورسوله ﷺ ورعيته فغشهم وما نصحهم وكذا قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[غافر: ٢٩] أى وما أدعوكم إلا إلي طريق الحق والصدق والرشد وقد كذب أيضاً في ذلك، وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾[هود: ٩٧] . وقال جلت عظمته: ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾[طه: ٧٩] ، وفى الحديث: «ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام» والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب» أ.هـ .

إن المرء ليعجب من هذه الجرأة التى وجدت عند فرعون، ومن هذا التلبيس والتدليس الذى تحلى به، ويبدو أنه وجد فى عقول القوم سفاهة فسهل عليه الاستخفاف بهم ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[الزخرف: ٥٤] .

لقد كانوا إمّعات فقهرهم فرعون، ولم يُقم لهم وزناً، وهذا يفسر لنا قوله تعالى: ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾[طه: ٤٣] بينما قال جل وعلا: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[هود: ٥٠] . ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾[هود: ٦١]

إن فرعون كان مظلماً ظالماً نتيجة كفره وإعراضه عن منهج الله، لا بصيرة عنده ولا نور لديه ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[النور: ٤٠] .

﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الملك: ٢٢].

﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[الإسراء: ٧٢] . فكيف يلغى آراء الخلق على مثل هذا النحو، ويزعم هداية قومه سبيل الرشاد وقد

طمست بصيرته بهذه الكيفية !!! إن حظه وافر ونصيبه كبير من أستاذه إبليس، فى تسمية الأشياء بغير اسمها، فهو عندما وسوس لأبينا آدم بالأكل من الشجرة التى نُهى عن الأكل منها قال له:

﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠] .

وقد ينخدع البعض بوساوس شياطين الإنس والجن، وبمكر الليل والنهار ويتحول الإيمان كفراً والكفر إيماناً، والسنة بدعة والبدعة سنة، وتنقلب الموازين رأساً على عقب .

تخويفهم بيوم الأحزاب

أخبر الله عز وجل عن هذا الرجل الصالح، مؤمن آل فرعون أنه حذر قومه بأس الله تعالى فى الدنيا والآخرة فقال : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ﴾[غافر: ٣٠] أى الذين كذبوا رسل الله فى قديم الدهر كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حل بهم بأس الله؟ وما رده عنهم راد ولا صده عنهم صاد ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾[غافر: ٣١]. أى إنما أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وتكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره فأنفذ فيهم قدره، وقوم فرعون لم يقلوا فى كفرهم وعتوهم عن هؤلاء الهلكي، وليسوا بأشد قوة من هذه الأمم المعذبة، فوجب الاعتبار بالأمم الغابرة والاتعاظ بأحوالهم.

قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴾[النجم: ٥٠-٥٤].

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ [يس: ٣١] .

وقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾[الأنعام: ٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا

وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾[الطلاق: ٨-٩]

وقال: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾[الأنبياء: ١١] .

وقال: ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾[سبأ: ٤٥].

وقال: ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴾[الزخرف: ٨].

وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾[الروم: ٩] .

فالشرع لا يفرق بين المتماثلين ولا يساوى بين المختلفين، فوجب الحذر والإشفاق من نقمة الله وحلول العذاب فى الدنيا قبل الآخرة وأن لا نأمن مكر الله فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩].

وقال جل ذكره: ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾[النحل: ٤٥-٤٧].

فهو سبحانه وتعالى قادر على أخذهم فى كل الأحوال فيلزمهم أن لايأمنوا عذابه فى جميع تقلباتهم وتصرفاتهم، فإن عذاب الله لايأتى الماكرين والمفسدين فى الغالب إلا عند استراحتهم من ليل أو نهار حيث لا يكون لهم استعداد ولا تذكر . وتخويف المؤمن قومه من مثل يوم الأحزاب، قال: ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ﴾[غافر: ٣١] يدل على أنهم كانوا على معرفة بمصارع هؤلاء الهلكى .

قــوم نــوح [١]

هم أول قوم عبدوا الأصنام وأشركوا بالله، ولهذا بعث الله إليهم نوحاً بالإنذار والتخويف كما قال الله تعالي: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾[نوح: ١-٣] .

وقد روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام» .

وقد دعا نبى الله نوح قومه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، وأقام فيهم تسعمائة وخمسين عاماً يذكرهم ويعظهم.

فلما يئس نوح من إيمانهم دعى عليهم فقال : ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾[نوح: ٢٦-٢٧] وكان الله قد أوحى إليه أنه لن يؤمن من قومه بعد هؤلاء المؤمنين أحد ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[هود: ٣٦] وقد استجاب الله دعاءه وأعلمه بأنه سيهلكهم بالطوفان وأوحى إليه أن يصنع الفلك ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود: ٢٧].

وكان كلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه فقال: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾[هود: ٣٨-٣٩] وكان الطوفان الذى لم ينج منه إلا ركاب السفينة .

حتى كنعان ابن نوح الذى لم يؤمن بالله ولم يركب مع أبيه فى السفينة كان من الهالكين.

---

(١)راجع كتابنا «قصة نوح عليه السلام» طبعةدار العقيدة .

قوم عــاد

كانت مساكن (عـاد) في أرض الأحقاف جهة اليمن، من جـنوب شبه الجزيرة العربية، وتقع شمال حضرموت، وفي شمـالها الربع الخالي، وفي شرقها (عمان) وموضع بلادهم اليوم رمال، ليس بها أنيس ولا سمـير، بعد ذلك العمران والنعيم المقيم، قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[الأحقاف: ٢١].

وعاد هم عـاد إرم، التي تسمـى عاد الأولى، قال تـعالي: ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ ﴾[النجم: ٥٠] وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴾[الفجر: ٦-٨].

وقد قص القرآن ماكانوا عليه من مظـاهر النعمة والترف، قال تعالى: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۝ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾[الشعراء: ١٢٨-١٣٤].

قال ابن كـثير: كانت لهم أصنـام ثلاثة (صدا، وصمودا، وهرا) وكـانوا عرباً جـفاة، عـتاة كـافـرين متـمرديـن على الله، وكان (هود) علـيه السـلام ينذرهم ويحـذرهم عذاب الله، ويضـرب لهم المثل بقوم نـوح ويذكرهم بنعم الله تعـالى عليهم، ويبين لهم أنه لا يطلب على نصـيحته أجراً منهم، ولا يبـتغى جزاءً ولا شكوراً، وكان منهم ناس قد عـتوا عتواً كبيـراً فقد قاوموا دعوته، وسـفهوا رأيه، وعزموا على الفـتك به، ورموه بالسفه والجنون، واتهـموه بأن آلهتهم قـد أصابته بسوء، وأن مايهزى به إنما بسبب مس الآلهة له.

قال تعالي حكاية عنهم: ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ ﴾

[هود: ٥٣-٥٥].

فلما اغتـروا بقوتهم، واستكبروا على الله، وعـتوا عن أمر رسله، وتمادوا في

طغيانهم، أهلكهم الله بالريح العاتية كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾[فصلت: ١٥-١٦] .

ولما كان الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[هود: ١٠٢] فإن الله تعالى حبس عنهم المطر فاستغاثوا، فأرسل عليهم سحاباً، فلمارأوه فرحوا واستبشروا وظنوا أنه مطر غزير، وما كان إلا ريحاً عقيماً، فأهلكهم الله وأبادهم وصارت أجسامهم كأنها أعجاز نخل خاوية. قال تعالي: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥] .

وهذا من عجائب الاستدراج ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾[الأعراف: ١٨٢-١٨٣] وأنجى الله هوداً والذين معه من ذلك العذاب الغليظ .

قوم ثمود

قال تعالي: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾[النمل: ٤٥] ومساكن ثمود بالحجر، ولذلك سماهم الله (أصحاب الحجر) قال تعالي: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾[الحجر: ٨٠-٨١] .

والحجر تقع بين الحجاز والشام وتعرف الآن ب(فج الناقة) وآثار مدائنهم ظاهرة حتى الآن وتسمّ ي(مدائن صالح) قريبة من خليج العقبة .

وقوم ثمود ساروا على درب قوم عاد ـ من قبلهم ـ فى عبادة الأوثان والكفر بالله الواحد الديان، وكانوا أهل خصب ونعيم، فبعث الله إليهم صالح عليه السلام يذكرهم بنعم الله، ويهديهم طريق الفوز والسعادة،

قال تعالى: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾[الشعراء: ١٤٦-١٤٩] .

فآمن بصالح نفر قليل، وأكثرهم كذبوه وكفروا برسالته، وطلبوا منه معجزة تشهد بصدقه فأيده الله بمعجزة الناقة، وقد كانت آية عظيمة دالة على صدق صالح عليه السلام، حيث خرجت الناقة من صخر أصم ورأوا بأعينهم كيف انفلقت الصخرة وخرجت منها ناقة عشراء وقيل لهم: ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾[هود: ٦٤] . وكانت هذه الناقة تشرب ماء القبيلة بأجمعه، وتعطى القبيلة من اللبن بقدر الماء الذى شربته ﴿ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الشعراء: ١٥٥].

يقول ابن كثير: «وقد ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يوماً فى ناديهم، فجاءهم صالح فدعاهم إلى الله وذكرهم وحذرهم ووعظهم فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه ـ وأشاروا إلى صخرة عظيمة ـ ناقة عشراء (يعنى حاملاً) يكون من أوصافها كذا وكذا نؤمن بك ونصدقك، فأخذ عليهم نبى الله العهود والمواثيق على ذلك ثم قام إلى مصلاه فصلى ودعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ماطلبوا فأجاب الله دعاءه فانفطرت الصخرة عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه المطلوب فلما عاينوها رأوا أمراً عظيماً، ومنظراً هائلاً، وقدرة باهرة، ودليلاً قاطعاً، وبرهاناً ساطعاً فآمن بعضهم، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾[الإسراء: ٥٩] .

وقد حذرهم صالح عليه السلام من التعرض للناقة بسوء، فخرج أشقى القوم (قدار بن سالف) فعقرها، وابتدرها الرجال بأسيافهم وفى ذلك يقول سبحانه: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾[الشمس: ١١-١٥].

وقد كان هلاك ثمود بالصاعقة التى دمرتهم قال تعالى:

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[فصلت: ١٧].

والصيحة التى أخذتهم ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾[القمر: ٣١] والرجفة التى زلزلت تحتهم الأرض، قال تعالي: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[الأعراف: ٧٧-٧٨].

وأما صالح والذين آمنوا معه فقد نجوا من العذاب الذى أدرك قومهم بعد ثلاثة أيام من عقر الناقة: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾[الأعراف: ٧٩].

الهلكى من بعدهم

سارت الأيام والليالى سيراً حثيثاً بقوم نوح وعاد وثمود، وقرون بين ذلك كثيراً أسلمتهم إلى ربهم، وقدمت بهم على أعمالهم، فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً .

لقد حاول المؤمن أن يلفت أنظار قومه إلى مصارع الأحزاب قبلهم، وهى شاهدة ببأس الله فى أخذ المكذبين والطغاة

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾[غافر: ٣١] .

كل هؤلاء أخذهم ربنا أخذ عزيز مقتدر، أهلكهم ببأسه الذى لا يُرد عن القوم المجرمين، واقتلعهم من الأرض وهو غير ظالم لهم، وكانوا هم الظالمين، وما أهون الخلق على الله إن هم عصوه، بينما هى أمم ظاهرة قاهرة، تركوا أمر الله وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد، ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾[هود: ٩٨] . وهذا شأن كل طاغية وطاغوت، وهو شأن فرعون ومن تابعه، قال تعالي: ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾[هود: ٩٩-١٠٣].

ولكل حزب كان يوم، ولكن المؤمن يجمعها في يوم واحد ﴿مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾[غافر: ٣٠] فهو اليوم الذى يتجلي فيه بأس الله. وهو يوم واحد فى طبيعته على تفرق الأحزاب ... ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾[غافر: ٣١] . إنما يأخذهم بذنوبهم، وما خلق سبحانه الخلق لكى يعذبهم وقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾[النساء: ١٤٧] أمرهم أن يوحدوه سبحانه، وأن يقيموا واجب العبودية ،فأبى أكثر الناس إلا كفوراً، مخالفين بذلك الكتب المنزلة ومعاندين لمقتضى العقل والفطرة، ومتابعين لوساوس الشياطين التى اجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحل الله لهم وأمرتهم أن يشركوا به سبحانه ما لم ينزل به سلطاناً، فظلموا بذلك أنفسهم ظلماً عظيماً، وأى ظلم أعظم من أن تجعل لله نداً وهو خلقك، وأى تدسية للنفس أكبر من ذلك، لقد تساوي هؤلاء فى ظلمهم لأنفسهم وعتوهم وإجرامهم، ولذلك لاتستبعد حلول العذاب بساحتهم وبكل من كان على شاكلتهم ولذلك قال تعالى عن قوم لوط:

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢-٨٣] .

يوم التناد

زاد المؤمن فى الوعظ والتخويف وأفصح عن إيمانه، إما مستسلماً موطناً نفسه على القتل أو واثقاً بأنهم لا يقصدونه بسوء، فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾[غافر: ٣٢]. وهو اليوم الذى تنادى فيه الملائكة الذين يحشرون الناس للموقف، وسمى بيوم التناد لمناداة الناس بعضهم بعضاً، فينادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم، وينادى أصحاب النار: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾[الأعراف: ٤٤] وينادى أصحاب النار أصحاب الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾[الأعراف: ٥٠] وينادى المنادى أيضاً بالشقوة والسعادة: ألا إن فلان بن فلان قد شقى شقاوة لا يسعد بعدها أبداً، ألا إن فلان بن فلان قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً . وهذا عند وزن الأعمال . وتنادى الملائكة أصحاب الجنة : ﴿أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣] وينادى حين يذبح الموت: يا أهل الجنة خلود لاموت وياأهل النار خلود لاموت وينادى كل قوم بإمامهم .

فالتنادى واقع فى صور شتى وتسميته «يوم التناد» تلقى عليه ظل التصايح وتناوح الأصوات من هنا ومن هناك، وتصور يوم زحام وخصام، فبعض الظالمين ينادى بعضاً بالويل والثبور فيقولون «ياويلنا» وينادى المؤمن: ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ [الحاقة: ١٩] والكافر: ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴾ [الحاقة: ٢٥] وينادى باللعنة على الظالمين، وكل ذلك يحدث يوم القيامة.

إنها صور تبعث على الرهبة، وتدفع من كان له قلب للإنابة وكلها تتفق مع قول الرجل المؤمن: ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ [غافر]

يوم عظيم تذهل فيه المراضع وتضع فيه الحوامل ما فى بطونها وتشيب الولدان وتتطاير الشياطين هاربة فتلقاها الملائكة تضرب وجوهها ويولى الناس مدبرين ينادى بعضهم بعضاً، وقد يكون ذلك فرارهم عند هول جهنم، أو محاولتهم، ولا عاصم يومئذ من أمر الله إلا من رحم، وصورة الفزع والفرار هى أولى الصور هنا للمستكبرين المتجبرين فى الأرض أصحاب الجاه والسلطان .

ثم نبه المؤمن على قوة ضلالتهم وشدة جهالتهم فقال: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [غافر: ٣٣] .

الهدى هدى الله

إذا كان الهدى شيئاً هو له سبحانه، فله أن يعطيه من يشاء ويمنعه ممن يشاء ولا ظلم بين العباد، فقد ركب فى العباد عقولاً، وأودع فيها فطراً وأنزل لهم الكتب وأرسل لهم الرسل، ليحيىَ من حيىَّ عن بينة ويهلك من هلك أيضاً عن بينة، والناس فى الدنيا والآخرة يتقلبون بين فضل وعدل، ولذلك كان علىٌّ بن أبى طالب يدعو ويقول: رب احملنى على فضلك ولاتحملنى علي عدلك .

فمن أسلم وخُتم له بإيمان وأدخل جنات النعيم فهوالمحمول على فضل الله، ولذلك جاء فى الحديث: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، قيل: ولا أنت يارسول الله، قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته». وما الأعمال الصالحة التي نعملها إلا سبباً لدخول الجنة وهي من فضل الله وتوفيقه لنا، قال تعالى: ﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٣] .

والإنسان بحاجة لهداية الله، بل حاجته لذلك أوكد من حاجته للماء والهواء، ولذلك ندعو على الأقل كل يوم خمس مرات ونقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة: ٦] .

ولو وكل الإنسان لنفسه، لوكل إلى عورة وعجز وضعف، ولضل الصراط المستقيم ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾[يوسف: ٥٣] وقد ذكر المؤمن قومه فقال:

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٣] ولعل فيها إشارة خفية إلى قولة فرعون: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] .

وتلميحاً بأن الهدى هدى الله، وأن من أضله الله فلا هادى له، والله يعلم من حال الناس وحقيقتهم من يستحق الهدى ومن يستحق الضلال .

إن الله تعالى يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون . وقد أحاط بكل شئ علماً ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، وقد قضى وقدر كل شئ قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء، وكتب سبحانه كل شئ وفق علمه وحكمته . والقدر سر الله تعالى فى خلقه، لم يطّلع عليه مخلوق، والإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان وهو نظام التوحيد فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده كما قال ابن عباس رضي الله عنهما .

والتسليم للقدر إنما يكون فى المصائب لا فى المعايب، يقول عبد القادر الجيلانى: «كثير من الناس إذا ذُكر القدر أمسكوا، أما أنا فقد نازعت أقدار الحق بالحق للحق» فكما نستدفع قدر الجوع بقدر الأكل وقدر العطش بقدر الشرب، فكذلك نستدفع قدر البلاء بقدر الدعاء، وكلاهما من قدر الله تعالى .

والواجب على كل عبد أن يُسلم وجهه لله، وأن يحرص على طاعته، وأن يتباعد عن موجبات سخطه، ويرجو رحمته ويخشى عذابه، ويوقن أن الله هو الحكم العدل، لايظلم الناس شئ ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾[الأعراف: ١٨٠] .

ومن رحمة الله، أن بعث الرسل هداة مهتدين، وقال فى وصف نبيه ﷺ : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى: ٥٢] أى أنه ﷺ يوضح للخلق طريق

الاستقامة، لا أنه يخلق الهداية فى قلوبهم، فليس ذلك لأحد إلا لله تعالي، وما بعد الهدى إلا الضلال، فكيف يزعم فرعون هداية قومه وقد كفر بالله، وعاند موسى عليه السلام، ولذلك قال المؤمن: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾.

لم ينتفعوا ببينات يوسف

جاء في وعظ مؤمن آل فرعون وتذكيره لقومه: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾[غافر: ٢٤]

وقيل هذا من قول موسي، ذكرهم عتوهم على الأنبياء، وأراد يوسف بن يعقوب جاءهم بالبينات ﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾[يوسف: ٣٩]

قال ابن جريج: هو يوسف بن يعقوب بعثه الله تعالى رسولاً إلى القبط بعد موت الملك من قبل موسى بالبينات وهى الرؤيا.

وقال ابن عباس: هو يوسف بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب أقام فيهم نبياً عشرين سنة. لقد وقف القوم موقف الشك من نبى الله يوسف ومن رسالته وما جاءهم به من الآيات، فذكرهم المؤمن، وقفهم هذا، حتى لايكرروا الموقف مع موسى عليه السلام، فهو من ذرية يوسف، ويصدق ماجاءهم به. وكأن الآيات تصور حالة شكهم فيما جاءهم به يوسف من قبل ولكنهم لم يجهروا بتكذيبه، فهل كان ذلك لأنه أصبح عزيز مصر وصار الحكم والسلطان بيده، فلم يجدوا إلا أن يصانعوه لقد تحقق ليوسف ـ عليه السلام ـ ماراه حال صغره ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾[يوسف: ١٠٠].

ومن المعلوم أن الملك له سطوة على النفوس، ولذلك قال عثمان: «إن الله ليزع بالسلطان مالايزع بالقرآن» وكأنما استراحوا لموت نبى الله يوسف، فراحوا يظهرون ارتياحهم فى هذه الصورة، ورفضهم لما جاءهم به من التوحيد الخالص. فزعموا أن لن يجيئهم من بعده رسول، فهل أخذوا بذلك وعداً من الله، أم هى النفوس المريضة الشاكة، التى أسرفت على نفسها فى التكذيب و الانحراف، ولذلك قال

الرجل المؤمن: ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾[غافر: ٣٤] .

وهذا عدل لاظلم فيه ولاجور معه، وإلا فما الذى يستحقه من ضاق صدره بالأنبياء والمرسلين ؟

وما الذى ينتظره من أسرف على نفسه فى الكفر والذنوب، وارتاب قلبه غير وضوح الحق وبيانه وكثرة حججه وآياته ؟!

مقت المجادلين بلا حجة

ذم الله تعالى الذين يدفعون الحق بالباطل ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة من الله، ولذلك اشتد المؤمن فى مواجهة قومه بمقت الله ومقت المؤمنين لمن يجادل فى آيات الله بغير حجة ولابرهان، فقال: ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾[غافر: ٣٥] .

والسلطان بمعنى الحجة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما .

قال النووى فى [التبيان فى آداب حملة القرآن]: يحرم المراء فى القرآن والجدال فيه بغير حق، فمن ذلك أن يظهر فيه دلالة الآية على شيئ يخالف مذهبه ويحتمل إحتمالاً ضعيفاً موافقة مذهبه فيحملها على مذهبه ويناظر على ذلك مع ظهورها فى خلاف مايقول. وأما من لايظهر له ذلك فهو معذور، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المراء فى القرآن كفر». قال الخطابى: «المراد بالمراء الشك. وقيل: الجدال المشكك فيه . وقيل: وهو الجدال الذى يفعله أهل الأهواء فى آيات القدر ونحوها» أهـ .

وما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أتوا الجدل المذموم، أما الجدال بالحجة لإظهار الحق ودحض الباطل فحسن وهو الذى دل عليه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[العنكبوت : ٤٦].

وأيضاً قوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[النحل: ١٢٥] .

تعليق على مسائل الرازى الثلاث

قال الرازى فى تفسير قوله تعالي: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ [غافر: ٣٥] ما نصه: «ثم بين تعالى ما لأجله بقوا فى ذلك الشك والإسراف فقال: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ [غافر: ٣٥] أى بغير حجة، بل إما بناء على التقليد المجرد، وإما بناء على شبهات خسيسة.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ﴾ [غافر: ٣٥] والمقت هو أن يبلغ المرء فى القوم مبلغاً عظيماً فيمقته الله ويبغضه ويظهر خزيه وتعسه.

قال: وفيه مسائل:

المسألة الأولى: فى ذمه لهم بأنهم يجادلون بغير سلطان دلالة على أن الجدال بالحجة حسن وحق وفيه إبطال للتقليد.

التعليق: التقليد هو إتباع القول بلا دليل ولا برهان، والمقلدون لايستطيعون فهم الكتب ولا الترجيح بين الأقوال والروايات، ولم يؤتوا علماً يميزون به طبقات الترجيح، وقد وصفهم ابن عابدين بقوله: [لايفرقون بين الغث والثمين ولايميزون الشمال من اليمين بل يجمعون ما يجدون كحاطب بليل، فالويل لمن قلدهم كل الويل].

وما عادى الرسل إلا للعادات وتقليد الآباء والأجداد ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]

المسألة الثانية: قال القاضى: مقت الله إياهم يدل على أن فعلهم ليس بخلق الله لأن كونه فاعلاً وماقتاً له محال.

التعليق: هذا خطأ من القاضى وقصور من الرازى -رحمهما الله- فالعباد فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] الله خالق كل شئ و العبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلى والصائم، وللعباد قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة، والله خالقهم وخالق إرادتهم، ولا يكون فى ملكه إلا مايريد، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله. قال تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩] وهذه الدرجة -كما يقول ابن تيمية- يكذب بها عامة القدرية

الذين سماهم النبى ﷺ مجوس هذه الأمة ويغلوفيها قوم من أهل الإثبات حتى سلبوا العبد قدرته واختياره، ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها[١].

المسألة الثالثة: الآية تدل على أنه يجوز وصف الله تعالى بأنه قد يمقت بعض عباده، إلا أن ذلك صفة واجبة التأويل فى حق الله كالغضب والحياء والتعجب والله أعلم . ثم بين أن هذا المقت كما حصل عند الله فكذلك قد حصل عند الذين آمنوا .

التعليق: أخطأ الرازى ـ رحمه الله ـ فى تأويل صفة المقت والغضب والحياء والتعجب وخالف فى ذلك الاعتقاد الذى كان عليه النبى ﷺ وأصحابه والسلف الصالح ومبحث الصفات يرتكز على ثلاثة أسس :[٢].

الأول: تنزيهه ـ جل وعلا ـ عن أن يشبه شئ من صفاته شيئاً من صفات المخلوقين وهذا الأصل يدل عليه قوله تعالي: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[الشورى: ١١].

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[الإخلاص: ٤] فلا تضربوا لله الأمثال .

الثانى: هو الإيمان بما وصف الله به نفسه، لأنه لايصف الله أعلم بالله من الله ﴿ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾[البقرة: ١٤٠] . والإيمان بما وصفه به رسول الله ﷺ ، لأنه لاأعلم بالله بعد الله من رسول الله ﷺ ، الذى قال فى حقه : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[النجم: ٣-٤] .

الثالث: قطع الأطماع عن إدراك حقيقة الكيفية، لأن إدراك حقيقة الكيفية مستحيل وهذا نص الله عليه فى سورة (طه) حيث قال: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾[طه : ١١٠] فكما أن ذات الله لاتشابه ذات المخلوقين، فكذلك صفات الله لاتشابه صفات المخلوقين، فكان الواجب على الرازى ـ رحمه الله ـ إجراء الصفات المذكورة على أساس ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[الشورى: ١١] لا تأويلها كما ذكر، وقد قال الإمام مالك: ـ رحمه الله ـ لما سُئل عن الإستواء: الإستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة .

---

(١) راجع : العقيدة الواسطية ، معارج القبول ، شرح الطحاوية.

(٢) راجع :«منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات » لمحمد أمين الشنقيطي

الطبع على قلوب المتكبرين المتجبرين

القلب ملك مؤمر، والأعضاء تبعاً له، وقد ورد فى الحديث: «ألا وإن فى الجسد مضغةإذا صلحت صلح الجسد كله، ، وإذا فسدت فسد الجسد كله»[1].

ولا ينجو الإنسان من عذاب الله إلا إذا أتى الله بقلب سليم، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[الشعراء: ٨٨-٨٩].

وقد تستحكم أمراض الشهوات والشبهات على القلوب حتى تميتها، والقلب الميت هو القلب الذى لاحياة فيه، فهو لا يعرف ربه ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذاته، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لايبالى إذا فاز بشهوته رضى ربه أم سخط، فهو متعبد لغير الله حباً وخوفاً ورجاءً وسخطاً وتعظيما وذلاً، إن أحب أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه وإن منع منع لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، فالهوى إمامه والشهوة قائده والجهل سائقه والغفلة مركبه .

وقد ورد عن حذيفة رضي الله عنه قال: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن، وقلب أغلف فذلك قلب الكافر، وقلب منكوس فذلك قلب المنافق، عرف ثم أنكر وأبصر ثم عمى، وقلب تمده مادتان مادة إيمان ومادة نفاق وهو للغالب عليه منهما».

وقد وردت النصوص بذكر الطبع والين والقسوة والغشاوة التى تحدث للقلوب المنحرفة، ومنها قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥]

قال ابن كثير فى تفسيره: «﴿ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أى على اتباع الحق ﴿ جَبَّارٍ ﴾ وروى ابن أبى حاتم عن عكرمة وحكى عن الشعبى أنهما قالا: لايكون الإنسان جباراً حتى يقتل نفسين وقال: أبوعمران الجونى وقتادة: آية الجبابرة القتل بغير حق»أ. هـ .

وقال القرطبى: «أى كما طبع الله على قلوب هؤلاء المجادلين فكذلك ﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ ﴾ أى يختم ﴿ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾[غافر: ٣٥] حتى لايعقل الرشاد

(١) رواه البخاري

ولايقبل الحق، وقد ذكر الرازى الفرق بين المتكبر والجبار فقال: قال مقاتل: ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ عن قبول التوحيد ﴿جَبَّارٍ﴾ فى غير الحق، وأقول :كمال السعادة فى أمرين، التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله، فعلى قول مقاتل التكبر كالمضاد للتعظيم والجبروت كالمضاد للشفقة على خلق الله أ هـ.

إن التعبير على لسان الرجل المؤمن، رسالة تحذير للمجادلين فى آيات الله بغير برهان أن يلحقهم المقت، وللمتكبرين المتجبرين من طبع القلوب، حتى ما يبقى فى قلوبهم موضع للهدى ولامنفذ للإدراك .

ظاهره التحقق وباطنه العتو والتمرد

لما قال مؤمن آل فرعون ما قال، وخاف فرعون أن يتمكن كلام هذا المؤمن فى قلوب القوم، أوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد، فإن بان له صوابه لم يُخفه عنهم، وإن لم يصح ثبتهم على دينهم، قال تعالي: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾[غافر: ٣٦-٣٧] .

لقد كان فرعون مصراً على التنكر للحق، ولكنه تظاهر بأنه آخذ فى التحقق من دعوى موسي، ولكنه كان فى حقيقة أمره وواقعه، ما دفعه لذلك إلا العتو والتمرد والإفتراء فى تكذيبه موسى عليه الصلاة والسلام فأمر وزيره هامان أن يبنى له صرحاً وهو القصر العالى المنيف الشاهق وكان اتخاذه من الآجر المضروب من الطين المشوى كما قال تعالي: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ [القصص: ٣٨]، ولهذا قال إبراهيم النخعي: «كانوا يكرهون البناء بالآجر وأن يجعلوه فى قبورهم»(١) وقوله: ﴿لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾[غافر: ٣٦-٣٧] .

قال سعيد بن جبير وأبو صالح: أبواب السموات، وقيل طرق السموات .

﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾[غافر: ٣٧].

وهذا من كفره وتمرده أنه كذب موسى عليه السلام .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم .

استهتار وسخرية من جهة، والتظاهر بالإنصاف والتثبت من جهة أخري، وهذا شأن الطغاة فى كل عصر ووقت، فقد موه فرعون وحاور وداور كى لا يواجه الحق جهرة ولا يعترف بدعوة التوحيد التى تهـز عرشه، وتهدد الأساطير التى قام عليها ملكه .

نعوذ بالله من الخذلان

لقـد زين لفرعـون الشرك والتكذيب وصنعـه الذى أراد أن يوهم به الرعيـة أنه يعمل شـيئاً يتـوصل به إلى تكذيب موسى عليـه السلام، ولهذا قـال تعالي: ﴿ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴾[غافر:٣٧] قال ابن عباس ومجاهد: يعنى إلا فى خسار .

وقد ورد معنى التزيين فى مواضع كثيرة من كتاب الله مثل ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدنيا ﴾[البقرة: ٢١٢] ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ ﴾[آل عمران: ١٤] ﴿ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[يونس: ١٢] ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾[الرعد: ٣٣] ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾[محمد]، ﴿ وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾[الفتح: ١٢] .

وفى تفسير قوله تعالي: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ﴾[فاطر:٨] قال ابن كثير رحمه الله: يعنى كالكفار والفجار يعملون أعمالاً سيئة وهم فى ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، أى أفمن كان هكذا قد أضله الله ألك فيه حيلة، لا حيلة لك فيه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾[فاطر:٨] أى بقدره كان ذلك ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾[فاطر] أى لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم فى قدره إنما يضل من يضل ويهدى من يهدى لما له فى ذلك من الحجة البالغة والعلم التام ولهذا قال تعالي: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾» اهـ.

اللهم زينا بزينة الإيمان، وأصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا لأنفسنا طرفة عين ولا تكلنا لأحد من خلقك، واجعلنا هداة مهتدين .

أيـن اللـــه ؟

ورد على لسان فرعون أنه قال : ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾[غافر: ٣٦-٣٧] فكأن التقدير فأطلع إلى الإلـه الذى يزعم موسى أنه موجـود فى السمـاء، وقوله ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ أى فى ادعائه ذلــك، وذلك يدل على أن دين موسى هو أن الإله مـوجود فى السماء، وهذا علم بديهى مـتقرر فى دعوة جميع الأنبـياء، وفى كل العقول، ولذلك فإن الصبيان إذا تضرعوا إلى الله رفعوا وجوههم وأيديهم إلى السماء، وقد أخبرنا سبـحانه أنه فى السماء مستـو على عرشه ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ [الملك: ١٦-١٧].

وفى الصحيحين عن أبى سعـيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «ألا تأمنونى وأنا أمين من فى السمـاء يأتينى خبر السماء صـباح مساءً» وشهـد للجارية بالإيمان عندما أخبرته أن الله فى السماء .

ففى صـحيح مسلم وسنن أبى داود أن مـعاوية بن الحكم السلمى ضـرب جارية له لتقـصيرها فى الحفـاظ على أغنامه ثم ندم فجـاء إلى الرسول ﷺ نادماً يستـأذنه فى إعتاقـها، فطلبها الرسـول ﷺ وسألها «أين الله ؟ قالت فى السـماء، قال: من أنا ؟ قالت: أنت رسول الله قال: أعتقها فإنها مؤمنة» . وفى حديث عبد الله بن عمر يرفعه «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء»[1].

وليس المراد أن جرم السماء تحويه -سبحانه وتعالى عن ذلك- بل المراد بالسماء العلو والفوقية ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾[الأعلى: ١] ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾[النحل] ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾[الأنعام: ١٨] .

وفى الدعـاء: «وأنت الظاهر فليس فوقك شئ» . وكـانت زينب تفخـر على زوجات الـرسول ﷺ وتقول: «زوجـكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سـبع سموات»[2]

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث صحيح .

(٢) رواه البخاري

وقد وردت النصوص برفع بعض الأشياء أو عروجها وصعودها إليه مثل ماجاء في عيسي: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾[النساء:١٥٨] وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[فاطر: ١٠] وقوله تعالي: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾[المعارج] ومنها إخباره بإنزال الملائكة: ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره﴾ ومن ذلك أن النبي ﷺ كان إذا حزبه أمر رفع يديه إلي العلو يدعوا الله . وإشارته بأصبعه إلى العلو كما فى حديث حجة الوداع .

والسموات ليست بشئ بالنسبة إليه سبحانه: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[الزمر:٦٧] ، ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[الأنبياء:١٠٤].

وربنا ـ جل وعلا ـ مع علوه فهو قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه ويعلم سره ونجواه، وهو أقرب إلى داعيه من عنق راحلته ويعلم ما توسوس به النفوس، وهو أقرب إليه من حبل الوريد وهو يعلم السر وأخفى ويعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء ومايعرج فيها وهو مع خلقه بعلمه وقدرته، لا تخفى عليه منهم خافية، وما يعزب عن ربك مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر فهو سبحانه القريب فى علوه، العلى فى دنوه، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن

التثبت فى نقل الحوادث التاريخية

قالت اليهود: أطبق الباحثون عن تواريخ بنى إسرائيل وفرعون وهامان، أن هامان ما كان موجوداً البتة فى زمان موسى وفرعون وإنما جاء بعدهما بزمان مديد، فالقول بأن هامان كان موجوداً فى زمان فرعون خطأ فى التاريخ، وهذا قول اليهود، الذين كتبوا الكتاب بأيديهم، ثم نسبوه لله تعالي، فكيف نثق فى الكتب والمصادر المحرفة والمغيرة والمبدلة كالتوراة، أو كيف نثق فى كلمات بعض الباحثين التاريخين، التى تخالف كلام العليم الخبير !!!

إن تواريخ موسى وفرعون قد طال العهد بها واضطربت الأحوال والأدوار فلم يبق على كلام أهل التواريخ اعتماد فى هذا الباب . فكان الأخذ بكلام الله هو الواجب، فليس هناك كتاب فى الأرض يوضح تاريخ العقيدة بصدق إلا كتاب الله

سبحانه وتعالى، ففيه علم غزير فى هذا الموضوع، وعلم البشر لا يمكن أن يدرك هذا الجانب إدراكاً وافياً لأسباب: (١)

الأول: أن مانعرفه عن التاريخ الإنسانى قبل خمسة آلاف عام قليل أما ما نعرفه قبل عشرة آلاف عام فيعتبر أقل من القليل . وما قبل ذلك فيعتبر مجاهيل لا يدرى علم التاريخ من شأنها شيئاً، لذا فإن كثيراً من الحقيقة ضاع بضياع التاريخ الإنسانى .

الثاني: أن الحقائق التى ورثها الإنسان اختلطت بباطل كثير، بل قل ضاعت فى أمواج متلاطمة فى محيطات واسعة من الزيف والدجل والتحريف، ومما يدل على ذلك أن كتابة تاريخ حقيقى لشخصية أو جماعة ما فى العصر الحديث تعتبر من أشق الأمور فكيف بتاريخ يمتد إلى فجر البشرية ؟!

الثالث: أن قسماً من التاريخ المتلبس بالعقيدة لم يقع فى الأرض بل فى السماء لذا كان الذى يستطيع أن يمدنا بتاريخ حقيقى لا لبس فيه هو الله ـ سبحانه وتعالي: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾[آل عمران: ٥].

الحكمة فى خلق الأفلاك والنجوم

ذهب قوم إلى أنه تعالى خلق الأفلاك وحركاتها بحيث تكون هى الأسباب لحدوث الحوادث فى هذا العالم الأسفل، واحتجوا بقوله تعالي: ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ۝٣٦ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ [غافر: ٣٦-٣٧] قالوا: ومعلوم أنها ليست أسباباً إلا لحوادث هذا العالم، قالوا: ويؤكد هذا بقوله تعالى فى سورة ص: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ﴾[ص: ١٠] أما المفسرون فقد ذكروا فى تفسير قوله تعالي: ﴿ لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ۝٣٦ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾[غافر: ٣٦-٣٧] أن المراد بأسباب السموات طرقها وأبوابها وما يؤدى إليها، وكل ما أدراك إلى شئ فهو سبب كالرشاد ونحوه .

روى البخارى ومسلم عن زيد بن خالد ﷺ قال: «صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أصبح

(١) العقيدة في الله للأشقر صـ٢٤٥ .

من عبادى مؤمن بى وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بى مؤمن بالكوكب» .

فالإنسان إذا قال مُطرنا بنوء كذا معتقداً أن للنوء تأثيراً فى إنزال المطر، فهذا كفر لأنه أشرك فى الربوبية، والمشرك كافر، وإن لم يعتقد ذلك فهو من الشرك الأصغر لأنه نسب نعمة الله إلى غيره، ولأن الله لم يجعل النوء سبباً لإنزال المطر فيه، وإنما هو فضل من الله ورحمة يحبسه إذا شاء وينزله إذا شاء . قال القرطبى: وكانت العرب إذا طلع نجم من المشرق وسقط آخر من المغرب فحدث عند ذلك مطر أو ريح، فمنهم من ينسبه إلى الطالع ومنهم من ينسبه إلى الغارب، نسبة إلى إيجاد واختراع، ويطلقون ذلك القول المذكور فى الحديث فنهى الشارع عن إطلاق ذلك، لئلا يعتقد ولا يتشبه بهم فى نطقهم. أ هـ .

وفى تفسير قوله تعالي: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[الواقعة: ٨٢] أى تقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، بنجم كذا وكذا «وعن أبى مالك الأشعرى ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لايتركونهن ـ الفخر بالأحساب والطعن فى الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة»(١) .

وقوله فى الحديث: «والاستسقاء بالنجوم» أى: نسبة المطر إلى النوء وهو سقوط النجم . وقد جعل الله تعالى النجوم، يُهتدى بها فى ظلمات البر والبحر وزينة للسماء ورجوماً للشياطين، وآية مشهودة دالة على عظيم قدرته سبحانه، فمن تكلف بعد ذلك واعتقد أن الكوكب فاعل مدبر منشئ للمطر فلا شك فى كفره، ومن قاله معتقداً أنه من الله ورحمته وأن النوء ميقات له وعلامة بالعادة فهذا لا يكفر، ويحرم ذلك فى أظهر الأقوال، كما لايجوز إدعاء معرفة الغيب كما يعتقده المنجمون .

وعن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد»(٢)

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه أبو داود وغيره وصححه الألباني.

دعوته فرعون لإتباع سبيل الرشاد

أمام مراوغة فرعون واستهتاره وإصراره على الكفر، لم يجد مؤمن آل فرعون إلا أن يلقى كلمته الأخيرة مدوية صريحة: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[غافر: ٣٨].

وقد كان يدعوهم إلى الإيمان بموسى والتمسك بطريقته، وهذا هو الرشاد الحقيقى، لا الزائف الذى دعاهم إليه فرعون حين قال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[غافر: ٢٩] فقد سمى الغواية والضلال رشاداً، وهذا من تزييفه وتلبيسه الحق بالباطل، فكان لابد من ردعه على جبروته ورد الحق إلى نصابه ليحيىَ من حىّ عن بينة ويهلك من هلك أيضاً عن بينة ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[الأنبياء: ١٨] إنها الحجة البينة يقيمها أتباع الأنبياء على من انحرف عن منهج الله.

واعلم أن مؤمن آل فرعون نادى فى قومه ثلاث مرات: فى المرة الأولى دعاهم إلى قبول ذلك الدين على سبيل الإجمال، وفى المرتين الباقيتين على سبيل التفصيل.

أما الإجمال فهو قوله: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[غافر: ٣٨] وليس المراد بقوله: ﴿اتَّبِعُونِ﴾ طريقة التقليد، لأنه قال بعده: ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ والهدى هو الدلالة، ومن بيّن الأدلة للغير يوصف بأنه هداه، وسبيل الرشاد هو سبيل الثواب والخير وما يؤدى إليه وهو أيضاً طريق الهدى والجنة، والرشاد نقيض الغى، وفيه تصريح بأن ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغى. إنها كلمة حق خرجت ممن لا يخاف فى الله لومة لائم.

الدنيا دار من لا دار له

انتقل المؤمن من الإجمال إلى التفصيل، فبين حقارة الدنيا، وأنه يُستمتع بها فى أيام قليلة، ثم تنقطع وتزول، ولذلك قال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾[غافر: ٣٩] فهى منقضية منقرضة، ولذلك قال البعض: لو كانت الدنيا ذهباً فانياً، والآخرة خزفاً باقياً، لكانت الآخرة خير من الدنيا، فكيف والدنيا خزف

فان، والآخرة ذهب باق، ومثل الدنيا كقطعة الثلج الموضوعة فى الشمس لا تزال فى الذوبان حتى تنتهى، وهى كماء البحر، يظل الإنسان يشرب منه ويموت وهو عطشان، وهى دار من لا دار له، ولها يجمع من لا عقل له وقد مدح الله تعالى الزهد فى الدنيا وذم الرغبة فيها فقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[الأعلى: ١٦-١٧]

وقال: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾[الرعد: ٢٦] وقال: ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾[القيامة: ٢٠-٢١]

وقد بين رسول الله ﷺ حقارة الدنيا فعن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ مر بالسوق والناس كنفتيه، فمر بجدى أسك ميت فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال: «أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم ؟ فقالوا: مانحب أنه لنا بشئ وما نصنع به ؟!! ثم قال: أتحبون أنه لكم ؟ قالوا: والله لو كان حياً كان عيباً فيه لأنه أسك فكيف وهو ميت؟ فقال: والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم[١]. وفى الحديث: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء» [٢].

وفى الحديث أيضاً: «ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع»[٣] والنصوص فى هذا المعنى كثيرة .

واعلم أن محبة الدنيا تعترض بين العبد وبين فعل ما يعود عليه نفعه فى الآخرة، فمن الناس من ينشغل بها عن الإيمان وشرائعه ومنهم من يشغله حب الدنيا عن كثير من الواجبات وأقل درجات حبها أن يشغل عن سعادة العبد، وهو تفريغ القلب لحب الله ولسانه لذكره، وبالجملة فمن أحب دنياه أضر بآخرته ولابد .

وقد كان فرعون من الحمق بمكان، فقد باع آخرته بدنيا لا بقاء لها ولا وفاء، وقال لقومه : ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١] فمات يوم مات، والأنهار تجرى من فوق رأسه، جزاءً وفاقاً، وأحمق من فرعون هؤلاء القوم، الذين تابعوه على كفره، وباعوا آخرتهم بدنيا غيرهم، ولذلك قال

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه الترمذي وقال الألباني : صحيح لغيره
(٣) رواه مسلم .

لهم المؤمن: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾[غافر: ٣٩] فلا تفتنوا بسببها، ولا تنشغلوا بها عن طاعة ربكم فهى ظل زائل وعارية مسترجعة، والنفس فيها إلى موت، والمال فيها إلى فوت .

الآخرة دار القرار

الآخرة هى دار القرار والبقاء والدوام، النعيم فيها دائم وكذلك العذاب فيها دائم . فالترغيب فى النعيم الدائم والترهيب عن العذاب الدائم من أقوى وجوه الترغيب والترهيب، والآخرة كثيراً ما تذكر فى مقابلة الدنيا، والتذكير بهذه وتلك من أنفع أساليب الدعوة إلى الله ولذلك قال المؤمن: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾[غافر: ٣٩] فالذى يؤثر الدنيا على الآخرة من أسفه الخلق وأقلهم عقلاً، إذ آثر الخيال على الحقيقة والمنام على اليقظة، والظل الزائل على النعيم الدائم، والدار الفانية على الدار الباقية .

كان شداد بن أوس يقول: إن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر وإن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قاهر، ولكل دار بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا .

وقال يونس بن عبد الأعلى: ما شبهت الدنيا إلا كرجل نام فرأى فى منامه ما يكرهه وما يحبه، فبينما هو كذلك انتبه أن اليوم عمل ولاحساب وغداً حساب ولاعمل.

فالواجب على العاقل اللبيب، أن تكون حساباته حسابات أخروية وأن يكون من أهل الآخرة وهو مازال يأكل ويشرب . . . ويحيا على ظهر الأرض، لا يغفل عن الغاية التى من أجلها خلق، ويعلم أن المرجع والمآب إلى الله .

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، فيذبح بين الجنة والنار، ويقال: ياأهل الجنة خلود بلا موت، وياأهل النار خلود بلا موت»(١).

---

(١) رواه البخاري .

قال تعالي: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾[مريم: ٣٩-٤٠] .

إن لم يكن فى الجنة إلا الخلود لكفى فكيف وأهلها يُنادى عليهم: ياأهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، فذلك قول الله عز وجل: ﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[الأعراف: ٤٣][(١)] وفى الحديث: «لقاب قوس أحدكم فى الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو تغرب»[(٢)].

لقد خلط المؤمن الرغبة بالرهبة، وذكر قومه بالآخرة وهو يدعوهم للإيمان، وبينّ لهم أن الدنيا والآخرة حسبة واحدة وطريق واحد، وأن السعادة فى الدارين تكمن فى إسلام الوجه لله والخضوع لأمره، والعمل بحكمه سبحانه، إنها دعوة من أحسن التأسى بالأنبياء والمرسلين . . . .

قاعدة الحساب فى الآخرة

قرر المؤمن لقومه قاعدة الحساب والجزاء في دار القرار فقال: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر: ٤٠].

فمن فضل الله أن تضاعف الحسنات ولا تضاعف السيئات، رحمة من الله بعباده وهذا دافع للمنافسة فى طاعة الله واستباق الخيرات وسلوك طريق الإستقامة، فضاعف لهم الحسنات، وجعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم، والسيئة بمثلها وهى إلى العفو أقرب، ولن يهلك على الله إلاهالك، ولذلك قالوا: ويل لمن غلبت آحاده عشراته، وقد جعل سبحانه الحسنات كفارة للسيئات كما فى الحديث: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها» فإذا هم وصلوا إلى الجنة بعد الحساب، رزقهم الله فيها بغير

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه البخاري .

حساب وقد فسر البعض قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ يعنى الشرك ﴿فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ وهو العذاب ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾.

قال ابن عباس: يعني لا إله إلا الله ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ مصدق بقلبه لله والأنبياء ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[غافر: ٤٠] أى لا يتقدر بجزاء بل يثيبه الله عز وجل ثواباً كثيراً، لا انقضاء له ولا نفاد.

وهذه الآية فيها توضيح كيف تحصل المجازاة فى الآخرة، وفيها اشارة إلى أن جانب الرحمة غالب على جانب العقاب. وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتى تغلب غضبى»(١) وفى رواية: «غلبت غضبى» وفي رواية: «سبقت غضبى» والمراد بالمثل الوارد فى قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا﴾[غافر: ٤٠] أى ما يقابلها فى الاستحقاق.

فالكافر يفترق عن مرتكب الكبيرة، وسيئة الأول، تختلف عن سيئة الثانى ولذلك تفاوتت عقوبتهما، فالأول يخلد فى النار، بينما يقع الثانى تحت المشيئة، فإن شاء الله غفر له بفضله، وإن شاء عاقبه بعدله، وهذا فيمن لم يتب ثم مرتكب الكبيرة إن دخل النار، لا يدخلها دخول الكفار ولا يعذب فيها عذاب الكفار ولا يخلد فيها خلود الكفار.

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

واعلم أن هذه الآية: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا﴾[غافر: ٤٠] تعتبر أصلاً كبيراً فى علوم الشريعة فيما يتعلق بأحكام الجنايات، فإنها تقتضى أن يكون المثل مشروعاً، وأن يكون الزائد على المثل غير مشروع، وهناك أحكام كثيرة فى باب الجنايات على النفوس وعلى الأعضاء وعلى الأموال يمكن تفريعها على هذه الآية.

وإذا كان جزاء السيئة له حساب وتقدير، لئلا يزيد على الاستحقاق، فإن جزاء العمل الصالح بغير تقدير وحساب، بل ماشئت من الزيادة على الحق والكثرة والسعة وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ، قال الله عز وجل: « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر مصداق ذلك فى كتاب الله: ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[السجدة: ١٧](١).

والعمل الصالح الذى ينجو به الإنسان فى الآخرة من العذاب، لا بد و أن يكون على أساس من الإيمان، ولذلك دائماً ما يقترن الإيمان بالعمل الصالح كما فى هذه الآية ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾[النحل: ٩٧] والإيمان قول وعمل أو هو قول باللسان وإقرار بالجنان وعمل بالأركان وهذا يستوى فيه الرجل والمرأة، فالنساء شقائق الرجال فى الأحكام، والمؤمن منهما إذا مات على ذلك يصدق عليه قوله تعالي: ﴿ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[غافر: ٤٠].

التعجب بلغ منتهاه

ماذا تملك إزاء من واجه الإحسان بالإساءة، والمعروف بالمنكر، والوفاء بالغدر والخيانة، إن الإنسان ليتعجب عندما يكون حريصاً على حياة الآخرين، وهم يسعون جاهدين لإهلاكه، أو أن يستدخلوا الحزن والتكدير عليه فى الوقت الذى يبذل فيه قصارى جهده لإسعادهم، وأشد الصور غرابة ما يتعلق بالآخرة، أن تدعو الناس إلى رضوان الله والجنة، وهم فى المقابل يدعونك لسخطه والنار، أن تدلهم على الطريق المستقيم، وهم يأبون إلا أن يسيروا فى الطرق المعوجة ويحملونك معهم قسراً وكرهاً، لقد بلغ التعجب مداه ومنتهاه فاستأنف المؤمن دعوته ونادى فى المرة الثالثة وقال: ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾[غافر: ٤١]. يعنى أنا أدعوكم إلى الإيمان الذى يوجب النجاة وتدعوننى إلى الكفر الذى يوجب النار .

فإن قيل: لِمَ كرر نداء قومه، ولِمَ جاء بالواو فى النداء الثالث دون الثانى؟ فالجواب كما قال الرازى: « أن تكرير النداء فيه زيادة تنبيه لهم وإيقاظ من سنة

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

الغفلة، وإظهار أن له بهـذا المهم مزيد اهتمام، وعلى أولئك الأقوام فـرط شفقة، وأما المجئ بالواو العـاطفة فلأن الثانى يقـرب من أن يكون عين الأول، لأن الثانى بيان للأول والبيان عين المبين، وأما الثالث فـلأنه كلام مباين للأول والثانى فحسن إيراد الواو العاطفـة، ولما ذكر هذا المؤمن أنه يدعوهم إلى النجـاة وهم يدعونه إلى النار، فـسر ذلك بأنهم يدعـونه إلى الكفر بالله وإلى الشـرك به، أما الكفـر بالله فلأن الأكـثرين من قـوم فرعـون كانوا ينكرون وجـود الإله، ومنهم من كـان يقر بوجود الله إلا أنه كان يثبت عبادة الأصنام» أ هـ .

لقد دعـاهم المؤمن إلى الحياة الحـقيقـية والسعادة الأبديـة، فكانت دعوتهم له للدخول فى كـفرهم هى جزاؤه ومكافأته!!! وهم لم يدعـوه إلى النار، إنما دعوه إلى الشرك وما الفـرق بين الدعوة إلى الشرك والدعوة إلي النـار ؟ إنها قريب من قريب فالكفر سبب الخلود فى النار، والمؤمن يخـاف أن يعود فى الكفر كما يخاف أن يقذف فى النار .

﴿ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾[غافر: ٤٢].

شتـان بين دعوة ودعوة، إن دعوته لهم واضـحة مسـتقيمـة، إنه يدعوهم إلى العزيز الغفار . يدعوهم إلى إفراد الله بالعبادة، يدعوهم إليه ليغفر لهم وهو القادر على أن يغـفر، فـإلى أى شئ يدعـونه ؟ يدعونه للكـفر بالله عن طريق إشـراك مـالاعلم له به من مدعـيات زيفـوها رغم قـصورها ،وصنعـوا منها آلهـة، رغم معرفتهم أنها مخلـوقة مربوبة، إن هؤلاء الشركاء ليس لهم من الأمر شئ، وليس لهم شأن لا فى دنيـا ولا فى آخرة، وإن المرد لله وحده، وأن المسرفين المتـجاوزين فى الإدعاء سيكونون أهل النار ﴿ لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ [غافر: ٤٣] .

إنهـا الحقـيقـة التى يجب على الدعـاة إلى الله أن يعـوها، وهى أن الناس من حولهم، لهم دعـوة يعيشـون بها ولأجلها، والدعوات الـباطلة كثيـرة، ومالحق إلا واحد، وأنت إن لم تدع الآخـرين صرت مـحلاً لدعواتـهم، فاختـر لنفسك فـهذا سيدعوك لدنياه، وهذا يدعوك لقوميـته، وهذا لاشتراكيته . . . وهذا لكأس خمر أو

لمصاحبة النساء، فبادر أنت وسارع بدعـوة العباد لسلوك طريق الإستقامة، وإن نسيت مهـمتك ودعوتك فـتذكر أن المرجع والمآب إلى الله حـيث يُجازى المحسن بإحـسانه والمسيئ بإساءته .

وأفـوض أمـرى إلى اللـه

ماذا يبقى بعد هذا البـيان الواضح الشامل لهذه المعانى الإيمانية ؟ وقـد جهر بها الرجل فى مواجـهة فرعـون وملئه بلا تردد ولا تلعـثم، بعد ما كـان يكتم إيمانه، فأعلن عـنه هذا الإعلان، لايبقى إلا أن يفـوض أمره إلى الله، وقـد قال كلمـته وأراح ضمـيره، مهدداً إياهم بأنـهم سيذكرون كلمـته هذه فى موقف لا تنفع فـيه الذكرى والأمر كله إلى الله :

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [غافر : ٤٤]

وقول المؤمن: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ أى سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه ونصـحتكم ووضحت لكم وتتذكرونه حـيث لا ينفعكم الندم، وهذا كلام مـبهم يوجب التـخويف ويحـتمل أن يكون المراد أن هذا الذكـر يحصل فى الدنيا وهو وقت الموت، وأن يكون فى القيامة وقت مشاهدة الأهوال وبالجملة فهو تحذير شديد، ثم قال: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أى وأتوكل على الله وأستعينه لو أقاطعكم وأباعدكم، وهذا كـلام من هُدد بأمر يخافه فكأنهم خـوفوه بالقتل، وهو أيضاً خوفهم بقوله :﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ .

ثم عـول فى دفع تخويفـهم وكيـدهم ومكرهم على فضل اللـه تعالى فـقال: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ وهو إنما تعلم هذه الطريقة من موسى عليه السلام، فإن فرعون لما خوفه بالقـتل رجع موسى فى دفع ذلك الشر إلى الله حيث قال: ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾[غافر : ٢٧] .

اختبـار شديد، تتجلى بسببـه معادن الرجال، وتتـفاوت فيه درجـات الثبات، ووقوف المؤمن فى مواجـهة فرعون وملئه يمثل صورة من صـور إنتصار الإيمان فى كل عصر ووقت ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[الروم: ٤٧] لقد انتهى الجدل والحوار، وقد سجل المؤمن كلمة الحق خالدة، تتـلى فى كتاب الله، وعليها تتربى الأجيال المؤمنة فى عسرها ويسـرها ومنشطها ومكرهها، تبلغ الحق للخلق وتصدع

بكلمة الإيمان فى وجه الطغاة والطواغيت، وهى تعلم وتوقن، أن الأمر كله بيد الله، لابيد أحد سواه ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[غافر: ٤٤] أى هو بصير بهم تعالى وتقدس فيهدى من يستحق الهداية ويضل من يستحق الإضلال وله الحجة البالغة والحكمة التامة والقدر النافذ .

من حفظ الله حفظ نفسه

كل مقدمة ولها نتيجة، وكل عقيدة ولها تأثير، وفى الحديث [احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك] ومؤمن آل فرعون لما حسن ظنه بالله عز وجل وقال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾[غافر: ٤٤] أى أسلمه إلى الله ليعصمنى من كل سوء كان الجواب من الله عز وجل: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ [غافر: ٤٥] وهذا هو فعل الله بأوليائه، إذا توكلوا عليه وأنابوا وفوضوا الأمر له سبحانه وتعلقت به قلوبهم فى جلب النفع ودفع الضر، إنها التربية الإيمانية التى تجعل العبد يستشعر أنه لا حول ولا قوة إلا بالله ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[النمل: ٦٢] فهو سبحانه الذى يجيب المضطر ويكشف الضر، علم ذلك المؤمن، فلم يعول على حوله ولا على طوله وذكائه، بل قال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾[غافر: ٤٤] بعد أن جهر بكلمة الحق، وهو يعلم نتيجة موقفه، فلم ترهبه صولة الباطل، لأنه قد اعتصم بجناب الله ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

إنه الموقف الذى تضطرب فيه القلوب وتتزلزل فيه الأقدام، ولكنه الإيمان الذى يصنع الأعاجيب، ومعانى التوفيق والتسديد والتثبيت التى يمن الله بها على من يشاء من عباده، فتكون هذه النماذج التى تأسر البشر فى كل عصر ووقت، إن موقف مؤمن آل فرعون شبيه بموقف صاحب يس، وبموقف سحرة فرعون عندما آمنوا، وشبيه بموقف الصحابة يوم الأحزاب، يقول تعالي: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[الأحزاب: ١٠-١١] .

لقد رمتهم قريش نجيلها وحيلائها، وكان الصحابة ﷺ في شدة البرد وشدة الجوع وشدة الخوف، فلما رأوا الأحزاب، قالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢] فكانت النتيجة، كما قال الله تعالي: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥] وكان هذا هو موقفهم يوم حمراء الأسد - صبيحة يوم أحد - فقد استنفرهم النبي ﷺ فخرجوا على ما بهم من جراح ولذلك أثنى عليهم سبحانه بقوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٧٢-١٧٤] .

ومن قبل هؤلاء، كانت المواقف الإيمانية، التى ضرب بها الأنبياء والمرسلون أروع المثل، ومن ذلك موقف النبى ﷺ يوم الهجرة، وموقف إبراهيم عندما أضرموا له النيران، وموقف نبى الله موسى عندما كان البحر أمامه وفرعون وملئه خلفه ووراءه .

إن للإيمان تكليفات وتبعات يؤديها المؤمن صابراً محتسباً حتى وإن كلفه نفسه.

تدبير الكافر تدميره وكيده يرتد إلى نحره

لقد طويت الدنيا وعرضت أول صفحة بعدها، فإذا الرجل المؤمن الذى قال كلمة الحق ومضي، قد وقاه الله سيئات مكر فرعون وملئه، فلم يصبه من آثارها شئ فى الدنيا، ولا فيما بعدها أيضاً، بينما حاق بآل فرعون سوء العذاب: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

لم يقصر مؤمن آل فرعون فى تقرير الدين الحق، وفى الذب عنه، ولم يسلمه سبحانه لأعدائه، بل تولى عنه رد كيد الكافرين وقصد القاصدين ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ أى فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فنجاه الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام، وأما فى الآخرة فبالجنة .

وكان المؤمن لما صرح بتقرير الحق فقد قصدوه بنوع من أنواع السوء، قال مقاتل: لما ذكر هذه الكلمات قصدوا قتله فهرب منهم إلى الجبل فطلبوه فلم يقدروا عليه، وقيل: المراد بقوله: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ أنهم قصدوا إدخاله في الكفر وصرفه عن الإسلام، فوقاه الله ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾[غافر:٤٥] وهو الغرق في اليم ثم النقلة منه إلى الجحيم، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحاً ومساءً إلى قيام الساعة فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[غافر:٤٦] أي أشده ألماً وأعظمه نكالاً وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب أهل البرزخ ـ كما قال ابن كثير وهي قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[غافر:٤٦] .

ونقل القرطبي في تفسيره عن مجاهد وعكرمة ومقاتل ومحمد بن كعب كلهم قال: هذه الآية تدل على عذاب القبر في الدنيا، ألا تراه يقول عن عذاب الآخرة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[غافر:٤٦] .

وفي الحديث عن ابن مسعود: «أن أرواح آل فرعون ومن كان مثلهم من الكفار تُعرض على النار بالغداة والعشي فيقال: هذه داركم»، وعنه أيضاً: «إن أرواحهم في أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح كل يوم مرتين فذلك عرضها»... وكان أبو هريرة إذا أصبح ينادي: أصبحنا والحمد لله وعُرض آلُ فرعون علي النار، فإذا أمسى نادى أمسينا والحمد لله وعُرض آل فُرعون على النار، فلا يسمع أبا هريرة أحد إلا تعوذ بالله من النار .

وفي حديث صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قال رسول الله ﷺ : «إن الكافر إذا مات عُرض على النار بالغداة والعشي» وخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة» .

وفي الحديث الذي رواه البخاري: «نعم عذاب القبر حق» قالت عائشة رضي الله عنها: «فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر» .

والقبر إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النيران، والحياة البرزخية فى القبور، لا يعلم كيفيتها إلا الله، والإنسان حتى وإن أغرق فى البحر أو ذر رماده فى الهواء أو أكلته السباع، فإنه يحىً حياة البرزخ وينعم أو يعذب . وأحاديث عذاب القبر كثيرة جداً .

وقال قتادة فى قوله تعالي: ﴿ غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ صباحاً ومساء ما بقيت الدنيا يقال لهم: يآل فرعون هذه منازلكم، توبيخاً ونقمة وصغاراً لهم، وقال ابن زيد: هم فيها اليوم يغدى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة .

٭٭٭٭٭

الخاتمة

لا يستوى المؤمن والكافر فى الحياة ولا عند الممات، والفارق كبير بين من أطاع ومن عصى وبين من قال: ﴿ربى الله﴾ ومن قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤] لقد أضل فرعون قومه وما هدي، عاش ضالاً غاوياً ومات يوم مات وهو يقول: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[يونس: ٩٠]

فقيل له: ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾[يونس: ٩١-٩٢] .

لقد كان ينشد أمناً ولكنه لم يأخذ بأسبابه، وجرت الأنهار من فوق رأسه ليكون عبرة للمعتبرين، إن الأمن التام والإهتداء التام إنما يكون لمن آمن بالله ولم يشرك معه آلهة أخرى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[الأنعام: ٨٢] والظلم الوارد فى الآية بمعنى الشرك كما ورد فى الحديث .

وبينما تحقق الأمن لمؤمن آل فرعون، فقد خسر فرعون خسراناً مبيناً، ولم يشفع له ملكه ولم يمنعه جنده وملئه، سارت به الأيام والليالى سيراً حثيثاً، فقدمت به على ربه وقربته من عمله ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾[غافر: ٤٦].

﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾[فاطر: ٤٣] .

وماذا عليهم لو آمنوا ؟! كانوا سيكسبون الدنيا والآخرة، ويأكلون من فوق رؤوسهم ومن تحت أرجلهم، ولكن غلب عليهم الشقاء، وأبدلوا بالنعيم ناراً تلظي، فياحسرتا على العباد، ونعوذ بالله من الخذلان، وماذا كان يضيرهم لو أنهم أسلموا وجوههم لله، ووافقوا العقل والفطرة، وانقادوا للكتب المنزلة واتبعوا المرسلين ؟!

كانوا سينتقلون من هذه الدار بسلام إلى دار السلام، إن الحياة بغير الله سراب ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[الحج: ٤٦] .

كان عطاء يقول: رب ارحم فى الدنيا غربتى وفى القبر وحدتى وطول مقامى غداً بين يديك .

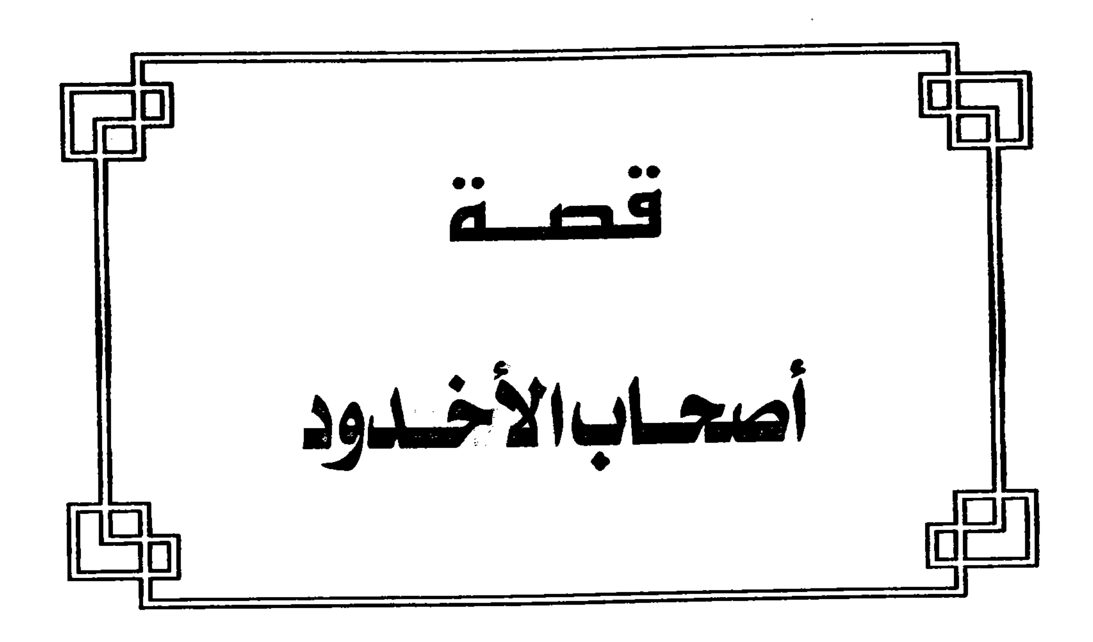
وكان شميط بن عجلان يقول: من جعل الموت نصب عينيه لم يبال بضيق الدنيا ولا بسعتها، وقال: إن الله عز وجل وسم الدنيا بالوحشة ليكون أنس المطيعين به .

وقال العلاء: لينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه عز وجل فأقاله فليعمل بطاعة الله عز وجل. وقال قتادة: من يتق الله يكن الله معه، ومن يكن الله عز وجل معه فمعه الفئة التي لا تُغلب، والحارس الذى لا ينام والهادى الذى لايضل.

وكان عون بن عبد الله بن عتبة يقول: ما أحد ينزل الموت حق منزلته إلا عد غداً ليس من أجله، كم من مستقبل يوماً لا يستكمله، وراج غداً لا يبلغه، لو تنظرون إلى الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره وقال كان أهل الخير يكتب بعضهم إلى بعض بهؤلاء الكلمات الثلاث ويلقى بها بعضهم بعضاً، من عمل لآخرته كفاه الله عز وجل دنياه، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته وكان داود الطائى يقول : ما أخرج الله عبداً من ذلة المعاصى إلى عز التقوى إلا أغناه بلا مال، وأعزه بلا عشيرة، وآفه بلا بشر .

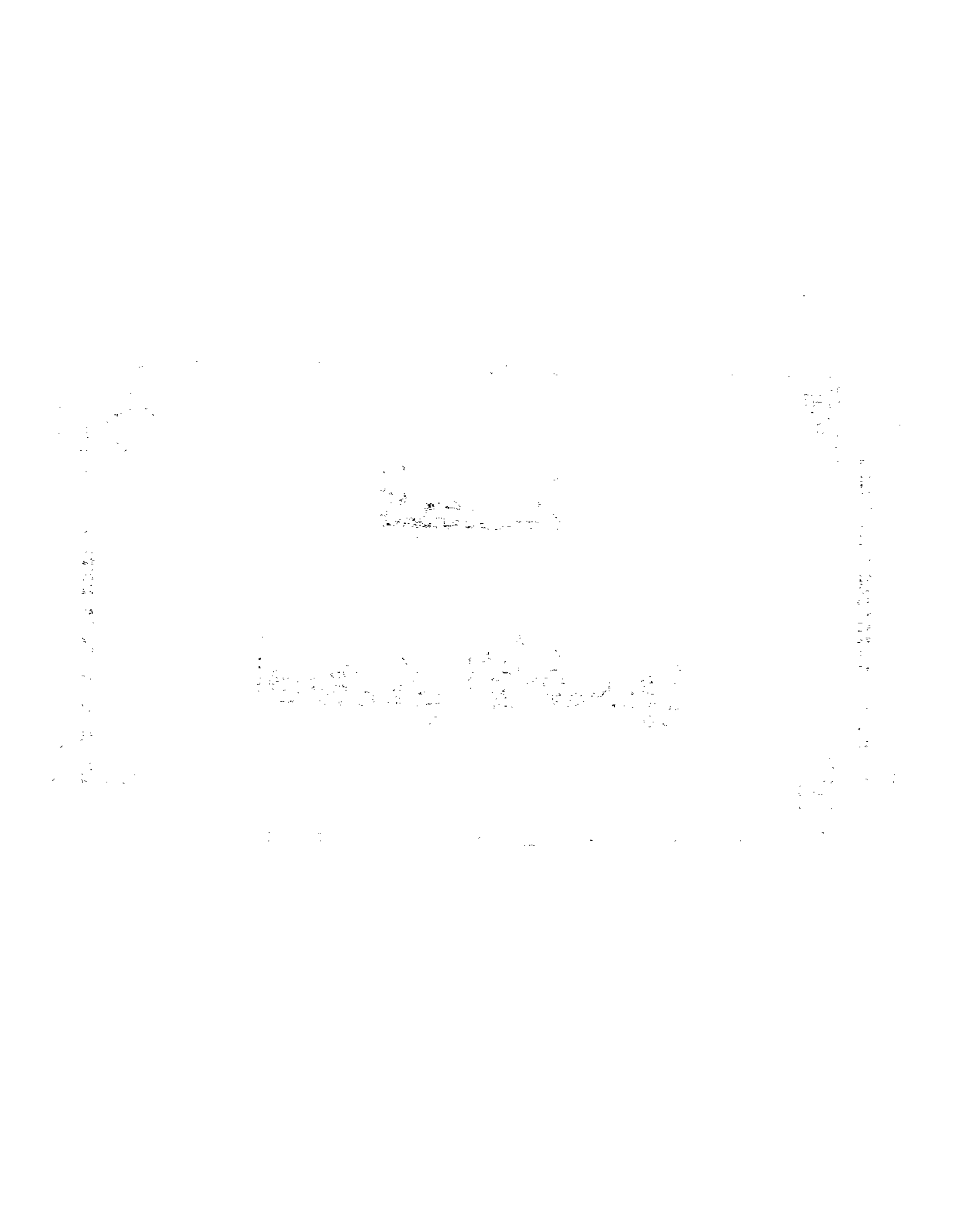
لقد كان مؤمن آل فرعون حياً وسط موتي، وكأنه قال بلسان حاله: ما أصغر ما بذلت وما أحقر ما تركت وما أيسر ما فعلت فى جنب ما أملت، نظر بقلبه إلى ما بين يديه فأعشى بصرُ قلبه بصرَ العيون، فكأنه لم يبصر ما إليه ينظرون وكأنهم لا يبصرون ما إليه ينظر، فهم منه يعجبون، وهو منه يتعجب، فلما نظر إليهم راغبين مغرورين، قد ذهبت على الدنيا عقولهم، وماتت من حبها قلوبهم وعشقتها أنفسهم، وامتدت إليها أبصارهم، استوحش منهم وقال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤].

اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين واجعلنا بمنك وكرمك هداة مهتدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



قصة

أصحاب الأخدود



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمد عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار.

تصدر قصة الغلام وأصحاب الأخدود فى وقت تتوالى فيه أخبار المذابح الجماعية وحرب الإبادة التى تتم للمسلمين فى كوسوفو على أيدى الصرب الصليبيين الغاشمين، وشبيه بذلك ما فعلوه مع المسلمين فى البوسنة والهرسك، وذلك حتى لا تقوم للمسلمين دولة فى وسط أوربا، ولو كان انتسابها إلى الإسلام بمجرد الإسم، وقد غض المجتمع الدولى الطرف عن هذه المذابح، وتوارت الشرعية الدولية والأمم المتحدة بمؤسساتها تجاه هذه الإبادة، وهو هو نفس الموقف تجاه الظلم الواقع على المسلمين فى فلسطين والهند والشيشان. . . . . ولا ينتظر من هؤلاء غير ذلك فهم أعداء لهذه الأمة، خذ وصفهم من خالقهم ولا ينبئك مثل خبير قال تعالى: **﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾**[آل عمران: ١١٨].

وقال سبحانه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[المائدة: ٥١].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[آل عمران: ١١٨].

إن الصرب لم يراقبوا فى مؤمن إلاً ولا ذمة، سواء كان كبيرًا أو صغيرًا، رجلاً كان أو امرأة، فقد بقروا بطون النساء وهتكوا الأعراض وحرقوا الكبار، وروعوا الصغار ولا تهمة لهؤلاء إلا أن يقولوا ربنا الله ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[البروج: ٨].

وما أشبه الليلة بالبارحة، فأعداء الأمس هم أعداء اليوم، فقد قتل أصحاب الأخدود ،قتل الغلام والراهب والأعمى، كما قتلت الأم وصغيرها، ولا سبب لذلك إلا أنهم أسلموا وجوههم لله، إن سنن التدافع بين الإيمان والكفر والحق والباطل ماضية في الخلق ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾[البقرة: ٢٥١] ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾[الحج: ٤٠] وكما كانت المواجهة بين الملك الطاغية وجنده من جهة، والغلام والراهب والأعمى وأصحاب الأخدود مواجهة عقائدية وليست صراعا على الملك أو الأمتار والتراب . . . فكذلك الأمر بالنسبة للصراع بين الصرب وأهل البوسنة وكوسوفو، وبين الشيوعين والشيشانيين، وفى فلسطين والهند، كل ذلك من جملة الصراع العقائدى، أو الأيديولوجى، كما يعبر البعض.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[الأنعام: ٣٣].

ومن اللافت للنظر أن تختفى شعارات التعايش السلمى والسلام العالمى وحقوق الإنسان . . . وغيرها من الشعارات التى روجها ورددها الأعداء، وكأنهم ما صاغوها الإ لتحقيق أهدافهم ومصالحهم على حساب الإسلام وأهله، وبحيث تقوم الدنيا ولا تقعد من أجل يهودى أو شيوعى أو أمريكى . . . أما أن تباد الشعوب المسلمة فهذا لا يستحق أن تتحرك من أجله منظمة العدل وغيرها إلا على سبيل الشجب والإستنكار واستخدام الوسائل الدبلوماسية الهادئة!!!بينما تتحرك الجيوش فى الحال لضرب ليبيا والعراق والسودان. . . إنها سياسة الكيل بمكيالين، وحتي عندما تحركت أمريكا مؤخرا جدا وشنوا بعض الغارات على يوغوسلافيا، استثمر الصرب هذا الغطاء فى الإجهاز على ما تبقى من البلاد والعباد، واستحكم الطوق، وأصبح المسلمون بين شقى الرحى وفى وضع لا يحسدون عليه، يتمنون إيقاف الغارات على الصرب، حتى لا تستأصل شأفتهم، ونحن ان استدفعنا تهمة تواطؤ الأمريكان وغيرهم مع الصرب وما يعبر به البعض بمسألة توزيع الأدوار بينهم لا يمكن أن نحسن الظن بالأمريكان وأن نصف تدخلهم بأنه إقامه لمعانى الحق والعدل، أو أنه لمصلحة الإسلام والمسلمين، فهؤلاء لا يعملون إلا لمصلحتهم، وكما عبر وزير الخارجية الأمريكى عندما سئل : أنتم تدخلتم فى حرب العراق فلماذا لا تتدخلون فى قضية البوسنة؟ فأجاب: تدخلنا فى العراق لمصلحتنا ولم نتدخل فى قضية البوسنة أيضا لتحقيق مصلحتنا، وقد ذكروا أن يوغوسلافيا تملك أقوى قوة دفاعية على مستوى العالم ، وأن الأمريكان يريدون تحجيم هذه القوة وارهاب الروس ـ الحليف التقليدى ليوغوسلافيا ـ وإثبات وجودهم كشرطى للعالم وقوة عظمى أمام الأوربيين وغيرهم.

وإذا نظرنا إلى المواقف وجدناها متباينة، بعد إتفاق الجميع على شجب واستنكار المذابح التى تجرى للمسلمين فى كوسوفو، فحكام العراق نددوا بضرب الأمريكان للصرب، ودعوا السفاح الصربى للصمود فى مواجهه الإعتداء عليه!! وهكذا أصبحت السياسة تعمى وتصم عن رؤية الحق وسماعه، ووسط غياب الشريعة يتم التعاطف مع الظالم الجانى الصربى ممن هم من جلدتنا ويتكلمون بلساننا ويزعمون نصرة الإسلام وأهله!!

وصرحت روسيا بمساندتها للصرب ولوحت بالتدخل واستخدام السلاح النووى، وهى التى ارتبط معها العرب بالصداقة والتحالف عبر عهود، ولم يرفعوا رأسا بقول ربهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾

[الممتحنة: ١].

وقوله تعالى: ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾[هود: ١١٣] ﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾[البقرة: ٢١٧] وموقفهم هذا عساه يعطينا درسا حتى نحقق مفهوم الولاء والبراء، فيكون الحب فى الله والبغض أيضا فى الله.

تحب أعداء الحبيب وتدعى حباً له ما ذاك فى إمكان

ووقف اليهود على الحياد من النزاع الدائر، وأرسلوا بعض المعونات الغذائية والطبية لمسلمى كوسوفو، وقد صرح وزير الخارجية الاسرائيلى ـ شارون ـ بأنه لا ينبغى السماح بإقامة دولة مسلمة فى كوسوفو، وأن تعاونهم مع الألبان سيكون سببا فى نشأة التطرف الإسلامى فى وسط أوروبا، وهذا الموقف يتناسب مع اليهود وعدائهم، فهم يتشابهون مع الصرب فى الاستيلاء على البلاد والعباد ـ دون وجه حق ـ ودولة اسرائيل دولة عقائدية شأنها فى ذلك شأن الصرب وكلاهما يبغض الإسلام وأهله، ولا غرابة فى أن ينسبوا المسلمين للتطرف، فنحن فى عصر صارت فيه المصطلحات مبتذلة وأنقلبت فيه الموازين، فالمظلوم صار ظالما، والجانى صار مجنيا عليه، والمتطرف اليهودى والصربى صار بيده ميزان الحق والعدل والتقييم، واستخدمت وسائل الإعلام فى هذا التدليس والتزييف اسوأ أستخدام، وكما أطلق إليهود وصف الأرهابيين على أعضاء حماس والجهاد وكل من خالفهم من المسلمين، كذلك فعل الصرب حين يصورون أنهم ما يحاربون إلا الإرهابيين وهكذا صارت كلمة الإرهاب مرادفة لكلمة الإسلام!!!

وموقف المسلمين من قضية مسلمى كوسوفو كموقفهم من غيرها، وكأن الأيدى شلت أو ربطت بالأعناق ينتظرون علاج مشاكلهم بأيدى أعدائهم!! ولسان حالهم يقول:

قد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى

فالفرقة وأسباب الضعف والوهن قد دبت فى أوصالهم، وليس ذلك بسبب قلة العدد أو العتاد، فعدد المسلمين يزيد على مليار ومائتى مليون مسلم، وأموالهم تملأ بنوك أوربا وأمريكا، ولكنهم غثاء كغثاء السيل، امتلاءت قلوبهم حبا للدنيا وكراهية للموت. وأعمل فيهم الأعداء بسياسات فرق تسد، وصار بعضهم حربا على اسلامه، يشهر ويشوه معالم دينه، فالنظم الوضعية والقوانين الطاغوتية سائدة بينهم، والأحزاب والنعرات قد شتت جمعهم . . . وانصرفت الدول والأفراد والجماعات عن الإهتمام بأمر المسلمين، والشعور بشعور الجسد الواحد إلى اهتمامات مريبة وانشغالات مريضة، فهذا منشغل بصناعة السينما، والثانى بمباريات كرة القدم، والثالث بسبل الإرتقاء بالرقص والغناء . . . وكلهم يرى أنه يحسن صنيعا وكأن القضية لا تعنيه، وكأن الدور لن يأتى عليه ويؤكل كما أكل أخوه، ولو سمينا الأشياء باسمها لقلنا أنها حالة تبلد نتيجة كثرة سماعنا لصراخ المسلمين ورؤية دمائهم المهدرة، وعدم قيامنا لله بحقه، مما عاد علينا بتحجر القلوب وطمس النفوس، بالضبط كما يحدث مع من تم ترويضه على رؤية المنكرات حتى أدمن مشاهدتها، فلم يعد يبالى أو يحس، بل قد يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف، وكذلك الأمر بالنسبة لمن يتعلم ولا يعمل بعلمه، فهذا العلم يضره ولا ينفعه ونخشى أن تصبح مآسى المسلمين فى كوسوفو وغيرها عبارة عن قصة للتسلية، ومادة للحكاية حظها ونصيبها مصمصة الشفاه والتباكى على مجد ضائع سليب مع التعلل بوضع الإستضعاف.

إن الواجب علينا أن نخرج من هذا الواقع السيئ لا أن نستمر فى حياة المذلة والمهانة، ولا أن نبرر به المزيد من التخاذل والتنازل، ولا سبيل لهذا الخروج إلا بالعودة الصادقة إلى كتاب الله ولسنة رسوله ﷺ، فهذا هو عزنا ونصرنا وتمكيننا، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾[الإسراء: ٩] وقال: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا**﴾[النور: ٥٥] وقال: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾[الحج: ٤١] وقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾[محمد: ٧] فمن كان الله معه فمن عليه، معه الفئة التي لا تغلب والحارس الذى لا ينام والهادى الذي لا يضل ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا** ﴾[الطلاق: ٢].

لا بد من إشاعة المفاهيم الصحيحة وسط المسلمين، فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضهم بعضا، والمؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم، ومثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، وقد فتحت عمورية بسبب أمراة مسلمة استصرخت المسلمين، لما أراد يهودى هتك سترها، فماذا يكون حالنا ونحن نرى هتك الأعراض ويقر بطون الحوامل وترويع الصغار وإبادة الكبار، والكل يستصرخ وا إسلاماه .

إن مصاب المسلمين واحد، وما يحدث مع المسلمين فى كوسوفو وغيرها قد يحدث معنا يوما، حتى وإن لم يبق من الدين الا رسمه ومن الاسلام الا إسمه فى حياتنا، وقد أكلنا يوم أكل الثور الأبيض .

ما المانع من أن تجيش الجيوش لاستنقاذ المسلمين فى كوسوفو وغيرها كما حدث فى فتح عمورية ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[الحج: ٣٩] أن الجهاد فرض على الكفاية، وفرض الكفاية فرض عين، حتى يقم، وأذا لم يقم أثم القادرون عليه، ومعنى قيام الفرض حصول المأمور به فى عالم الواقع.

وقد يتعين الجهاد إذا داهم العدو المسلمين أو كان النفير عاما، أو حضر المسلم الصف، أو استنفر الإمام رجلا بعينه، فحينئذ يجب عليه الجهاد، وقسم العلماء الجهاد إلى جهاد دفع، أى دفع الكفار عن عقر ديار المسلمين، وهذا فرض عينى، وجهاد طلب أى طلب الكفار فى عقر دارهم، وهذا فرض على الكفاية، فإذا داهم العدو المسلمين تعين على أهل البلد جهاده، فإذا لم بهم تحصل الكفاية، انتقل الوجوب إلى الأقرب فالأقرب، ومع حنين المسلمين للجهاد فى سبيل الله، وحرصهم على نصرة أخوانهم، قد لا يستطيعون ذلك، فلا إثم حينئذ إذ الواجبات تسقط بالعذر والعجز وعدم الإستطاعة ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٨٦] وحينئذ يتم النظر والعمل بما هو مستطاع ومقدور بالنسبة لنا، جاهدوا المشركين بأيديكم وألستكم وأموالكم، فإن تخلف السلاح ولم تتم المشاركة بالمال والبدن فلا أقل من بعث الروح الإيمانيه فى النفوس، والإهتمام بأمر المسلمين، فمن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، وأن نجأر إلى الله بالدعاء، فالدعاء سلاح المؤمن، والعبد إذا ألهم الدعاء فإن الإجابة معه ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر: ٦٠] ودعاء الأخ لأخيه بظهر

الغيب مستجاب، فالملك يؤمن على دعاءه ويقول: لك بمثل، وهو سبحانه الذى يجيب المضطر ويكشف الضر، ولا نستبعد أن يتغير حالنا لأحسن الأحوال بدعوات صالحات، فقد دعا نبى الله نوح ـ عليه السلام ـ ربه أني مغلوب فانتصر، يقول سبحانه: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[القمر: ١٥] وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[إبراهيم: ١٥] حدث ذلك لما استفتحوا أى أذن لهم فى الدعاء على الظالمين، ودعوة المظلوم من الدعاء المستجاب فليس بينها وبين الله حجاب، ترفع دون الغمام، ويقول سبحانه: وعزتي وجلالي لأجيبنك ولو بعد حين .

لن تعجز عن العمل بطاعة الله، ومتابعة الفرائض بالنوافل، تأهيلا للنفس، وتعويدا لها على حياة الجد والإجتهاد، اخشوشنوا فإن النعمه لا تدوم، وإياك والتنعم، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين، فبالطاعات تنال ما عند الله من خير وبركة وسعة رزق، ونتحصل بذلك على النصر والعز والتمكين، وتتحقق بذلك النعم وتندفع النقم قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[المزمل: ٥] وقال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾[البقرة: ٤٥] وكان النبى ﷺ إذا حزبه أمر يقول: «**أرحنا بها يا بلال**» (أى الصلاة) وكان يقول: «**وجعلت قرة عينى فى الصلاة**».

لا بد وأن نصل الأرض بالسماء، وتتعلق قلوبنا بالله فى جلب المنافع ودفع الضر ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[الطلاق: ٣]

وقال سبحانه ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[آل عمران: ١٧٤].

إن الدماء التى تسيل وتنزف فى كوسوفو وغيرها من بلاد المسلمين، ليس بها هوان على الله ولا على المؤمنين، فلزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم، وكان ابن عباس - رضى الله عنهما - ينظر إلى الكعبه ويقول أن الله عظمك وشرفك وحرمك، وإن المؤمن أعظم حرمة عند الله منك .

ستظل هذه الدماء الذكية وقودا يشعل نيران الحماسة والجهاد فى صدور المسلمين، تذكرهم بأن ما حدث يوما للغلام ولأصحاب الأخدود مازال يتكرر، وأنه لا بد من أخذ الدروس والعظات والعبر مما قصه علينا ربنا - جلا وعلا - فى كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[يوسف: ١١١]!!! ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[هود: ١٢٠].

فإلى أتباع الأنبياء والمرسلين، وإليك أخى فى زمن الغربة، وإلى كل من سلك طريق الدعوة، وعاش بالإسلام وللإسلام ، نهدى هذه القصة .

قصة الغلام وأصحاب الأخدود، فهى معين لا ينضب بالدروس والفوائد، وزاد للغرباء الذين يسيرون على درب الاستقامة فى وقت تغيرت فيه القيم وتبدلت فيه الموازين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه

سعيد عبد العظيم

قصة الغلام وأصحاب الأخدود في القرآن

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ۝١١ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ۝١٤ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۝١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝١٨ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ۝١٩ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ۝٢٠ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾[البروج]

القصة كما جاءت في السنة

وردت روايات بشأن أصحاب الأخدود ومعناها متقارب ففى صحيح مسلم عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال : «كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر ؛فلما كبر قال للملك : إنى قد كبرت فابعث إلى غلاماً أعلمه السحر؛ فبعث إليه غلاما يعلمه ؛فكان فى طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه؛ فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه؛ فإذا آتى الساحر ضربه؛ فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا خشيت الساحر فقل : حبسنى أهلى وإذا خشيت أهلك فقل : حبسنى الساحر. فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال : اليوم أعلم آلساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ فأخذ حجرا فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس؛ فرماها فقتلها ومضى الناس. فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب: أى بنى؛ أنت اليوم أفضل منى، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى ؛فإن ابتليت فلا تدل على.

وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوى الناس من سائر الأدواء. فسمع جليس للملك كان أقد عمى فأتاه بهدايا كثيرة فقال : ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتنى . فقال: إنى لا أشفى أحدا، أنما يشفى الله؛ فإن أنت أمنت بالله دعوت الله فشفاك؛ فآمن

بالله فشفاه الله. فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس؛ فقال له الملك: من رد عليك بصرك ؟ قال : ربي. قال: ولك رب غيرى ؟! قال: ربي وربك الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ؛فجئ بالغلام فقال له الملك: أى بنى! أقد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل ؟! فقال: أنى لا أشفى أحدا، إنما يشفى الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب؛ فجئ بالراهب فقيل له: أرجع عن دينك. فأبى فدعا بالمنشار فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه . ثم جئ بجليس الملك فقيل له : أرجع عن دينك؛ فأبى فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه. ثم جئ بالغلام فقيل له : أرجع عن دينك ؛ فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: أذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فآصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذورته فإن رجع عن دينه وإلا فأطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال : اللهم أكفينيهم بما شئت؛ فرجف بهم الجبل فسقطوا. وجاء يمشى إلى الملك فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله. فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به فاحملوه فى قرقور[1] فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه؛ فذهبوا به فقال : اللهم أكفينيهم بما شئت؛ فانكفأت بهم السفينه فغرقوا. وجاء يمشى إلى الملك فقال له الملك : ما فعل أصحابك؟ قال : كفانيهم الله. فقال للملك : إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به. قال : وما هو؟ قال : تجمع الناس فى صعيد واحد وتصلبنى على جذع؛ ثم خذ سهم من كنانتى[2] ثم ضع السهم فى كبد القوس ثم قل : باسم الله رب الغلام، ثم ارمنى؛ فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى.

فجمع الناس فى صعيد واحد وصلبه على جذع، ثم أخذ سهم من كنانته ثم وضع السهم فى كبد القوس ثم قال : باسم الله رب الغلام؛ ثم رماه فوقع السهم فى صدغه فوضع يده فى صدغه فى موضع السهم فمات؛ فقال الناس : آمنا برب الغلام! آمنا برب الغلام! آمنا برب الغلام! فأتى الملك فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس؛ فأمر بالأخدود فى أفواه السكك، فخدت وأضرم النيران وقال : من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها ـ أو قيل له اقتحم ـ ففعلوا؛ حتى جاءت امرأة ومعها صبى لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام: يا أمه أصبرى فإنك على الحق»

---

(١) القرقور (بضم القافين): السفينة الصغيرة.

(٢) الكنانة ـ(بالكسر): جعبة السهام تتخذ من جلود لا خشب فيها، أو من خشب لا جلود فيها.

خرجه الترمذى بمعناه. وفيه : «**وكان على طريق الغلام راهب فى صومعة**»، قال معمر: أحسب أن أصحاب الصوامع كانوا يومئذ مسلمين . وفيه: «**أن الدابة التى حبست الناس كانت أسدا وأن الغلام دفن ـ قال ـ فيذكر أنه أخرج فى زمن عمر بن الخطاب وأصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل**» وقال حديث حسن غريب.

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال: «**كان فيمن كان قبلكم ملك وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إنى قد كبر سنى، وحضر أجلى، فادفع إلى غلاما لأعلمه السحر، فدفع إليه غلاما كان يعلمه السحر، وكان بين الساحر وبين الملك راهب، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال : ما حبسك؟ وإذا آتى أهله ضربوه، وقالوا: ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال إذا أراد الساحر أن يضربك فقل : حبسنى أهلى، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل : حبسنى الساحر، فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة قد حبست الناس فلا يستطيعوا أن يجوزوا، فقال: اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر، قال : فأخذ حجرا، فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس، ورماها فقتلها، ومضى الناس، فأخبر الراهب بذلك، فقال : أى بنى أنت أفضل منى وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل على.**

فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم،[1] وكان للملك جليس فعمى، فسمع به فأتاه بهدايا كثيره، فقال : أشفنى، فقال: ما أنا أشفى أحدا، إنما يشفى الله ـ عز وجل ـ فإن آمنت به دعوت الله فشفاك، فآمن فدعا الله فشفاه، ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال له الملك : يا فلان، من رد عليك بصرك ؟ فقال : ربى . فقال : أنا ؟ قال : لا، ربى وربك الله، قال: أولك رب غيرى ؟ قال : نعم، ربى وربك الله، فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فبعث إليه فقال : أى بني: بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص، وهذه الأدواء؟ قال : ما أشفى أحدا، إنما يشفى الله ـ عز وجل ـ قال : أنا ؟ قال : لا، قال : ولك رب غيرى؟ قال : ربى وربك الله، فأخذه ـ

---

(١) بإذن الله.

أيضا ـ بالعذاب فلم يزل به حتى دل على الراهب، فأتى بالراهب، فقال: أرجع عن دينك، فأبى فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه، وقال للأعمى: أرجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه إلى الأرض، وقال للغلام: أرجع عن دينك، فأبى، فبعث به مع نفر إلى الجبل كذا وكذا، فقال: إذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فدهدهوه، فذهبوا به إلى الجبل، فلما علو به الجبل قال : اللهم أكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون . وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال : كفانيهم الله ـ تعالى ـ فبعث به مع نفر فى قرقور، فقال : إذا لججتم به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فغرقوه فى البحر، فلججوا به البحر، فقال الغلام: اللهم أكفنيهم بما شئت، فغرقوا أجمعون، وجاء الغلام حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال : كفانيهم الله ـ تعالى- ثم قال للملك: إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به، وإلا فإنك لا تسطيع قتلى، فإن أنت فعلت ما أمرك به قتلتنى ، قال : وما هو؟ قال : تجمع الناس فى صعيد واحد، ثم تصلبنى على جذع وتأخذ سهم من كنانتى، ثم قل : بسم الله رب الغلام، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى، ففعل ووضع السهم فى كبد قوسه ثم رماه، وقال : بسم الله رب الغلام، فوقع السهم فى صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام.

فقيل للملك : أرأيت ما كنت تحذر؟ فقد والله نزل بك، قد آمن الناس كلهم، فأمر بأفواه السكك فخدد فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النار، وقال : من رجع عن دينه فدعوه، وإلا فأقحموه فيها، قال : فكانوا يتعادون ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنما تقاعست أن تقع فى النار، فقال الصبى: أصبرى يا أماه فإنك على الحق».

القصة كما جاءت في كتب التفسير

قال القرطبى فى تفسيره روى الضحاك عن ابن عباس قال: كان ملك بنجران وفى رعيته رجل له فتى فبعثه إلى ساحر يعلمه السحر، وكان طريق الفتى على راهب يقرأ الإنجيل فكان يعجبه ما يسمعه من الراهب فدخل فى دين الراهب، فأقبل يوما فإذا حية عظيمة قطعت على الناس طريقهم فأخذ حجرا فقال: باسم الله رب السموات والأرض وما بينهما؛ فقتلها . وذكر نحو ما تقدم .وان الملك لما رماه بالسهم وقتله قال أهل مملكة الملك: لا إله إلا الله عبد الله بن ثامر؛ وكان اسم الغلام، فغضب الملك وأمر فخدت أخاديد، وجمع فيها حطب ونار وعرض أهل مملكته عليها، فمن رجع عن التوحيد تركه، و من ثبت على دينه قذفه فى النار. وجئ بامرأة مرضع فقيل لها: ارجعى عن دينك وإلا قذفناك وولدك فى النار -قال- فأشفقت وهمت بالرجوع، فقال الصبى المرضع : يا أمى، اثبتى على ما أنت عليه فإنما هى غميضة؛ فألقوها وابنها. وروى صالح عن ابن عباس أن النار ارتفعت من الاخدود فصارت فوق الملك وأصحابه أربعين ذراعا فأحرقتهم.

وقال الضحاك: هم قوم من النصارى كانوا باليمن قبل مبعث رسول الله ﷺ بأربعين سنه، فأخذهم يوسف بن شراحيل بن تبع الحميرى، وكانوا نيفا وثمانين رجلا، وحفر لهم أخدودا وأحرقهم فيه، حكاه الماوردى، وحكى الثعلبى عنه أن أصحاب الأخدود من بنى إسرائيل، أخذوا رجالا ونساءا فخدوا لهم الأخاديد، ثم أوقدوا فيها النار، ثم أقيم المؤمنون عليها وقيل لهم: تكفرون أو تقذفون فى النار؟ ويزعمون أنه دانيال وأصحابه؛ قاله عطية العوفى وروى نحو هذا عن ابن عباس.

وقال علي رضي الله عنه : أن ملكا سكر فوقع على أخته، فأراد أن يجعل ذلك شرعا فى رعيته فلم يقبلوا؛ فأشارت عليه أن يخطب بأن الله ـ عزوجل ـ أحل نكاح الأخوات فلم يسمع منه. فأشارت عليه أن يخد لهم الأخدود ويلقى فيه من عصاه، ففعل. قال: وبقاياهم ينكحون الأخوات، وهم المجوس، وكانوا أهل كتاب .

وروى عن على أيضا أن أصحاب الأخدود كان سببهم أن نبيا بعثه الله تعالى إلى الحبشة، فاتبعه ناس فخد لهم قومهم أخدودا، فمن اتبع النبى رمى فيها، فجئ بامرأة لها بنى رضيع فجزعت، فقال لها: يا أماه، امضى ولا تجزعى. وقال أيوب عن عكرمه قال: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾[البروج: ٤] قال: كانوا من قومك من السجستان.

وقال الكلبي: هم نصارى نجران، أخذوا بها قوما مؤمنين فخدوا لهم سبعة أخاديد، طول كل أخدود أربعون ذراعا، وعرضه أثنا عشر ذراعا. ثم طرح فيه النفط والحطب، ثم عرضوهم عليها، فمن أبى قذفوه فيها. وقيل: قوم من النصارى كانوا بالقسطنطينية زمان قسطنطين .

وقال مقاتل :أصحاب الأخدود ثلاثة: واحد بنجران، والآخر بالشام، والآخر بفارس. أما الذي بالشام فأنطنيانوس الرومى، وأما الذى بفارس فبختنصر، والذى بأرض العرب يوسف بن ذى نواس. فلم ينزل الله فى الذى بفارس والشام قرآنا، وأنزل قرآنا فى الذى كان بنجران. وذلك أن رجلين مسلمين كان أحدهما بتهامة والآخر بنجران، آجر أحداهما نفسه، فجعل يعمل ويقرأ الإنجيل؛ فرأت ابنة المستأجر النور فى قراءة الإنجيل، فأخبرت أباها فأسلم، وبلغوا سبعة وثمانين بين رجلا وأمرأة، بعد ما رفع عيسى، فخد لهم يوسف بن ذى نواس بن تبع الحميرى أخدودا أوقد فيه النار؛ وعرضهم على الكفر، فمن أبى أن يكفر قذفه فى النار، وقال : من رجع عن دين عيسى لم يقذف. وأن أمراة معها ولدها صغير لم يتكلم، فرجعت، فقال لها أبنها: يا أماه، أنى أرى أمامك نار لا تطفأ، فقذفا جميعا أنفسهما فى النار، فجعلها الله وابنها فى الجنة. فقذف فى يوم واحد سبعة وسبعون إنسانا .

وقال ابن إسحق عن وهب بن منبه : كان رجلا من بقايا أهل دين عيسى بن مريم عليه السلام، يقال له: قيميون، وكان رجلا صالحا مجتهدا زاهدا فى الدنيا مجاب الدعوه، وكان سائحا فى القرى لا يعرف بقرية إلا مضى عنها، وكان بناء يعمل بالطين. قال محمد بن كعب القرظى :وكان أهل نجران أهل شرك يعبدون الأصنام، وكان فى قرية من قراها قريبا من نجران ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر ؛فلما نزل بها قيميون بنى بها خيمة بين نجران وبين تلك القرية التى بها الساحر، فجعل أهل نجران يبعثون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر؛ فبعث إليه الثامر عبد الله بن الثامر، فكان مع غلمان أهل نجران، وكان عبد الله إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من أمر صلاته وعبادته، فجعل يجلس إليه ويسمع منه حتى أسلم، فوحد الله وعبده وجعل يسأله عن اسم الله الأعظم، وكان الراهب يعلمه فكتمه إياه وقال: يابن أخى، إنك لن تحمله، أخشى ضعفك عنه؛ وكان أبوه الثامر لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان فلما رأى عبد الله أن الراهب قد بخل عليه بآسم الله

الأعظم، عمـد إلى قداح فجمـعها، ثم لم يبق لله تعالى اسـما لم يعلمه إلا كتـبه فى قدح، لكل اسم قـدح؛ حتى اذا أحصاها أوقـد لها نارا، ثم جعل يقذفـها فيهـا قدحا قدحا، حتى إذا مر بالإسم الأعظم قذف فيه بقـدحه، فوثب القدح حتى خرج منها لم يضره شيئ؛ فأخذه ثم قام إلى صاحبه، فأخبره أنه قد علم اسم الله الأعظم الذى كتمه إياه؛ فقال: وما هو؟ قال: كذا وكذا. قال: وكـيف علمته؟ فأخبره بما صنع. فقال له: يا ابن أخى، قد أصبـته، فأمسك على نفـسك وما أظن أن تفعل. فجـعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحدا به ضر إلا قال : يا عبد الله، أتوحد الله وتدخل فى دينى فأدعوا الله لك فيـعافيك مما أنت فيه من البلاء؟ فيقـول: نعم؛ فيوحد الله ويسلم فيدعو الله له فيشفى، حتى لم يبق أحـد بنجران به ضر إلا أتاه فاتبعه على دينه ودعا له فعوفى؛ حتى رفع شأنه إلى ملكهم فدعـاه فقال له : أفسدت على أهل قريتى وخالفت دينى ودين آبائى، فلأمـثلن بك. قال: لا تقدر على ذلك؛ فجـعل يرسل به إلى الجبل الطويل فـيطرح عن رأسه فيـقع على الأرض ليس به بأس. وجـعل يبعث به إلى مـياه نجران، بحار لا يلقى فيـها شئ إلا هلك، فيلقى فيها فيـخرج ليس به بأس ؛فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر :والله لا تقدر على قتلى حتى توحد الله وتؤمن بما آمنت به؛ فإنك إن فعلت ذلك سلطت على وقتلتنى . فوحـد الله ذلك الملك وشهد شهادته، ثم ضربه بعصا فشجه شجة صغيرة ليست بكبيرة فقتله، وهلك الملك مكانه، واجتمع أهل نجران على دين عـبد الله بن الثامر، وكان عـلى ما جاء به عيسى بن مـريم من الإنجيل وحكمه. ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحداث؛ فمن ذلك كان أصل النصرانية بنجران. فسار إليهم ذو نواس اليهودى بجنوده من حمير، فدعاهم إلى اليهودية وخيرهم بين ذلك أو القتل، فاختاروا القتل فخد لهم الأخدود؛ فحرق بالنار وقتل بالسيف ومثل بهم حتى قتـل منهم عشرين ألفا. وقال وهب بـن منبه إثنا عشر ألفا وقـال الكلبى كان أصحـاب الأخدود سـبعين ألفا، قـال وهب: ثم لما غلب أرياط على اليـمن خرج ذو نواس هاربا فاقتحم البحر بفرسه فغرق. قال ابن إسحق: وذو نواس هذا اسمه زرعة بن تبان أسعد الحـميرى، وكان أيضا يسمى يوسف، وكـان له غدائر من شعر تنوس، أى تضطرب، فسمى ذا نواس ؛وكان فعل هذا بـأهل نجران فأفلت منهم رجل اسمه دوس ذو ثعلبان، فساق الحبشة ليتـصر بهم، فملكوا اليمن وهلك ذو نواس فى البحر؛ألقى نفسه فيه.

قال فخر الدين الرازى فى التفسير الكبير : ذكروا قصة أصحاب الأخدود على طرق متباينة ونحن نذكر منها ثلاثة:

أحدها: أنه كان لبعض الملوك ساحر، فلما كبر ضم إليه غلام ليعلمه السحر ، وكان فى طريق الغلام راهب، فمال قلب الغلام إلى ذلك الراهب ثم رأى الغلام فى طريقه ذات يوم حية قد حبست الناس فأخذ حجرا، وقال: اللهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فقونى على قتلها بواسطة رمى الحجر إليها، ثم رمى فقتلها، فصار ذلك سببا لإعراض الصبى عن السحر واشتغاله بطريقة الراهب، ثم صار إلى حيث يبرئ الأكمه والأبرص ويشفى من الأدواء، فاتفق أن عمى جليس للملك فأبرأه فلما رآه الملك قال: من رد عليك نظرك؟ فقال: ربى فغضب فعذبه فدل على الغلام فعذبه فدل على الراهب فأحضر الراهب وذجره عن دينه فلم يقبل الراهب قوله فقد بالمنشار، ثم أتوا بالغلام إلى جبل ليطرح من ذروته فدعا الله، فرجف القوم فهلكوا ونجا، فذهبوا به إلى سفينه لجحوا بها ليغرقوه، فدعا الله فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ونجا، فقال للملك: لست بقاتلى حتى تجمع الناس فى صعيد وتصلبنى على جذع وتأخذ سهم من كنانتى، وتقول: بسم الله رب الغلام ثم ترمينى به، فرماه فوقع فى صدغه فوضع يده عليه ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام. فقيل للملك: نزل بك ما كنت تحذر، فأمر بأخاديد فى أفواه السكك، وأوقدت فيها النيران، فمن لم يرجع منهم طرحه فيها، حتى جاءت امرأة معها صبى فتقاعست أن تقع فيها فقال الصبى: يا أماه اصبرى فإنك على الحق، فصبرت على ذلك.

الرواية الثانية: روى عن على عليه السلام أنهم حين اختلفوا فى أحكام المجوس قال: هم أهل الكتاب وكانوا متمسكين بكتابهم وكانت الخمر قد أحلت لهم فتناولها بعض ملوكها فسكر فوقع على أخته فلما صحا ندم وطلب المخرج فقالت له: المخرج أن تخطب الناس فتقول لهم: إن الله تعالى قد أحل نكاح الأخوات ثم تخطبهم بعد ذلك فتقول بعد ذلك: حرمه فخطب فلم يقبلوا منه ذلك، فقالت له: ابسط فيهم السوط، فلم يقبلوا فقالت: أبسط فيهم السيف فلم يقبلوا فأمرته بالأخاديد وإيقاد النار وطرح من أتى فيها الذين أرادهم الله بقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾[البروج: ٤].

الرواية الثالثة: أنه وقع إلى نجران رجل ممن كان على دين عيسى فدعاهم فأجابوه فصار إليهم ذو نواس اليهودى بجيش من حمير فخيرهم بين النار واليهودية فأبوا، فأحرق منهم اثنى عشر ألفا فى الأخاديد، وقيل سبعين ألفا، وذكر أن طول الأخدود أربعون ذراعا وعرضه اثنا عشر ذراعا، وعن النبى ﷺ : «أنه كان إذا ذكر أصحاب الأخدود تعوذ بالله من جهد البلاء».

فإن قيل تعارض هذه الروايات يدل على كذبها، قلنا لا تعارض فقيل: إن هذا كان في ثلاث طوائف ثلاث مرات مرة باليمن، ومرة بالعراق، ومرة بالشام، ولفظ الأخدود، وإن كان واحدا إلا أن المراد هو الجمع وهو كثير من القرآن، وقال القفال: ذكروا فى قصة أصحاب الأخدود روايات مختلفة وليس فى شئ منها يصح إلا أنها متفقة فى أنهم قوم من المؤمنين خالفوا قومهم أو ملكا كافر كان حاكما عليهم فألقاهم فى أخدود وحفر لهم، ثم قال: وأظن إن تلك الواقعه كانت مشهورة عند قريش فذكر الله تعالى ذلك لأصحاب رسوله تنبيها لهم على ما يلزمهم من الصبر على دينهم واحتمال المكاره فيه، فقد كان مشركو قريش يؤذون المؤمنين على حسب ما اشتهرت به الأخبار من مبالغتهم فى إيذاء عمار وبلال.

فوائد هامة تتعلق بسورة البروج وترتبط بالقصة

الأولى: التناسق والتناسب والارتباط المتعلق بالسورة

سورة البروج مكية بإتفاق العلماء، وهى اثنتان وعشرون آية. والمقصود من هذه السورة تسلية النبى ﷺ وأصحابه عن إيذاء الكفار، وكيفية تلك التسلية هى أنه تعالى بين أن سائر الأمم السالفة كانوا كذلك مثل أصحاب الأخدود ومثل فرعون ومثل ثمود، وختم ذلك بأن بين أن كل الكفار كانوا فى التكذيب، ثم عقب هذا الوجه بوجه آخر وهو قوله: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾[البروة: ٢٠] ثم ذكر وجها ثالثا وهو أن هذا شئ مثبت فى لوح محفوظ ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾[البروج: ٢٢] فهذا ترتيب السورة.

وبمناسبة ارتباط السور بعضها ببعض فإن بعض المفسرين يقول: لما ذكر مآل الفريقين وتطاير الصحف فى السورة الأولى، ذكر هنا عملا من أشد أعمال الكفار مع المؤمنين فى قصة الأخدود.

وسورة البروج متآخية مع سورة الطارق ولذلك قرنتا للمؤاخاة، وذكرا بعد الإنشقاق للمؤاخاة فى الإفتتاح بذكر السماء، فإنه لما ذكر سابقا أنفطار السماء وتناثر النجوم وانشقاق السماء، وإذنها لربها وحق لها ذلك، جاء فى سورة البروج بيان كنه هذه السماء، وأنها عظيمة البنية بأبراجها الضخمة أو بروجها الكبيرة، فهى مع ذلك تأذن لربها وتطيع وتنشق لهول ذلك اليوم وتنفطر، فأولى بك أيها الإنسان، وقد ورد فى الحديث ذكر السموات مرارا بها السور الأربع فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ أمر أن يقرأ بالسموات في العشاء. يعني السور الأربع المفتتحة بذكر السماء[1].

إن سورة البروج من قصار المفصل، وهى تعرض لحقائق العقيدة، ومحورها يدور حول حادثة «أصحاب الأخدود» وهى قصة التضحية بالنفس فى سبيل العقيدة والإيمان، وقد ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات النجوم الهائلة ومدارتها الفخمة التى تدور فيها تلك الأفلاك، وباليوم العظيم المشهود وهو يوم القيامة، وبالرسل والخلائق على هلاك ودمار المجرمين الذين طرحوا المؤمنين فى النار ليفتنوهم

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

عن دينهم ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾

[البروج: ٧].

ثم تلاها الوعيد والإنذار لأولئك الفجار على فعلتهم القبيحة الشنيعة ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾[البروج: ١٠]

وبعد ذلك تحدثت عن قدرة الله على الأنتقام من أعدائه الذين فتنوا عباده وأولياءه ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾[البروج: ١٥] وختمت السورة بذكر فرعون وثمود وما أصابهما من هلاك ودمار بسبب البغى والطغيان ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾[البروج: ٢٢] وهكذا ارتبط موضوع السورة ببدايتها ونهايتها، وظهر التناسب الواضح بين كل آية والتى بعدها، كما ترى التناسق بين سورة البروج وسورة الإنشقاق قبلها، وسورة الطارق بعدها.

الثانية: أقسام متتالية بين يدي القصة

تبدأ سورة البروج بأقسام متتالية ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾[البروج: ٤] فتربط بين السماء وبين ما فيها من بروج هائلة، واليوم الموعود وأحداثه الفخام، والحشود التى تشهده والأحداث المشهودة فيه... تربط بين هذا كله وبين الحادث ونقمة الله على أصحابه الطغاة البغاة.

وقبل الإشارة الى حادث الأخدود بدأت السورة بهذا القسم﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾[البروج: ١] وهى إما أن تكون أجرام النجوم الهائلة وكأنها بروج السماء الفخمة أى قصورها المبنية كما قال: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[الذاريات: ٤٧] وقال ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾[النازعات: ٢٧] وأما أن تكون هى المنازل التى تنتقل فيها تلك الأجرام، والإشارة إليها يوحى لضخامتها وأصل مادة البروج من الظهور، وقد جاءت هذه الكلمة فى نصوص عديدة مثل: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾[الحجر: ١٦] وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[الفرقان: ٦١].

ثم جاء القسم الثانى ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾[البروج: ٢] وهو يوم القيامة بإجماع المفسرين، وقد كانوا يوعدون به فى الدنيا فهو اليوم الموعود به كل من الفريقين، كما قال الله تعالي في حق المؤمنين: ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[الأنبياء: ١٠٣] وفى حق الكفار: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾[الزخرف: ٨٣] وسيعترفون بذلك عند البعث حينما يقولون: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾[يس: ٥٢] فاليوم الموعود هو يوم القيامة الموعود به لمجازاة كلا من الفريقين علي عملهم، ويا له من يوم عظيم ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[الحج: ٢] ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾[آل عمران: ٣٠] ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[عبس: ٣٧] إنه يوم الفصل فى أحداث الدنيا وتصفية حساب الأرض وما كان فيها، يوم تتطلع إليه الخلائق وتترقبه لترى كيف تصير الأمور.

وكان القسم الثالث ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾[البروج: ٣] ولم يصرح هنا من الشاهد وما المشهود، والشاهد فى القرآن يأتى بمعنى الحاضر كما فى قوله تعالي ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾[التوبة: ٩٤] والمشهود يأتى بمعنى المشاهد ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾[هود: ١٠٣] وقد اختلف أقوال المفسرين إلى ما يقرب من عشرين قولاً، فالشاهد هو الله أو سيدنا محمد ﷺ أو يوم الجمعه أو هو الإنسان، والمشهود هو يوم القيامة أو يوم عرفه أو يوم النحر... قال ابن جرير بعد أن ساق الأقوال فى تفسير الشاهد والمشهود: والصواب عندى أنه صالح لكل ما يقال له شاهد ويقال به مشهود، وشبيه بذلك ما جاء فى تفسير القرطبى وابن كثير.

وفى ذلك اليوم الذى تعرض فيه الأعمال وتعرض فيه الخلائق، فتصبح كلها مشهود، ويصبح الجميع شاهدين، الملائكة والأنبياء والأنسان والأرض... وكفى بالله شهيدا.

وهذه الأقسام الثلاثة أتت بمثابة توطئة وتمهيد لذكر حادث الأخدود، كما توحى بالمجال الواسع الشامل الذى يوضع فيه هذا الحادث، وتوزن فيه حقيقته ويصفى فيه حسابه، وهو أكبر من مجال الأرض، وأبعد من مدى الحياة الدنيا وأجلها المحدود.

الثالثة : إشعار يتعلق بالقضاء وكمال العدالة

تقام الشهادة على ما سيعرض فى اليوم الموعود ولإقامة الحجة على الخلق لا لإثبات الحق كما قال أبو حيان، وقد جاء فى القرآن تعداد الشهود فى هذا اليوم مما يتناسب مع العرض والحساب كما جاء فى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[فصلت: ٢٠] وقال: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[ق: ٢١] وقال عن عيسى عليه السلام: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾[المائدة: ١١٧] وقال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[النحل: ٨٩] وقال عن نبيه محمد ﷺ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[النساء: ٤١]، وقال عن هذه الأمة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[البقرة: ١٤٣]، ومنها شهادة الله على الجميع ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[المجادلة: ٦]، ولا تعارض بين هذه النصوص، وقد جاء فى السنة تعيين الشهادات فمنها الشهادة للمؤذن وشهادة المال على صاحبه فيم أنفقه، وشهادة الصيام والقرآن وشفاعتهما لصاحبهما، وشهادة الأرض على الإنسان بما عمل عليها ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾[الزلزلة: ٤] .

قال الشيخ عطية سالم فى تتمة أضواء البيان : «فى هذا العرض إشعار يتعلق بالقضاء وكمال العدالة، وهو إذا كان رب العزة سبحانه وتعالى، وهو على كل شئ شهيد، وبكل شئ عليم، وموكل حفظة يكتبون أعمال العباد، ومع ذلك لم يقض بين الخلائق بما يعلمه منهم ولا بما سجلته ملائكته، ويستنطق أعضاءهم، ويستشهد الرسل على الأمم، والرسول ﷺ على الرسل، أى بأنهم بلغوا أممهم رسالات الله إليهم، فلأن لا يقضى القاضى بعلمه من باب أولى والعلم عند الله تعالى .

وقد جاء عنه ﷺ قوله «**إنكم تحتكمون الىّ وإنما أنا بشر أقضى بما لكم على نحو ما أسمع، فمن أقتطعت له شيئا من حق أخيه، فإنما أقطع له قطعه من نار**». الحديث أى من كان من الممكن أن ينزل عليه الوحى، ولا سيما فى تلك القضية بعينها، إذ قالوا فى مواريث درست معالمها ولا بينه بينهما، ولكن إذا نزل الوحى عليه ﷺ فيها، فمن بالوحى يأتى لمن يأتى بعده فى القضاء؟، ولذا قال رسول الله ﷺ : «**البينه على المدعى، واليمين على من أنكر**» ومعلوم أن البينة فعلية من البيان، فتشمل كل من يبين الحق من شهادة وقرينة كما فى قصة يوسف عليه السلام من القرائن مع أخوته ومع امرأة العزيز . أ . هـ .

وقد ذكر العلماء أن قضاء القاضى وفتوى المفتى وحكم الحاكم لا تجعل الحرام حلالا ولا الحلال حراما، وأن الحدود تدرأ بالشبهات، فلابد من التثبيت والحيطة، وقالوا: لو شهد ثلاثة فيهم أمير المؤمنين على واقعة زنا، ولم يأت الرابع لأقيم حد القذف على الثلاثة، ولو أقسم المدعى عليه ولم يأت المدعى بالبينه، برأت ساحته وللمدعى أن يقول كما قال المسيح عليه السلام : «آمنت بالله وكذبت عينى».

الرابعة: قتل أصحاب الأخدود وضوابط لعن من آذى المؤمنين

قال ابن عباس رضي الله عنهما كل شئ فى القرآن قتل فهو لعن، فيكون معنى قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ [البروج: ٤]، أى لعن، وهذا جواب القسم فى قول الفراء- واللام فيه مضمرة كقوله: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١] ثم قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩] أى لقد أفلح.

قال أبو حيان: وجواب القسم فى قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١] قيل: محذوف، فقيل ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]، ونحوه، وقيل مذكور، فقيل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البروج: ١٠] ونحوه وقيل: ﴿قُتِلَ﴾ [البروج: ٤]، وهذا نختاره، وحذفت اللام أى لقتل وحسن حذفها، كما حسن فى قوله : ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١]، ثم قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ الشمس: ٩] أى لقد أفلح، ويكون الجواب دليلا على لعنة الله على من فعل ذلك، أوتنبيها لكفار قريش الذين يؤذون المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم.

وإذا كان: ﴿قُتِلَ﴾ [البروج: ٤] هى الجواب فهى جملة خبرية، وإذا كان الجواب غيرها فهى جملة إنشائية، دعاء عليهم، وقرئ: ﴿قُتِّلَ﴾ [البروج: ٥] قتل بالتشديد، قرأها الحسن وابن مقسم وقرأها الجمهور بالتخفيف أ. هـ. و الأخدود الشق العظيم المستطيل فى الأرض كالخندق، وكان أصحابه قد شقوه وأوقدوا فيه النار حتى ملأوه نارا: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ [البروج: ٥] وقد استحق أصحاب الأخدود هذه النقمة وهذا الغضب فى الحالة التى كانوا عليها وهم يرتكبون ذلك الأثم، ويزاولون تلك الجريمة: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج: ٧] وهو تعبير يصور موقفهم ومشهدهم وهم يوقدون النار، ويلقون بالمؤمنين والمؤمنات فيها وهم قعود على النار،

قريبون من عملية التعذيب البشعة، يشاهدون أطوار التعذيب، ويتلذذون بهذا المشهد البشع الشنيع وقيل: كانوا بنجران فى الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ .

وعلى قول ابن عباس رضي الله عنهما بأن: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾[البروج: ٤] أى لعن الذين خدوا الأخاديد وقعدوا عليها يلقون فيها المؤمنين، يكون فى جواز لعن من أذى المؤمنين على جهة العموم والجملة، وقد ورد: ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[البقرة: ٨٩]، ﴿أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[هود: ١٨] ووردت الأحاديث بلعن شارب الخمر والنامصة والمتنمصة والواشمة والمستوشمة، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله، ولعن من غير منار الأرض، ومن أوى محدثا . . . فلا بأس بلعن من وردت النصوص بلعنه، ومعنى اللعنة أى الطرد من رحمة، وهذه خاتمة لا يعلمها إلا الله، وإلا فالشخص المعين قد يتوب إلى الله توبة نصوحا وقد يبتلى بمصائب مكفرة أو تكون له حسنات ماحية أو قد تلحقه شفاعة شفيع، ولذلك قال جمهور العلماء: يجوز لعن شارب الخمر ونحوه مما وردت النصوص بلعنه وذلك على جهة العموم والجملة، أما الشخص المعين الذى شرب الخمر فلا يجوز إطلاق وصف اللعن عليه لأن الوعيد قد لا يتحقق لفوات شرط أو وجود مانع، ولحديث الرجل الذى كان أكثر مايؤتى به لرسول الله ﷺ وهو مخمور، فقال البعض لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : **«لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»**، أو **«ما أعلمه إلا أنه يحب الله ورسوله»** ونهى عن لعنه رغم شربه الخمر، ولا ينبغى للمسلم أن يكثر من اللعن فإن رسول الله ﷺ لم يبعث لعانا.

خامسا: شاهد الكفار إحراق المؤمنين بالنار متلذذين لقسوة قلوبهم

قال الله تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾[البروج: ٤] أى أن أولئك المؤمنين قتلوا بالإحراق بالنار على تفسير، وكانت نارا عظيمة لكثرة حطبها: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾[البروج: ٥] فالوقود اسم للحطب أو غيره، قال الله تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾[البقرة: ٢٤].

وقد ذكر بعض العلماء أن القاتلين كانوا جالسين فيها وكانوا يعرضون المؤمنين على الناس، فمن كان يترك دينه تركوه، ومن كان يصبر على دينه ألقوه فى النار قال تعالى: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾[البروج: ٦] وكأنهم قعدوا على طرف النار وشفيرها والمواضع التى يمكن الجلوس فيها يشاهدون ما يحدث للمؤمنين وهذا يدل على قسوة قلوبهم حيث حضروا فى تلك المواطن المنفرة والأفعال الموحشة ولربما طمعوا فى أن هؤلاء المؤمنين إذا نظروا إليهم هابوا حضورهم واحتشموا من مخالفتهم، وما حدث بالأمس للمؤمنين يتكرر اليوم على أيدى الصرب الظالمين، وهنا وهناك، مما يدل على قسوة قلوب الكافرين وتحجرها، ولا تنزع الرحمة إلا من شقى، وفى الحديث عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال: «**عذبت أمراة فى هرة حبستها ،حتى ماتت فدخلت فيها النار ،وقيل لها: لا أنت أطعمتها ولا سقيتها بحين حبستها ولا أنت أرسلتها فأكلت من خشاش الأرض**»[١] .

وورد عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : «**بينما رجل يمشى فاشتد عليه العطش فنزل بئرا فشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال : لقد بلغ بهذا مثل الذى بلغ منى فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله فغفر له، قالوا :يارسول الله وإن لنا فى البهائم أجرا؟ قال: فى كل كبد رطبة أجر**»[٢] فمن لا يرحم لا يرحُم، وفى الحديث: «**أنما يرحم الله من عباده الرحماء**»[٣] وورد: «**أرحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء**»[٤] والإيمان من شأنه أن يورث رحمة، أما الكفر فمن شأنه أن يولد فى القلوب قسوة وفى النفوس غلظة، وتكفى نظرة سريعة على طريقة تعاملهم مع قضايا المسلمين فى البوسنة وكوسوفو

(١، ٢، ٣) رواه البخاري.
(٢) رواه الطبراني والحاكم بسند صحيح.

وفلسطين والشيشان واريتريا. . . لندرك مدى تشابههم قديما وحديثا، وهنا وهناك على اختلاف ألوانهم وألسنتهم وأوطانهم: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[البقرة:١١٨] وحتى لا ننخدع بالشعارات البراقة التى يروجون لها كشعارات حقوق الإنسان، والإنسانية، والعدل . . . فهى أن طبقت يوما، فلا تطبق إلا مع من كان على شاكلتهم فى الكفر.

السادسة: عذب الجبابرة بالنار جزاء وفاقاً

الرواية المشهورة أن المقتولين هم المؤمنون، وروى أيضا أن المقتولين هم الجبابرة لأنهم لما ألقوا المؤمنين فى النار عادت النار على الكفرة فأحرقتهم ونجى الله المؤمنين منها سالمين وإلى هذا القول ذهب الربيع بن أنس والواقدى وفسروا قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾[البروج: ١٠] أى لهم عذاب جهنم فى الآخرة ولهم عذاب الحريق فى الدنيا، وعلى هذا التفسير، قد يكون المراد بقوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾[البروج: ٤] أن أولئك الجبابرة القاتلين لما أرادوا قتل المؤمنين بالنار عادت عليهم النار فقتلتهم، وحيتئذ يكون الضمير فى هم عائد إلى أصحاب الأخدود بمعنى القاتلين، والضمير فى عليها : ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾[البروج:٦] عائد إلى النار فإن أولئك القاتلين كانوا قاعدين على النار، فلما ألقوا المؤمنين فى النار ارتفعت النار إليهم فهلكوا بنفس مافعلوا بأيديهم لأجل إهلاك غيرهم، فكانت الآية دالة على أنهم فى تلك الحالة كانوا ملعونين أيضا ويكون المعنى أنهم خسروا الدنيا والآخرة.

والقول بأن المقتولين هم الجبابرة أقل شهرة، وإن كان لا يبعد، فالجزاء من جنس العمل وبأسه سبحانه لا يرد عن القوم المجرمين، وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون وهو جل وعلا قادر على كل شئ، لا يعجزه شئ فى الأرض ولا فى السماء، وقد يعجل العقوبة للكافر فى الدنيا، ولعذاب الأخرة أشد، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾[البروج: ١٠] فهؤلاء الجبابرة إن لم يلحقهم التحريق والعذاب فى الدنيا، فلن يفلتوا من عذاب الآخرة، وجزاؤهم هنالك سيكون من جنس عملهم: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾[البروج: ١٠] فعذاب جنهم هو العذاب الحاصل بسبب كفرهم، وعذاب الحريق هو العذاب الزائد على عذاب الكفر بسبب أنهم أحرقوا المؤمنين وهذا من عدل الله فى خلقه، ومن سننه فى عباده ولذلك لما قال فرعون﴿ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ

لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾[الزخرف: ٥١] أجراها سبحانه من فوق رأسه جزاءا وفاقا، ومات يوم مات وهو يقول: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[يونس: ٩٠] فقيل له: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[يونس: ٩١] ولما كانت فعلة قوم لوط تدل على انتكاس الفطرة: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾[الشعراء: ١٦٥] كان عذابهم مناسبا لفعلتهم، فقد قلبت الملائكة القرية على من فيها وصار عاليها سافلها، وأمطروا حجارة من سجيل منضود: ﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[هود: ٨٣] وقد صارت قريتهم سدوم عبارة عن بحيرة منتنة فى مقابلة نتن فعلهم، فلا يستبعد أن يتم تحريق الجبابرة الكفرة القاتلين بالنار فى الدنيا قبل الآخرة على نحو ما ذهب إليه بعض العلماء فى تفسير قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾[البروج: ٤].

السابعة: أعدوا للبلاء ترياقاً فقد آمنتم بالله العزيز الحميد الشهيد الملك

تهمة وجهت للمؤمنين بالله فى كل عصر ووقت وهنا وهناك، ولم يسلم منها الأنبياء ومن تابعهم بإحسان، دفعوا ثمن إيمانهم، فمنهم من جاد بنفسه ومنهم من سجن ومنهم من طرد، ومنهم من أوذى وعذب....... طابور طويل من المعذبين فى الأرض، لا جريرة لهم إلا إسلام الوجه لله تعالى فهذه تهمة نبى الله إبراهيم عليه السلام .عندما قال له: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾[مريم: ٤٣] فما كان من أبيه آزر إلا أن تهدد وتوعد وقال: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾[مريم: ٤٦] وكان قوم إبراهيم يعبدون الكواكب والأصنام فتأفف منهم وقال: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[الأنبياء: ٦٧] ثم شرع يكسر هذه الأصنام التى عبدت من دون الله فأضرموا له النيران وقذفوه فيها فكانت بردا وسلاما عليه، وترك أرضه وهو يقول: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[الصافات: ٩٩] ثم انتقل إلى محاورة ومناظرة النمرود أى إلى فتنة وابتلاء آخر، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ

آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾[البقرة: ٢٥٨] لقد قتل نبى الله يحيى ونبى الله زكريا وحاولوا قتل نبى الله عيسى فرفعه الله إليه وقالوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[النمل: ٥٦] وحدثت المواجهة بين نبى الله موسى وفرعون، الذى ادعى الربوبية والألوهية مع الله: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾[طه: ٤٩-٥٢] لقد أضل فرعون قومه وماهدى، واستخف قومه فأطاعوه، أنهم كانوا قوما فاسقين، وبلغ من استخفافه بعقولهم أن قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[غافر: ٢٦] وتجاوب معه الملأ فقالوا: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾[الأعراف: ١٢٧] فقال موسى لبنى إسرائيل: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[الأعراف: ١٢٨] ثم أتبعهم فرعون بجنوده بغيا وعدوا، فلما رأت بنو إسرائيل أن البحر أمامهم وفرعون خلفهم وورائهم قالوا ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ قال نبى الله موسى: ﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[الشعراء: ٦٢] ولما بُعث رسول الله ﷺ واجهه كفار قريش بكل صنوف الأذى، فقد حاصروه وخنقوه ووضعوا سلا الجذور على ظهره الشريف وحالوا قتله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[الأنفال: ٣٠] واضطروه للخروج من أحب بلاد الله إلى الله ومن أحب بلاد الله لنفسه الشريفة صلوات الله وسلامه عليه، وقال لولا أن قومك أخرجونى ما خرجت منك أبدا، كما أوذى فى شخص أصحابه الكرام رضي الله عنهم أجمعين حتى أضطروا للهجرة مرتين إلى الحبشة ومرة إلى المدينة: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾[الحج: ٤٠] وتهمتهم يومئذ هى تهمة كل من سبقهم بإحسان، هى تهمة صاحب يس ومؤمن آل فرعون وأصحاب الكهف .... وهى تهمة الرسل الذين قال الله فيهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾[إبراهيم: ١٣-١٤] قال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[الحجر: ١١] وقال: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم

مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[الذاريات: ٥٢] وكان لسان حال المؤمنين فى كل زمان ومكان يقول للطغاة والطواغيت: **﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾**[المائدة: ٥٩] وتأتى قصة أصحاب الأخدود لتؤكد أن الإيمان صورة تتكرر وأن الجنة سلعة غالية فما يكاد العبد يضع قدمه على طريق الإيمان حتى تقوم الدنيا ولا تقعد، وحتى يواجه بكل صنوف الأذى: **﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾**[البروج: ٩] كانوا يقولون لهم: إما أن ترجعوا عن دينكم، وأما أن تلقوا فى النار، ولم يحرقوهم على إيمانهم السابق بل على أصرارهم على الإيمان للمستقبل، نقموا منهم لثباتهم علي الإيمان بالله العزيز الحميد، وفى ذلك إشعار بأنه سبحانه وتعالى قادر على نصرة المؤمنين والإنتقام من الكافرين، وبيان أن المؤمنين أمنوا رغبة منهم ورهبة، رغبة فى الحميد ورهبة من العزيز، لقد آمنوا بالله الذى له ملك السموات والأرض، القاهر فوق عباده والمدبر أمر ملكه، الذى لا يخرج عن سلطانه أحد، وقد جاء فى الآية ترغيب وترهيب للجبابرة الطغاة، حتى لا ييأس أولئك الكفار من فضله ورحمته، إذ أعطاهم المهلة وهذا من آثار صفته الحميد سبحانه، وذكرهم بأنه الشهيد على أفعالهم فلن تخفى عليه خافية، وكما كانوا قعودا على النار وشهودا على إحراق أولياء الله تعالى، فإنه سبحانه سيعاملهم بالمثل، إذ يحرقهم وهو عليم شهيد، وهكذا ارتبط أول السورة: **﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾** بقوله تعالى: **﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾**[البروج: ٩] ومن ذلك فعل أولئك الكفرة وفيه شدة تخويف أولئك وتحذيرهم وتهديد كل من كان على شاكلتهم من المجرمين كما أن فى ثناياها وعد عظيم للمطيعين.

إن الله تعالى هو العزيز الحميد الملك الشهيد: **﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾**[الأعراف: ١٨٠] فثبت أن من كان موصوفا بهذه الصفات كان من المستحق للإيمان به وغيره لا يستحق ذلك البتة فكيف حكم أولئك الكفار الجهال بكون مثل هذا الإيمان ذنبا، فعلى كل مؤمن أن يوطن نفسه على معالى الأمور ويأخذ نفسه بالعزم ويعد للبلاء ترياقا، ويعلم أن المعتبر عنده سبحانه من الأفعال عواقبها فهو وإن كان قد أمهل لكنه ما أهمل، فإنه تعالى يوصل ثواب أولئك المؤمنين إليهم، وعقاب أولئك الكفرة إليهم، فهو العزيز الذى لا يغلب والقاهر الذى لا يدفع الحميد الذى يستحق الحمد والثناء على ألسنة عباده المؤمنين، وإن كان من بعض الأشياء

لا يحمده بلسانه فنفسه شاهده على أن المحمـود فى الحقيقة هو هو كما قال: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾[الإسراء: ٤٤] فأعتصم بجنابه ووثق صلتك به: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[آل عمـران: ١٠١] وتذكر أصحـاب الأخدود إن ساومـوك على إسلامك أو لم يكتفـوا بذلك فسامـوك سوء العذاب فـالحياة بغـير الله سراب، وإليه سبحانه وحده المرجع والمآب.

الثامنة: دعاهم سبحانه إلى التوبة رغم أنهم أحرقوا أوليائه وفتنوهم

تعجبت الآيات من ظلم الملك وجنده أنهم يأتون بمثل هذه الفظاعة لا لجرم من شأنه أن ينُقم من فاعله، فما نقموه على المؤمنين حقيق بأن يمدحوا به لأنهم آمنوا برب حقيق بأن يؤمن به لأجل صفاته التى تقتضى عبـادته ونبذ ما عداه، وقد توعدت الذين اتخذوا الأخدود، ووعـدت الذين عذبوا فى سـبيل الله،وهذه المعـانى تتعـدى هؤلاء إلى ما حدث بمكة للمؤمنـين بلال وعمار وصهيب وسـمية على أيدى كفار قـريش وهى قصة الفتنة التى يتعـرض لها المؤمنون هنا وهناك والصد عن سبيل الله والتنفـير من طاعة الله الذى يمارسه الـطغاة فى كل عصر ووقت، وعلى الرغم من ذلك فليس للمـعذبين فى الأرض أن يتألوا على الله ولا أن يقطعـوا بخاتمة هؤلاء الذين عذبوهم وفتـنوهم، فقد يتوبون إلى الله ويحسنون المسـير إلى الله، ويكونون بعد ذلك عبادا صـالحين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾[البروج: ١٠] وأصل الفـتنة الإبتلاء والإمتـحان، وذلك لأن أولئك الـكفار أمتحنوا أولئك المؤمنين وعرضوهم على النار وأحرقوهم .

قال ابن عباس ومقاتل: ﴿فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ﴾ حرقوهم بالنار، ورغم فعلتهم هذه إلا أنه سبحانه دعاهم للتوبة وفتح أمامهم أبواب الرجاء، فقال: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ وهذا دليل على أنهم لو تابوا لخرجوا عن هذا الوعيـد، وذلك يدل على القطع بأن الله تعالى يقبل التوبة، ويدل أيضا على أن توبة القاتل عمدا مقبولة.

وقد عد من الذين فتنوا المؤمنين أبو جهل رأس الفـتنة،وأمية بن خلف،وصفوان بن أمية والأسود بن عبد يغوث، والوليد بن المغيرة، وأم أنمار ورجل من بنى تيم، وعد من

المفتـونين بلال بن رباح كان عبـدا لأمية بن خلف فكان يعـذبه، وأبو فكيهة كان عـبدا لصفوان بن أمية، وخباب بن الأرت كان عبدا لأم أنمار، وعمار بن ياسر، وأبوه ياسر، وأخوه عبد الله كانوا عبيدا لأبى حذيفة بن المـغيرة فوكل بهم أباجهل، وعامر بن فهيرة كان عبدا لرجل من تيم.

والمؤمنات المفتونات منـهن : حمامة أم بلال أمة أميـة بن خلف، وزنيرة، وأم عنيس كانت أمـة للأسود بن عبد يغـوث، والنهدية وابنتها كـانت للوليد بن المغيرة، ولطـيفة، ولبينة بنت فهيرة كانت لعمر بن الخطاب قبل أن يسلم كان عمر يضربها، وسمية أم عمار بن ياسر كـانت لعم أبى جهل، وفتن ورجع إلى الشـرك الحارث بن ربيعـة بن الأسود، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وعلى بن أمية بن خلف، والعاصى بن المنبه بن الحجاج.

وذكر المؤمنات عقب المؤمـنين للتنويه بشأنهن لئلا يظن أن هذه الميزة خـاصة بالرجال، ولزيادة تفظيع فعل الفاتنين بأنهم أعتدوا على النساء، والشأن أن لا يتعرض لهن بالغلظة.

وباب التوبة مـفتوح ما لم يغـرغر العبد ومـا لم تطلع الشمس من مغربهـا، والتوبة مقبـوله من كل ذنب كفرا كان فمـا دونه قال الله تعالى: **﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾**[الأنفال: ٣٨] وقال: **﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾**[الزمر: ٥٣] وقال: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾**[آل عمران: ١٣٥] والنصـوص فى هذا المعنى كثيرة، ومن جـملة ذلك حديث الرجل الذى قتل تسعة وتسعين نفسـا، وكمل المائة بالراهب الذى أغلق أمامه أبواب التوبة، والحديث فى صحيح مسلم.

فـإن لم يتـوبوا مـن كـفـرهم وجـرمـهم : **﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾**[البروج: ١٠] والحريق إذا كـان مفهوما من عـذاب جهنم لكن الآية جاءت به ليكون مقابلا للحـريق فى الأخدود مع البون الشاسع بين حريق الدنيـا وحريق الآخرة، فى شدته وفى مـدته، والزج بهم فى جهنم عذاب قـبل أن يذوقوا حريقهم لما فـيه من الخزى، وقد يراد بالحريق بعد ذكر جهنم، مضـاعفة العذاب لهم كقوله تعالى: **﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾**[النحل: ٨٨]

ويجوز أن يراد بعذاب الحريق، حريق بغير جهنم وهو مايضرم عليهم من نار تعذيب قبل يوم الحساب كما جاء فى الحديث «القبر حفرة من حفر جهنم أو روضة من رياض الجنة»[1].

ويبقى التفريق بين المسلم والكافر: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[القلم:٣٦] فمرتكب الكبيرة إن مات عليها ولم يتب منها وكان مسلما، يقع تحت المشيئة، إن شاء الله غفر له بفضله، وإن شاء عذبه بعدله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[النساء:١٨٦] ومثل هذا إن دخل النار لا يدخلها دخول الكفار ولا يعذب فيها عذاب الكفار ولا يخلد فيها خلود الكفار.

التاسعة: النجاة والفوز الحقيقي للمؤمنين، وإن انتهت حياتهم بتحريق

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾[البروج: ١٠] يحتمل أن يكون مرادا به أصحاب الأخدود، ويحتمل أن يكون عاما فى كل من أذى المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم ويردوهم عنه بأى أنواع الفتنة والتعذيب، وحمله على العموم أولى، فالآية تشتمل كفار قريش وغيرهم، ويرجح هذا العموم، العموم الآخر الذى يقابله في قول الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾[البروج:١١] فهذا عام بلا خلاف فى كل من اتصف بهذه الصفات، بمعنى يشمل المؤمنين المذكورين فى قصة أصحاب الأخدود كما يشمل المؤمنين فى كل زمان ومكان، وهذا يوضح لك أن العبرة بالنهاية والخاتمة، وأن الأمر فى الحقيقة والواقع على ما عند الله، فأنت قد لا ترى من الأمر إلا التعب والمشقة والأذى، لا ترى إلا نفوسا معذبة، والأمر ليس كذلك، فلو اطلعت على القلوب لوجدت أمرا عجبا، ولعلمت أن عافية المؤمن وراحته إنما هى فى طاعة الله حتى وإن كلفته نفسه، فهذا بلال يعذب فى ذات الله وتوضع عليه كتل الصخر فى حر الظهيرة وهو يقول: أحد أحد، ويصبر عمار وأبوه ياسر وأمه سمية على الأذى محتسبين الأجر عند الله حتى يقتل ياسر وزوجته سمية، ويبكى حذافة وهو يعاين موت الأسير المسلم فيطمع فيه ملك الروم فيقول له حذافة: لوددت أن لى مائة نفس قتلت هذه القتلة فى سبيل الله.

---

(١) رواه البيهقي في سننه عن ابن عمر.

ولما أرادوا قتل خبيب بن عدي سألهم المهلة حتى يصلى لله ركعتين فلما فرغ قال : والله لولا أن تظنوا أنى أطلت الصلاة مخافة القتل لأطلتها أكثر، ثم قال: اللهم اللهم أنى لا أرى إلا وجه عدو ولا أرى وجه أحد يقرئ رسولك منى السلام فأقرأه منى السلام، ثم ناوشوه بالسيوف والرماح فوقع وهو يقول:

ولست أبالى حين أقتل مسلماً ... علي أن جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك علي أوصال شلو ممزع

ولما كان يوم أحد قال خيثمة لابنه سعد: اجلس مع نسائك وأنا أكفيك الخروج- أى لقتال الكفار - فقال له سعد : لو كان غير الجنة لآثرتك به، وكان أبو الدرداء ﷺ يوم وفاته يقول : اليوم ألقى الأحبة محمد وصحبه، أنها النفوس التى وجدت راحتها في الصلاة والصيام وتلاوة القرآن . . . و: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[الذاريات:١٨] رهبان الليل فرسان النهار لهم شأن وللناس شأن، علموا أن الحياة ممتدة زمانا لأبد الآبدين، ومكانا إلى جنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وكانوا على بصيرة من أمرهم وأمر الناس، وجدوا أن الحياة بغير الله سراب، وأن الدنيا دار عمل وكسب، وأن طلب الراحة فيها للرجال غفلة، فركبوا سفن الآخرة وطلبوا نعيما لا ينفد وقرة عين لا تنقطع، وآثروا ما يبقى على ما يفنى، وجدوا أن النجاة غدا لمن باع قليلا بكثير ونافدا بباق، وأن الفوز لمن زحزح عن النار وأدخل الجنة، ولمن جاءته ملائكة الرحمة قبل ذلك، ونودى بأحب أسمائه التى كان ينادى بها فى الدنيا، وألهم رشده عندما سئل فى قبره من ربك وما دينك وماذا تقول فى الرجل الذى بعث فيكم؟ فأجاب ربى الله ودينى الإسلام، والرجل الذى بعث فينا هو محمد ﷺ أمنت به وصدقت، فنادى مناد من السماء أن صدق عبدى فافرشوا له من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة يأتيه من ريحها وطيبها.

أن الفوز الحقيقى لمن أوتى كتابه بيمينه غدا فيقول فرحا: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾[الحاقة: ١٩-٢٤] النجاة لمن ثقلت حسناته وغلبت سيئاته، ومر على الصراط المضروب على متن جهنم بسلام، وقيل له: يا فلان بن فلان سعدت سعادة لا شقاء بعدها أبدا .

أن الدنيا هى سجن المؤمن وجنة الكافر، وغمسة واحدة فى الجنة تنسي الإنسان شقاء الدنيا بحيث لو قيل للعبد: هل رأيت بؤسا قط، لقال : لا والله يارب.

ما قيمة لذة يعقبها حسرة وندامة، هى أشبه بلذة ساعة وألم دهر، وما قيمة راحة ومتعة يعقبها شقاء وتعاسة لا تنتهى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾[طه: ١٢٤] أن المؤمنين قوم أطلق الله فراستهم، وعاينوا ما خلقوا من أجله، فأحسنوا المسير إلى الله.

إن لله عباداً فطناً	طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا	أنها ليست لحى وطناً
جعلوها لجة واتخذوا	صالح الأعمال فيها سفناً

العاشرة: الفارق كبير بين بطش وبطش

تهديد فى صورة الخبر مثل: ﴿إن لربك لبالمرصاد﴾ وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾[هود: ١٠٢] فهو سبحانه القادر على نصرة المؤمنين والانتقام من الكافرين، وليس أصحاب الأخدود ولا مشركو قريش بمعجزين فى الأرض، ولا قدرة لهم على حرب الله، فهو الذى﴿أهلك عَادًا الأُولَىٰ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾[النجم: ٥٠-٥٤] وهو الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾[فاطر: ٤٥] وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول لشئ كن فيكون ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾[القمر: ٥٠] ، وقال ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[الزمر: ٦٧] وقال ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[لقمان: ٢٨] وقال: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٤] وقال: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾[النملك٨٧] وقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾[الأنبياء: ٤٧].

ماشـأن من طالع هذه الآيات البـينات وغيـرها وقرأ قوله تـعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾[البروج: ١٢] إلا أن ينخلع قلبه وتنيب نفسه إلى الله، كيف يجرؤ على الكفر، ويدعى الربوبية والألوهية مع الله، ويصد عن سبيل الله، وينفر من طاعة الله، من علم شدة بطشه سبـحانه وأليم عقابه، إن النفس لتنزجر عن غـيها وتقلع عن معصيـتها متى تحققت وتيقنت قول ربها: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ لقد حذر سبحانه خلقه وعباده من بطشه الشـديد، وهذا من رحمـته ورأفتـه، فأبى أكثـر الناس إلا كفورا، غـلب عليهم الشقـاء، فلم يرفعوا بذلك رأسا، ولم ينتـفع بذلك إلا المؤمنون، فأمنوا رغبـه ورهبة، ورغبـه فى الحميـد الغفور الودود، ورهبـة من العزيز: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ وهذا كمال الإيمان ـ رغبة ورهبة وأحسن حالات المؤمن.

أن الفارق كبـير بين بطش وبطش، فبطش الناس مـهما تعاظم وأشـتد، إنما هو فى زمن محدود ورقعـة من الأرض محدودة، وعلى قدر ضعف البشـر وعجزهم، فكيف يقاس أو يقـارن ببطش المنتقم الجبار الـذى له ملك السموات والأرض، فلا تجـعل فتنة الناس كعذاب الله، واثبت على طاعة ربك مـهما لاقيت فلك فى ركب الإيمان الذى تقدمك أسوة حسنة وقدوة طيبة

الحادية عشر: المبدئ المعيد

إن الله تعالى هو الأول الأخـر، الظاهر الباطن، المحيى المميت، القـابض الباسط، الخافـض الرافع، المعز المذل، الضـار النافع، المقدم المـؤخر: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف: ١٨] وقد وردت الأسماء المذكورة مـزدوجة، بحيث أنها لا تفيد الكمال بمفـردها ويجب اقتـرانها بمقابلهـا، فلا يجوز أن يثنى عـلى الله بمجرد الإذلال والإضرار والمنع، والصواب أن يقال: المعز المذل، الضار النافع.

قال ابن تيميمة: «الكمال ثابـت لله، بل الثابت له هو أقصى ما يمكن من الأكملية بحيث لا يكون وجود كمال لا نقص فيه إلا وهو ثابت للرب ـ تبارك وتعالى ـ يستحقه بنفسه المقدسة».

وقال ابن القيم : «صفات الله كلها صفات كمال محض، فهو موصوف من الصفات بأكملها، وله من الكمال أكمله، وهكذا أسماؤه الدالة على صفاته هى أحسن الأسماء وأكملها، فليس فى الأسماء أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها ولا يؤدى معناها» أ. هـ.

وقد ورد فى سورة البروج، وصفه سبحانه بالمبدئ المعيد، هكذا على سبيل المقابلة قيل: يبدئ الخلق ويعيده، كالزرع والنبات والإنسان بالمولد والموت ثم بالبعث. وقيل: يبدأ الكفار بالعذاب ويعيده عليهم، أستدل لهذا بقوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾[النساء: ٥٦] وفى الحديث: «**مامن صاحب إبل لا يؤدى زكاتها إلا إذا كان يوم القيامة، بطح لها بقاع قرقر، ثم يأتى بها أوفر ماتكون سمنا فتطؤه بخفافها فتستن عليه كلما مر عليه أخرها أعيد عليه أولها حتى يقضى بين الخلائق فيرى مصيره إما إلى الجنة ،وإما إلى النار.......**». إلى أخر الحديث فى صاحب البقر والغنم والذهب، ويكثر ورود هذه الصفة فى القرآن بالمعنى الأول كقوله تعالي: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾[يونس: ٤٠] وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[يونس: ٣٤] وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٤] ورد على المشركين بقوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾[يونس: ٣٤] وقد ورد اسم المبدئ المعيد في حديث الترمذي وقال: هذا حديث غريب وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة ولا نعلم فى كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث أ. هـ.

الثانية عشر : المناسبة وأوجه الشبه بين قصة أصحاب الأخدود وحديث الجنود

قال الشيخ عطية محمد سالم فى تتمة أضواء البيان:

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ .

بعد عرض قصة أصحاب الأخدود تسلية للمؤمنين وتثبيتا لهم، وزجرا للمشركين وردعا لهم، جاء بأخبار لبعض من سبق من الأمم، وفرعون وثمود بدل من الجنود، وهم جمع جند، وهم الكثرة وأصحاب القوة، وحديثه ما قص الله من خبره مع موسى وبنى إسرائيل.

وفى اختيار فرعون هنا بعد أصحاب الأخدود لما بينهما من المشاكلة والمشابهة، إذ فرعون طغى، وأدعى الربوبية، وكذلك أصحاب الأخدود الذى قال لجليسه: ألك رب غيرى؟ ولتعذيبه بنى إسرائيل بتقتيل الأولاد واستحياء النساء، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم، ولتقديم الآيات والبراهين على صدق الداعية، إذ موسى عليه السلام قدم لفرعون من آيات ربه الكبرى فكذب وعصى، والغلام قدم لهذا الملك الآيات الكبرى: إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله، وعجز فرعون عن موسى وإدراكه، وعجز الملك عن قتل الغلام إذ نجاه الله من الإغراق والدهدهة من قمة الجبل، فكان لهذا أن يرعوى عن ذلك ويتفطن للحقيقة، ولكن سلطانه أعماه كما أعمى فرعون.

وكذلك أمن السحرة لما رأوا آية موسى وخروا لله سجدا.

وهكذا هنا آمن الناس برب الغلام، فوقع الملك فيما وقع فيه فرعون .إذ جمع فرعون السحرة ليشهد الناس عجز موسى وقدرته، فأنقلب الموقف عليه، وكان أول الناس إيمانا هم أعوان فرعون على موسى، وهكذا هنا كان أسرع الناس إيمانا الذى جمعهم الملك ليشهدوا قتله للغلام.

فظهر تناسب ذكر فرعون دون غيره من الأمم الطاغية السابقة، وإن كان فى الكل عظة وعبرة، ولكن هذا منتهى الإعجاز فى قصص القرآن وأسلوبه، والله تعالى أعلم.

وكذلك ثمود لما كان منهم من مظاهر القوة والطغيان، وقد جمعها الله أيضا معا فى سورة الفجر: ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ﴾[الفجر: ٩-١٠] وهكذا جمعهما هنا فرعون وثمود.

قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾.

أى مستمر فى كل الأمم، وتقدم فى سورة الإنشقاق قبلها ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴾[الانشقاق: ٢٢].

فقال الكرمانى، محمود بن حمزة بن نصر تاج القراء فى كتابه «أسرار التكرار فى القرآن» : "إن المغايرة لمراعاة رؤوس الآى والفواصل، ولكن الظاهر من السياق فى الموضعين مراعاة السياق لا فواصل الآى، لأن فى سورة الأنشقاق الحديث مع المشركين ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴾[الانشقاق: ١٩-٢٢].

وفى سورة البروج هنا ذكر الأمم من فرعون وثمود وأصحاب الأخدود والمشركين فى مكة، ثم قال: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ فناسب هذا هنا، وناسب ذاك هناك والله تعالى أعلم.

الثالثة عشر: تواصل معاني الترغيب والترهيب في ثنايا السورة

فتح سبحانه أبواب الرجاء للعصاة والكافرين ولمن أحرقوا أوليائه، ترغيبا لهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾[البروج: ١٠] وأنذرهم بطشه وأليم عذابه، إن هم استمروا على كفرهم وعصيانهم ولم يتوبوا إلى ربهم، ترهيبا لهم فقال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾[البروج: ١٢] وتواصلت معانى الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد فى ثنايا السورة فوصف نفسه سبحانه بقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾[البروج: ١٤] والمغفرة تتصل بقوله من قبل: ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾[البروج: ١٠] فهو يقبل القليل من العمل ويغفر الكثير من الزلل، كما أنه يستر ذنوب عباده المؤمنين لا يفضحهم بها، فعل ذلك تفضلا من غير جزاء، فليس له ولد يغفر لهم من أجله، وهو سبحانه الودود أيضا أى المحب لأوليائه قال ابن عباس : كما

يود أحدكم أخاه بالبشـرى والمحبة، وعنه أيضا : ﴿الْوَدُودُ﴾[البروج: ١٤] أى المتودد إلى أوليائه بالمغفرة .

وقال مـجاهد: الواد لأوليائه، كـما أنه سبحـانه المودود الذى يوده عباده الصـالحون ويحبـونه، فانظر رحمك الله كـيف فتح باب المغـفرة فى وجه العـائد التائب ولو عظم الذنب وكبرت المعصـية، وكيف تودد إلى أوليائه وهو غنى عنهم، فما قيـمة الحياة التى ضحوا بها وهى ذاهبة؟ وما قيمة العذاب الذى احتملوه والألم الذى لاقوه فى مقابل هذا الود الذى آنسهم وعاملهم به، ألا هانت الحـياة وهان الألم وهان العذاب وهان كل غال عزيز فى سبيل الله الغفور الودود.

قال: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[البروج: ١٦]، والعرش هو أول المخلوقات وقد قدر سـبحانه مقادير الخـلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخـمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء، وقد جاء فى آخر سورة المؤمنون: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾[المؤمنون: ١١٦] والمجد هو النهـاية فى الكرم والفضل، والله سبـحانه المنعوت بذلك، ثم هو سبـحانه الفعـال لما يريد، فلا راد لقضائه ولا مـعقب لحكمه، ولا يكون فى ملكه إلا مـايريد، وما تشاءون إلا أن يشاء الله، يخلـق ما يشاء ويختـار، ويفعل ما يريده دائمـا أبدا، وقد حرم الظلم على نفـسه، وجعله بين العـباد محرما، وجعل خلقـه يتقلبون بين فضل وعدل فى الدنيا والأخرة، له سـبحانه الأسماء الحسنى والصفـات العلى، فله الحمد بكل لسان وعلى كل حـال، روى عن أبى السفر قال: دخـل ناس من أصحـاب النبى ﷺ على أبى بكر رضي الله عنه يعـودونه فقـالوا: ألا نأتيك بطبيب؟ قال: قد رآنى، قالوا: فما قال لك؟ قال: قال: إنى فعال لما أريد.

وفى ختام السـورة يأتى قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾[البروج: ١٩] فشأن الكفـار وحقيقة حالهـم أنهم فى تكذيب يمسون به ويصبحـون، رغم مشاهدتهم لدلائل القدرة، ورغم النعم التى يتمرغون فـيها وهى لا تعد ولا تحصى، ورغم تواصل معانى الترغيب والترهيب، إلا أنهم يكذبون فـهم لم ينتفعوا بوعظ ولا تذكير، وتشابه فى ذلك سابقهم مع لاحقهم، فقد كفـروا برسول الله ﷺ ، وكذبوا ببعثته وآذوه هو وأصحابه، ودأبهم فى ذلك كدأب من قبلهم، وإنما خص فرعون وثمود، لأن ثمود فى بلاد العرب، وقصتهم عندهم مشهورة وإن كانوا من المتقدمين وأمر فرعون كان مشهورا

عند أهل الكتاب وغيرهم، وكان من المتأخرين فى الهـلاك، فدل بهما على أمثالهما فى الهلاك كما يقول القرطبى. وهؤلاء الكفار لـيسوا بمعجزين، فإن الله قادر على أن ينزل بهم ما أنزل بفرعون، وهو سبحانه العالم بهم سواء وجدوا هنا أو هناك، فى هذا الزمن أو فى غيره: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾[البروج: ٢٠].

وجاء فى نهـاية السورة: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴾[البروج: ٢٢] أى مـتناه فى الشرف والكرم والبركة، وهو بيان ما بالناس الحاجـة إليه من أحكام الدين والدنيا، لا كما زعم المشركون، وهل أمجد وأرفع وأعرق من قول الله العظيم: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾[البروج:٢٢] أى هو في الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل كـما قال ابن كثيـر، وقال الحسن البصرى: إن هذا القـرآن المجيد عند الله فى لوح محفوظ ينزل منه ما يشاء على من يشاء من خلقه.

وكتب الحجاج إلى محمد بن الحنفية ﷺ يتوعده، فكتب إليه ابن الحنفية: ((بلغنى أن لله تعالى فى كل يوم ثلـثمائة وستـين نظرة فى اللوح المحفوظ، يعـز ويذل، ويبتلى ويفرج، ويفـعل مايريد، فلعل نظرة منها تشـغلك بنفسك فتـشتغل بها ولا تتـفرغ))، واللوح المحفوظ من أمر الغيب الذى تفرد الله بمعرفة كيفيته وكنهه، والذى نخلص به أن هذا القرآن مصون ثابت، قوله هو المرجع الأخير والأمر الفصل، ولقد قال القرآن قوله فى حادث الأخـدود، وفى الحقـيقة التى وراءه، وكلهـا معـانى تبعث على الرغـبة فى رحمته والرهبة من عذابه وإحسان المسير إليه سبحانه.

الرابعة عشر : حقيقة الإنتصار في قصة الغلام وأصحاب الأخدود

جاء فى كتاب حقيقة الإنتصار لناصر بن سليمان العمر: «وقد أعجبت بما قاله سيد قطب - رحمه الله - حول هذه القصة مبينا حقيقة الإنتصار فيها، ولذا سأذكر بعض ماقاله، ثم أضيف ما أراه حولها مما له صلة بموضوعنا:

وكان مما قال-رحمه الله- : «فى حساب الأرض يبدو أن الطغيان قد انتصر على الإيمان وأن هذا الإيمان الذى بلغ تلك الذروة العالية فى نفوس الفئة الخيرة الكريمة الثابتة المستعلية لم يكن له وزن ولا حساب فى المعركة التى دارت بين الإيمان والطغيان، فى حساب الأرض تبدو هذه الخاتمة أسيفة أليمة، وفى حساب الأرض يحيك فى صدرك شئ أمام هذة الخاتمة الأسيفة.

ولكن القرآن يعلم المؤمنين شيئا آخر، ويكشف لهم عن حقيقة أخرى.

إن الحياة وسائر ما يلابسها من لذائذ وآلام، ومن متاع وحرمان، ليست هى القيمة الكبرى فى الميزان، وليست هى السلعة التى تقرر حساب الربح والخسارة، والنصر ليس مقصورا على الغلبة الظاهرة، فهذة صورة واحدة من صور النصر الكثيرة.

إن الناس جميعا يموتون، وتختلف الأسباب، ولكن الناس لا ينتصرون - جميعا- هذا الإنتصار، ولا يرتفعون هذا الإرتفاع، ولا يتحررون هذا التحرر، ولا ينطلقون هذا الإنطلاق إلى هذه الأفاق، إنما هو اختيار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده، تشارك الناس فى الموت، تنفرد - دون- كثير من الناس فى المجد، المجد فى الملأ الأعلى، وفى دنيا الناس -أيضا- إذا نحن وضعنا فى الحساب نظرة الأجيال بعد الأجيال.

لقد كان فى أستطاعة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم فى مقابل الهزيمة لإيمانهم، ولكن كم كانوا يخسرون أنفسهم وكم كانت البشرية كلها تخسر، كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير، معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح، بعد سيطرتهم على الأجساد.

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[البروج:٨] حقيقة ينبغى أن يتاملها المؤمنون الداعون إلى الله، فى كل أرض، وفى كل جيل.

(إن المعركة بين المؤمنين وخصومهم هى فى صميمها معركة عقيدة، وليست شيئا آخر على الإطلاق وإن خصومهم لا ينقمون منهم إلا الإيمان، ولا يسخطون منهم إلا العقيدة)[1].

وبعد هذه الدروس التى استخلصها سيد قطب من هذه القصة، أقف عدة وقفات حولها:

١- ثبات الراهب والأعمى، وتخلى الأعمى عن جميع متع الحياة الدنيا فى مقابل أن يظفر بعقيدته، إن الراهب قد انتصر فى معركة بقائه أو بقاء عقيدته، فاختار أن تبقى العقيدة ولو خسر حياته. أما الأعمى فقد انتصر مرتين، انتصر عندما تخلى عن مكانته عند الملك مع ما فى ذلك من جاه ومكانة، وانتصر عندما تخلى عن حياته فى مقابل عقيدته.

إن الراهب والأعمى قد خلدا لنا معانى عظيمة من معانى الإنتصار الحقيقى، بعيدا عن التأويل والتبرير الذى يغطى فيه كثير من الناس ضعفهم وخورهم بستار يوهمون فيه الآخرين أنهم إنما فعلوا ذلك من أجل الدين، ولو صدقوا لعلموا أن انتصار الدين بأن يفعلوا ما فعله الراهب والأعمى.

٢- عجيب أمر هذا الغلام! لماذا دل الملك على مقتله، ولماذا - مادام أن الله قد منعه من الملك- لم يؤثر البقاء ليبلغ رسالة ربه، ويدل الناس على الدين الحق، ويبقى على حياته سالما.

هذا سؤال قد يتبادر إلى الأذهان: والفهوم التى لم تعرف الحقيقة الأنتصار، إن الغلام قد أدرك - بتوفيق من الله- أن كلمة فى لحظة حاسمة صادقة، تفعل مالا تفعله آلاف الكلمات فى عشرات السنين.

* إن الحياة مواقف، يتميز فيها الصادق من غيره، وقد سنحت فرصة عظيمة لا يجوز تفويتها، ولا يليق تبرير ضياعها، وكما قيل: «إذا هبت رياحك فأغتنمها»، وقد هبت رياح هذا الغلام، وهل رياحه إلا تبليغ رسالة ربه، ولو دفع حياته ثمنا رخيصا فى سبيل الله؟

---

(١) انظر معالم في الطريق فصل: هذا هو الطريق ص١٧٣ .

* إنه انتصار الفهم، وانتصار الإرادة، وانتصار العقيدة عندما تتحول فى صدر صاحبها إلى قوة مؤثرة، وحياة صادقة، وليست على هامش حياته وسلوكه وتفكيره، إن هذا الغلام قد انتصر عدة مرات فى معركة واحدة، وموقف واحد:

* انتصر بقوة فهمه وإدراكه لأقصر وأسلم الطرق لنصرة دينه وعقيدته، وإخراج أمته ومجتمعه من الظلمات إلى النور.

* وانتصر بقدرته على اتخاذ القرار الحاسم فى الوقت المناسب، متخطيا جميع العقبات، ومستعليا على الشهوات وحظوظ النفس ومتاع الحياة الدنيا.

وأنتصر على هذا الملك الغبى، الذى أعمى الله بصيرته، فأخرب ملكه بيده، فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور.

إن الناس قد يتعجبون لأن الغلام قد دل الملك على مقتله، ولكنهم لا يدركون' أن الملك قد قتل نفسه بيده لا بيد غيره، فأيهما أولى بالعجب والتعجب؟

إن الغلام أقدم وهو يعى حقيقة مايفعل: أما الملك فأعمته سكرة الملك وشهوة السلطان عن أن يدرك ما خطط له هذا الغلام، فى هذه المعركة الفاصلة التى مات فيها فرد وحيت أمة.

* وانتصر الغلام عندما تحقق ما كان يتصوره ويتوقعه وقدم نفسه من أجله، فآمن الناس وقالوا: آمنا بالله رب الغلام.

إن دقة التخطيط وبراعة التنفيذ، وسلامة التقدير، نجاح باهر وفوز ظاهر.

* وانتصر الغلام عندما فاز بالشهادة . فى سبيل الله، فكل الناس يموتون ولكن القليل منهم من يستشهدون.

* وانتصر أخيرا عندما خلد الله ذكره قدوة لمن بعده، وذكرا حسنا على لسان المؤمنين، حيث جعل الله له لسان صدق فى الآخرين.

٣- وتتويجا لهذه الانتصارات المتلاحقة.

تأتى نهاية القصة، عندما آمن الناس برب الغلام، آمنوا بالله وحده وكفروا بالطاغوت، وهنا جن جنون الملك، وفقد صوابه، فاستخدم كل ما يملك من وسائل الإرهاب والتخويف، فى محاولة يائسة، للإبقاء على هيبته وسلطانه وتعبيد الناس له.

ثم يحفر أخاديده، ويوقد نيرانه، ويأمر زبانيته وجنوده بإلقاء المؤمنين فى النار، وتأتى المفاجاة المذهلة، بدل أن يضعف من يضعف، ويهرب من يهرب، لا تسجل الرواية أن أحدا منهم تراجع أو جبن أو هرب، بل نجد الإقدام والشجاعة، والثبات وها هم يجدون فى اللحاق به، وكأنهم يتلذذون فى تقديم أرواحهم فداء لدينهم، تموت الأجسام وتحيا الأرواح عند خالقها:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾

[آل عمران: ١٦٩].

* والحالة الفريدة التى وردت فى الرواية، هى تلك المرأة التى خافت على رضيعها، ولكنها نسيت أنها قد أرضعته الإيمان والشجاعة والإقدام مع اللبن الذى كان يشربه، فطلب منها التقدم، فأقدمت.

* أى أمة تلك، وأى قوم أولئك، مع الزمن الطويل الذى عاشوه فى الظلام، والسنوات التى أستعبدهم فيها هذا الملك، ومع قصر المدة التى عرفوا فيها الإيمان، فقد عرفوا المنهج حق المعرفة، وكأنهم عاشوا فيه كما عاش الراهب طول عمره، أو تربوا عليه كما تربى الغلام فى صباه.

* إنه الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب، ولامس الأرواح يفعل العجب.

* لقد رأينا فى قصة الراهب والأعمى ثم الغلام انتصارا فرديا .

ولكننا فى قصة أولئك المؤمنين نرى انتصارا جماعيا قل أن يحدث له فى التاريخ مثيلا.

إنه صفاء العقيدة، ووضوح المنهج، وسلامة الطريق، وفهم حقيقة الانتصار.

٤- وقبل أن نغادر القصة، يرد سؤال في الأذهان:

ماذا حل بهذا الملك وحاشيته وجنده؟

وهل ذهبت دماء هؤلاء المؤمنين وأرواحهم دون انتقام من الله لمن قتلهم؟

أننا لا نجد فى القرآن ولا فى السنة أى ذكر لهؤلاء الظلمة، وماذا كان مصيرهم فى الدنيا، ولله فى ذلك حكمة قد تخفى علينا.

نعم وردت آية في آخر قصتهم فيها دعوة لهم وتحذير ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ**﴾[البروج: ١٠].

قال الحسن البصرى: «انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة»[(١)].

إن هذه النهاية تحقق معنى من معانى الإنتصار، من المنتصر؟ الذى نصر عقيدته ودين ربه، وحرق بضع دقائق، ثم انتقل إلى جنات النعيم، أو ذلك الذى تمتع بأيام فى الحياة الدنيا ثم مآله - إن لم يتب - إلى عذاب جهنم وعذاب الحريق؟هل هناك مقارنة بين الحريق الأول، والحريق الثانى، حريق الدنيا، وحريق الآخرة؟ إنها نقلة بعيدة، وبون شاسع، أما المؤمنون الذين حرقوا فى الدنيا، فـ﴿**لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾[البروج: ١١]، وتعلن النتيجة التى لا مراء فيها، ولا جدال: ﴿**ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ**﴾[البروج: ١١]، أليس هذا هو الانتصار؟.

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٦٩).

بعض الفوائد والمسائل المتعلقة بالأحاديث

الأولى : حكم تعلم السحر والعمل به

السحر يطلق في اللغة على كل شئ خفي سببه ولطف ودق، وفي الإصطلاح لا يمكن حده بحد جامع مانع، لكثرة الأنواع المختلفة الداخلة تحته، وقد قسم الفخر الرازي السحر إلى ثمانية أقسام وفي حديث ابن عباس ﷺ - «**من أقتبس شعبة من النجوم فقد أقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد**»(١) وجاء في حديث أبي هريرة ﷺ: «**من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك ومن تعلق شيئا وكل إليه**»(٢) والسحر منه ما هو حقيقة ومنه ما هو تخييل، وذهب الجمهور إلى تخييل كفر من يتعلم السحر ويستعمله وممن ذهب لذلك مالك وأبو حنيفة وأصحاب أحمد وغيرهم، وعن الشافعي إنه إذا تعلم السحر قيل له: صف لنا سحرك، فإن وصف ما يستوجب الكفر مثل سحر أهل بابل من التقرب للكواكب، وأنها تفعل ما يطلب منها فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر فإن أعتقد إباحته فهو كافر، وإلا فلا أ. هـ .

قال الشنقيطي في أضواء البيان : «فإن كان السحر مما يعظم فيه غير الله كالكواكب والجن وغير ذلك مما يؤدي إلى الكفر فهو كفر بلا نزاع، ومن هذا النوع سحر هاروت وماروت المذكور في سورة البقرة فإنه كفر بلا نزاع، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ**﴾ وقوله تعالى: ﴿**وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ**﴾[البقرة:١٠٢] وقوله: ﴿**وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ**﴾[البقرة:١٠٢] وقوله تعالى: ﴿**وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ**﴾[طه:٦٩] وإن كان السحر لا يقتضي الكفر كالاستعانة بخواص بعض الأشياء من دهانات وغيرها فهو حرام حرمة شديدة ولكنه لا يبلغ بصاحبه الكفر أ. هـ.

فإن قتل بسحره إنسانا فإنه يقتل عند مالك والشافعي وأحمد، وذهب الثلاثة إلى أن ساحر أهل الكتاب لا يقتل لقصة لبيد بن الأعصم، وذهب مالك وأبو حنيفة وأحمد في المشهور عنهم أن الساحر إذا تاب لا تقبل توبته، وحكم الساحرة كحكم الرجل عند الجمهور.

---

(١) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

(٢) رواه النسائي.

قال النووى : «عمل السحر حرام، وهو من الكبائر بالإجماع، وقد عده النبى ﷺ من السبع الموبقات ومنه مايكون كفرا ومنه ما لا يكون كفرا، بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضى الكفر فهو كفر وإلا فلا، وأما تعلمه وتعليمه فحرام أ. هـ.

وقد وردت آثار عن ثلاثة من الصحابة فى قتل الساحر وهم عمر ابنته أم المؤمنين حفصة وجندب رضي الله عنهم جميعا، ولم يعلم لهم مخالف من الصحابة، وكان الساحر الذى قتله جندب يخيل إليهم أنه أبان رأس الرجل، والواقع بخلاف ذلك أى كان سحره من نحو الشعوذة والأخذ بالعيون، ومن المعلوم أن هذا لم يبلغ بسحره الكفر ولا يجوز تعلم السحر من غير عمل به على قول جمهور العلماء وذلك لأنه يضر ولا ينفع قال تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ﴾[البقرة: ١٠٢]، ثم استخراج السحر إن كان بالقرآن كالمعوذتين وآية الكرسى ونحو ذلك مما تجوز الرقية به فلا مانع من ذلك وإن كان بسحر أو أبلفاظ عجمية، أو بما لا يفهم معناه، أو بنوع أخر مما لا يجوز فإنه ممنوع، وغالب ما يؤثر فيه السحر النساء والصيبان والجهال، ولا خلاف بين العلماء فى أن الساحر قد يتسبب بسحره فى التفريق بين الرجل وامرأته وإصابة الإنسان بمرض، وهناك طرف آخر لا يبلغه الساحر إرتفاق العلماء ومنه أحياء الموتى وفلق البحر وقلب العصا . . . وأمثال ذلك من عظيم آيات الرسل عليهم الصلاة والسلام. وهناك قدر مختلف فيه بين العلماء مثل هل يصح أن يطير الساحر فى الهواء، وأن يستدق جسمه حتى يدخل من كوة ضيقة، ويجرى على خيط مستدق والسحر الذى أصيب به النبى ﷺ كان من نوع الأعراض البشرية كالأمراض المؤثرة فى الأجسام، ولم يؤثر البتة فيما يتعلق بالتبليغ، إذا النبى ﷺ معصوم بالإجماع من كل يؤثر خللا فى التبليغ والتشريع، وأما بالنسبة إلى الأعراض البشرية كأنواع الأمراض والآلام ونحو ذلك فالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم يعتريهم من ذلك ما يعترى البشر لأنهم بشر كما قال تعالى عنهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[إبراهيم: ١١] وأما قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾[الفرقان: ٨] فهذا قول المشركين الظالمين، فعلوا ذلك لينفروا الناس عنه ﷺ ، وقال مجاهد: "مسحورا" أى مخدوعا، ولعلهم قصدوا بمسحورا أنه اختل عقله بالسحر أو الخديعة أو كونه بشرا، وقد ترك النبى ﷺ قتل ابن الأعصم الساحر اتقاء إثارة الفتنة كما ترك قتل المنافقين لئلا يقول الناس : إن محمدا يقتل أصحابه فيكون فى ذلك تنفير عن دين الإسلام.

الثانية: الطغاة يعتمدون على السحر والتنجيم

ورد فى الحديث الذى رواه أحمد ومسلم: أن النبى ﷺ قال: «**كان فيمن قبلكم ملك، وكان له ساحر ،فلما كبر الساحر قال لـلملك : إنى قد كبر سنى وحضر أجلى ،فادفع إلى غلاما لأعلمه السحر ،فدفع إليه غلاما كان يعلمه السحر**».

ويتضح من ذلك أن هذا الملك الطاغية كان يعتمد على الساحر، ويقربه ويدنيه منه، كما كان منه ومن الساحر الحرص على استمرارية هذه الصنعة وهذه الحرفة المقيتة، وما تهاون الساحر وما فرط فى أسرار مهنته إلا عندما كبر سنه وحضر أجله وقارب الموت، فدفع له الملك غلاما صغيرا، حتى تتواصل الأجيال، ولا ينقطع عن الطاغية مدد الغى والضلال .

فانظر رحمك الله كيف تحكم الشعوب البائسة، وكيف يكون الحال عندما يتباعد الناس عن منهج ربهم !!!! وماذا بعد الحق إلا الضلال، فلا بد وأن يسقط الإنسان فى هوة الإنحراف إذ كفر بخالق الأرض والسموات، وما أكثر صور الإنحراف، ويعظم البلاء والكرب إذا كانوا حكاما وملوكا، فالناس غالبا على دين ملوكهم، وأن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن: ﴿**وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا**﴾[الأنعام: ١٢٩] فهم على قدرنا ونحن على قدرهم، وهذا فى حد ذاته فتنة، وقد سمعنا عن بعض هؤلاء أنه كان لا يدخل الحرب إلا بعد الذهاب للعرافين والمنجمين: ﴿**تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾[البقرة: ١١٨] ولا تدرى أين الدراسات والإستراتيجيات والتكنولوجيا. . . . . . وأين قبل ذلك العمل بطاعة الله وتوثيق الصلة به سبحانه والتوكل عليه والإنابة إليه، والأخذ بأسباب تدبير الملك وتحقيق النصر.

إن الطغاة والطواغيت يتشابهون فى كل عصر ووقت: ﴿**وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً**﴾[الإسراء: ٧٢] ﴿**أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[الملك: ٢٢].

﴿**لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾[الحج: ٤٦] لقد تركوا شرع الله وفيه الهدى والنور والضياء والخير العاجل والآجل . . . تركوا ذلك كله وتابعوا وساوس شياطين الإنس والجن بسبب انطماس بصائرهم .

وإذا كان هذا هو شأن المبطلين وحرصهم، فعلى أهل الحق أن يحرصوا على استمرار دعوتهم بحيث لا تموت بموت أحد ولا تمرض بمرضه، ولا تسافر بسفره، ولا تتوقف بتوقفه .

وقد قال أبو بكر الصديق رضى اللهعنه يوم وفاة رسول اللهﷺ : سمن كان يعبد محمدا فإن محمد قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾

[آل عمران: ١٤٤].

كم من دعوة ماتت بموت حاملها، قصر الأمر على شخصه ولم يتعاهد الأخرين، ولم يحسن تربيتهم، ولم يغرس فيهم تحمل المسئولية وعلو الهمة، فإذا كان أهل الباطل يتعاونون ويتآزرون ويتكاتفون ليطفئوا نور الله بأفواههم، فكيف لا يأخذ المؤمنون بالأسباب الشرعية ويتعاهدون صغارهم وكبارهم، رجالهم ونسائهم بالعلم النافع والعمل الصالح بحيث تتواصل الأجيال ولا يحدث معنا ما حدث مع القبائل اليهودية التى قيل أنها تاهت ولم يعثر لها التاريخ على أثر وواقع الأمر وحقيقته أنها ما زالت تتكاثر وتتناسل ولكنها افتقدت الخصائص اليهودية ولذلك قيل تاهت.

الثالثة: اجتماع الكفر والإيمان والخير والشر في نفس العبد

ورد فى الحديث: «فدفع إليه غلاما كان يعلمه السحر، وكان بين الساحر والملك راهب، فأتى الغلام الراهب فسمع من كلامه فأعجبه» فالسحر ضلال وكفر وشر، والراهب يومئذ كان على خير وصلاح وإيمان، وكان الغلام يذهب ويختلف بين الأثنين، يتعلم من هذا ومن ذاك، وقد وردت نصوص الشريعة تدل على أنه قد يجتمع فى العبد كفر وإيمان، ونفاق وإيمان. . . قال تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾[آل عمران: ١٦٧] وقال تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[الحجرات: ١٤].

وقد كـان هؤلاء الأعراب معهـم أصل الإيمان الذى يمنعهم من الدخـول فى عداد المؤمنين ولم يكن معهم الإيمان الكامل الذى يسـتحقون به هذا الوصف: ﴿**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله**﴾

[النور: ٦٢].

والإيمان يتضمن الإسلام ويزيد عليه، والإحسان يتضمن الإيمان ويزيد عليه، وهذا إذا اجتمع وصف الإيمان مع الإسلام فى نص، أما إذا افترقا بحيث أتت كلمة الإسلام أو كلمة الإيمان بمفردها فى نص من نصوص الكتاب والسنة فـإن مضمون الكلمة الثانية يدخل فى مـعناها، والإسـلام هو الأركان العـمليـة من صلاة وصـيام وزكـاة وحج، والإيمان هو الأركان القلبية كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

وقد بين النبى ﷺ أن الإيمان بضع وسبعون أو بضع وسـتون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها أماطة الأذى عن الطريق والحـياء شعبة من الإيمـان، وشعب الإيمان تسمى إيمانا، وشعب الكـفر تسمى كفرا، والطاعات كلها من شـعب الإيمان كما فى قوله تعالى: ﴿**وما كان الله ليضيع إيمانكم**﴾ أى صلاتكم التى كنتم تـصلونها إلى بيت المقدس قبل أن تحـول القبلة، فسمى الصـلاة أيمانا، و المعاصى كلها من شـعب الكفر وتسمى كفرا كما فى قول النبى ﷺ: «**سباب المسلم فسوق وقتله كفر**» وقوله: «**من أتى امرأة فى دبرها فقد كفر**» وقوله: «**من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد**» فهذا كله صـور الكفر الأصغر التى لا تنقل عن الملـة إلا أن يستحله الإنسان كأنه يبيحه مع معرفته بتحريم الشرع له اتهاما للدين بالرجعية والتخلف وما شابه ذلك، وبالتالى فقد يتلبس العبد بمعصية أو ذنب أو خصلة من خصال المنافقين كالكذب ونحوه مع إيمانه، فلا يكفر بذلك، ويكون قد اجتمع فيه كفر وإيمان أو نفاق وإيمان..

وقد اتفق أهل السنة على أن شرع الله فيه كفر دون كفر وفسق دون فسق ونفاق دون نفاق وشرك دون شـرك وظلم دون ظلم، ومن جملة ما استدل به البخـارى وغيره على ذلك حديث: «**ورأيت أكثـر أهل النار النساء**»، وقوله ﷺ: «**إنهن يكفرن**» فقيل أيكفرن بالله قال: «**يكفرن العشيـر ويكفرن الإحسان**»، فكفران العشير ليس هو الكفر بالله ولذلك بوب به الإمام البـخارى بقوله باب كفران العـشير وكفر دون كـفر وكذلك الفسوق المذكور فى قول النبى ﷺ: «**سباب المسلم فسـوق وقتاله كفر**» ليس كالفسوق

الذى وصف به أبليس إنه ﴿كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ وقد سب أحد الصحابة أخاه وقال له: يا ابن السوداء، فقال له النبى ﷺ: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**»، ولم يكفره أو يخرجه من الملة، أما فسق إبليس فهو الفسق الأكبر الناقل عن الملة، وقد اقتتل المسلمون ولم يكفروا بذلك على أن قوله ﷺ: «**وقتاله كفر**» ليس هو ككفر فرعون وأبى جهل، وقس على ذلك.

وقد فسر العلماء قول النبى ﷺ: «**لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ،ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ،ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**» الحديث على أنه لا يكفر بالزنا والسرقة وشرب الخمر إلا أن يستحل ذلك، فإن فعل هذه المحرمات سقط من مرتبة الإيمان إلى مرتبة الإسلام، أو لا يستحق وصف الإيمان الكامل المطلق، وإن بقى معه أصل الإيمان الذى يمنعه من الوقوع فى هوة الكفر خلافا للخوراج ومن شابههم من أهل البدع ممن يكفرون بالمعصية والكبيرة.

الرابعة: أن في المعاريض لمندوحة عن الكذب

ورد فى الحديث: «**أن الغلام كان إذا أتى الساحر ضربه، وقال ما حبسك ؟ وإذا أهله ضربوه وقالوا ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا أراد الساحر ضربك فقل: حبسنى أهلى، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل: حبسنى الساحر. فدل الراهب الغلام على طريقة الخلاص من ضرب الساحر وأهله له**».

وهذه صورة من صور التعريض التي تتحقق بها المصلحة وتندفع بها المضرة والمفسدة، فالمعاريض مندوحة عن الكذب إذا خشى العبد على نفسه الوقوع فى الكذب، فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض، وقد ذكر ابن القيم بعض ما روى عن السلف من المعاريض، ومن ذلك:

كان حماد رحمه الله إذا جاء من لا يريد الإجتماع به وضع يده على ضرسه ثم قال: ضرسى ضرسى.

وكان إبراهيم إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو فى الدار قال للجارية: قولى له أطلبه فى المسجد ولا تقولى: ليس هنا .كيلا يكون كذبا، وهذا التعريض فى موضع الحاجة، أما فى غير موضع الحاجة فلا، وقد ورد فى حديث أم كلثوم بنت عقبة:

«ماسمعت رسول الله ﷺ يرخص في شئ من الكذب إلا فى ثلاثة: الرجل يقول القول يريد به الأصلاح، والرجل يقول القول فى الحرب، والرجل يحدث امرأته، والمرأة تحدث زوجها»[1] ومعنى يحدث الرجل امرأته، أى أن يظهر لها حبا حتى وإن كان لا يحبها حتى تدوم المعاشرة، وقد يحدث الله بعد ذلك أمرا، فليس معناه أن يكون حديث الرجل امرأته عبارة عن أكاذيب .

وقد ذكر الغزالى أن الكذب فيه المباح إن كان تحصيل ذلك المقصود مباحا وواجب إن كان المقصود واجبا، فإذا اختفى مسلم من ظالم مثلا وسأل عنه وجب الكذب بإخفائه، وكذلك إذا كان عنده أو عند غيره وديعة وسأل عنها ظالم يريد أخذها وجب عليه الكذب بإخفائها.

وينبغى أن يحترز من الكذب ما أمكن لأنه إذا فتح هذا الباب يخشى أن يجر إلى ما يستغنى عنه، وإلى ما لا يقتصر على حد الضرورة، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا، فأقلع عن الكذب فإنه فجور والفجور يهدى إلى النار، ولا داعى للتعريض دون حاجة أو ضرورة وعود نفسك الصدق، فإن الصدق يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة، ولا يزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا.

الخامسة : الميل إلى الخير دليل سلامة الفطرة

ورد في الحديث: **«أن الغلام بينما هو ذات يوم إذا أتى على دابة عظيمة فظيعة قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا ، فقال: اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر؟ فأخذ حجرا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر»**، فقدم أمر الراهب وسأل عنه، ولم يسل عن أمر الساحر، وذلك لأنه كان أميل بقلبه إلى أمر الراهب لسلامة فطرته، إذ كان الراهب على حق بعكس الساحر، فالطيور على أشكالها تقع، والأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف، والحق أبلج وعليه نور والباطل لجلج وعليه ظلمة ينفر منها أصحاب الفطر القويمة والعقول المستقيمة، لقد أحب الغلام الراهب وأختلف إليه رغم تعرضه للأذى

---

(١) رواه مسلم.

ولم يكن عنده يومئذ من الضوابط والموازين الشرعية ما يميز به بين الإيمان والكفر، والحق والباطل، والخير والشر اللهم إلا هذه الفطرة السوية التى تواجدت عنده .

والإسلام هو دين الفطرة، وما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، أى أنهما يحرفانه عن دين الفطرة، وفى الحديث: «**أنى خلقت عبادى حنفاء وإنهم أتتهم الشياطين فأجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا**» فقد تنطمس هذه الفطرة بفعل شياطين الإنس والجن، وحينئذ يذهب نور العبد ويختلط عليه الحق والباطل، أما هذا الغلام فكان إلى الخير أميل، وأحب طريقة الراهب ولذلك لازمه، والمرء على دين خليله، ويحشر المرء مع من أحب ومن تشبه بقوم فهو منهم، وهذا التوافق وهذا التشابه لا يقتصر على عالم الإنس فحسب بل يتعداه إلى غيره فالحيات مع الحيات والعقارب مع العقارب والأسود مع الأسود والحمام مع الحمام ، قال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا**﴾[الفرقان: ٢٧-٢٩] وقد نزلت بشأن عقبة بن أبى معيط وكان كافرا، ولكنه كان يحسن معاملة رسول الله ﷺ فلما أتى صاحبه من الشام دفعه وحثه على إيذاء رسول الله ﷺ ففعل عقبة، فكان أشقى القوم، ونزلت فيه هذه الآيات، ومن رحمة الله بخلقه أنه أودع فى العباد عقولا وركب فيهم فطرا، وأنزل لهم الكتب وأرسل لهم الرسل ليحيى من حيى عن بينة، ويهلك من هلك أيضا عن بينة قال تعالى: ﴿**رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾[النساء: ١٦٥] فإقامة الحجة إنما تكون ببعثة الرسل، وتتم على يد عالم أو ذى سلطان مطاع بحيث تنتفى الشبهات وتدرأ المعاذير كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره، وعلى ضوء ذلك نفهم قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ**﴾[الأعراف: ١٧٢] فأشهدهم سبحانه على أنفسهم أنه ربهم ومليكهم لا رب لهم غيره ولا معبود بحق سواه، وما من مخلوق إلا وهو يقر بأن الله هو الخالق الرازق المحيى المميت، أقر بذلك المشركون واليهود والنصارى وأهل النار، والإنس والجن قال تعالى: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ**

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[لقمان: ٢٥] وقال أبليس: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[ص: ٨٢] وقال سبحانه وتعالى عن أهل النار: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾[الأنعام: ٣٠] ولما سئل الأعرابى عن وجود الله قال: البعرة تدل على البعير، وأثر السير على المسير، وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج وسماء ذات أبراج أفلا يدل ذلك على اللطيف الخبير.

بل كان فرعون في قرارة نفسه معترفا بذلك وإن تظاهر بالجحود، قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[النمل: ١٤] والإقرار بأن الله هو الخالق الرازاق المحيى المميت هو الذى يطلق عليه العلماء اسم توحيد الربوبية، أما صرف العبادة لله والتحاكم بشرعه والنزول على أمره فهو الذى يطلق عليها اسم توحيد الألوهية، وتوحيد الربربية بالنسبة لتوحيد الألوهية كالمقدمة بالنسبة للنتجية، وقد يطلق العلماء اسم التوحيد العلمى الخبرى الإعتقادى على توحيد الربوبية والأسماء والصفات، ويطلقون على عبادة الله وحده لا شريك وتجريد محبته بالأخلاص له وخوفه ورجاؤه والتوكل عليه والرضا به ربا وإلها ووليا اسم التوحيد الطلبى القصدى الإرادى، وإقرار الخلائق بالأول مدعاة إلى اعترافهم بالثانى، فإذا جهل الإنسان قضية من قضايا التوحيد فلا يجوز المسارعة بتكفيره، فقد يكون عنده تأويل يمنع تكفيره أو عرضت له شبهات يعذره الله بها أو نشأ ببادية بعيدة، فمثل هذا يعذر بجهله كما ذكر الإمام النووى وابن تيمية.

السادسة: الكرامات وخوارق العادات تحدث للغلام

وجد الغلام دابة عظيمة فظيعة قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا.... فأخذ حجرا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة، حتى يجوز الناس ورماها فقتلها، ومضى الناس.....

وهذا الفعل كرامة ظاهرة للغلام على حداثة سنه، فهذا الحجر ليس من شأنه أن يقتل الدابة العظيمة الفظيعة التى حبست الناس وروعتهم وقطعت طريقهم، ولم يقتصر الأمر على ذلك فقد كان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم بإذن الله، ومن إكرام الله له إجابة دعائه فقد كان يقول فى كل مرة : اللهم أكفينيهم بما شئت فينجيه الله من أعدائه، وقد وجدوه زمن عمر بن الخطاب ﷺ على النحو الذى مات عليه، ويده على صدغه، كلما أزاحوا يده، انبثق الدم من جرحه، وكان ذلك بعد موته بمئات السنين، فهو من جملة خوارق العادات.

ويكفى ثباته على طاعة الله واستقامته على دين الله فى العسر واليسر والمنشط والمكره فهـذه أعظم كرامة، ويذكر أن عـبد القادر الجيـلانى لما قيل له أرنا من نفسك كـرامة، فصعد على المنبـر ثم قال: منذ كم وأنا فيكم؟ فقالوا : منذ عـشرين سنة. فقال: هل جربتم على معـصية، هل رأيتم على مخـالفة الكتاب الله؟ فقالوا له: لا، فـقال: فإن الإستقامة هى أعظم كرامة.

والكرامات وخرق العادات حدثت للأنبياء والصالحين من عباد الله، وضابط الكرامة الإستـقامة، وبهذا تفـرق بين الكرامة الرحمـانية والخارقـة الشيطانية، والكرامـة تحدث للرجال والنساء والكبار والصغار، ولا تقتـصر على هذه الأمة بل تتعداها إلى الصالحين من الأمم السابقة، وإليك بعض المسائل المتعلقة بالكرامات تتميما للفائدة.

قاعدة في المعجزات والكرامة

فى مجموع الفتاوى لشيخ الإسـلام ابن تيمية جـ(١١)ص ٣١١ ما نصه: ((وإن كان اسم المعجزة يعم كل خارق للعـادة فى اللغة وعرف الأئمة المتقدمين كـالإمام أحمد بن حنبل وغيره ويسـمونها الآيات لكن كثيرا من المتـأخرين يفرق فى اللفظ بينهما فـيجعل المعجزة للنبى والكرامة للولى وجماعهمـا الأمر الخارق للعادة. فنقول: صفات الكمال ترجع إلى ثلاثة: العلم والقدرة والغنى وإن شئت أن تقول: العلم والقدرة، والقدرة إما على الفـعل وهو التأثيـر وإما على التـرك وهو الغنى، والأول أجود، وهذه الثـلاثة لا تصلح على وجه الكمـال إلا لله وحده فإنه الذى أحـاط بكل شئ علما وهو على كل شئ قدير، وهو غنى عن العالمين، وقد أمر الرسول ﷺ أن يبرأ من دعوى هذه الثلاثة بقوله: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾[الأنعام: ٥٠] كذلك قـال نوح عليه السلام فهـذا أول أولى العزم وأول رسول بـعثـه الله تعالى إلى أهل الأرض وهذا خـاتم الرسل وخاتم أولى الـعزم كلاهما يتبرأ من ذلك...

إلى أن قال: «وقد جمع لنبينا محمدﷺ جميع أنواع المعجزات والخوارق : أما العلم والأخبار الغيبية والسماع والرؤية فمثل إخبار نبيناﷺ عن الأنبياء المتقدمين وأممهم ومخاطباته لهم وأحواله معهم وغير الأنبياء من الأولياء وغيرهم بما يوافق ما عند أهل الكتاب الذين ورثوه بالتواتر أو بغيره من غير تعلم له منهم، وكذلك إخباره عن أمور الربوبية والملائكة والجنة والنار بما يوافق الأنبياء قبله من غير تعلم له منهم ويعلم أن ذلك موافق لنقول الأنبياء تارة بما فى أيديهم من الكتب الظاهرة ونحو ذلك من النقل والمتواتر، وتارة بما يعلمه الخاصة من علمائهم وفى مثل هذا قد يستشهد أهل الكتاب، وهو من حكمة إبقائهم بالجزية وتفصيل ذلك ليس هذا موضعه فإخباره عن الأمور الغائبة ماضيها وحاضرها هو من (باب العلم الخارق) وكذلك إخباره عن الأمور المستقبلة مثل مملكة أمته وزوال مملكة فارس والروم وقتال الترك وألوف مؤلفة من الأخبار التى أخبر بها مذكور بعضها فى كتب (دلائل النبوة) و(سيرة الرسول) و(فضائله) و(كتب التفسير) و(الحديث) و(المغازى) مثل دلائل النبوة لأبى نعيم والبيهقى، وسيرة ابن إسحاق، وكتب الأحاديث المسندة كمسند الإمام أحمد والمدونة كصحيح البخارى وغير ذلك مما هو مذكور أيضا فى كتب (أهل الكلام والجدل) كأعلام النبوة للقاضى عبد الجبار وللماوردى والرد على النصارى للقرطبى ومصنفات كثيرة جدا، وكذلك ما أخبر عنه غيره مما وجد فى كتب الأنبياء المتقدمين وهى فى وقتنا هذا أثنان وعشرون نبوة بأيدى اليهود والنصارى كالتوراة والإنجيل والزبور وكتاب شعيا وحبقوق ودانيال وأرميا، وكذلك أخبار غير الأنبياء من الأحبار والرهبان، وكذلك أخبار الجن والهواتف المطلقة وأخبار الكهنة كسطيح وشق وغيرهما، وكذلك المنامات وتعبيرهما كمنام كسرى وتعبير الموبذان وكذا أخبار الأنبياء المتقدمين بما مضى وما عبر هو من أعلامهم .

وأما القدرة والتأثير فإما أن يكون فى العالم العلوى أو ما دونه إما بسيط أو مركب، والبسيط إما الجو وإما الأرض، والمركب إما حيوان وإما نبات وإما معدن، والحيوان إما ناطق وإما بهيم، فالعلوى كانشقاق القمر ورد الشمس ليوشع بن نون وكذلك ردها لما فاتت عليا الصلاة والنبىﷺ نائم فى حجره- إن صح الحديث- فمن الناس من صححه كالطحاوى والقاضى عياض، ومنهم من جعله موقوفا كأبى الفرج بن الجوزى وهذا أصح، كذلك معراجه إلى السماوات .وأما الجو فاستسقاؤه واستصحاؤه غير مرة كحديث الأعرابى الذى فى الصحيحين وغيرهما، وكذلك كثرة الرمى بالنجوم عند

ظهوره، وكـذلك إسراؤه من المسـجد الحرام إلى المسـجد الأقـصى. وأما الأرض والماء (فكاهتزاز الجـبل تحته، وتكثـير الماء من عين تبـوك وعين الحديبـية، ونبع الماء من بين أصابعه غير مرة ومزادة المرأة) .

وأما المركبات فتكثيره الطعام غـير مرة فى قصة الخندق من حديث جابر وحديث أبى طلحة وفى أسفاره وجراب أبى هريرة ونخل جابر بن عبد الله وحديث جابر وابن الزبير فيالنقلاع النخل له وعوده إلى مكانه وسقياه لغير واحد من الأرض كعين أبى قتادة، وهذا باب واسع لم يكن الغرض هنا ذكر أنواع معجزاته بخصوصه وإنما الغرض التمثيل.

وكذلك من باب القـدرة عصا موسى ﷺ وفلـق البحر والقمل والضـفادع والدم، وناقة صـالح، وإبراء الأكمـه والأبرص وإحياء الموتى لعـيسى، كمـا أن من باب العلم إخبـارهم بما يأكلون وما يدخـرون فى بيوتهم، وفى الجـملة لم يكن المقصـود هنا ذكر المعجزات النبوية بخصوصها وإنما الغرض التمثيل بها .

وأما المعجزات التى لغـير الأنبياء من باب الكشف والعلم فمثل قول عـمر فى قصة سارية، وإخبار أبى بكر بأن ببطن زوجته أنثى، وإخـبار عمر بمن يخرج من ولده فيكون عادلا وقصة صاحب موسى فى علمه بحـال الغلام، والقدرة مثل قصة الذى عنده علم من الكتاب، وقصة أهل الكهـف، وقصة مريم، وقصة خالد بن الوليـد، وسفينة مولى رسول الله ﷺ وأبى مسلم الخولانى وأشياء يطول شـرحها، فإن تعداد هذا مثل المطر و إنما الغرض التمثيلى بالشئ الذى سمعه أكثر الناس .

وأما القدرة التى لم تتعـلق بفعله فمثل نصر الله لمن ينصره وإهلاكـه لمن يشتمه أ.هـ ومعجزات الأنبياء كثيرة وقد كانت من جنـس ما برع فيه قومهم مثل عصا موسى، وقد اشتهر قـومه بالسحر، وكان عيسى يحيـى الموتى بإذن الله ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله وكان قومه قد اشتهروا بالطب .

ومعجزات النبى ﷺ كـثيرة، ومن أعظمها القرآن فقـد تحداهم رب العزة جل وعلا أن يأتوا بسورة من مثله وهم أرباب الفـصاحة والبلاغة فمـا أستطاعوا: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[البقرة: ٢٣-٢٤]، ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا

الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾[الإسراء: ٨٨] وقد ثبت العجز للجميع عبر العصور وكر الدهور عن مواجهة التحدى، وبعجزهم ثبت الإعجاز لكتاب الله. وقد جمع القرآن صورا كثيرة من صور الإعجاز مثل الأعجاز التشريعى والإعجاز البلاغى والإعجاز العلمى.

ثم الخوراق التى تحدث للعباد وتجرى على أيديهم منها كرامات رحمانية ومنها خوارق شيطانية، وضابط الكرامة هو الإستقامة وكما قال الشافعى والليث بن سعد: إذا رأيت الرجل يطير فى الهواء أو يمشى على الماء لا تصدقه حتى تعرض عمله على السنة، فإذا كان ممن يستقيم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فلا يبعد أن تحدث له كرامة رحمانية كما حدثت لكثير من الصحابة .

وقد ثبت فى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**قد كان فى الأمم قبلكم محدثون فإن يكن فى أمتى أحد منهم فعمر منهم**» وفى لفظ فى الصحيح: «**إن فى هذه الأمة محدثين وإن منهم عمر**» وحديث: «**أتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله**» أخرجه الترمذى وحسنه.

ثم عمر ؓ مع كونه من المحدثين بالنص كان يشاور الصحابة ويشاورونه، ويراجعهم ويراجعونه، ويحتج عليهم بالكتاب والسنة، ويرجعون جميعا إليهما، وكان إذا عرضت عليه المسألة يقول: أقول فيها فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسى ومن الشيطان والله منه برئ .

وكان أبو سليمان الدارانى يقول: (إنها لتقع فى قلبى النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين الكتاب والسنة)، وقال أبو عثمان النيسابورى: (من أمر على نفسه الشريعة قولا وفعلا نطق بالحكمة، ومن أمر على نفسه الهوى قولا وفعلا نطق بالبدعة لأن الله تعالى يقول: ﴿**وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا**﴾[النور: ٥٤]).

خــوارق غير الأوليــاء

جاء فى كتاب «ولاية الله والطريق إليها» ص ٢٣٧ مانصه:

«وإذا عرفت أنه لابد للولى من أن يكون مـقتديا فى أقواله وأفعـاله بالكتاب والسنة وأن ذلك هو المعيـار الذى يعرف به الحق من الباطل فمن ظهـر منه شئ مما يخالف هذا المعيار فـهو رد عليه ولا يجـوز لأحد أن يعتقد فـيه أنه ولى الله فإن أمـثال هذه الأمور تكون من أفعال الشـياطين كما نشاهده فى الذين لهم تابع من الجن فـإنه قد يظهر على يده ما يظن من لم يسـتحضر هذا المعيـار أنه كرامة وهو فى الحقـيقة مخاريـق شيطانية وتلبيسات إبليسية.

ولهذا تراه يظهر من أهل البـدع بل من أهل الكفر وممن يترك فرائض الله سـبحانه ويتلوث بمعاصيه لأن الشيطان أميل إليهم للإشتـراك بينه وبينهم فى مخالفة ما شرعه الله سبحانه لعباده . وقد يظهـر شئ مما يظن أنه كرامة من أهل الرياضة وترك الإستكثار من الطعام والشراب على ترتيب معلوم وقانون معروف حتى ينتهى حاله إلى أن لا يأكل إلا فى أيام ذوات العدد ويتناول بعد مضى أيام شيئا يسيرا فيكون له بسبب ذلك بعض صفاء من الكدورات البشرية فـيدرك ما لا يدركه غيـره وليس هذا من الكرامات فى شئ ولو كان من الكرامات الربانية والتفضلات الرحـمانية لم يظهر على أيدى أعداء الله كما يقع كثيرا من المرتاضين من كفرة الهند الذين يسـمونهم الآن الجوكية وقد يظهر شئ مما يظن أنه كرامة علي لسان بعض المجانين، وسبب ذلك كما ذكره الحكماء أنه قد ذهب عنه ما يصنعه الفكر من التفصيل والتدبير اللذين يسـتمران للعقلاء فيكون لعقله إدراك لا يكون للعقلاء فـيأتى فى بعض الأحيان بمكاشفـات صحيحة وهو مع ذلك مـتلوث بالنجاسة مرتبك فى القاذورات قاعد فى المزابل ومايشابهها فيظن من لا حقيقة عنده أنه من أولياء الله وذلك ظن باطل بخيل وتخيل مختل، وهو فى الحقيقة مجنون قد رفع الله عنه قلم التكليف ولم يكن وليا لله ولا عدوا أ. هـ.

السابعة : السبق سبق الفضل والاعتراف بالفضل لأهله

أخبر الغلام الراهب بقتله الدابة العظيمة التى حبست طريق الناس، فقال له الراهب: أى بنى أنت أفضل منى، وهذا يدل على أن التلميذ قد يفوق أستاذه، وأنه لا حجر على سعة رحمة الله، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء،كما أن فيه اعتراف العالم بالفضل لمن هو أفضل منه، والراهب وإن كان يكبر الغلام فى السن، وقد سبقه فى إسلام الوجه لله تعالى ،إلا أنه لم يحسد الغلام ، بل اعترف له بالفضل وتواضع له وقدمه على نفسه ،وهو الذى دل الغلام على طريق الخير، والدال على خير كفاعله، ونحن فى أشد الحاجة لأن نتعرف على مجال السبق والمنافسة وطرح الشبهات التى تعترض طريق المجتهدين للتخلى عن الرذائل والتحلى بالفضائل ،فإليك هذه المسائل، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

السبق والمنافسة

المنافسة فى اللغة مشتقة من النفاسة والذى يدل على مشروعيتها قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[المطففين: ٢٦] وقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[الحديد: ٢١] وإنما المسابقة عند خوف الفوت وهو كالعبدين يتسابقان إلى خدمة مولاهما إذ يجزع كل واحد أن يسبقه صاحبه فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها. والمنافسة قد تكون واجبة أو مندوبة أو مباحة وقد يستعمل لفظ الحسد بدل المنافسة والمنافسة بدل الحسد .

قال الفضل بن العباس لما أراد هو والمطلب بن ربيعة أن يأتيا النبى ﷺ فيسألاه أن يؤمرهما على الصدقة فقال لهما على ﷺ : لا تذهبا إليه فإنه لا يؤمركما عليها فقال له: ماهذا منك إلا نفاسة، والله لقد زوجك ابنته فما نفسنا ذلك عليك(رواه مسلم) أى هذا منك حسد وما حسدناك على تزويجه إياك وفى الحديث: «**لا حسد إلا فى اثنتين، رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله علما فهو يعمل به ويعلمه الناس**» متفق عليه.

وفى حديث أبى كبشة الأنمارى قال: «**مثل هذه الأمة مثل أربعة رجل آتاه الله مالا وعلما فهو يعمل بعلمه فى ماله ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فيقول رب لو أن لى مالا مثل مال فلان أعمل فيه بمثل عمله فهما فى الأجر سواء ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو ينفقه فى معاصى الله ورجل لم يؤته علما ولم يؤته مالا فيقول لو أن لى مثل مال فلان لكنت انفقه فى مثل ماأنفقه فيه من المعاصى فهما فى الوزر سواء**» رواه ابن ماجه والترمذى وقال حسن صحيح - فذمه النبى ﷺ من جهة تمنيه للمعصية لا من جهة حبه أن يكون له من النعمة مثل ماله، ثم إن كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة كالإيمان والصلاة والزكاة فهذه المنافسة واجبة وإن كانت من الفضائل كإنفاق المال فى المكارم والصدقات فالمنافسة فيها مندوب إليها، وإن كانت نعمة يتنعم بها على وجه مباح فالمنافسة فيها مباحة.

والحسد المشروع كما فى الحديث: «**لا حسد إلا فى أثنتين**»، يطلق عليه اسم الغبطة إذ ليس فيه تمنى زوال النعمة ولا كراهتها ويرجع إلى إرادة المساواة واللحوق به فى النعمة كمن يحب الدار الحسنة أو المرأة الجميلة أو ولاية نافذة أو سعة نالها غيره، والسبق يحدث فى معنى يتعلق بالصفات أوالزمان أو المكان فقد يحدث فى علم أو سن أو مكانة أو رياضة ويقول النبى ﷺ: «**لا سبق إلا فى خف أو حافر أو نصل**» والمراد من السبق فى الحديث هنا ما يوضع رهنا ويأخذه الفائز فى سباق أو رماية، وهذا الرهن يضعه أحد المتسابقين أو تضعه الحكومة أو جمعية خيرية أو بعض الأفراد المحسنين وذلك ليخلو من كل شبهة ويتمحض للتشجيع الخالص الذى لا يراد به إلا الترغيب فى الإعداد للجهاد .

وفى الإختيارات الفقهية من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (ويجوز اللعب بما قد يكون فيه مصلحة بلا مغرة وظاهر كلام أبى العباس لا يجوز اللعب المعروف بالطاب والمنقلة، وكل ما أفضى كثيره إلى حرمه إذا لم يكن فيه مصلحة راجحة لأنه يكون سببا للشر والفساد، وما ألهى وشغل عن ما أمر الله به فهو منهى عنه، وإن لم يحرم جنسه كالبيع والتجارة وسائر ما يتلهى به البطالون من أنواع اللهو وسائر ضروب اللعب مما لا يستعان به على حق شرعى فكله حرام .

وروى الإمام أحمد والبخارى ومسلم أن عائشة ﵂ وجوار كن معها يلعبن بالبنات - وهن اللعب والنبى ﷺ يراهن - فيرخص فيه للصغار ما لا يرخص فيه للكبار.

والصراع والسبق بالأقدام ونحوهما طاعة إذا قصد به نصر الإسلام وأخذ السبق عليه أخذ بالحق، فالمغالبة الجائزة تحل بالعوض إذا كانت مما ينتفع به فى الدين كما فى مراهنة أبى بكر ﵁ وهو أحد الوجهين فى المذهب قلت وظاهر ذلك: جواز الرهان فى العلم وفاقا للحنفية لقيام الدين بالجهاد والعلم والله أعلم أ. هـ.

سبق الصفات

﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾[التوبة: ١٠٠]

قال أبو منصور البغدادى التميمى: أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة ثم الستة الباقون إلى تمام العشرة ثم البدريون ثم أصحاب أحد ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية، وقال القرطبى فى تفسيره: (لا خلاف أن أول السابقين من المهاجرين أبو بكر الصديق، قال ابن العربى: السبق يكون بثلاثة أشياء الصفة وهو الإيمان والزمان والمكان وأفضل هذه الوجوه سبق الصفات والدليل عليه قوله ﷺ فى الصحيح: «**نحن الآخرون الأولون بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدنا فهذا يومهم الذى اختلفوا فيه فهدانا الله له فاليهود غدا والنصارى بعد غد**» فأخبر النبى ﷺ أن من سبقنا من الأمم بالزمان سبقناهم بالإيمان والإمتثال لأمر الله تعالى والإنقياد إليه والإستسلام لأمره والرضا بتكليفه والإحتمال لوظائفه لا نعترض عليه ولا نختار معه ولا نبدل بالرأى شريعته كما فعل أهل الكتاب وذلك بتوفيق الله لما قضاه وبتيسيره لما يرضاه، وماكنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

ثم نقل عن ابن خويز منداد قال: (تضمنت هذه الآية تفضيل السابقين إلى كل منقبة من مناقب الشريعة فى علم أو دين أو شجاعة أو غير ذلك فى العطاء فى المال والرتبة فى الإكرام وفى هذه المسألة خلاف بين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما واختلف العلماء فى تفضيل السابقين بالعطاء على غيرهم فروى عن أبى بكر الصديق ﵁ أنه كان لا يفضل بين الناس فى العطاء بعضهم على بعض بحسب السابقة وكان عمر

يقول له أتجعل ذا السابقة كمن لا سابقة له؟ فقال أبو بكر: إنما عملوا لله وأجرهم عليه وكان عمر يفضل فى خلافته ثم قال عند وفاته لئن عشت إلى غد لألحق أسفل الناس بأعلاهم فمات من ليلته والخلاف إلى يومنا هذا على هذا الخلاف) أ. هـ.

شبهة ورد

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه»

وهذا الحديث الذى رواه البخارى ومسلم عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ يرد على شبهة قوية تتعلق بالأخوة الإيمانية وتحقيقها، ونحتاج فى ذات الوقت إلى الجمع بينه وبين ما ذكرناه عن السبق والمنافسة ففى هذا الحديث يبين النبى ﷺ أن من جملة خصال الإيمان الواجبة أن يحب المرء لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه من المحامد الدينية والدنيوية ويكره له ما يكره لنفسه.

قال عبد الله بن رواحة وأبو الدرداء: الإيمان كالقميص يلبسه الإنسان تارة ويخلعه تارة أخرى.

وفى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبى ﷺ قال: **«من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو مؤمن بالله واليوم الخر ويأتى إلى الناس الذى يحب أن يؤتى إليه»** وفيه أيضا عن أبى ذر رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : **«يا أبا ذر إنى أراك ضعيفا وأنى أحب لك ما أحب لنفسى لا تتأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم»** وإنما نهاه عن ذلك لما رأى من ضعفه وهو ﷺ يحب هذا لكل ضعيف وإنما كان يتولى أمور الناس لأن الله قواه على ذلك وأمره بدعاء الخلق كلهم إلى طاعته وأن يتولى سياسة دينهم ودنياهم.

وكان محمد بن واسع يبيع حمارا له فقال له رجل: أترضاه لى؟ قال: لو رضيته لم أبعه، وهذه إشارة منه إلى أنه لا يرضى لأخيه إلا مايرضى لنفسه، وفى حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: **«مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا أشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»** خرجاه فى الصحيحين «قال ابن رجب»: وهذا يدل على أن المؤمن يسوئه ما يسوء أخاه المؤمن ويحزنه ما يحزنه، وحديث أنس الذى نتكلم الآن فيه يدل على أن المؤمن يسره ما يسر أخاه المؤمن ويريد لأخيه المؤمن ما يريد

لنفسه من الخير وهذا كله إنما يأتى من كمال سلامة الصدر من الغش والغل والحسد فإن الحسد يقتضى أن يكره الحاسد أن يفوقه أحد فى خير أو يساويه فيه لأنه يحب أن يمتاز على الناس بفضائله وينفرد بها عنهم، والإيمان يقتضى خلاف ذلك وهو أن يشركه المؤمنون كلهم فيما أعطاه الله من الخير من غير أن ينقص عليه منه شئ، وقد مدح الله تعالى في كتابه من لا يريد العلو في الأرض ولا الفساد فقال: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا**﴾[القصص: ٨٣] قال عكرمة وغيره من المفسرين فى هذه الآية: العلو فى الأرض التكبر وطلب الشرف والمنزلة عند ذى سلطانها، والفساد، والعمل بالمعاصى، ثم قال وقد ورد ما يدل على أنه لا يأثم من كره أن يفوقه من الناس أحد فى الجمال فخرج الإمام أحمد رحمه الله والحاكم فى صحيحه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: (**أتيت النبى ﷺ وعنده مالك بن مرارة الرهاوى فأدركته وهو يقول: يارسول الله قد قسم لى من الجمال ما ترى فما أحب أحدا من الناس فضلنى بشراكين فما فوقهما أليس ذلك هو البغى؟ فقال: لا ليس ذلك بالبغي ولكن البغي من بطر أو قال: سفه الحق وغمط الناس**) قال: ومن هنا قال بعض السلف التواضع أن تقبل الحق من كل ما جاء به وإن كان صغيرا فمن قبل الحق ممن جاء به سواء كان صغيرا أو كبيرا وسواء كان يحبه أو لا يحبه فهو متواضع ومن أبى قبول الحق تعاظما عليه فهو متكبر وغمط الناس هو احتقارهم وازدراؤهم وذلك يحصل من النظر إلى النفس بعين الكمال وإلى غيره بعين النقص قال بعض الصالحين من السلف: أهل المحبة لله نظروا بنور الله وعطفوا على أهل معاصى الله، مقتوا أعمالهم وعطفوا عليهم ليزيلوهم بالمواعظ عن أفعالهم وأشفقوا على أبدانهم من النار.

وأما قوله عزوجل: ﴿**وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾[النساء: ٣٢] فقد فسر ذلك بالحسد وهو تمنى الرجل نفس ما أعطى أخوه من أهل ومال وأن ينتقل ذلك إليه وفسر بتمنى ما هو ممتنع شرعا أو قدرا كتمنى النساء أن يكن رجالا أو يكون لهن مثل ما للرجال من الفضائل الدينية كالجهاد، والدنيوية كالميراث والعقل والشهادة ونحو ذلك، وقيل: إن الآية تشمل ذلك كله، ومع هذا كله فينبغى للمؤمن أن يحزن لفوات الفضائل الدينية ولهذا أمر أن ينظر فى الدين إلى من هو فوقه وأن ينافس فى طلب ذلك جهده وطاقته كما قال تعالى: ﴿**وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**﴾[المطففين: ٢٦] ولا يكره أن أحدا يشاركه فى ذلك بل يحب للناس كلهم المنافسة فيه ويحثهم على ذلك وهو من تمام أداء النصيحة للإخوان أ. هـ.

الثامنة: هل كان الراهب يرجم بالغيب عندما قال للغلام إنك ستبتلى

لما علم الراهب بما كان من الغلام مع الدابة، قال له: «أى بنى أنت أفضل منى، وإنك ستبتلى »، ولم يكن الراهب فى ذلك راجما بالغيب ولا مطلعا عليه، فلا يعلم الغيب إلا الله، ولكنها المعرفة بسنن الله فى خلقه، والعلم بما حدث للأنبياء والصالحين من قبل، والبصيرة بطبيعة هذه الدار، وأنها دار بالبلاء محفوفة وبالفتنة موصوفة، إذا حلت أوحلت، وإذا كست أوكست، إقبالها إدبار وإقدامها إحجام، والأصل أن تلقاك بكل ما تكره، فإذا لاقتك بما تحب فهو استثناء، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[الكهف: ٧] وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[الملك: ٢] وقال: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا ﴾[الأنعام: ٥٣] وقال: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾[العنكبوت: ١] وقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[العنكبوت: ٣] وقال: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[يونس: ٨٥] وقال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾[الفرقان: ٢٠].

وعن عياض بن عمار عن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: إنى مبتليك ومُبتلى بك**»[(١)] ولقد أذى رسول الله ﷺ، خنقه عقبة بن أبى معيط بطرف ردائه، وألقى على ظهره سلا الجذور، وهو ساجد أمام الكعبة، وحوصر ثلاث سنوات فى شعب أبى طالب وكسرت رباعيته وجرح وجهه الشريف وأغمى عليه يوم أحد، وقيل عنه: ساحر وكاهن ومجنون كما أوذى ﷺ فى شخص أصحابه الكرام ـ رضوان الله عليهم جميعا ـ مما اضطرهم إلى الهجرة مرتين إلى الحبشة ومرة إلى المدينة، ومن تتبع أحوال الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كنوح وإبراهيم ويوسف وموسى وعيسى . . . لوجد أن الإبتلاء سمة ملازمة لهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾[إبراهيم: ١٣] وقال: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ

---

(١) رواه مسلم.

يَسْتَهْزِءُونَ﴾[يس ٣٠] وقال: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[الذاريات: ٥٢] وكان لأتباع الأنبياء كصاحب يس ومؤمن آل فرعون وأصحاب الكهف.. حظهم ونصيبهم من هذا البلاء، روى سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: «قلت: يارسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة، أُبتلى على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وماعليه من خطيئة» لقد رأى الراهب من الغلام أمرا عجبا، وعلم فضيلته، وكان على معرفة بالكتاب الأول، وقد قرأ السنن قراءة واعية، فلا جرم أن قال للغلام: إنك ستبتلى.

التاسعة: بعض المعاني المتعلقة بإخفاء المعتقد والإستسرار بالدعوة

أوصى الراهب الغلام بقوله: (إنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل على)، أى لا تخبر عنى حرصا من الراهب على استمرارية دعوته، وشبيه بذلك قول الفتية أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾[الكهف: ٢٠] وكانوا قد وصوا صاحبهم بقولهم: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾[الكهف: ١٩].

وأيضا ماكان من مؤمن آل فرعون: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾[غافر: ٢٨] وهو الذى قال لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾[القصص: ٢٠] ومن ذلك قول رسول الله ﷺ: «احصوا لى كل من تلفظ بالإسلام».

يقول حذيفة رضى الله عنه قلنا: يارسول الله أتخاف علينا ونحن ما بين الستمائة إلى السبعمائة قال حذيفة: فابتلينا حتى ما جعل الرجل منا ما يصلى إلا سرا»، فإخفاء المعتقد قد تكون سياسة يمليها النظر الشرعى، وهى تختلف عن التقية والكذب التى أعتمدتها طائفة الشيعة كأصل لها فى تعاملها مع المخالفين كما أنها تفترق أيضا عن صور الإستكراه التى يضطر فيها المسلم إلى إظهار الكفر مع طمأنينة قلبه بالإيمان، ولمزيد من التوضيح والبيان نذكر لك المسائل الاتية:-

إفشـــاء الســـر

لا جـدال فى أن إفـشـاء السر شـر وأذى يلحـق بالأفراد والـهيـئـات والأمم والجماعات، والأسرار التى تستدعى الكتمان كثيرة منها ما هو حربى أو سياسى أو صناعى أو تجارى، وقد يستهين الإنسان بسره ويأتمن عليه النساء أو الأطفال أو من ليس بأمين، بل ويأخذ على تكـتمه العهود والمواثيق ثم سرعـان ما يجده على كل لسان بعكس ما لو جـهر بهذا الخبر فـقد لا يؤبه له فى كثير من الأحـيان . وكان عمر رضي الله عنه يقول: «من كـتم سره كان الخيار بيده» وقـال على رضي الله عنه : «سرك أسيرك فإذا تكلمت به سـرت أسيره» وقال عـمرو بن العاص رضي الله عنه : «ما أسـتودعت رجلا سرا فأفـشاه فلمته لأنى كنـت أضيق صدرا منه حين اسـتودعته منه حـتى أفشاه» وقيل: «إذا أنا أفشيت سرى إلى صديق فـأذاعه فهو فى حل، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأنـنى كنت أحق بصيـانته منه وكـيف يلام مـسـتودع سرا إذا ضـاق صدر مستودعه»، وكـان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول: «القلوب أوعية والشـفاه أقفالها والألسن مفاتيحهـا فليحفظ كل إنسان مفتاح سره» وقال الوليـد بن عتبة لأبيه: إن أميـر المؤمنين أسر إلى حديثـا فلا أحدثـك به. قال: يابنى إن من كتم سـرا كان الخيار له فلا تكون مملوكا بعد أن كنت مـالكا، وقال معاوية: (الحازم من كتم سره عن صديق مخافة أن تتبدل صداقته عداوة فيذيع سره) وقال المهلب بن أبى صفرة: (من ضاق قلبه اتسع لسانـه وما كتمته عن عدوك فلا تطـلع عليه صديقك) وكتب رجل لابنه يقول :يا بنى من استودعك سره فقـد ملكك أمره فاجعل صدرك قبره يستوجب حمده وشكره. وهذا الذى ذكـرناه لا ينفى وجود بعض من يصون السر كما لا ينفى وجود حالات تستدعى الإسرار ومنها:

* **إتيان شعائر الكفار علي سبيل التقية:** أن يسر الشخص بالإسلام خوفا من الكفار ويأتى شعائر الكفار الخاصة بـهم من عبادات وطقوس تقية وهذه الصورة لا يحل أن يفعلها المسلم إلا فى حالة واحدة وهى حالة الإكراه المعتبر شرعا.

قال الله تعالى: ﴿**مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾[النحل: ١٠٦] قال ابن كثير فى تفسـيره هذه الآية :«اتفق العلماء على أنه يجوز أن يوالى المكره على

الكفر إبقاء لمهجته». وقال ابن بطال: «أجمعوا على أن من أكره على الكفر واختار القتل أنه أعظم أجرا عند الله ممن اختار الرخصة».

* **إخفاء المعتقد مع عدم مخالفته الشرع:** أن يسر المسلم بإسلامه ولكنه لا يأتى شيئا من أمور الشرك وعبادات المشركين وطقوسهم، ويشرع ذلك إذا خاف أو كان هناك مصلحة شرعية فى كتم إسلامه كحالة مؤمن آل فرعون قال ابن العربى: «إذا نوى الإيمان بقلبه فلا يكون مؤمنا حتى يتلفظ بلسانه ولا تمنعه التقية والخوف من أن يتلفظ بلسانه فيما بينه وبين الله تعالى إنما تمنعه التقية من أن يسمعه غيره وليس من شرط الإيمان أن يسمعه الغير». وروى البخارى قول النبى ﷺ: «**فكذلك كنت أنت تخفى إيمانك بمكة من قبل**».

* **صور ودواعي السرية والعلنية:** أن يسر المسلم بالدعوة إلى الله تعالى إذا خاف على نفسه أو خاف على أتباعه من المسلمين وهم قلة والدليل على ذلك فعل الرسول ﷺ فى بداية الدعوة بمكة وقال ابن مسعود رضى الله عنه: مازال النبى ﷺ مستخفيا حتى نزلت: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[الحج: ٩٤] فخرج هو وأصحابه، والجهر بالدعوة هو الأصل وذلك حتى يسمعها القاصى والدانى، والقريب والبعيد لكن إذا غلب ظن الداعى إلى الله أن دعوته تجتث من أساسها بسبب الجهر بها أو خاف أن يناله أذى محقق لا يقدر على تحمله فعليه أن يسر بها حينئذ يقول البوطى: «ومن أجل هذا أجمع جمهور الفقهاء على أن المسلمين إذا كانوا من قلة العدد أو ضعف العدة بحيث يغلب على الظن أنهم سيقتلون من غير أى نكاية فى اعدائهم إذا ما أجمعوا قتالهم فينبغى أن تقدم هنا مصلحة حفظ النفس لأن المصلحة المقابلة وهى مصلحة حفظ الدين موهومة أو منفية الوقوع .

وقال العز بن عبد السلام: «فإذا لم تحصل النكاية وجب الإنهزام لما فى الثبوت من فوات النفس مع شفاء صدور الكفار وإرغام أهل الإسلام وقد صار الثبوت هنا مفسدة محضة ليس فى طيها مصلحة» قلت ـ أى البوطى ـ وتقديم مصلحة النفس هنا من حيث الظاهر فقط أما من حيث حقيقة الأمر ومرماه البعيد فإنها فى الواقع مصلحة دين إذ المصلحة الدينية تقتضى فى مثل هذه الحال أن تبقى أرواح المسلمين سليمة لكى يتقدموا ويجاهدوا فى الميادين المفتوحة الأخرى وإلا فإن إهلاكهم يعتبر إضرارا بالدين نفسه وفسحا للمجال أمام الكافرين ليقتحموا ما كان مسدودا أمامهم .

والخلاصة: أنه يجب المسالمة أو الإسرار بالدعوة إذا كان الجهر أو القتال يضر بها ولا يجوز الإسرار فى الدعوة إذ أمكن الجهر بها وكان ذلك مفيدا»ا. هـ.

ومن صور السـرية والتكتم ما حدث من رسول الله ﷺ يوم الهـجرة ونلمس من ذلك أن النبى ﷺ كان يجـهر أحيانا ويسر أحـيانا حسبـما تقتضيـه المصلحة الشرعـية وليست المرحلة السرية منـسوخة بعد الأمـر من الله بالصدع والإنذار بل حكمها بـاق كلما أحتاج المسلمـون إلى ذلك وسيبقى الأصل هو الجـهر بالإسلام والدعوة إليه وإنما تجب السرية لضرورة من الضرورات .

ونحن اليوم بحاجة إلى دعوة علنية سلمية نعصم بها دماء المسلمين وأعراضهم، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين بسبب سـرية أشبه شئ بها الآن النعام التى تدفن رأسها فى الرمال وجسدها مكشوف وبذلك يسهل صيدها وذبحها.

العاشرة: كرامات الأولياء امتداد لمعجزات الأنبياء واعتراف الجميع بفضل الله

كان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم، وكان للملك جليس أعمى فسمع به فأتاه بهدايا كثرة، فقال: اشفنى، فقال: ما أنا أشفى أحدا، إنما يشفى الله عزوجل» وكما كان المسيح عليه السلام يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، ويحيى الموتى بإذن الله، فكذلك كان هذا الغـلام، يسند الفعل كله لله «ما أنا أشـفى أحدا إنما يشفى الله عزوجل» ففى هذا أدب مع الله، واعتراف بالفـضل له سبحانه، كما قال إبراهيم عليه السلام : ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[الشعراء: ٨٠] فهـو سبحانه الشافى المعافى على الحقيقة، وإنما يتبجح الجاهلون والمعاندون عندما ينسبون الفضل لأنفسهم، كـما فى قول قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾[القصص: ٧٨] وكرامـات الأولياء أمـتداد لمعـجزات الأنبـياء فـما نالـوها إلا ببركـة استـقامتـهم ومتابعتهم، ولـذلك فكرامات الأولياء داخلة ضمن معجزات الأنبيـاء، وفيها وجه شبه من إكـرام الله لهم، كما حدث لهـذا الغلام فقد كان يبـرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، وكان مجاب الـدعوة، وهذا وقع للأنبياء ولكثير من الأوليـاء كسعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد والعلاء بن الحضرمى ومحمد بن واسع. . .

وقد بقى الغلام على هذا النحو الذى مات عليه إلى زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رغم مضى مئات السنين، وهذا شبيه بما حدث للأنبياء، فإن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، وحياة الأنبياء فى قبورهم أتم من حياة الشهداء، وهى حياة برزخية لا يعلم كيفيتها ولا كنهها إلا الله، وكما أنجى الله نبيه إبراهيم عليه السلام فكانت النار بردا وسلاما عليه، فكذلك فعل بأبى مسلم الخولانى، الذى قذفه الأسود العنسى صاحب اليمن فى النار، فكانت النار بردا وسلاما عليه، وقد لقيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال: الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرانى من أمة محمد من صنع به مثل صنيعه بإبراهيم عليه السلام. وليس من هؤلاء جميعا من نسب الفضل لنفسه، بل كلهم يعترف بنعمة وفضل الله عليه، وكلهم يقيم واجب العبودية ويتوكل عليه ويحسن المسير إليه سبحانه فى تواضع كريم، ولسان حاله ينطق: ﴿ لولا أن من الله علينا لخسف بنا ﴾[الشعراء: ٨٢] فالخير كله بيديه سبحانه والشر ليس إليه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[النحل: ٥٣].

الحادية عشرة: مشابهة الغلام في دعوته للأعمى بنبي الله يوسف في دعوته لصاحبيه

قال الغلام للأعمى: ما أنا أشفى أحدا، إنما يشفى الله عزوجل، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك، فآمن فدعا الله شفاه. شأن الغلام كشأن أصحاب الدعوات لا يخلقون الفرص وأيضا لا يضيعونها، يريدون إبلاغ الحق للخلق وتعبيد الناس لله رب العالمين، يدلون العباد على سعادتهم فى العاجل والآجل، ولا يدخرون وسعا فى صبغ الدنيا بدين الله فمن أتاهم يطلب مصلحة أو حاجة أجابوه إليها وزادوه ما هو أنفع له، وقدموا له ماهو أحوج إليه، فالأعمى أتى يلتمس الشفاء عند الغلام، فأخذ الغلام بيديه لما يحب ربنا ويرضى ويبصره بالإيمان الذى هو حياة القلوب والأرواح، وحتى تكتمل للأعمى معانى البصر والبصيرة .

وهذا شبيه بما فعله نبى الله يوسف عليه السلام مع صاحبى السجن فقد أتيا، يقول أحدهما: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾[يوسف: ٣٦] ويقول الأخر: ﴿وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف: ٤١] لم يسارع نبى الله يوسف، بتفسير وتعبير هذه الرؤى،

ولكنه وجدها فرصة لدعوتهما للإيمان بالله الواحد القهار فقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ما تَعْبُدُونَ من دُونه إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا من سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف: ٣٩].

أنها الدعـوة للإيمان حـتى يتعرف العـبد من خلال ذلك علـى من خلقه ولماذا خلقـه وإلى أين المصيـر، يتعرف على مـصدر الأمـر قبل التكليف، ولـذلك ركز القرآن المكى بل والمدنى على قضية التوحيد والعقيدة والإيمان بالله: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[الشعـراء: ٧٨] إن العبـد إذا ترسخت معـانى الإيمان عنده وسـمع لله حكمـا قال: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[البقرة: ٢٨٥] وكان طوع إشارة ورهين أمر، وهذا شأن الأنبياء والمرسلين ومن تابعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما من اهتزت معانى العقيدة عنده فلا يستبعد أن يكون شأنه كأهل الـكتاب الذين قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾[البقرة: ٩٣] ولذلك فلابد من التـركيز على قضـايا الإيمان ليس مع الكفار فحـسب، بل مع المسلمين كذلك، وخصوصا فى أوقات الغـربة، وعند شيوع التفلت من شرع الله، والجهل بمعانى التـوحيد، نصنع ذلك لا لتكفـيرنا لمن ورث الإسلام، ولكن حـتى يصبح الإيمان قولا وعملا ويحيى من حيى عن بينة ويهلك من هلك عن بينة، إذ ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل.

الثانية عشرة: الكلمة أوقع في النفوس إذا كان أجر الدعاة على الله

لقد رفض الغلام الهـدايا الكثيرة التى جاء بها الأعمى، وقـال له: ما أنا أشفى أحدا، إنما يشـفى الله عزوجل فإن آمنـت به دعوت الله فشـفاك، وهذا يدل على تجرده واسـتنانه بسنن الأنبيـاء والمرسلين فقد أمـروا أن يقولوا لأقـوامهم: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾[الشـوري: ٢٣] ولما عـرضـوا على رسـول الله ﷺ الملك والمال... رجاء أن يترك دعوته، رفض ذلك كلـه، وكان لسان حاله ينطق: «والله لو وضعوا الشـمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمـر ما تركته

حتى يظهره الله أو أهلك دونه »وقال لهم: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ﴾[سبأ: ٤٧] وعلم ذلك أتباع الأنبياء من أحوالهم ولذلك قال صاحب يس: ﴿اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[يس: ٢١] ولا ريب أن الكلمة تكون أوقع فى النفوس إذا كان أجر الدعاة على الله، وتكون رغبتهم ورهبتهم فيما عنده سبحانه، ولا ينافى ذلك أخذ الجرايات على تولى الخلافة والقضاء، وسائر الأعمال الدينية التى تعم منفعتها وتحتاج إلى تفرغ بحيث لو تركها وانشغل بعمل وكسب لضاعت وتعطلت المصالح كما فعل الصحابة مع أبى بكر الصديق ﷺ كما لا ينافى ذلك أيضا، أخذ الأجر على الرقية بتلاوة القرآن، كما فى رقية اللديغ بفاتحة الكتاب، وأخذ الجعل على ذلك، وقول النبى ﷺ لهم: «واضربوا لى معكم بسهم» فإن ذلك جائز بإذن الله، وينبغى على الكل أن يجاهد نفسه، وأن يخلص عمله لله تعالى .

أما حديث عبادة بن الصامت ﷺ أنه علم رجلا من أهل الصفة القرآن فأهدى له قوسا، فقال له النبى ﷺ :«إن سرك أن تطوق بها طوقا من نار فأقبلها»[1] فقد أجاب من أجاز أخذ الأجرة على تعليم القرآن عنه بجوابين :أحدهما أن فى إسناده مقالا. والثانى :أنه كان تبرع بتعليمه فلم يستحق شيئا ثم أهدى إليه على سبيل العوض فلم يجز له الأخذ، وقد جاء عن عبد الرحمن بن شبيل رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «أقرؤوا القرآن ولا تأكلوا به ولا تجفوا عنه ولا تغلوا فيه» وعن جابر ﷺ عن النبى ﷺ : «اقرؤوا القرآن من قبل أن يأتى قوم يقيمونه إقامة القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه» معناه يتعجلون أجره إما بمال وإما سمعة ونحوها. فينبغى الحذر من اتخاذ القرآن معيشة يكتسب بها، وأن لا يقصد العبد به التوصل إلى غرض من أغراض الدنيا من مال أو رياسة أو وجاهة أو ارتفاع على أقرانه أو ثناء عند الناس أو صرف وجوه الناس إليه أو نحو ذلك، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾[الشورى: ٢٠] وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾[الإسراء: ١٨].

---

(١) حديث مشهور رواه أبو داود وغيره.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تعلم علما يبتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة**»[1] فعلى العبد أن يقصد بعمله رضا الله تعالى، وأن يعلم أنه سيعطى على قدر نيته، وإن من يستغنى يغنه الله ومن يتعفف يعفه الله.

الثالثة عشرة: التوسل المشروع وغير المشروع

قال الأعمى للغلام متوسلا به: اشفنى، فقال: ما أنا أشفى أحدا، إنما يشفى الله عزوجل، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك، ففى هذا بيان التوسل المشروع وغير المشروع، وقد وردت نصوص الشريعة تفيد أن التوسل المشروع على صور منها التوسل بالإيمان والعمل الصالح كما فى حديث الثلاثة الذين دخلوا الغار وأطبقت عليهم الصخرة فدعوا الله بصالح أعمالهم فانفرجت الصخرة وخرجوا جميعا يمشون، ومنها التوسل بدعاء الصالحين كما فى قول النبى ﷺ لعمر: لا تنسانا ياأخى من دعائك، والإستسقاء بدعاء العباس زمن عمر ودعاء يزيد بن الأسود الجرشى زمن معاوية، ومنها التوسل بأسماء الله وصفاته مثل: ياحي يا قيوم .... أما التوسل إلى الله بدعاء الأموات والإستغاثة بهم، فهو توسل بدعى غير مشروع، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[الأعراف: ١٩٤] وقال: ﴿**قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[الأنعام: ٧١] ولو كان دعاء الموتى والتوسل بهم يجوز لما تركوا النبى ﷺ بعد وفاته وتوسلوا بدعاء العباس زمن عمر، وكذلك عندما توسلوا بدعاء يزيد بن الأسود زمن معاوية، فتركهم الفاضل للمفضول يدل على أنهم علموا عدم جواز التوسل بالأموات، كذلك لايجوز التوسل بالحي فيما لا يقدر عليه إلا الله، ولذلك لما قال الأعمى للغلام أشفنى، فقال: ما أنا أشفى أحدا، إنما يشفى الله عزوجل فإن آمنت به دعوت الله فشفاك، فالشفاء بيد الله والله هو الشافى المعافى، وقد قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿**وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ**

---

(١) رواه أبو داود.

يَشْفِينِ﴾[الشعراء: ٨٠] أما الأحاديث التى فيها :توسلو بجاهى فإن جاهى عند الله عظيم، فلا تصح ولا تقوم بها حجة كما أوضح ذلك الشيخ الألبانى وغيره .

الرابعة عشرة: الطغاة في كل عصر يزعمون أنهم أولياء النعم

أبصر الرجل بعد العمى ثم أتى الملك فجلس منه نحو ماكان يجلس، فقال له الملك: يافلان من رد عليك بصرك؟ فقال: ربى، فقال: أنا؟، قال: لا، ربى وربك الله، قال: ولك رب غيرى؟ قال: نعم، ربى وربك الله.

فهذا الطاغية كان يدعى الربوبية والألوهية مع الله، وقد بلغت به الغباوة والبجاحة إلى حد الزعم أنه الذى شفى جليسه وهو لم يفعل له شيئا بل هو قاصر وعاجز إلى درجة عدم العلم بما حدث لجليسه الأعمى، وهذا كله من جراء ظلام الشرك الذى استحكم على قلبه وعقله، وهذا شأن الطغاة والطواغيت فى كل عصر ووقت، يزعمون دائما أنهم أرباب وأولياء النعم، هذا شأن النمروذ الذى حاور نبى الله إبراهيم عليه السلام، قال تعالي: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾[البقرة: ٢٥٨] وهذا شأن فرعون الذى قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤] وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾[القصص: ٣٨] وقال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾[الزخرف: ٥١]، وقال فى محاورته لنبى الله موسى عليه السلام: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾[طه: ٥٢] إن المنعم هو الله ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[النحل: ٥٣] ومن الخطأ وسوء المعتقد نسبة ذلك للنفس كما فى قول قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾[القصص: ٧٨] قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾[القصص: ٨١] فكان هذا هو جزاؤه ولما قال فرعون : ﴿وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾[الزخرف: ٥١] أجراها الله سبحانه من فوق رأسه جزاءا وفاقا، ومات يوم مات وهو يقول: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ

به بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[يونس: ٩٠] فقيل: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾[يونس: ٩١].

الخامسة عشرة: البطش سلاح الجبابرة فلا حجة ولا إقناع عندهم

ما كاد الملك الطاغية يسمع قول الأعمى :ربى وربك الله، فلم يزل يعذبه حتى دله على الغلام.

فاللجوء إلى العنف والبطش هو أسلوب الطغاة والجبابرة فى كل زمان ومكان، فلا حجة لديهم ولا إقناع عندهم، وكيف يكون عندهم حجة أو إقناع، والباطل لجلج وعليه ظلمة وهو مخالف للعقل والفطرة والكتب المنزلة والرسل المرسلة، وقد قال الله تعالى عن إبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[الحجر: ٤٢] أى لا حجة له فى إغواء العباد،ومن طالع قصة فرعون علم أن البطش والعنف هو سلاح الضعيف العاجز السفيه، فقد شرع يقتل الصبيان ويستحى الإناث لرؤيا تفيد أن أهلاكه سيكون على يد غلام من بنى اسرائيل، وسواء كانت الرؤيا حقة أو باطلة فلا يحل له صنيعه هذا، إذ لو كانت حقه فسيهلك حتما وبالتالى فلا داعى لقتل الصبيان، وإن كانت باطلة فلا داعى لقتل الصبيان وإتلاف الأنفس البريئة، ويدل على سفهه أيضا أنه لما قال له الملأ من قومه: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾[الأعراف: ١٢٧] قال: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾[الأعراف: ١٢٧] لقد واجه نبى الله موسى بجيش من السحرة رغبهم فى الملك والمال وهو الذى يدعى الربوبية والألوهية مع الله، ثم لما آمنوا وأسلموا لله رب العالمين، تهددهم وتوعدهم فرعون وقال: ﴿فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[طه: ٧١] فهذا هو منطق الطغيان، بل لم يقتصر على ذلك حتى تنادى: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾[الشعراء: ٥٤-٥٦] ثم لما خرج نبى الله موسى ومن آمن معه: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾[يونس: ٩٠] وانظر فى قول الكفار لشعيب عليه السلام، وهو خطيب الأنبياء: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[هود: ٩١] فأين حجتهم فى مواجهته،

وقال تعالى عن قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[النمل: ٥٦] فهل يكون جزاء العفاف والطهر الطرد والإبعاد؟! وقد شهد ببراءة نبى الله يوسف ـ عليه السلام ـ كل شئ الشاهد والملك والمرأة والنسوة وعلى الرغم من ذلك أدخلوه السجن ليدفع البرئ ثمن تهتك امرأة العزيز : ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾[يوسف: ٣٥] قتل صاحب يس، وقتل الغلام والراهب والأعمى كما خدت الأخاديد وأضرمت فيها النيران وقذف فيها كل من آمن بالله، حتى المرأة وصغيرها!!! فأين الحجة والبرهان والبصيرة فى تصرفات الطغاة والطواغيت ؟!

لقد شن الجنرالات فى تركيا حربا لا هوادة فيها لدخول النائبة قاعة البرلمان بحجابها، واعتبروا ذلك مخالفة للدستور العلمانى، بل وصل الأمر إلى إسقاط الجنسية عنها، ووقع الرئيس التركى بذلك على المرسوم الصادر من مجلس الوزراء، فما هى الجريمة التى اقترفتها هذه النائبة؟! وهل كفرت أو زنت أو سرقت؟! أبدا إنها لم تصنع شيئا من ذلك، ولو أنها فعلت كل ذلك لفتحوا لها الأبواب على مصاريعها واعتبروه حرية شخصية، إنه منطق البطش والطغيان وفقدان البصيرة يحكيه لك قول ربنا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[إبراهيم: ١٣].

السادسة عشرة: الاستكراه يلغي الاختيار ويرفع الإثم والذنب

ورد فى الحديث أن الملك الطاغية لما سمع مقالة الأعمى لم يزل يعذبه حتى دله على الغلام، فبعث إليه فقال: أى بنى بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص وهذه الأدواء، فقال: ما أشفى أحدا إنما يشفى الله عزوجل، قال: أنا؟، قال: لا ، قال: أولك رب غيرى؟ قال: ربى وربك الله فأخذه أيضا بالعذاب حتى دل على الراهب فأتى بالراهب فقيل: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه، وقال للأعمى: أرجع عن دينك، فأبى فوضع المنشار فى مفرقه أيضا، وقال للغلام : أرجع عن دينك فأبى. . . .

وهذه صورة استكراه واضحة، والخوف هنا قد تمهدت أسبابه، إذ الملك الطاغية كان يدعى الربوبية والألوهية مع الله، وعنده المقدرة على الإنتقام ممن خالفه، وإنفاذ تهديده ووعيده، وقد رأى الغلام ما حدث للأعمى وتحت وطأة التعذيب دل على الراهب، وكان قد أوصاه الراهب بقوله: وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تخبر عنى، ومما يستلفت النظر أن الأعمى والراهب والغلام ومن خدت لهم الأخاديد رغم تعرضهم لظروف الاستكراه إلا أنهم ثبتوا جميعا على إيمانهم حتى الموت، فهل لم يكن لهم رخصة فى إظهار الكفر مع طمأنينة قلوبهم بالإيمان؟ يجيب الشيخ الشنقيطى ـ رحمه الله ـ فى أضواء البيان أثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا**﴾[الكهف: ٢٠] ويوضح أن أصحاب الكهف رغم تعرضهم للاستكراه إلا أنهم لم يترخصوا ولم يظهروا الكفر وقالوا: ﴿**وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا**﴾[الكهف: ٢٠] وكأن الاستكراه لم يكن عذرا لهم، ويحتمل أن يكون رفع الإثم والذنب فى الاستكراه خاصا بهذه الأمة ويدل ذلك على قول النبى ﷺ : «**إن الله تجاوز لى عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»(٣)، فالحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وقد ذكر العلماء أن من حلف لا يدخل دار زيد مثلا فقهره من هو أقوى منه، وكبله بالحديد، وحمله قهرا حتى أدخله فيها فهذا النوع من الإكراه صاحبه غير مكلف بالإجماع إذ لا قدرة له على خلاف ما أكره عليه، وهو فى هذه الحالة ينفذ إرادة غيره . فإن قيل له: اقتل فلانا وإلا قتلناك أنت، فلا يجوز له قتل غيره وإن أدى ذلك إلى قتله هو، إذ نفسه ليست أفضل من نفس أخيه، وأما فى غير حق الغير فالظاهر أن الإكراه عذر يسقط التكليف بدليل قوله تعالى: ﴿**إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ**﴾[النحل: ١٠٦]، فمن استكره على النطق بالكلمة الخبيثة فلا إثم عليه، وكذلك من وقع فى مخمصة وخاف الهلكة على نفسه ولم يجد مباحا فاضطر لأكل الميتة، أو حدثت له غصة ولم تندفع إلا بشرب الخمر، ولم يجد مباحا لدفعها، فلا إثم عليه، إذا الضرورات تبيح المحظورات، وهى تقدر بقدرها، وربنا يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه، وما أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل المرسلين مبشرين ومنذرين، ويبقى أن يقال: إن إظهار شعائر الدين والثبات على الإيمان والأخذ بالعزيمة أولى وأفضل من بقاء

طوابير طويلة تعطى الطغاة ما يريدونـهم ولو بألسنتهم، ولذلك كان ثبات الراهب والأعمى والغلام والمؤمنين مضرب المثل وقصة تحكى عبر العصور وكر الدهور.

السابعة عشرة: الصبر على ذلك لمن قويت نفسه أولى وليس بمنسوخ

نشروا و شقوا الأعمى والراهب نصفين، وهذه منتهى القسوة والغلظة من جهة، ومنتهى الصبر وعدم الرجوع عن الدين من جهة أخرى، والظاهر أن ذلك ليس بمنسوخ عندنا فالصبر على البلاء لمن قويت نفسه أولى، قال القرطبى فى تفسيره: «قال علماؤنا: أعلم الله عزوجل المؤمنين من هذه الأمة فى هذه الآية: **﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾**[البروج: ٧] ماكان يلقاه من وحد قبلهم من الشدائد، يؤنسهم بذلك، وذكر لهم النبى ﷺ قصة هذا الغلام ليصبروا على ما يلقون من الأذى والآلام والمشقات التى كانوا عليها ليتأسوا بمثل هذا الغلام فى صبره وتصلبه فى الحق وتمسكه به، وبذله نفسه فى حق إظهار دعوته، ودخول الناس فى الدين مع صغر سنه وعظم صبره، وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نشر بالمنشار، وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى ورسخ الإيمان فى قلوبهم، صبروا على الطرح في النار ولم يرجعوا في دينهم، ونقل قول ابن العربي: وهذا منسوخ عندنا وعقب عليه. بقوله: ليس بمنسوخ عندنا، وإن الصبر على ذلك لمن قويت نفسه وصلب دينه أولى قال الله تعالى مخبرا عن لقمان: **﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾**[لقمان: ١٧] وروى أبو سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال: **«إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»** خرجه الترمذى وقال: حديث حسن غريب.

وروى ابن سنجر محمد بن سنجر عن أميمة مولاة النبى ﷺ قالت: كنت أوضئ النبى ﷺ فأتاه رجل فقال: أوصنى، فقال: **«لا تشرك الله شيئا وإن قطعت أو حرقت بالنار.....»** الحديث، قال علماؤنا: ولقد امتحن كثير من أصحاب النبى ﷺ بالقتل والصلب والتعذيب الشديد فصبروا ولم يلتفتوا إلى شئ من ذلك، ويكفيك قصة عاصم وخبيب وأصحابهما، وما لقوا من الحروب والمحن

والقتل والأسر والحرق وغير ذلك. وقد مضى فى النحل أن هذا إجماع ممن قوى فى ذلك فتأمله هناك ا. هـ.

وقد سبق أن بينا أن المكره على الكفر بالإهلاك العظيم، الأولى به أن يصبر على ما خوف منه، وأن إظهار كلمة الكفركالرخصة فى ذلك، روى الحسن أن مسيلمة أخذ رجلين من أصحاب النبى ﷺ فقال لأحدهما: تشهد أنى رسول الله؟ فقال: نعم فتركه، وقال للآخر مثله، فقال: لا بل أنت كذاب، فقتله، فقال النبى ﷺ : «**أما الذى ترك فأخذ بالرخصة فلا تبعة عليه، وأما الذى قتل فأخذ بالأفضل فهنيئا له**».

الثامنة عشرة : مسائل هامة يحتاجها الآمر الناهي

هل يجوز عند ضعف المسلمين مهادنة الكفار بمال؟

قال أبو حنيفة: «لا ينبغى موادعة أهل الشرك إذا كان بالمسلمين عليهم قوة وإن لم يكن بالمسلمين قوة عليهم فلا بأس بالموادعة» وقال الشيبانى:- بعد ذكره لكلام أبى حنيفة هذا - «وإذا خاف المسلمون المشركين فطلبوا موادعتهم فأبى المشركون أن يوادعوهم حتى يعطيهم المسلمون على ذلك مالا فلا بأس بذلك عند تحقق الضرورة» وقال ابن حجر - عند الكلام على مهادنة الكفار بمال يدفعه المسلمون لهم فى حال الضرورة -: «وأما أصل المسألة فاختلف فيه فقال الوليد بن مسلم: سألت الأوزاعى عن موادعة إمام المسلمين أهل الحرب على مال يؤديه إليهم فقال: لا يصلح ذلك إلا عن ضرورة كشغل المسلمين عن حربهم قال: ولا بأس أن يصالحهم على غير شئ يؤدونه إليهم كما وقع فى الحديبية».

وقال الشافعى :«إذا ضعف المسلمون عن قتال المشركين جازت لهم مهادنتهم على غير شئ يعطونهم لأن القتل للمسلمين شهادة، وإن الإسلام أعز من أن يعطى المشركين على أن يكفوا عنهم إلا فى حالة مخافة اصطلام المسلمين لكثرة العدو لأن ذلك من معانى الضرورات، وكذلك إذا أسر رجل مسلم فلم يطلق إلا بفدية جاز» .

وقال ابن قدامة: «لا تجوز المهادنة مطلقا من غير تقدير مدة لأنه يفضى إلى ترك الجهاد بالكلية، وتجوز مهادنتهم على غير مال لأن النبى ﷺ هادنهم يوم الحديبية على غير مال، ويجوز ذلك على مال يأخذه منهم فإنها إذا جازت على غير مال فعلى مال أولى، وأما إن صالحهم على مال نبذله لهم فقد أطلق أحمد القول بالمنع منه وهو مذهب الشافعى لأن فيه صغارا للمسلمين وهذا محمول على غير حالة الضرورة، فأما إذا دعت إليه ضرورة وهو أن يخاف على المسلمين الهلاك أو الأسر فيجوز لأنه يجوز للأسير فداء نفسه بالمال فكذا ههنا، ولأن بذله المال إن كان فيه صغار فإنه يجوز تحمله لدفع صغار أعظم منه وهو القتل والأسر وسبى الذرية الذى يفضى سبيهم إلى كفرهم».

وهذا الكلام من الأئمة الأعلام رد بليغ على التهور والاندفاع المفضى إلى الشر والفساد، ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه فلم يهنها، وجعل لنفسه خطاما وزماما فقادها بخطامها إلى طاعة الله وزمها بزمامها عن معصية الله، فإن الصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذابه. وما علينا إلا أن نتعرف على مواطن الأقدام والإحجام، ولنعلم أن الاقدام فى موطن الإحجام مذموم كعكسه ولما رجع خالد بن الوليد وجيشه يوم مؤتة إلى المدينة وقيل لهم: فررتم. قال النبى ﷺ : **«بل هم الكرار وليسوا الفرار»**.

حد الاستطاعة

نصوص الكتاب والسنة كثيرة فى بيان أنه لا تكليف إلا بمستطاع ومقدور للعباد، وأن الواجبات كالصيام والحج والجهاد تسقط بالعذر والعجز وعدم الأستطاعة. قال تعالى: **﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾**[البقرة: ٢٨٦] فلله الحمد والمنة والفضل والنعمة، فقد سهل ورفق ووضع عنا الإصر والأغلال التى وضعها على من كان قبلنا، وقد اتفق العلماء على أن التكليف بما لا يطاق ليس واقعا فى الشرع قال تعالى: **﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾**[الحج: ٧٨]، وقال تعالى: **﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾**[البقرة: ١٨٥] ويقول سبحانه: **﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾**[التغابن: ١٦]، ويقول النبى ﷺ فى الحديث الذى رواه مسلم: **«من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فأن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»**.

وهكذا فأنت ترى كيف يسقط الإنكار باليد واللسان عند عدم الإستطاعة وروى أبو داود عن ابن عباس قال: نزلت ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾[الأنفال: ٦٥] فشق ذلك على المؤمنين حين فرض الله عليهم ألا يفر واحد من عشرة ثم إنه جاء التخفيف فقال: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾[الأنفال: ٦٦] قال: «فلما خفف الله تعالى عنهم من العدد نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم». وقال ابن العربى: «قال قوم إن هذا كان يوم بدر ونسخ وهذا خطأ من قائله». قال القرطبى: «قلت: وحديث ابن عباس يدل على أن ذلك فرض ثم لما شق ذلك عليهم حط الفرض إلى ثبوت الواحد للإثنين، فخفف عنهم وكتب عليهم ألا يفر مائة من مائتين فهو على هذا القول تخفيف لا نسخ. وهذا حسن» ا.هـ. وأخرج البخارى وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال: «لما نزلت: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾[الأنفال: ٦٦] فكتب عليهم أن لا يفر واحد من عشرة، وأن لا يفر عشرون من مائتين، ثم نزلت: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ﴾[الأنفال: ٦٦] الآية فكتب أن لا يفر مائة من مائتين قال سفيان: وقال ابن شبرمة: وأرى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مثل هذا، إن كانا رجلين أمرهما وإن كانوا ثلاثة فهو فى سعة من تركهم. قال فى المهذب: «إن زاد عددهم على مثلى عدد المسلمين، جاز الفرار. لكن إن غلب على ظنهم أنهم لا يهلكون، فالأفضل الثبات. وإن ظنوا الهلاك فوجهان:

الأول: يلزم الإنصراف لقوله تعالى: ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

الثانى: فيستحب ولا يجب، لأنهم إن قتلوا فازوا بالشهادة.

وإن لم يزد عدد الكفار على مثلى عدد المسلمين، فإن لم يظنوا الهلاك لم يجز الفرار، وإن ظنوا فوجهان يجوز لقوله تعالى: ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ ولا يجوز، وصححوه، لظاهر الآية.

وقال الحاكم: «إن ذلك يرجع إلى ظن المقاتل واجتهاده، فإن ظن المقاومة لم يحل الفرار، وإن ظن الهلاك جاز الفرار إلى فئة وإن بعدت، إذ لم يقصد الإقلاع عن الجهاد» وذهب ابن الماجشون ورواه عن مالك: «أن الضعف إنما يعتبر فى القوة لا فى العدد، وأنه يجوز أن يفر الواحد عن واحد إذا كان أعتق جوادا منه، وأجود سلاحا وأشد قوة وهذا هو الأظهر» ا.هـ.

وقال ابن جزى الغرناطى المالكى: «لا يجوز الانصراف من صف القتال أو متحيز إلى فئة والتحرف للقتال هو أن يظهر الفرار وهو يريد الرجوع مكيدة فى الحرب والتحيز إلى الجماعة الحاضرة جائز واختلف فى التحيز إلى جماعة غائبة من المسلمين أو مدينة ولا يجوز الإنهزام إلا إذا زاد الكفار على ضعف المسلمين والمعتبر العدد فى ذلك على المشهور، وقيل: القوة وقيل: إذا بلغ عدد المسلمين اثنى عشر ألفا لم يحل الإنهزام ولو زاد الكفار على الضعف. وإن علم المسلمون أنهم مقتولون فالإنصراف أولى وإن علموا مع ذلك أنهم لا تأثير لهم فى نكاية العدو وجب الفرار وقال أبو المعالى: «لا خلاف فى ذلك».

والجهاد بمفهومه الصحيح وعلى ضوء الواقع الذى يمر به المسلمون، لن يقوم على أكتاف أفراد قلائل، بل إن جهاد المائة والمائتين ضرره - كما نرى - أكثر من نفعه، ولا تعارض بين ما ذكرنا ونقلنا وبين قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾[البقرة: ٢٤٩] فالنصوص قد خرجت من مشكاة واحدة ولا يظن بنصوص الوحي وجود تعارض: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[النساء: ٨٢] وقوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾[البقرة: ٢٤٩] تحريض على القتال واستشعار للصبر واقتداء بمن صدق ربه. قال القرطبى: «هكذا يجب علينا نحن أن نفعل؟ لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير قدام اليسير من العدو كما شاهدناه غير مرة وذلك بما كسبت أيدينا! وفى البخارى: وقال أبو الدرداء: «إنما تقاتلون بأعمالكم» وفيه مسند أن النبى ﷺ قال: «هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم» فالأعمال فاسدة والضعفاء مهملون والصبر قليل والاعتماد ضعيف والتقوى زائلة! قال الله تعالى: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾[آل عمران: ٢٠٠] وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ

فَتَوَكَّلُوا﴾[المائدة: ٢٣] وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[النحل: ١٢٨] وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾[الحج: ٤٠] وقال: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الأنفال: ٤٥].

فهذه أسباب النصر وشروطه وهى معدومة عندنا غير موجودة فينا، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحل بنا! بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره، ولا من الدين إلا رسمه لظهور الفساد ولكثرة الطغيان وقلة الرشاد حتى استولى العدو شرقا وغربا برا وبحرا وعمت الفتن وعظمت المحن ولا عاصم إلا من رحم ! ا.هـ.

وإذا كان هذا هو الحال على زمن الإمام القرطبى فكيف بزماننا نحن !!.

فإلى الله المشتكى من غربة الإسلام وسط أهله وبنيه، ولا يخفى عليك أننا عندما نتحدث عن حكم دفع مال للكفار إذا خيف استئصال شأفة المسلمين، وكذلك حديثنا عن عدم الاستطاعة إنما هو تقرير للواقع وحكمه وليس فرحا بما قد يصل إليه الحال . كما أنه ليس مبررا نعلق عليه تكاسلنا وتخاذلنا فى الأخذ بالأسباب والعمل بالطاعات المستطاعة والمقدورة بالنسبة لنا والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

المصلحة

الواقع أن الشريعة الإسلامية ما شرعت إلا لتحقيق مصالح العباد فى العاجل والآجل، أى فى الدنيا والآخرة، ودرء المفاسد والأضرار عنهم فى العاجل والآجل أيضا حتى قال البعض: « إن الشريعة كلها مصالح، إما درء مفاسد أو جلب مصالح» يقول ابن القيم عن الشريعة: «مبناها وأساسها الحكم ومصالح العباد فى المعاش والمعاد، وهى عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت من العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه».

وقال الشاطبى فى الموافقات: «فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه». وقال الشاطبى فى الموافقات: «والمعتمد أنا استقرينا من الشريعة أنها وضعت لمصالح العباد استقراء لا ينازع فيه أحد، فإن الله تعالى يقول فى بعثة الرسل وهو الأصل: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[النساء: ١٦٥] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧] وقال فى أصل الخلقة: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[هود: ٧] ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦] ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[الملك: ٢] وأما التعاليل لتفاصيل الأحكام فى الكتاب والسنة فأكثر من أن تحصى، كقوله بعد آية الوضوء: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾[المائدة: ٦] وقال فى الصوم: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٨٣] وفى الصلاة: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[العنكبوت: ١٨٣] وفى القبلة: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾[البقرة: ١٥٠] وفى الجهاد: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾[الحج: ٣٩] وفى القصاص ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾[البقرة: ١٧٩] وفى التقرير على التوحيد: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[الأعراف: ١٧٢].

والمقصود بالتنبيه، وإذا الإستقراء على هذا وكان فى مثل هذه القضية مفيدا فنحن نقطع بأن الأمر مستمر فى جميع تفاصيل الشريعة .ا.هـ.

وأما تشريع هذا الدين لما فيه مصالح العباد ومايدرأ عنه الشر والفساد فإنه يرتبط برحمة الله ولا ينفك عنها قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧] ومن رحمة الله تشريع الرخص عند وجود المشقات فى تطبيق الأحكام إذا كانت هذه المشقات فوق طاقة البشر المعتادة مثل إباحة النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها بالتهديد بالقتل ونحوه وإباحة المحرم عند الضرورة مثل أكل الميتة ولحم الخنزير عند التعرض للهلاك جوعا، وإباحة الفطر فى رمضان للمريض والمسافر ولا شك إن دفع المشقة ضرب من ضروب رعاية المصلحة ودرء المفسدة عن الناس، وقد عرف بالاستقراء والتأمل أن مصالح العباد تتعلق بأمور

ضرورية أو حاجية أو تحسينية فالأولى هى التى لا قيام لحياة الناس بدونها وإذا فاتت حل الفساد وعمت الفوضى واختل نظام الحياة، وهذه الضروريات هى حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال.

أما الحاجيات فهى التى يحتاجها الناس لتحقيق اليسر ولذلك شرع الدين مثلا العبادات وشرع لحفظه الجهاد وعقوبة المرتد وزجر من يفسد على الناس عقيدتهم والسعة فى عيشهم وإذا فاتتهم لم يختل نظام الحياة ولكن يصيب الناس ضيق وحرج ولذلك لها الرخص عند المشقة وشرعت الدية فى القتل الخطأ على عاقلة القاتل .

وأما التحسينات فهى التى ترجع إلى محاسن العادات ومكارم الأخلاق وإذا فاتت خرجت حياة الناس عن النهج القويم السليم الذى تقضى به الفطر السليمة والعادات الكريمة، ولذلك شرعت الطهارة للبدن والثوب وستر العورة، والنهى عن قتل الأطفال و النساء فى الحروب وأخذ الزينة عند كل مسجد، والنهى عن بيع الإنسان على بيع أخيه .

ونختم هذا الكلام بما ذكره العز بن عبد السلام فى كتاب «قواعد الأحكام فى مصالح الأنام» وقد أتجه به إلى أن تشريع الأحكام إنما هو لمصالح البشر حيث قال رحمه الله: «ومن أراد أن يعرف المناسبات والمصالح والمفاسد راجحها ومرجوحها فليعرض ذلك على عقله بتقدير أن الشرع لم يرد به ثم يبنى عليه الأحكام فلا يكاد يخرج حكم منها عن ذلك إلا ما تعبد الله به عباده ولم يقفهم على مصلحته أو مفسدته إلى أن قال: وإنما يجلب سبحانه مصالح الحسن ويدرأ مفاسد القبيح طولا منه على عباده وتفضلا .ا.هـ.

ضوابط المصلحة في إنكار المنكر

استخلص العلماء القواعد التى تحقق المصلحة وتدفع المضرة والمفسدة من عشرات النصوص مثل: «درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة» «تحصيل أعظم المصلحتين بدفع أدناهما عند المعارضة وعدم إمكان الجمع». «التزام أخف المفسدتين بتفويت أعظمهما فى حالة عدم الإستطاعة على دفع كليهما» «الضرر يزال» «الضرورات تبيح المحظورات» ولو تأملنا لوجدنا نصوص الشريعة قد أتت على نحو يحقق للعباد الصالح ويستدفع عنهم المضار والمفاسد .

فالمصلحة تقتضى منا أن نلتزم بنصوص الكتاب والسنة إذ ترك هذه النصوص هو المفسدة بعينها ومما يجب التنبه والحذر منه، هذه التساهلات والتنازلات التى يفعلها البعض فى طريق الدعوة باسم مصلحة الدعوة ومن مثل هذا يحذر الأستاذ سيد قطب رحمه الله فيقول: « . . . . وإذا كان الله قد عصم أنبياءه ورسله فلم يمكن للشيطان أن ينفذ من خلال رغباتهم الفطرية إلى دعوتهم. فغير المعصومين فى حاجة إلى الحذر الشديد من هذه الناحية، والتحرج البالغ، خيفة أن يدخل عليهم الشيطان من ثغرة الرغبة فى نصرة الدعوة، والحرص على ما يسمونه «مصلحة الدعوة» فلابد من الدقة واليقظة والحذر، وإلا ضاعت الدعوة الإسلامية بين أبنائها، وتشوهت صورتها بين الناس جمودا أو انحرافا، وما ضاع هذا الدين إلا بين الغالى فيه والمقصر. . . . وينبغى أن تعلم أن المصالح المرسلة هى التى لم يرد في الشرع دليل على اعتبارها أو إلغائها وبالتالى فلا يجوز تقديم الآراء أو الاجتهادات على نصوص الشريعة، ونخشى أن ينحرف أصحاب المصالح المتوهمة والمزعومة بالدعوة شيئا فشيئا حتى يخرجون بها عن الجادة .

ومما يجدر التنبيه عليه أهمية إنزال النصوص منازلها الصحيحة أو عدم العمل بالبعض وإغفال وإهدار البعض الآخر من النصوص المتعلقة بنفس القضية والمسألة، فهذا من شأنه أن يحدث المضرة والمفسدة فى حالة الإخلال به، ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما يحدث فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فلا يجوز للإنسان أن ينكر منكر بمنكر أعظم أو أن يثبت المنكر ويستجلب منكرا آخر بإنكاره، ولا يجوز له أن يتلف نفسه فى غير مصلحة شرعية أو أن يستلحق المضرة والأذى الشديد

بالآخرين من الأهل والأصدقاء والإخوان إذا أنكر المنكر، ولا يشفع له فى ذلك كله حسن نيته أو اكتفاؤه بمعرفة أن هذا منكر ثم ينكره بأسلوب لا يجيزه الشرع، وإليكم بعض النقول التى توضح ما نقول:

يقول الغزالى فى إنكار المنكر: «أن يعلم أن المنكر يزول بقوله وفعله ولا يقدر له على مكروه فيجب عند الإنكار وهذه هى القدرة المطلقة» (الإحياء جـ ٢ ص٢٨٠).

ويقول العلامة أبو بكر الجصاص: «وهى على منازل أولها تغييره باليد إذا أمكن فإن لم يمكن وكان فى نفيه خائفا على نفسه إذا أنكر بيده فعليه انكاره بلسانه فإن تعذر لما وصفناه فعليه إنكاره بقلبه» (أحكام القرآن جـ٢ص ٣٥).

وقال القاضى عياض: «إن غلب على ظنه أن تغييره بيده يسبب منكرا أشد من قتله أو قتل غيره بسببه كف يده واقتصر على القول باللسان والوعظ والتخويف فإن خاف أن يسبب قوله ذلك غير بقلبه وكان فى سعة»(شرح صحيح مسلم).

ويقول المناوى: «فإن لم يستطيع الإنكار بيده بأن ظن لحوق ضرر به فبلسانه أى بالقول كاستغاثة أو توبيخ أو إغلاظ بشرطه فإن لم يستطع ذلك لوجود مانع كخوف فتنة أوخوف على نفس أو عضو أو فبقلبه» وعلى الإنسان أن يقوم بمهمته حتى وإن تعرض للوم أو غيبة فاسق أو شتمه أو تعنيفه أو سقوط المنزلة من قلبه أو قلب أمثاله قال تعالى: ﴿**يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ**﴾[المائدة: ٥٤] وفى حديث عبادة بن الصامت الذى رواه البخارى: «**وعلى أن نقول الحق أينما كنا ولا نخاف فى الله لومه لائم**» والدعوة إلى الله لا تخلو أبدا من مثل هذا قال تعالي: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ**﴾

[المطففين: ٢٩-٣٢].

قال القرطبى: «أجمع المسلمون فيما ذكر ابن عبد البر أن المنكر واجب تغييره على كل من قدر عليه وأنه إذا لم يلحقه بتغييره إلا اللوم الذى لا يتعدى إلى الأذى فإن ذلك لا ينبغى أن يمنعه من تغييره» الجامع لأحكام القرآن جـ٤ ص ٤٨.

ويقول الغزالى: «فلو تركت الحسبة بلوم لائم أو اغتياب فاسق أو شتمه أو تعنيفه أو سقوط المنزلة عن قلبه أو قلب أمثاله لم يكن للحسبة وجوب أصلا إذ لا تنفك الحسبة عنه» إحياء علوم الدين ٢-٢٨٤.

وإسقاط الوجوب لهذا السبب أى حصول المكروه للآمر الناهى لا يسقط لاستحباب ذلك لقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[آل عمران: ٢١] ولقول النبى ﷺ للرجل الذى سأله: أى الجهاد أفضل. قال: «**كلمة حق عند سلطان جائر**» رواه النسائى بإسناد صحيح. لكن إذا علم الآمر الناهى أن لا أثر مطلقا لحسبة مع حصول الأذى الجسيم كقتله أو انتهاك عرضه فيسقط الجواز عندئذ ويحرم الإنكار، قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ .

خوف الضرر على الغير

إذا خاف الآمر الناهى الضرر على غيره - من أقاربه وأصدقائه والمختصين به أن يلحقهم الأذى لقيامه بهذه الفريضة دون أن يلحقه نفسه فيقول الغزالى: «فإذا كان يتعدى الأذى من حسبته إلى أقاربه وجيرانه فليتركها فإن إيذاء المسلمين محذور كما أن السكوت على المنكر محذور نعم إن كان لا ينالهم أذى فى مال أو نفس ولكن ينالهم الأذى بالشتم والسب فهذا فيه نظر ويختلف الأمر فيه بدرجات المنكرات فى تفاحشها ودرجات الكلام المحذور فى نكايته فى القلب وقدحه فى العرض» (إحياء علوم الدين ٤- ٣٥٠).

ويقول عبد الكريم زيدان فى «أصول الدعوة» ص ١٩١ تحت عنوان متى يحرم الاحتساب: «ويحرم الاحتساب إذا ألحق المحتسب (أى الآمر الناهى) من جرائه أذى جسيما بغيره من أصحابه أو أقربائه أو رفقائه أو عموم المسلمين حتى لو قدرنا زوال المنكر لأنه يفضى إلى منكر آخر هو إلحاق الأذى بالآخرين وهذا لا يجوز لأن للمسلم أن يتسامح فى حق نفسه ويتحمل الأذى ولكن ليس من حقه أن يتسامح فى إيذاء غيره عن طريق احتسابه وكذلك يحرم الإحتساب إذا أدى إلى وقوع منكر أكبر من المحتسب عليه مع لحوق الأذى بالآخرين وكذلك يحرم الاحتساب إذا لم يكن من ورائه إلا إلحاق الأذى الجسيم بنفسه كقتله أو هتك عرضه دون أن يكون لإحتسابه أى مصلحة أو أى أثر فى إزالة المنكر ورفعه».

الأخذ بالعزيمة مستحب وخصوصا فى مواطن إظهار الدين، والأخذ بالرخصة جائز وقد يكون مستحبا، وليس للإنسان أن يفرض على الآخرين الأخذ بالعزيمة وقد جعل الله لهم سعة فى الرخصة، فمن عرض غيره للأذى فهو يلزمه بما لا يلزمه شرعا، ومن هنا كان له أن يسامح فى حق نفسه لا فى حق غيره.

الحكم بالعجز على الظن الغالب

يجب على الإنسان أن ينكر المنكر إذا رآه أو علم به وكانت عنده الإستطاعة على تغييره ولم يقم أحد بإنكاره .ولكن هل يكفى الظن الغالب فى إسقاط الوجوب والحكم على الإنسان بالعجز وعدم الاستطاعة أو لابد من اليقين.

يقول الغزالى: «إن غلب على الظن أنه يصاب لم يجب وإن غلب أنه لا يصاب وجب، ومجرد التجويز لا يسقط الوجوب فإن ذلك ممكن فى كل حسبة» ويقول: «أعنى بالعلم الظن الذى يجوز بمثله ترك استعمال الماء والعدول إلى التيمم فإذا انتهى إلى هذا الحد لم يبعد أن يرخص فى ترك الحسبة».

وعن معنى عدم القدرة : حصول مفسدة أكبر من مفسدة المنكر القائم حتى ولو قدر زوال المنكر الأول لأن الله لا يحب الفساد ولا يصلح عمل المفسدين.

وقد حرم العلماء سب الأصنام عند من يُعلم من حاله أن يسب الله عدوا بغير علم فيكون الانسان قد تسبب بذلك فى شتم الله. قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[الأنعام:١٠٨] وكان من مع ابن تيمية يهمون أحيانا بالإنكار على التتار فى شربهم الخمر فكان ابن تيمية ينكر ذلك على أصحابه لأن الخمر تصد عن ذكر الله وعن الصلاة أما التتار فالخمر تصدهم عن قتل المسلمين وانتهاك حرماتهم.

الإصـــلاح بالوعـــظ أولا

أجمع العـلماء أن استـخدام القـوة لا يجوز ما دام الإصـلاح بالوعظ والنصح مأمولا. يقول ابن العـربى: «إن الله سبحانه أمر بالصلح قبل القتـال وعين القتال عند البغى»(أحكام القرآن ٢-٢٢٤).

ويقول القرطبى: «فالمنكر إذا أمكنت إزالته باللسان للناهى فليفعل وإن لم يمكنه إلا بالعقوبة أو القـتل فليفعل فإن زال بدون القتل لم يجـز القتل» (الجامع لأحكام القرآن ٤- ٤٩). ويقـول الجصاص: «أمـر الله بالدعاء إلى الحق قبل القـتال ثم إن أبت الرجوع قوتلت»(أحكام القرآن ٣-٤٩٣).

فالإصلاح بالوعظ أولا، فإن لم يفلح جهـده فعليه أن يصلح بالقوة ولا يجوز النوع الثاني ما لم يثبت من عدم تأثير الأول قال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾[الحجـرات: ٩] أى فإذا أبت إحـداهما الخضـوع للحق قوتلت لحـما ية المظلوم. فأمر الله تعالى بالسعى للإصلاح أولا ثم القتال.

هل يحق للعامة الإصلاح بالقوة؟

هل جوزت الشريعة استخدام القوة لكل من يقدر عليه أم هو قاصر على الحكام وأولى الأمر فحسب. يقول القرطبى: «قـال العلما ء: الأمر بالمعروف باليد على الأمراء وباللسان على العلما ء وبالقلب على الضـعفاء »يعنى عوام الناس» (الجامع لأحكام القرآن).

لكن ما ذكـره الإمام القـرطبى ليس على إطلاقه فقـد ذكر النووى فى شـرحه لصحيح مسلم: «جواز إنكار المنكر باليـد على من ارتكب مكروها» واستدل بقصة إنكار المنكر باليد على من ارتكب مكروها» واستدل بـقصة إنكار ابن عباس رضى الله عنهما على من كفت شعره داخل العمـا مة فسدله له ابن عباس وكان الرجل فى الصلاة.

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ،فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيما ن**»(رواه مسلم)، والأمر بالمعروف يشمل الواجب والمستحب وأعلاه الإيما ن بالله تعالى.

والنهى عن المنكر يشمل المكروه والحرام وأعلاه الكفر بالله تعالى. فالتغيير باليد وفق الضوابط الشرعية وإذا استلزم الأمر ذلك درجة عالية من درجات الإيمان، والجهاد فى سبيل الله هو ذورة سنام الأمر وهو أيضا داخل ضمن دائرة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

يقول ابن القيم: «لا ضمنا فى كسر أوانى الخمر وشق زقاقه»(الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية ٢٥٦). ويقول القاضى عياض: «حق المغير أن يغيره بكل وجه أمكنه زواله به قولا كان أو فعلا فيكسر آلات الباطل ويريق المسكر بنفسه أو يأمر من يفعله وينزع المغصوب ويرده إلى أصحابه بنفسه أو بأمره إذا أمكنه»(شرح صحيح مسلم ١-٥١) ويقول الكاسانى فى بدائع الصنائع ٧-١٧٦ : «لا يجب الضمان بإتلاف الخمر والخنزير على المسلم سواء كان المتلف مسلما أو ذميا لسقوط تقوم الخمر والخنزير فى حق المسلم ولو أتلف مسلم أو ذمى خمرا وخنزيرا لذمى يضمن عندنا خلافا للشافعى».

ويقول عبد القادر عودة فى التشريع الجنائى ٨٦: «إذا شوهد الجانى وهو يرتكب الجناية كان لأى شخص أن يمنعه بالقوة عن ارتكاب الجريمة وأن يستعمل القوة اللازمة لمنعه سواء كانت الجريمة اعتداء على حقوق الأفراد كالسرقة أو اعتداء على حقوق الجما عة كشرب الخمر والزنا وهذا ما يسمى بحق الدفاع الشرعى العام».

وفى التفريق بين الدفاع الشرعى الخاص والعام قال: «فمثلا إذا هجم رجل على امرأة يريد اغتصابها فإنه يدفع عنها باعتباره صائلا، فهنا دفاع شرعى خاص. وأما إذا اتاها برضاها ففعلهما يدفع باعتباره منكرا، فهنا دفاع شرعى عام، ومن يحاول قتل غيره يدفع باعتباره صائلا ويكون الدافع فى حالة دفاع شرعى خاص، أما من يحاول الإنتحار فيدفع فعله بإعتباره منكرا ويكون الدافع فى حالة نهى عن المنكر أو تغييره وبالجملة فإن إزالة كل عمل لا تقره الشريعة وأمكن دفعه تغيير منكر سواء كان دفاعا أم لا» ا.هـ.

وإنكار المنكر لا يحتاج إلى استئذان كما هو واضح من هذه الأقوال التى نقلناها.

شـروط استخـدام العـامـة للقـوة

(١) **أن يكون المنكر موجودا حالا**، وفى ذلك يقول الإمام الغـزالى: «المعصية لها ثلاثة أحوال، إحداها: أن تكون منصرمة فـالعقوبة على ما تصرم منها حد أو تعزير وهو إلى الولاة لا إلـى الآحاد، الثانيـة: أن تكون المعصيـة راهنة وصاحبـها مباشر لها كلبسه الحرير وإمساكـه العود والخمر فإبطال هذه المعصية واجب بكل ما يمكن ما لم تؤد إلى مـعصية أفحش منهـا أو مثلها وذلك يثبت للآحـاد وللرعية. الثالثـة: أن يكون المنكر متـوقعـا كالذى يستـعد بكنس المجلس وتزيينـه وجمع الرياحين لشرب الخمـر وبعد لم يحضر الخمر فهذا مـشكوك فيه إذ ربما يعوق منه عائق، فلا يثبت للآحاد سلطنة على العازم على الشرب إلا بطريق الوعظ والنصح فأما التعـنيف والضرب فلا يجوز للآحاد ولا للسلطان إلا إذا كانت تلـك المعصية علمت منه بالعـادة المستمـرة وقد أقدم على السـبب المؤدى إليها ولم يبق لحـصول المعصية إلا ما ليس فيه إلا الإنتظار» (الإحياء ٢-٢٨٤).

(٢) **أن يقتصر على الضرورة**. يقول الغزالى: «أن يقتصر فى طريق التغييرعلى القدر المحتاج إليـه. فإن غصب أحد أرضا وقدر على جره بيـده لإخراجه لم يجز للمغصوب منه أن يأخذ بلحيتـه فى الإخراج ولا برجله» وتجاوز القدر المحتاج إليه فى استخدام القوة جناية يؤخذ عليها الرجل شرعيا مثل أن يكسر الرجل آنية الخمر لإراقتها حيث كانت الإراقة متيسرة بلا كسر فيلزمه الضما ن. نعم إن لم يجد إليه سبـيلا إلا أن يكسرها فله ذلك وكـذلك من دخل عليه سـارق وعلم أنه لو صاح عليه يخـرج ويطرح متاعـه فقتله مع ذلك يوجب القـصاص ولكن إذا علم أنه لن يخرج فقتله فلا شئ عليه.

(٣)أن لا يفضى إلى فتنة ومفسدة:

قال ابن القيم رحمه الله: إنكار المنكر أربع درجات:

الأولى :أن يزول ويخلفه ضده.

الثانية: أن يقل وإن لم يزل بجملته.

الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله.

الرابعة: أن يخلفه ما هو شر منه.

فالدرجتان الأوليان مشروعتان والثالثة موضع اجتهاد والرابعة محرمة، ومن هذه القاعدة أخذ جمهور العلماء المنع من الخروج على أئمة الجور لحصول الفتنة وسفك دماء المسلمين مع كون الغالب فى مثل ذلك عدم حصول الظفرة ويتضاعف خوف الفتنة فى حالة استخدام القوة ضد الجماعة المرتكبة للمنكر.

يقول ابن العربى المالكى: «فإن لم يقدر إلا بمقاتلة وسلاح فليتركه وذلك إنما هو إلى السلطان لأن شهر السلاح بين الناس قد يكون مخرجا إلى الفتنة وآيلا إلى فساد أكثر من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» (أحكام القرآن ١-١٢٢).

قال النووى فى شرح مسلم: «قال إمام الحرمين رحمه الله : ويسوغ لآحاد الرعية أن يصد مرتكب الكبيرة إن لم يندفع عنها بقوله ما لم ينته الأمر إلى نصب قتال وشهر سلاح فإن انتهى الأمر إلى ذلك ربط الأمر بالسلطان، قال وإذا جار والى الوقت وظهر ظلمه وغشمه ولم ينزجر حين زجر عن سوء صنيعه بالقول فلأهل الحل والعقد التواطؤ على خلعه ولو بشهر الأسلحة ونصب الحروب» هذا كلام إمام الحرمين .

وهذا الذى ذكره من خلعه غريب ومع هذا فهو محمول على ما إذا لم يخف منه إثارة مفسدة أعظم منه. وقال ابن حزم بعد أن رجح وجوب الإنكار على الأمراء ولو بالقتال: «وإن كانوا فى عدد لا يرجون لقلتهم وضعفهم الظفر كانوا فى سعة من ترك التغيير باليد» ا.هـ.

وقد ذهب جماهير أهل السنة إلى ترك الخروج على الأئمة وهو فى الصحيح ومنها حديث عبادة مرفوعا وفيه: **«وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان»** وكذلك ما ترتب من الفتن وسفك الدماء وانتهاك الحرمات فى خروج من خرج على خلفاء بنى أمية مع عدم الظفر فى هذه الوقائع غالبا. وإذا كان جواز شهر السلاح للأفراد أنفسهم للأمر بالمعروف موضعا للخلاف فكيف يجوز للجماعات ذلك وخصوصا مع تيقن حصول المفسدة والفتنة.

ويبقى أن نقول أن جواز استخدام الجماعة للقوة يشترط فيه:

١- إن لم يمكنها رفع الأمر للحكومة.

٢- ولم تخف حدوث فتنة واضطراب أحوال.

٣- وخافت حدوث منكر أكبر منه.

كأن تهجم طائفة من قطاع الطريق على قرية فيجب على أهلها جميعا أن يقاوموهم ويخرجوهم عنها، بل يجوز لهم أن يقتلوهم إذا دعت الضرورة .

التاسعة عشرة : إجابة الغلام ونصرته عندما قال: اللهم اكفينيهم بما شئت

أنعم الله على الغلام بنعم كثيرة، ومنها إكرامه بإجابة دعائه، ونصرته له، فما من مرة قال فيها: اللهم اكفينيهم بما شئت، إلا وكفاه سبحانه ووقاه شر أعدائه، فقد ورد في الحديث: «أن الملك لما قال للغلام: ارجع عن دينك، فأبى، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا، وقال: إذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه وإلا فدهدهوه، فذهبوا به فلما علوا به الجبل، قال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعين، وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى، فبعث به نفراً إلى البحر في قرقور، فقال: إذا لججتم به البحر، فإن رجع عن دينه، وإلا فأغرقوه، فقال الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت فغرقوا هم وجاء الغلام حتى دخل على الملك».

من توكل على الله كفاه قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾[الزمر: ٣٦] وهذا شبيه بالكلمة التي قالها إبراهيم عليه السلام عندما قذفوه في النار، قيل: إن جبريل جاءه فقال: ألك حاجة، فقال إبراهيم -عليه السلام- أما لك فلا وأما إلى الله فحسبي الله ونعم الوكيل، فكانت النار برداً وسلاماً عليه، وهي الكلمة التي قالها النبي ﷺ والمسلمون يوم حمراء الأسد، صبيحة يوم أحد، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾[آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

إن القلوب إذا تعلقت بالله صنع بها سبحانه الأعاجيب، وخرق لها النواميس، فمن الذى دعاه ولم يجبه، ومن الذى سأله ولم يعطه ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[النمل: ٦٢] .

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[البقرة: ١٨٦] وقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر: ٦٠].

وفى الحديث: «إن الله حيىٌ كريم يستحى إذا رفع الرجل يديه أن يردهما صفراً خائبتين»(١) وقال: «لا تعجزوا فى الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد»(٢) ولأبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له فى الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها»(٣) لقد عجل الله إجابة دعاء الغلام على حداثة سنه، وهذا كثير فى حياة الأنبياء والصالحين، ومما يعين على إجابة الدعاء الاستقامة، وأن يعظم العبد الرغبة فى ربه عز وجل، وأن يجزم بالدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاءه فيه، ويلح على الله بالطلب، ولا يعجل ولا يقول: دعوت ولم يستجيب لى، وأن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة، ويطيب مطعمه ومشربه وملبسه، ويفتتح الدعاء بحمد الله والثناء عليه بأسمائه وصفاته ثم يصلى على النبى ﷺ وأن يدعوا مستقبلاً القبلة ويرفع يديه، ولا يدعو بإثم ولا قطيعة رحم، وأفضل الدعاء بالوارد المأثور ثم بمعناه.

---

(١) رواه أبو داود وابن حبان والترمذي وقال: حسن غريب والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه ابن حبان والحاكم وقال الذهبي: صحيح.

(٣) رواه الترمذي والحاكم وقال الذهبي: صحيح.

العشرون: التضحية بالنفس في سبيل نشر الدعوة

قال الغـلام للملك: إنك لست بقاتلى حتى تفـعل ما آمرك به، قـال: ما هو؟ قال: تجـمع الناس فى صعـيد واحـد، ثم تصلبنى على جذع وتأخـذ سهـماً من كنانتى، ثم قل: بسم الله رب الغلام، فإنك إن فعلت ذلك قتلتنى ففعل، ووضع السـهم فى قوسـه ورماه به فى صـدغه، فـوضع الغـلام يده على موضع السـهم ومات، فقـال الناس: آمنا برب الغلام، فقيل للملك: أرأيت ما كنت تحـذر، فقد والله وقع بك، قد آمن الناس كلهم.

«لقد كان الغلام صاحب دعوة، يريد إيصال الحق للخلق، حتى وإن كلفه ذلك نفسه فلا بأس ببـذلها رخيصة فى سبيل الله، فـالنفس إلى موت والمال إلى فوت» ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[آل عمـران: ١٨٥] وقد حثك سـبحانه على بيع نفسك له، ووعـدك على ذلك الجنة، على الرغم من أنه مالك النفوس جمـيعاً فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[التوبة: ١١١] ومن طالع سير الأنبياء والمرسلين لوجد أعظم صور التضحية بالنفس فى سبيل نشر الدعوة، وعلى طريقـتهم سار الأفاضل كصاحب يس الذى شاهد مصرع المرسلين ولـم يمنعه ذلك من أن يأتى على النحو الذى ذكره سبحانه ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾[يس: ٢٠-٢٥]. فأخذوه فـقتلوه، فنصحهم مـيتا كمـا نصحهم حيا، وقال: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾[يس: ٢٧]

وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا ذر لما دخل على رسول الله ﷺ وأسلم، قال له النبي ﷺ: «**ارجع إلى قومك حتى يأتيك أمرى**»، فقال: والذى نفسى بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وثار القوم فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباس فأكب عليه فقال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار وأن طريق تجارتكم إلى الشام؟ (يعنى عليهم)، فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها وثاروا إليه فضربوه فأكب عليه العباس فأنقذه»[1] ومن ذلك ما فعله ابن مسعود رضي الله عنه لما أسلم، وخرج يقرأ على المشركين آيات الله فاجتمعوا عليه يضربونه ويؤذونه حتى كاد يهلك، وقال أنس بن مالك: ركب البراء فرساً يوم اليمامة ثم قال: «أيها الناس إنها والله الجنة وما لى إلى المدينة سبيل فمصع فرسه مصعات ثم كبس (شد وهجم) وكبس الناس معه، فهزم الله المشركين فكانت فى مدينتهم ثلمة.

وعن محمد بن سيرين أن المسلمين انتهوا إلى حائط قد أغلق بابه فيه رجال من المشركين، فجلس البراء بن مالك على تُرس وقال: ارفعونى برماحكم فألقونى إليهم، ففعلوا، فأدركوه وقتل منهم عشرة، واستوى البراء يوماً جالساً وقال لأخيه: أترانى أموت على فراشى وقد قتلت مائة من المشركين مبارزة سوى من شاركت فى قتله. وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**كم من ضعيف متضعف ذى طمرين لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك**»[2] وإن البراء لقى زحفاً من المشركين وقد أوجع المشركون فى المسلمين فقالوا له: يا براء إن رسول الله ﷺ قال: إنك لو أقسمت على الله لأبرك فأقسم على الله فقال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم فمنحوا أكتافهم ثم التقوا على قنطرة السوسن فأوجعوا فى المسلمين فقالوا: أقسم يا براء على ربك. فقال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وألحقتنى بنبيك ﷺ، فمنحوا أكتافهم وقتل البراء شهيداً .

لقد بلغ من غباوة الملك أن استجاب للغلام وجمع الناس فى صعيد، فظهر الحق على أعين الملأ وقال الناس: آمنا بالله رب الغلام، وشبيه بهذا ما قاله نبى الله موسى -عليه السلام- لفرعون: ﴿**قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاس**

(١، ٢) رواه البخاري ومسلم.

ضُحًى﴾[طه: ٥٩] فجمع فرعون الناس وجاء السحرة فى يوم العيد، وظهرت حجة نبى الله موسى واضحة فنطق السحرة فقالوا: آمنا برب العالمين رب موسى وهارون. فتهددهم فرعون وتوعدهم بتقطيع الأيدى والأرجل من خلاف والتصليب فى جذوع النخل، فقالوا له: ﴿**فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**﴾[طه: ٧٢] إن الحياة لا تصلح عوضاً عن معنى من معانى الآخرة، فاحرص على الموت توهب لك الحياة.

الحادية والعشرون: الأرض تمتنع عن أكل جسد الغلام لأنها مأمورة

الأرض مأمورة والكون من حولنا مأمور قال تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾[الأحزاب: ٧٢] وقال: ﴿**لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾[يس: ٤٠].

وفى صحيح مسلم حديث الرجل الذى سمع صوتاً فى سحابة يقول: «**اسق حديقة فلان**» لرجل صالح كان يعمل فيها بطاعة الله، ولما بركت القصواء -ناقة رسول الله ﷺ- عام الحديبية وقالوا: «**خلأت القصواء**» قال النبى ﷺ: «**ما خلأت القصواء، وما هو لها بخلق إنما حبسها حابس الفيل عن مكة**»، وقد صحت الأخبار، أن الساعة لن تقوم حتى تكثر الزلازل، وطلوع الشمس من مغربها فى آخر الزمان، وخروج دابة على الناس ضحى تكلمهم، ويكلم الرجل عذبة سوطه، وانحسار الفرات عن جبل من ذهب... وكل ذلك يحدث بأمره سبحانه ووفق إذنه جل وعلا، وقد ورد أن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، وقد أبقى جسد الغلام حتى زمن عمر رضي الله عنه وهذا من إكرام الله لأوليائه .

الثانية والعشرون: إثبات دلالة القدرة على البعث

وجود الغلام على حالته التى مات عليها، وذلك بعد مئات السنين دليل من أدلة القدرة على البعث، وهى كثيرة فمنها إخبار العليم الخبير بوقوع القيامة قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾[طه: ١٥] ومنها الاستدلال على النشأة الأخرى بالنشأة الأولى قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾[مريم: ٦٦] ومنها أن القادر على خلق الأعظم قادر على خلق ما دونه قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾[يس: ٨١] ومنها قدرته تبارك وتعالى على تحويل الخلق من حال إلى حال قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[البقرة: ٢٨] ومنها إحياء الأرض بالنبات قال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[الروم: ٥٠] وقد اقتضت حكمته سبحانه بعث العباد للجزاء والحساب.

لقد ورد فى الخبر أنهم كلما أزاحوا اليد انبثق الدم من جرحه فإذا تركوه عادت اليد إلى مكانها، وهذه صورة من صور الحياة، وقد شاهد بعض البشر فى فترات مختلفة من التاريخ عودة الحياة إلى الجثث الهامدة والعظام البالية، بل شاهدوا الحياة تدب فى بعض الجماد، وقد حدثنا الله تبارك وتعالى عن شئ من هذه المعجزات الباهرة قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾[البقرة: ٢٤٣] وقال: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ٧٣] وقال: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة: ٢٥٩] وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ

فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦٠] وقال تعالى عن نبيه موسى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾[الأعراف: ١٠٧] وقال عن نبيه عيسى: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[آل عمران: ٤٩] وقال عن أصحاب الكهف: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾[الكهف: ٢٥].

الثالثة والعشرون: لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[آل عمران: ١٦٩].

قيل الآية فى شهداء أحد أو شهداء بئر معونة، ولعل الأشبه بالصحة أنها عامة فى جميع الشهداء .

قال القرطبى فى تفسيره: وفى مصنف أبى داود بإسناد صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : **«لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى جوف طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء فى الجنة نرزق لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلوا عند الحرب فقال الله سبحانه أنا أبلغهم عنكم قال: فأنزل الله ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾**[آل عمران: ١٦٩] إلى آخر الآيات .

وروى بقى بن مخلد عن جابر قال: لقينى رسول الله ﷺ فقال: **«يا جابر مالى أراك منكساً مهتماً»**؟ قلت: يا رسول الله، استشهد أبى وترك عيالاً وعليه دين، فقال: **«ألا أبشرك بما لقى الله عز وجل به أباك»**؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: **«إن الله أحيا أباك وكلمه كفاحاً[1] وما كلم أحداً قط إلا من وراء حجاب فقال له: يا عبدى تمن أعطك. قال: يا رب فردنى إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية. فقال**

---

(١) كفاحاً (بكسر الكاف) أي مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول .

الرب تبارك وتعالى: إنه قد سبق منى أنهم (إليها)[1] لا يرجعون قال يا رب: فأبلغ من ورائى فأنزل الله عز وجل ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[آل عمران: ١٦٩] الآية . أخرجه ابن ماجة في سننه، والترمذى فى جامعه وقال: هذا حديث حسن غريب.

وروى وكيع عن سالم بن الأفطس عن سعيد ابن جبير **﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ﴾**[آل عمران: ١٦٩] لما أصيب حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير ورأوا ما رزقوا من الخير قالوا: ليت إخواننا يعلمون ما أصابنا من الخير كي يزدادوا فى الجهاد رغبة، فقال الله تعالى أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى: **﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾** إلى قوله: **﴿لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾**[آل عمران: ١٧١] وقال أبو الضحى : نزلت هذه الآية فى أهل أحد خاصة. والحديث الأول يقتضى صحة هذا القول. وقال بعضهم: نزلت فى شهداء بدر وكانوا أربعة عشر رجلاً، ثمانية من الأنصار، وستة من المهاجرين. وقيل: نزلت فى شهداء بئر معونة، وقصتهم مشهورة ذكرها محمد بن إسحاق وغيره[2] وقال آخرون: إن أولياء الشهداء كانوا إذا أصابتهم نعمة وسرور تحسروا وقالوا: نحن فى النعمة والسرور، وآباؤنا وأبناؤنا وإخواننا فى القبور. فأنزل الله تعالى هذه الآية تنفيساً عنهم وإخباراً عن حال قتلاهم .

قلت (أى القرطبى): وبالجملة وإن كان يحتمل أن يكون النزول بسبب المجموع فقد أخبر الله تعالى فيها عن الشهداء أنهم أحياء فى الجنة يرزقون، ولا محالة أنهم ماتوا وأن أجسادهم فى التراب، وأرواحهم حية كأرواح سائر المؤمنين، وفضلوا بالرزق فى الجنة من وقت القتل حتى كأن حياة الدنيا دائمة لهم .

وقد اختلف العلماء فى هذا المعنى. فالذى عليه المعظم ما ذكرناه وأن حياة الشهداء محققة. ثم منهم من يقول: ترد إليهم الأرواح فى قبورهم فينعمون، كما يحيا الكفار فى قبورهم فيعذبون. وقال مجاهد: يرزقون من ثمر الجنة، أى يجدون ريحها وليسوا فيها. وصار قوم إلى أن هذا مجاز[3] والمعنى أنهم فى حكم

---

(١) زيادة عن سنن الترمذي وابن ماجه.

(٢) راجع سيرة ابن هشام ص٦٤٨ طبع أوروبا.

(٣) وهذا خطأ من قائله، والصحيح هو القول بمنع وقوع المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز.

الله مستحقون للتنعم فى الجنة، وهو كما يقال: ما مات فلان، أى ذكره حى، كما قيل:

موت ألتقي حياة لا فناء لها قد مات قوم وهم في الناس أحياء

فالمعنى أنهم يرزقون الثناء الجميل وقال آخرون: أرواحهم فى أجواف طير خُضر وأنهم يرزقون فى الجنة ويأكلون ويتنعمون .

قال القرطبى: وهذا هو الصحيح من الأقوال، لأن ما صح به النقل فهو الواقع، وحديث ابن عباس نصٌ يرفع الخلاف وكذلك حديث ابن مسعود أخرجه مسلم. أ.هـ

وحياة الأنبياء فى قبورهم أتم من حياة الشهداء، وهى حياة برزخية لاتقاس على حياتنا الدنيوية، وهكذا تمتد الحياة زماناً ومكاناً بالنسبة للمؤمنين، زماناً لأبد الآبدين، ومكاناً لجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قبل بشر.

الرابعة والعشرون: عظيم ثواب القتل في سبيل الله

قال القرطبى : هذه الآيه : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[آل عمران: ١٦٩-١٧٠] تدل على عظيم ثواب القتل فى سبيل الله والشهادة فيه حتى أنه يكفر الذنوب، كما قالﷺ: **«القتل فى سبيل الله يكفر كل شئ إلا الدين كذلك قال لى جبريل عليه السلام آنفاً»**. قال علماؤنا: وذكر الدين تنبيه على ما فى معناه من الحقوق المتعلقة بالذمة، كالغصب وأخذ المال بالباطل وقتل العمد وجراحه وغير ذلك من التبعات، فإن كل هذا أولى ألا يغفر بالجهاد من الدين فإنه أشد، والقصاص فى هذا كله بالحسنات والسيئات حسبما وردت به السنة الثابتة.

روى عبد الله بن أنيس قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: **«يحشر الله العباد أو قال الناس، (شك همام)[1]، وأومأ بيده إلى الشام عراة غرلا[2] بهما»**. قلنا: ما

(١) هو همام بن يحيي، أحد رجال سند هذا الحديث.

(٢) الفرل (بضم فسكون): جمع الأغرل، وهو الأقلف.

بهم؟ قال: «**ليس معهم شئ فيناديهم بصوت يسمعه من قرب ومن بعد: أنا الملك أنا الديان لا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة ولا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتى اللطمة**»، قال قلنا: كيف وإنا نأتى الله حفاة عراة غرلاً؟. قال: «**بالحسنات والسيئات**» أخرجه الحارث بن أبى أسامة.

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون ما المفلس**». قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «**إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار**» وقال ﷺ: «**والذى نفسى بيده لو أن رجلاً قتل فى سبيل الله ثم أحى ثم قتل ثم أحى ثم قتل وعليه دين ما دخل الجنة حتى يقضى عنه**».

وروى أبو هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**نفس المؤمن معلقة ما كان عليه دين**» وقال أحمد بن زهير: سئل يحيى بن معين عن هذا الحديث فقال: هو صحيح. فإن قيل: فهذا يدل على أن بعض الشهداء لا يدخلون الجنة من حين القتل، ولا تكون أرواحهم فى جوف طير كما ذكرتم، ولا يكونون فى قبورهم، فأين يكونون؟ قلنا: قد ورد عن النبى ﷺ أنه قال: «**أرواح الشهداء على نهر بباب الجنة يقال له: بارق يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا**» فلعلهم هؤلاء. والله أعلم. ولهذا قال الإمام أبو محمد بن عطية: وهؤلاء طبقات وأحوال مختلفة يجمعها أنهم «يرزقون».

روى الترمذى عن المقداد بن معد يكرب قال: قال رسول الله ﷺ: «**للشهيد عند الله ست خصال (كذا فى الترمذى وابن ماجة «ست») يغفر له فى أول دفعة ويرى مقعده من الجنة ويُجار من عذاب القبر ويأمن من الفزع الأكبر ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها ويُزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحُور العين ويُشفع فى سبعين من أقاربه**». قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح غريب.

الخامسة والعشرون: نطق الصبر الرضيع بالحق آية الصبى بينة

نطق عيسى -عليه السلام- في المهد وقال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[مري: ٣٢] وكانت أمه مريم قد أتت به قومها تحمله بعد وضعه، فقيل لها: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[مريم: ٢٧] فكان نطقه -عليه السلام- آية دالة على عظيم قدرة الله فى خلقه وتأييداً لأمه وبياناً لدعوته، ولم يكن عيسى -عليه السلام- هو الوحيد الذى نطق فى المهد، فقد نطق ابن ماشطة امرأة فرعون، والشاهد المذكور فى قصة يوسف -عليه السلام- وبابوس صاحب جريح الذى قال: إن راعى الغنم هو الذى زنى بأمه وبرأ جريج من التهمة... وكذلك نطق هذا الغلام المذكور فى قصة أصحاب الأخدود، فقد ورد فى الحديث أن الطاغية لما آمن الناس كلهم، أمر بأفواه السكك فخدت فيها الأخاديد وأضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقحموه فيها فكانوا يتعادون ويتدافعون فجاءت امرأة بابن لها ترضعه فكأنها تقاعست أن تقع فى النار، فقال الصبى: اصبرى يا أماه فإنك على الحق وهذه آية بينة، فيها تثبيت لهذه المرأة المؤمنة، وتسلية للقلوب فى مواجهتها للفتنة والمحنة، وقد سمعنا منذ أيام بقصة الغلام التنزانى الذى تناقلته وسائل الإعلام عن وكالة الأنباء الفرنسية، هذا الغلام يخطب الخطب البليغة وهو فى الرابعة من عمره، وقد نطق وعمره ستة أشهر، ويحفظ القرآن كله فى هذا العمر الصغير، وهذا إن ثبت وحدث، فلا يبعد على عظيم قدرة الله فى خلقه فقد تنخرق النواميس، ولتكون آية للمؤمنين فى وقت غربة .

وفى كل شئ له آية ... تدل على أنه الواحد

قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[فصلت: ٥٣] .

السادسة والعشرون: وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون

القصص القرآنى كله حق وصدق ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[الإسراء: ١٠٥] وقد قص سبحانه علينا القصص موعظة وذكرى لأولى الألباب قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾[آل عمران: ٦٢] وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[يوسف: ١١١] وقال: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[هود: ١٢٠] وهذا القصص ينتفع به الكبير والصغير والرجل والمرأة والعالم والجاهل، وقد أمر رسول الله ﷺ أن يبلغ وحى ربه وأن يقص على الخلق آيات ربه ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الأعراف: ١٧٦] وكان من جملة ذلك قصة أصحاب الأخدود، وذلك لما فيها من عظات وعبر، حيث حدثوا بها تخويفاً من عواقب أفعالهم بضعفة المؤمنين، وقد بين سبحانه حال أصحاب الأخدود فى تأذى المؤمنين بالكفار ودأبهم فى ذلك كدأب من قبلهم، وإنما خص فرعون وثمود، لأن ثمود فى بلاد العرب وقصتهم عندهم مشهورة وإن كانوا من المتقدمين، وأمر فرعون كان مشهوراً عند أهل الكتاب وغيرهم، وكان من المتأخرين فى الهلاك فدل بهما على أمثالهما فى الهلاك ورغم رؤية قريش لهذه الآيات والنذر ورغم سماعهم لهذه القصص ومرورهم بآثار هؤلاء الهلكى إلا أنهم استمروا على كفرهم وتكذيبهم وإيذائهم للمؤمنين ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾[يونس: ١٠١] ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾[الأعراف: ١٤٦] وقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[الأعراف: ١٧٩] وقال: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[الحج: ٤٦] وقال: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الملك: ٢٢] وهذه الآيات البينات تحكى لك بوضوح كيف يطالع البعض دلائل القدرة فى صفحات الكتاب المقروء والكون المشهود، ثم يستمر على غيه وضلاله وتكذيبه وعناده، وشأن الصرب فى فعلهم بمسلمى البوسنة وكوسوفو، والروس بمسلمى الشيشان، والأتراك فى إلغاء جنسية المرأة المسلمة المحجبة . . . يتشابه كثيراً مع إيذاء قريش

لرسول الله ﷺ وصحابته الكرام ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[البروج:٨] إن هؤلاء الكفار هنا وهناك، قديماً وحديثاً، لم ينتفعوا بدرس ولا بوعظ وتذكير، ورغم وضوح الحق وظهور الآيات، فقد تشابهت قلوبهم فى العمى والغلظة والقسوة والصد عن سبيل الله، يفعلون ذلك، وهم فى قبضته سبحانه وهو القادر على إهلاكهم ومعاجلتهم بالعذاب على تكذيبهم ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾[البروج: ٢٠] ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[النحل: ١٢٧].

✪✪✪✪✪

الخـــاتمـــة

المذابح الجماعيـة وحروب الإبادة تتم على قدم وساق للمسلميـن فى كوسوفو على أيدى الصرب الـغاشمـين، ويواجه الأطفـال والنساء ظروفا صـعبـة فقد قـضوا عـيد الأضحى يعـانون البرد الشديد والمجاعـات وانتشار الأوبئة، أثناء فـرارهم وترحيلهم، حتى وصفت واشنطن ودول أوربا هذه الحرب وتلك المذابح التى تجرى للمسلمين بأنها لم تحدث منذ عهود طويلة.

وما أشبـه ما يحدث اليـوم هنا وهناك بما حدث بالأمس للغلام وأصـحاب الأخدود على أيدى الطغاة والطواغيت ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[البقـرة:١١٨] والأمر إذا بعث على الحزن والأسى من جهه إلا أنه يبعث على الإيمان واليقين، عندما نشاهد الآيات البينات تحكى لنا الواقع ﴿وَقَـالَ الَّذِينَ كَـفَـرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْـرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَـعُـودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾[إبراهيم:١٣] ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[النمل:٥٦] فلا يسلم من هذا البلاء وهذه الفتنة حتى الأطفال والعجائز، وكلنا يقين أن ما يصيب المؤمن فى هذه الدار من إدالة عدوه عليه، وغلبتـه له، وأذاه له فى بعض الأحيان : أمر لازم، لا بد منه، وهو كالحر الشديد، والأمـراض والهموم والغموم، فهذا أمـر لازم للطبيعة والنشـأة الإنسانيه فـى هذه الدار، حتى الأطفـال والبهـائم، لما اقتضـته حكمـة أحكم الحاكمين، فلو تجرد الخير فى هذا العالم عن الشر، والنفع عن الضر واللذة عن الألم، لكان ذلك عالما غيـر هذا، ونشأة أخرى غيـر هذه النشأه كما يقول ابـن القيم، وكانت تفوت الحكمة التى مزج لأجلها بين الخـير والشر، والألم واللذه، والنافع والضار، وإنما يكون تخليص هذا من هذا، وتمييزه فى دار أخرى غير هذه الدار، كما قال الله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[الأنفال:٣٧] وابتـلاء المؤمنين بغلبة عـدوهم لهم، وقهرهم، وكسرهم لهم أحيانا لا يخلو من حكمـة عظيمة لا يعلمها على التفصيل إلا الله عزوجل، قـال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[محمد:٣١] وقال: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَـدْ فَـتَنَّا الَّذِينَ مِن قَـبْلِهِمْ فَلَيَـعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَـدَقُـوا وَلَيَـعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[العنكبوت:١] وقال: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم

بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[محمد: ٤] أى هو القادر سبحانه على أهلاكهم بغير قتال، قال ابن عباس: لأهلكهم بجند من الملائكة، وقد أمركم بالحرب ليبلو ويختبر بعضكم ببعض فيعلم المجاهدين والصابرين. قال قتادة : ذكر لنا أن هذه الآيه نزلت يوم أحد ورسول الله ﷺ فى الشعب، وقد فشت فيهم الجراحات والقتل، وقد نادى المشركين: اعل هبل. ونادى المسلمين: الله أعلى وأجل، وقال المشركون : يوم بيوم بدر والحرب سجال، وقال النبى ﷺ : «**قولوا لا سواء .قتلانا أحياء عند ربهم يرزقون وقتلاكم فى النار يعذبون** » فقال المشركون :إنا لنا العزى ولا عزى لكم . فقال المسلمون : الله مولانا ولا مولى لكم.

إن ما يصيب المؤمنين من الشرور والمحن والأذى دون ما يصيب الكفار والواقع شاهد بذلك وكذلك ما يصيب الأبرار فى هذه الدنيا دون ما يصيب الفجار والفساق والظلمة بكثير. قال تعالى: ﴿ **وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾[النساء: ١٠٤] فأشتركوا فى الألم، وامتاز المؤمنون برجاء الأجر والزلفى من الله تعالى.

قد تنتهى مأساة المسلمين فى كوسوفو بإبادتهم، كما مات الغلام والراهب والأعمى وأصحاب الأخدود، ولكنهم سيظلون قصة تحكى لكل من جاء بعدهم، كيف يكون الثبات على الحق والاعتزاز بالإسلام والبذل فى سبيله، حتى وإن كانوا حدثاء العهد بمعرفة الإسلام كما كان الأمر بالنسبة لأصحاب الأخدود، إنها قصة الصراع بين الحق والباطل، والإيمان والكفر توضح طبيعة الطريق والصعاب التى يلاقيها السائرون فى طريق الله سواء كانوا كبارا أو صغارا، رجالا أو نساءا، لقد خلد سبحانه ذكرى أصحاب الأخدود وصاروا مثلاً يضرب للأجيال، فكان المسلمون من أهل كوسوفو وغيرها على الدرب يسيرون، ولن تخلو الأرض من قائم لله بحجة، وهؤلاء ومن كان على شاكلتهم يتحقق فيهم وعد الله: ﴿**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾[الروم: ٤٧] فهم المنصورون وإن حُرقوا وأبيدوا لثباتهم على الإسلام وعدم إذعانهم لقوى الكفر والباطل، فالله لا يضيع أجر المحسنين، وقد جعل العاقبة للمتقين، وهو سبحانه لا يصلح عمل المفسدين وبين أن النصر عقبى الصابرين.

عزاؤنا أن الموت نهاية كل حى، وأن من لم يمت بالسيف مات بغيره، فالنفس إلى موت والمال الى فوت ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[آل عمران: ١٨٥] وقال سبحانه: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[النساء: ٧٨] وقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[الأعراف: ٣٤] والإنسان يعانى سكرات النزاع أشد من معاناته من تقطيع السكاكين بينما يخفف ذلك عن الشهيد، والله أعلم بمن يموت فى سبيله، فلا يجد من ألم الموت إلا كما يجد أحدكم من القرصة، وكفى ببارقة السيف على رقبته فتنة، هنيئا لكل من مات فى سبيل الله لإعلاء راية لا إله إلا الله، وهنيئا للشهداء هذا الفضل وهذا الأجر، فللشهيد عند الله ست خصال، يغفر له فى أول دفعة من دمه ويجار من عذاب القبر، ويأمن الفزع الأكبر ويحلى حلية الإيمان، ويزوج من الحور العين ويشفع فى سبعين انسانا من أقاربه، وأرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تسرح من الجنه حيث شاءت ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[آل عمران: ١٧٠] إن الموت فى طاعة الله خير من الحياة فى معصيته.

عزاؤنا أن المشهد الأخير لن يقع على ظهر هذه الأرض فى الحياة الدنيا، فالمرجع والمآب الى الله، وغدا عند ربك تجتمع الخصوم، يجتمع الظالم والمظلوم، والحاكم والمحكوم، ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾[التكوير: ٩] ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾[الأنبياء: ٤٧] أنه يوم عظيم لا تدليس فيه ولا كذب، يرجع فيه الناس حفاة عراة ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٤] ويحشرون علي أرض عفراء كقرصة النقي لا معلم فيها لأحد، لا جبال فيها ولا وهاد، حيث يقتص سبحانه للشاة الجماء من الشاة القرناء ثم يقول لها: كونى ترابا فيومئذ يتمنى الكافر أن لو كان ترابا، يوم يقول فيه عزوجل: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾[الفرقان: ٢٨] ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ

وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[الحج: ٢] إن للظالم قاتلا لا يموت، ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾[الإسراء: ٣٣]، فإذا كان الصراع والتدافع لا يبقى ولا يذر مع الكبار والصغار، ومع الأنبياء وأتباعهم، فسيبقى ما يقرره القرآن هو القول الفصل والمرجع الأخير ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾.

إن الألم الذى يصيب أهل كوسوفو وغيرهم من المسلمين شبيه بألم المخاض الذى يعقبه الولادة والفرح ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[الطلاق: ٧] ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾[يوسف: ١١٠] وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا، فلا يأس ولا قنوط من رحمة الله ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[يوسف: ٨٧] ولا تزال طائفه من الأمة ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم أوخذلهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك.

لا نستبعد أن يظهر فينا أمثال هارون الرشيد فى مخاطبته لنقفور ملك الروم وهو يقول له: أما بعد: فمن هارون الرشيد الى نقفور كلب الروم فإن الأمر ما ترى لا ما تسمع، وكأمثال صلاح الدين الأيوبى وهو يقول لوزيره ابن شداد: أما أسر لك حديثا، إنى أتمنى إن فتح الله علىّ بيت المقدس أن أركب البحر، أقاتل فى سبيل الله كل من كفر بالله حتى يظهرنى الله أو أموت، لا نستبعد عودة الروح إلى الكبار والصغار والرجال والنساء، وأن يتجدد فينا ما حكاه ابن الجوزى، أن أبا قدامة الشامى قام خطيبا فى الناس عندما داهم الروم الشام فرغبهم فى الآخرة وزهدهم فى الدنيا وذكرهم بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[التوبة: ٣٨] وارتجت جنبات المسجد بكلمات أبى قدامة، فلما نزل اعترضته امرأة فنادت عليه، فلم يجبها خوفا على نفسه من الفتنة، فكررت القول ثلاثا، فلم يلتفت فقالت له : ماهذا بخلق الصالحين؟! فانتبه، فقالت له : يا ابا قدامة سمعتك تذكر الناس بالجهاد فى سبيل الله ولا أملك غير هاتين الضفيرتين، خذهما، اصنع منهما لجاما تشد به فرسك، تجاهد به فى سبيل الله، فبكى أبو قدامة لحرص المرأة على البذل فى سبيل الله، وما كاد ينصرف حتى اعترضه غلام يناشده بالله أن يحمله معه لقتال الروم، وتحت إلحاحه وافق أبو قدامة واشترط على الغلام إن قتل فى سبيل الله أن يشفع

له عند الله، فـوافـق الغـلام ثم ناشـده بالله أن يدفع له ثلاثـة أسـهم يرمى بهـا الروم فاستنكف أبو قدامـة ثانية والأسهم سلعة غالية، والغلام قد لا يحـسن استخدامه ولكن تحت إلحاحه ومناشـدته دفعها له وكرر الشـرط ثانية، فأخذ الغلام سـهما ورمى به وهو يقول بسم الله سلام عليك أبا قدامة فقتل به روميا، ثم أخذ الثانى ورمى به روميا فقتله، ثم رمى بالثالث فـأصاب به روميـا ولكن اختلف فـيه سهم، فـوقع وقبل أن يصل الى الأرض لحقه أبو قدامة يذكره بالشرط، ثم دفع الغـلام جرابا كان معه وقال لأبى قدامة: أعطه لأمى . فقـال : ومن أمك؟ قال : صاحبـة الضفيرتين. وحـاولوا دفن الغلام فلم تقبله الأرض فتركوه حتى نزل الطير يأكل لحمه ويترك عظمه، فأخذوا العظام فدفنوها .

ثم ذهب أبو قدامة إلى منزل الصغير، فخرجت أخته تسأل أبو قدامة أمهئنا جئت أم معزيا، قال: بل مهنئا، فحمدت الله، وكـانت قد فقدت أباها وأخاها الأكبر قبل ذلك ثم خرجت الأم تسأل :أمهئـنا جئت أم معزيا، فقال أبو قدامه بل مهـنئا، فحمدت الله ثم أخرج لها أبو قدامة الجراب، وحكى لهـا ما حدث عند دفن الغلام، فأخرجت الأم من الجراب حبـلا، كان الغلام إذا قام الليل وفتـر تعلق بالحبل يدعو ربه أن يبعـثه حين يبعثه من حواصل الطير، فاستجاب الله دعاء الصغير، فلم تقبله الأرض حين قتل حتى نزلت الطير فـأكلت لحمـه وتركت عظمه فدفنوه. وهى ذريـة بعضهـا من بعض، وما حدث من إكرام الله لأوليائه حتى وإن كانوا صغارا، فالغلام الذى ذكره أبن الجوزى كان مجاب الـدعوة، كما كان الـغلام المذكور فى قصـة أصحاب الأخدود مجـاب الدعوة وكلاهما حريصا على بذل نفسه فى سبيل الله :

إن لـــــله عبـــاداً فطنـــاً طلقـوا الدنيـا وخافـوا الفتنـــا
نظـــروا فيها فلمـا علمـــوا إنهمـا ليســت لحـي وطنـــاً
جعلوهـــا لجـــة واتخـــذوا صـالـــح الأعمـال فيهـا سفنـــاً

لا نستبعـد ظهور من يجدد لهذه الأمة شبابهـا ويستعيد لها مـجدها ويحسن التأسى بالسلف الصـالح، إن الإسلام قـادم بإذن الله .وستـفتح روميـة (روما) كـما فُـتحت القسطنطينية، وإن غدا لناظره قريب،

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[الفتح :٢٨].

اللهم قاتل الكفرة الذين يصدون عن سبيلك ويكذبون رسلك ويقاتلون أوليائك ولا يؤمنون بوعدك، اللهم خالف بين كلمتهم وألق فى قلوبهم الرعب .

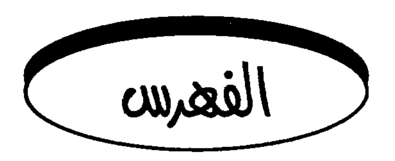
اللهم دبرلنا فإنا لا نحسن التدبير، اللهم من أرادنا وأراد الإسلام والمسلمين بسوء فأشغله بنفسه، ورد كيده إلى نحره وأجعل تدبيره تدميره يا سميع الدعاء .اللهم أنج المسلمين المستضعفين فى كل مكان، وأنزل بأعدائهم رجزك وعذابك الذى لا يُرد عن القوم المجرمين .

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

كتبه

سعيد عبد العظيم





الموضـــوع	الصفحة

الفَارُوق الحَدِيثَة للطِّبَاعَة والنَّشر هاتف: ٤٣٠٧٥٢٦-٢٠٥٥٦٨٨ القاهرة

قصص القرآن عظات وعبر

تشمل

قصة أهل الكهف

قصة أصحاب الأخدود

قصة صاحب الجنتين

قصة ذي النون عليه السلام

قصة سليمان عليه السلام

قصة نوح عليه السلام

قصة صاحب يس

قصة قوم لوط

قصة ذي القرنين ويأجوج و مأجوج

قصة يوسف عليه السلام　　قصة موسى والخضر

قصة مؤمن آل فرعون　　قصة أصحاب الأيكة

دكتور

سعيد عبد العظيم

